خلاصة تاريخ كرد وكردستان

الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي

الجزء الثاني

ترجمة: محمد علي عوني

خلاصة
تاريخ الكرد وكردستان

تاريخ الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي

وضعه باللغة الكردية

العلامة المفضال معالي محمد أمين زكي بك

الوزير العراقي السابق

ترجمه وعلّق عليه وراجعه

الأستاذ محمد علي عوني

الجزء الثاني

ترجمة

العلامة المفضال معالي محمد أمين زكي

(وزير الاقتصاد والمواصلات سابقاً)

ولد المؤلف ــ رحمه الله ــ سنة (١٨٨٠ م ١٢٩٧ هـ) في قصبة السليمانية. وأبوه الحاج (عبد الرحمن) من سكان محلة (كويثرة) الواقعة في الجهة الشرقية من المدينة المذكورة. كانت دراسة المؤلف الأولية في مدرسة (ملا عبد العزيز) التي كان التدريس فيها باللغة الفارسية حينذاك، ثم انتقل سنة (١٨٩٢ م) إلى المدرسة الابتدائية الرسمية الوحيدة، ودرس فيها سنة كاملة انتقل بعدها إلى الصف الثاني من مدرسة الرشدية العسكرية التي فتحت أبوابها سنة (١٨٩٣ م) وبعد إكمال دراسته في المدرسة المذكورة انتقل سنة (١٨٩٦ م) إلى الإعدادي العسكري ببغداد وبقي فيها ثلاث سنين، وانتقل بعدها إلى المدرسة الحربية في الأستانة، ومنها إلى مدرسة الأركان، حيث تخرج منها برتبة (رئيس ممتاز). وفي سنة (١٩٠٢ م) عين في الجيش السادس ببغداد، وفي السنة التي تليها انتسب إلى إدارة الأملاك السنية بوظيفة مهندس وبقي فيها حتى إعلان الدستور. وبناء على طلبه، نقل إلى الجيش الثاني (ومركزه أدرنة) وعند وصوله إلى الأستانة انتخب عضواً في لجنة الخرائط وباشر مع اللجنة في إحضار خريطة الأستانة وضواحيها (١٩٠٧ م ١٣٢٥ هـ) كما أنه اشترك في السنة التي تلتها مع لجنة تحديد الحدود بين تركيا وبلغارية بصفة ضابط طوبوغرافي وبقي في هذه اللجنة مدة سنتين، اشترك بعدهما مع لجنة خاصة لمدة سنة، في تحديد حدود الأتراك والروس بالقوقاس. وبعد نشوب حرب البلقان طلب نقله إلى جبهة الحرب. وتلبية لطلبه عين أركان حرب الفرقة الخامسة في جبهة (جتالجة) (١٩١٢ م ١٣٣٠ هـ). وفي السنة التالية أرسل مع هيئة من الضباط إلى فرنسا لدرس بعض المسائل العسكرية وبقي فيها زهاء سنة. وفي سنة (١٩١٤ م) عين للمرة الثانية في لجنة حدود الروس، وبعد إكمال التجديدات سافر مع اللجنة إلى مدينة (تفليس) وبعد بضعة أيام أعلنت الحرب بين الحكومتين العثمانية

والروسية. وبانقضاء شهر ونصف تمكن من العودة إلى الأستانة عن طريق السويد، ولم تمض مدة حتى عين لوظيفة أركان حرب في الفيلق الأول، واشتغل في هذه الوظيفة مدة واشترك في دورة الطيران في (أياستفانوس) لمدة ثلاثة أشهر. وفي السنة الثانية من الحرب العظمى (سبتمبر ١٩١٥ م) رفع إلى رتبة مقدم (بيكباشي) ونقل إلى أركان حربية الجيش في العراق، المسمى حينذاك (عراق وحواليسى عموم قومندانلغي) ووصل إلى مقر الجيش في (سلمان پاك – طيسفون) في ٢ تشرين الثاني من السنة نفسها. وفي (٨ تشرين الثاني ١٣٣١هـ – أي سنة ١٩١٥ م) دخل إلى صنف الأركان بأمر من رياسة الأركان العامة. وشغل وظيفة مدير الحركات في هذا الجيش إلى أن تشكل الجيش السادس في العراق. وقد اشترك في حرب (سلمان پاك) و(دهلابجة) و(شيخ سعد) و(كلال) وفي الحروب التي جرت في أطراف (كوت العمارة) ومحاصرتها. وعند تشكل الجيش السادس تحت قيادة (خليل باشا) عين مديراً لشعبة الاستخبارات. وبعد سقوط (بغداد) رجع مع قيادة الجيش إلى الموصل. وبعد مدة ذهب بالإجازة إلى الأستانة. وقد عين في (١ تموز – يوليو ١٩١٧) معاوناً لرئيس أركان الحرب في الجيش السابع تحت قيادة (مصطفى كمال باشا) فذهب مع الجيش إلى حلب. وبعد انفصال قائد الجيش وتعيين (فوزي باشا) لقيادة الجيش السابع توجه مع الجيش إلى جبهة فلسطين، ووصل إلى (خليل الرحمن) في (٢٨ تشرين الأول – أكتوبر ١٩١٧ م) واشترك في المعارك التي جرت في جهات (خليل الرحمن) و (القدس) و (نابلس) وبقي في هذه الجبهة حتى (أيلول – سبتمبر ١٩١٨ م) حيث نقل إلى الجيش الثالث الكائن في جبهة القوقاس، والتحق به في الأستانة في (٢٠ تشرين الأول). وفي نهاية ا لسنة المذكورة نقل إلى شعبة (تاريخ حرب). وبغض النظر عن بعض الفترات بقي في هذه الشعبة حتى عودته إلى العراق في (٢٤ تموز – يوليو سنة ١٩٢٤ م).

وقد نال أثناء وجوده في جبهة العراق ميدالية حرب في (٢١ نيسان ١٣٣٢ أي ١٩١٦) ونوط الجدارة الفضي (١٣ شباط سنة ١٣٣٢ أي ١٩١٦) ونوط الصليب الحديدي الألماني من الدرجة الثانية في (كانون الثاني ١٣٣٣ أي ١٩١٧م). وفي فلسطين نال ميدالية نوط الصليب من الدرجة الأولى (١ مارت

١٩١٨ م) وطلب له مصطفى كمال باشا الذي تولى قيادة الجيش السابع للمرة الثانية ميدالية الامتياز الفضي والترقية إلى رتبة (العقيد) وميدالية حرب لحكومة النمسة (في تشرين الأول ١٩١٧) هذا ومن آثاره في الجيش التركي:

(١) ـــ عثمانلي أردوسي (الجيش العثماني) طبع ببغداد سنة ١٣٢٤.

(٢) ـــ عثمانلي اسفاري حقندة تدقيقات (دراسة الحروب العثمانية) طبع في الأستانة سنة ١٣٣٦.

(٣) ـــ عراقي نصل غائب ايتدك (كيف فقدنا العراق) طبع في الأستانة سنة ١٣٣٦.

(٤) ـــ حرب عموميده عثمانلي جبهة لري وقايعي (معارك ووقائع ساحات القتال العثمانية في الحرب العالمية) مطبوع في العراق سنة ١٣٣٧.

(٥) ـــ عراق سفري وخطالرمز (الحروب والمعارك العراقية وأخطاؤنا) طبع في الأستانة سنة ١٣٣٧.

(٦) ـــ سلمان باك ميدان محاربةسي وذيلي (معركة طيسفون مع الذيل) طبع في الأستانة سنة ١٣٣٨.

(٧) ـــ بغداد وصوك حادثة ضياعي (بغداد وحادث فقدها الأخير) طبع في الأستانة سنة ١٣٣٩.

(٨) ـــ عراق تاريخ حرب مختصري (مختصر تاريخ حرب العراق) طبع قسم منه في الأستانة سنة ١٣٣٩.

وله بضعة كتب أخرى لم تطبع بعد. ومن جملتها كتاب «كوت الإمارة هجوم محاصرةسي» (الهجوم على كوت العمارة ومحاصرتها) الذي هو عبارة عن مجلدين أهداهما إلى شعبة تاريخ الحرب في (لندن).

وبعد عودته إلى العراق ببضعة أيام عين مدرساً في المدرسة العسكرية وبعد اجتيازه الامتحان ونجاحه فيه، دخل الجيش العراقي وفي نهاية سنة (١٩٢٤) عين آمراً للمدرسة العسكرية ودار التدريس برتبة (عقيد ـــ ميرالاي). وفي (٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٢٥ م) أصبح وزيراً للأشغال والمواصلات واستمر في هذا المنصب في وزارتي عبد المحسن بك السعدون وجعفر باشا العسكري حتى منتصف سنة (١٩٢٧ م) وفي ٦ آب (أغسطس) من هذه السنة

أصبح وزيرا للمعارف حتى (١٨ كانون الثاني سنة ١٩٢٨) حيث انفصل من المعارف وبعد خمسة أشهر انتخب نائبا عن السليمانية. وفي (٢٨ نيسان ١٩٢٩ م) أصبح وزيرا للدفاع وفي (١٩ أيلول) من السنة المذكورة عين وزيرا للأشغال والمواصلات وفي (١٤ تشرين الثاني) من السنة نفسها انفصل منها وبعد أربعة أيام عين للمرة الرابعة وزيرا في الوزارة نفسها حيث انفصل منها بتاريخ (٢٢ مارت ١٩٣٠) إلى أن عين في (٢ تموز سنة ١٩٣١) وزيرا للاقتصاد والمواصلات في وزارة نوري السعيد الأولى والثانية. وفي (٢ تشرين الثاني ١٩٣٢) انفصل من الوزارة حتى عين بتاريخ (٢٥ مارت سنة ١٩٣٣) مديرا لوزارة الاقتصاد والمواصلات، وفي (١٢ أيلول) من هذه السنة عين مديرا عاما للري لمدة قصيرة حيث عاد بعدها إلى منصبه السابق وكان انفصاله منه في (١٨ أيلول ١٩٣٤) وقد عين وزيرا للاقتصاد والمواصلات في (٣ مارس سنة ١٩٣٥) وفي ١٦ آذار، من السنة عينها، انفصل عن الوزارة وذلك باستقالة الوزارة المدفعية الثالثة. وفي عين التاريخ أعيد تعيينه للمرة الثامنة لوزارة الاقتصاد والمواصلات في الوزارة الهاشمية الثالثة وانفصل عن منصبه عند استقالة الوزارة تحت الضغط العسكري في (٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦ م) وانتخب نائبا عن لواء السليمانية في (٢٢ كانون الأول ١٩٣٧) وخلال المدة الأخيرة ألف مجلدين عن تاريخ الكرد وكردستان سماهما: (خلاصهيه كي تاريخي كورد وكوردستان) نشر المجلد الأول منهما سنة (١٩٣١ م) والثاني في (١٩٣٧) كما أنه كتب كتابين آخرين أحدهما (مشاهير الأكراد) والآخر (تاريخ السليمانية وولاتها). وصدر الأول بالكردية سنة ١٩٣٩ ببغداد. وتوفي ببغداد في التاسع من شهر تموز عام ١٩٤٨ ونقل جثمانه إلى مسقط رأسه مدينة السليمانية حيث شيع من قبل أهالي المدينة بموكب مهيب، يليق بمقامه الاجتماعي الكبير والعلمي والتاريخي.

ترجمة أحوال المرحوم محمد علي عوني
مترجم هذا الكتاب إلى العربية

بقلم الأستاذ: نجم الدين عوني

ولد المرحوم محمد علي عوني – مترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية – في مدينة (سورك) من أعمال ديار بكر في كردستان التركية عام ١٨٩٧، وهو ابن الحاج عبد القادر أفندي عوني السوركي ابن محمد علي آغا المعروف بـ (لاج حني) زعيم الزازاء – الدنبلي. أكمل دراسته الابتدائية والثانوية في معاهد تركيا ثم تابع فيها علومه الدينية. ولم يقنع بما حصل عليه من ثقافة عالية صقلها محيط عائلته حيث ترعرع ونشأ في وسط علمي ديني، إذ كان والده مفتياً في (سورك)، فسافر إلى القاهرة لينضم إلى (الأزهر الشريف) للحصول على شهادة عالية. وقد برهن محمد علي عوني – رحمه الله – أنه الطالب المجد الحريص على استكمال عدته للحياة ومستلزماتها. فنال الشهادة في مدة ست سنوات بدلاً من اثنتي عشرة، وهي المدة المقررة عادة لطلاب الأزهر الشريف. وهكذا أثبت بجدارة أنه أهل لولوج معترك الحياة والنضال في سبيل العقيدة الرصينة التي كانت تمتلك حياته وتجيش في نفسه.

واصل الفقيد محمد علي عوني بعناد وإباء كفاحه من أجل عقيدته التي كان يحيا من أجلها ويفنى في سبيلها، تلك هي القضية الكردية التي امتزجت باللبن الذي رضعه وهو طفل ونبت مع نمو عوده وإدراكه ونضوجه حتى أصبحت (اللازمة) التي تلازمه في كل صفحة من صفحات حياته الحافلة المجيدة، حتى برز اسمه في كل دنيا الأكراد وكان المستعمرون يحسبون له الحساب.

وعندما حاول العودة إلى تركيا بعد أن أكمل دراسته العالية في القاهرة وقفت السلطات التركية دون دخوله الأراضي التركية لاعتقادها بأنها ستحارب بذلك العقيدة الكردية التي كان يناضل من أجلها.

اضطر محمد علي عوني – رحمه الله – إلى البقاء في القاهرة وعندما أعلن عن حاجة (الديوان الملكي) إلى مترجم للغات الشرقية، تقدم الفقيد إلى

الامتحان مع زمرة من الممتحنين، فكان الأول بينهم واحتل الوظيفة الحساسة الشاغرة. كما عهدت إليه مهمة الإشراف على مكتبة القصر الملكي في القاهرة بالإضافة إلى المسؤولية الكبرى التي ألقيت على عاتقه في حفظ الفرمانات والوثائق التاريخية الرسمية التي يرجع تاريخها إلى عهد محمد علي.

إن مجال وظيفته هذه فضلاً عن اتصالاته الواسعة بالمستشرقين والعلماء من شتى أنحاء العالم قد مكنه من توسيع أفق معلوماته عن القضية الكردية فجمع دراسات قيمة أضافها إلى ما كان قد اختزنه من معلومات حتى أصبح في مدى أعوام قلائل حجة في التاريخ الكردي والمسألة الكردية.

ومع انهماكه هذا فإنه لم يأل جهداً في بذل نشاطه في حقل الحركة السياسية فكان من مؤسسي جمعية (خويبون) الكردية في القاهرة وسوريا وأنحاء كردستان الشاسعة بالاشتراك مع رؤساء عائلة بدرخان المناضلين.

قام المرحوم محمد علي عوني بعدة زيارات استطلاعية إلى أنحاء مختلفة من أوربا للاتصال بشتى الجهات المعنية بالقضية الكردية، وخاصة العناصر المثقفة. وفي القاهرة كانت داره البسيطة محجاً يحج إليه الطلاب الأكراد ليتزودوا منه العون والإرشاد. فكان نعم المرشد.

وضع الفقيد مؤلفات عدة ونشر مقالات لا تعد ولا تحصى في حقل القضية الكردية.

بذل الفقيد اهتمامه الكبير في مشروع جليل كان الأول من نوعه وهو ترجمة الشرفنامه الفارسية إلى اللغة العربية فتناول طبعتها الأوروبية وأعاد طبعها بعد أن وضع لها مقدمة هي ترجمة مقدمة الطبعة الأوروبية، كما وضع مقدمة ثانية بالعربية أيضاً تعتبر بحد ذاتها مؤلفاً قائماً بذاته. أما ترجمته للشرفنامه فقد بقيت مخطوطة وعندما وافاه الأجل قامت وزارة التعليم والتربية المصرية بطبع الجزء الأول منها أما الجزء الثاني فهو الآن تحت الطبع.

وقد ترجم الفقيد (خلاصة تاريخ الكرد وكردستان) لمؤلفه العلامة المرحوم محمد أمين زكي، وذلك من اللغة الكردية إلى اللغة العربية، فظهرت الترجمة بمجلدين يعتبران مصدراً تاريخياً أساسياً للمسألة الكردية تأريخاً وسياسة واجتماعاً. ويتناول المجلد الثاني – الذي بين أيدينا – تاريخ الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي، طبع بالقاهرة عام ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م. أما المجلد

مترجم الكتاب

الأستاذ الراحل محمد علي عوني

الأول فيبحث في خلاصة تأريخ كرد وكردستان فقد نشره عام ١٩٣٩ بعد مراجعة علمية دقيقة وإخراجه بحلة عربية قشيبة.

هذه أهم مؤلفات الفقيد المرحوم محمد علي عوني، ولم نشر إلى عشرات المقالات والكراسات التي تبحث في شتى نواحي اختصاصه إذ لا بد وسيأتي اليوم الذي تتناول أيدي المخلصين، من أبناء الأكراد الغيارى، هذه المآثر فتجمعها خشية الضياع.

كان رحمه الله حجة في فك رموز الخطوط التاريخية لتضلعه الواسع في اللغات قديمها وحديثها، واستعان به العلماء في حل كثير من المعضلات التاريخية.

لقد كان مجال تفكير الفقيد واسعاً رحباً، لم يثنه عن توجيه اهتمامه إلى نواحي أخرى من حياته. فكان يبذل نشاطاً في كل ما له علاقة من قريب أو بعيد بما كان هدفه الأصلي وله في ذلك عدة مآثر منها أنه وضع رسالة عن العائلة التيمورية في مصر، وهي العائلة الكردية الكبيرة التي لها مركزها الاجتماعي والسياسي.

تزوج المرحوم محمد علي عوني وهو في نهاية العقد الرابع من عمره وأنجب ثلاثة أولاد، ابنان وبنت عمل على تربيتهم ونشأتهم تربية قومية وتوفاه الله في القاهرة عام ١٩٥٢ عن عمر يناهز الخامسة والخمسين. ففقد الشعب الكردي بوفاته أحد أبنائه البررة العظام المناضلين بصمت وتواضع في سبيل تحقيق ما يصبو إليه من حياة حرة كريمة.

السلطان صلاح الدين بطل الإسلام والكرد

هذه الصورة وصورة «كريم خان» مأخوذتان من (روژ كرد) المجلة الكردية الشهرية الصادرة في إستانبول سنة (١٩١٣ م). وقد دل البحث على أن الأصل في صور صلاح الدين المشهورة في أرجاء العالم حتى الآن هو ما نقل من كتاب روسي مأخوذ من دير قديم بمصر. ويدل البيتان الآتيان لحكيم الزمان عبد المنعم الأندلسي الذي هبط مصر في عهد صلاح الدين فنظم القصائد في مدحه، على أن المسيحيين في ذلك العهد رسموه ووضعوا رسمه في الكنائس؟

فحطوا أرجاء الكنائس صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم
يدين لها قس ويرقى بوصفها ويكتبه يشفى به في التمائم

(راجع ص ٢٣٣ من هذا الكتاب ص ٢٠ من كتاب حياة صلاح الدين).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الناس أحرارا وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا، فيتآزروا في سبيل تحقيق المثل الأعلى من الحرية والاستقلال للجميع؛ حتى يتسنى لهم الوصول إلى السعادة التي ينشدونها في معاشهم ومعادهم. والصلاة والسلام على سيدنا (محمد) المرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً. والقائل: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» رافعاً بذلك ألوية الإخاء بينهم ومذكراً أنهم سواسية في جميع الحقوق والواجبات، وأن لا تفاضل بين شعوبهم المختلفة وأقوامهم العديدة إلا بالتسابق إلى الغايات الحميدة والأغراض النبيلة.

(أما بعد) فإني حينما انتهيت من ترجمة المجلد الأول من كتاب (خلاصة تاريخ الكرد وكردستان) لمؤلفه المفضال معالي محمد أمين زكي، الوزير العراقي السابق، أصدرته بعد مراجعة علمية دقيقة في حلة عربية قشيبة في أواخر سنة ١٩٣٩، اشتعل أوار الحرب العالمية الثانية. فحالت ظروفها بيني وبين مواصلة الجهود لتعريب المجلد الثاني من هذا الكتاب القيم، لكي تتم بذلك ترجمة سلسلة التاريخ القومي للأمة الكردية في مختلف العصور كما أراده المؤلف. ولما رأيت أن أيام هذه الحرب الضروس قد طالت لا يعرف لها مدى ولا آخر، عاودتني الرغبة وجذبني الشوق إلى استئناف العمل الشاق الذي أخذت نفسي به. فواصلته حتى أتممت الترجمة واتخذتها أساساً للبحث والتنقيب لإصدار المجلد الآخر الذي يتضمن تفاصيل وقائع وحوادث (الدول والحكومات الكردية) التي قامت بأنحاء كردستان في مختلف الأدوار في العهد الإسلامي.

ولقد شرعت في ذلك مستعيناً بالله من سنة ١٩٤٢ حتى سنة ١٩٤٥. حيث عكفت على العمل في تلك الأيام والليالي الرهيبة التي كانت تشن فيها الغارات الجوية على مصرنا المحبوبة ــ وقاها الله شر ذلك اليوم ــ فتمطرها بوابل من القنابل والطرابيد. فكان لي في ذلك العمل المضني أعظم سلوى وأكبر لذة تصرفني عن الإحساس بوطأة تلك الأيام العصيبة وأثرها الفعال في النفوس والأعصاب. إذ لم أدر كيف مضت وانقضت تلك الأعوام الأربعة من عمري البالغ الآن واحد وخمسين ربيعاً. وما ذلك إلا لأني كنت غارقاً في لجة البحث وخضم التنقيب، عن النصوص والنقول، للتأكد من الوقائع والحوادث

واستخراجها من بطون مصادر التاريخ الإسلامي من عربية وفارسية وتركية وكردية، سالكاً، في ذلك، المنهج الذي اتبعته في ترجمة المجلد الأول ومراجعته. كما هو مفصل في كلمتي المصدر بها ذلك الكتاب، فلا أعيد شرح ذلك هنا مرة أخرى، بل أكتفي بأن أعرض على النابهين من القراء المشغوفين بالبحث والتمحيص، أني قد تصرفت كثيراً في أسلوب الأصل وطريقة سرده للحوادث حذفاً وإضافة، وفي ترتيبه للحكومات والإمارات، حيث لم يكن مرتباً ترتيباً تاريخياً. وإني ما أقدمت على ذلك إلا ليظهر تسلسل الحوادث والوقائع واضحاً. ويعرف مدى نشاط هذه الأمة التي عاشت القرون والدهور محتفظة بقواها الذاتية وسجاياها القومية، تتمتع بسيادتها الداخلية بين تلك الإمبراطوريات الجبارة، والإغارات المدمرة التي كانت توزع يميناً وشمالاً. وإن كان تمتعها ذلك على شكل حكومات ودول عديدة، وإمارات وإدارات متنوعة، من غير أن تتاح لها الفرصة لإنشاء وحدة وطنية سياسية تشمل جميل أجزاء كردستان المقسم والممزق بين الإمبراطوريات في مختلف العصور.

هذا وقد قسمت الكتاب مثل الأصل إلى قسمين، ومقدمة في الحكومات القديمة الوثيقة الصلة بشعوب وأقوام الأمة الكردية الحالية. فسميت القسم الأول (الباب الأول في الحكومات الكردية في العهد الإسلامي) وهو في أربعة عشر فصلاً، حيث عقدت لكل حكومة فصلاً، وسميت القسم الثاني (الباب الثاني في الإمارات الكردية في العهد الإسلامي) وهو في سبع مجموعات. يحتوي كلها على خمس وثلاثين إمارة وشبه إمارة. قامت معظم هذه الحكومات والإمارات، في أنحاء كردستان نفسه، وقليل منها قد ظهر في خارجه من البلاد المجاورة التي نقل إليها الكرد أو انتقلوا بأنفسهم، في مناسبات أليمة مختلفة، كشرقي إيران وجبل لبنان وبلوجستان وفارس.

وكل من ألقى نظرة إمعان، وتدبر، بعيداً عن التعصب والهوى، إلى نشوء هذه الحكومات الوطنية والإمارات القومية المحلية وتطورها، يرى أن الأمة الكردية المنبثة، بشعوبها الأصلية والأساسية من اللر والكلهر والكرمانج والكوران، في البلاد الممتدة من جبال القوقاس إلى الخليج الفارسي، ومن جبال زاغروس وألوند إلى جبال توروس وخليج إسكندرونة، لم تحافظ فقط من فجر التاريخ على كيانها الطبيعي وأكثريتها الساحقة ومميزاتها القومية من لغة

وعادات وتقاليد وطباع وسجايا ووحدة شعور وأزياء، بل أبدت نشـــاطاً سياســياً كبيراً بمساهمتها في أغلب الحوادث التاريخية الكبرى التي اجتاحت بلاد الشرقين الأدنى والأوسط في مختلف العصور والأدوار. حيث وفقـــت إلـــى إقامـــة دول وحكومات وإنشاء إمارات محلية، وإدارات وطنية، آلت أخيراً بغدر الزمان إلـــى منظمات محلية ومؤسسات قومية متواضعة، كالعشيرة والقبيلة والمشيخة ـــ ولـــو أن هذه التقسيمات الاجتماعية تخالف مثيلتها في الأمم الأخـــرى ـــ فـــي جميـــع أنحاء تلك البلاد التي أطلق عليها لفظ «كردستان» منذ العصور الوسطى للإسلام للدلالة على أنها مسكن ومأوى الشعوب الكردية من القديم بأكثريتـــها القـــاهرة. وبالرغم من أن استيلاء الإمبراطوريات على هذه البلاد التعســـة كـــان للعـــهد القريب اسمياً، فقد أنتج ذلك وغيره من الأسباب عدم سنوح الفرصة، لها، لكـــي تتمكن من إيجاد وحدة سياسية تشمل جميع الأقسام من كردستان، أو أن تنشـــيء لها إدارة محلية موحدة تنتظم جميع الشعوب والشيع التي انقسمت إليـــها الأمـــة الكردية، لعوامل وأسباب عديدة خارجة عن طوقـــها مـــن طبيعيـــة وجغرافيـــة وسياسية ودينية ثقافية، وغيرها من الأسباب التي ولدت على مدى الأيام، فقـــدان الشعور بالوحدة اللغوية والثقافية والعمل على توطيدها وتعميمـــها فـــي جميـــع الجهات والأقسام من كردستان.

ومن أشد الأسف أن هذه الحال قد حفزت بعض المغرضين إلـــى الانـــزلاق في ميدان المين والافتراء، وجعلتهم يتخيلون خيالات باطلة حتى زعمـــوا ـــ لا عن عقيدة وإيمان بل عن تمويه وبهتان ـــ أن ليس هنالك أمة كرديـــة وشـــعب كردي ينطق بلغة واحدة، له ميول واحدة وهو ذو شعور قومي واحد، وأن هـــذه الكتل البشرية ما هي إلا مجموعات متنافرة من القبائل والجماعات فأباحوا بذلـــك لأنفسهم القول بأن الأجدر بالكردي، والأحرى به، أن يتنازل عن قوميته ويـــهمل مشخصاته فيندمج في بقايا الأمم ممن تساكنها اليوم وتحكمها في بلادها.

وهكذا خلقوا بادعائهم الجريء وزعمهم الغادر، المتاعب والصعاب لأنفســهم وللشعب الكردي الآمن في بلاده منذ أيام (نوح) عليه وعلى نبينا الســـلام. فنشـــأ من ذلك سوء تفاهم وحزازات لا يزول أثرها مدى الدهر، بسبب ما أريـــق مـــن الدماء وانتهب من الأموال والثروات، وما دمر من القرى والبلاد. ومـــا مبعـــث ذلك ـــ على ما أظن ـــ إلا الجـــهل بـــأحوال البـــلاد وتاريخـــها وجغرافيتـــها

وخصائص الشعب الكردي من النخوة والشهامة والتمسك بلغتـــه وبـــلاد آبائـــه وأجداده من فجر التاريخ. بل والتجاهل والاستهتار بحقيقة مطلب الأمة الكرديـــة وأمانيها الشعبية التي هي في الوقت نفسه ضرورة من ضرورات حيـــاة الأمـــم، وما هي إلا إطلاق الحرية للثقافة العامة باللغة القومية، حتى يقبل الشعب علـــى التعليم المدني بكل شغف وإخلاص، فبذلك فقط يحل الوئام والسلام محل الـــنزاع والخصام، وكفى الله المؤمنين القتال.

القاهرة: ٢٦ ربيع الثاني سنة ١٣٦٧

٧ مارس سنة ١٩٤٨

محمد علي عوني

مقدمة

في حكومات الشعوب القديمة
الوثيقة الصلة بأصل الأمة الكردية

ذكرنا في «المجلد الأول» من تاريخنا (خلاصة تاريخ الكرد وكردستان) أن المؤرخين وعلماء الآثار قد استدلوا بعد دراستهم للآثار والوثائق المكتشفة حتى الآن، على أن هنالك صلة وثيقة متصلة الحلقات بين بعض شعوب منطقة جبال «زاغروس» وأصل الأمة الكردية، وأن هذه الصلة لو أمعن النظر في دراستها دراسة علمية منزهة عن الهوى والتعصب، لاتضح أنها ليست بأقل من صلة كل من شعبي الأكاد والعموري بالعرب، ولا من الصلة بين شعب الهون والأمة التركية.

ولا أظن أن هنالك معترضاً علينا، إذا ما اقتفينا أثر رجال هاتين الأمتين واتجهنا قبلتهم، فسرنا على نهجهم في بعث تاريخنا القديم. لا سيما أننا في هذا المجال لا نهدف من إحياء تاريخ عريق في القدم بشتى الوسائل، وإنما الغرض هو مجرد عرض بعض آراء المؤرخين وعلماء الآثار على أنظار القراء.

ومع ذلك يجب أن نعترف بأن منابع التاريخ القديم للشعوب الكردية لا يزال يخيم عليها حجب كثيفة من ظلام دامس؛ كما هو الحال بالنسبة للأمم الأخرى، ولذلك فهي تتطلب منا جهداً متواصلاً، وسعياً حثيثاً، وعملاً دائباً حتى تبزغ بزوغ الشمس للعيان.

وكما أن هذه الحالة لم تصرف الآخرين عن البحث في أصول تاريخهم القديم لتعرف الأحوال وتبيان المناسبات، وجلاء حقيقة الصلات والروابط بين الأقوام القديمة وأصول أممهم الحالية، فكذلك يجب ألا تمنعنا نحن الآخرين أو تقف حجر عثرة في سبيل اقتدائنا بهؤلاء الرجال في التنقيب والبحث في أصول التاريخ القديم؛ بل ينبغي أن نجعل من هذه البحوث الخاصة بتاريخ تلك الأقوام

القديمة ــ وقد أثبتت الوثائق إثباتاً قاطعاً بأنها وثيقة الصلة بالأمة الكردية ــ مقدمة لهذا الكتاب.

ولقد أتينا في «المجلد الأول» بمجمل عن الشعوب القديمة الوثيقة الصلة بالأمة الكردية، والآن نتحدث هنا في «المجلد الثاني» على ضوء ما لدينا وتحت أيدينا من الوثائق والآثار المكتشفة، عن التشكيلات السياسية وأعني بها الحكومات التي أقامتها هذه الشعوب، وعمرت طويلاً في مختلف عصور التاريخ القديم.

١ـ حكومة لوللو = لولي

مما يؤسف له أن التاريخ لا يحمل بين طياته حتى الآن شيئاً شافياً، يستحق الذكر عن هذه الحكومة ومدى نفوذها وحدودها الجغرافية، وإن كانت دراسة الوثائق التي يرجع تاريخها إلى عهدي «سرجون» و «نرام سن» الأكاديين تلقي شعاعاً على هذا الغموض، إذ تدل على أن حدود هذه الحكومة كانت متاخمة لبلاد «آررافا = كركوك الحالية» وبلاد «الكاسيين». وعلى هذا الأساس تكون منطقة لواء السليمانية الحالية ونواحي «هورين ــ شيخان» و «خوراتو» ومنطقة «زهاو = هالمان»، من بلاد الــ «لوللو» القديمة.

هذا وكان الشعب اللوللوي يؤلف مع قسم من الشعب الجوتي حكومة مستقلة يرى بعض المؤرخين أن مركزها كان (زيمرى)، ولكن الأستاذ «سبايزر» يقول إن مركزها كان (آراكدى) وأن الملك اللوللوي المسمى «آننوبانيني» قد استولى على بلاد (هالمان = آرمان) في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد، وذكر المستر «هول» في كتابه (تاريخ الشرق الأدنى القديم) أن ملكاً يدعى (لاسيراب) قد خلف «آننوبانيني» على عرش بلاد «لوللو» فيظهر أن الملك (سرجون)[١] الأكادي قد اجتاح بلاد «لوللو» في عهد هذا الملك، وقد ظلت حكومة اللولو قائمة مستقرة حتى عهد (شلمنصر) الثالث الآشوري حيث اجتاحها أخيراً الجيش الآشوري عام (٨٢٨ ق.م) تقريباً.

---

[١] ـ أول ملك من ملوك السلالة الأكدية (٢٥٥٠ ــ ٢٣٣٢ ق.م) دام حكمه ٥٥ سنة. (دليل المتحف العراقي ص ٤٨) بغداد سنة ١٩٤٣. المترجم.

٢ ـ حكومة الجوتي (الكوتي = الجودي)

إن تاريخ هذه الحكومة تفصيلاً مجهول لنا تماماً، والظاهر أن هذا الشعب كان يستوطن أطراف نهر (زيى كويه = الزاب الصغير) ثم أخذ يزحف رويداً رويداً نحو الجنوب إلى أسفل حتى غزا بلاد «آكاد» و«سومر»، بعد وفاة (شاركالى شاررى) خلف (نرام سن) في أواسط القرن السادس والعشرين تقريباً قبل الميلاد، وذلك بعد قتال عنيف ونضال مرير، مع الأكاديين والسومريين، حتى أخضعهم لحكمه تمام الإخضاع.

وقد دون في جدول ملكي كشف في مدينة (نيبور) القديمة أن واحداً وعشرين ملكاً جوتياً حكموا ١٢٥ سنة وأربعين يوماً في (بابل)، وأن أحدهم المدعو (أنرى دابيرز = Enridapirzi) كان بنوع خاص، عظيم الشأن، عريض النفوذ، حيث استطاع أن يبسط سلطانه على بلدان ليست بأقل اتساعاً من المناطق والبقاع التي كانت خاضعة لنفوذ «نارام سن»... ولكن ضعف آخر ملوكهم أطمع الأعداء فيهم، وحرك الغزاة على ديارهم. إذ انتهز ملك «ئـه ريـخ = أرك = الوركاء» الشهير المدعو «أتوخيجال = Utukhegal» السمري هذه الفرصة الذهبية ودحر آخر ملوك جوتى في بابل وقضى عليه، وأخرج الجوتيين من آكاد، وأسس حكومة بابلية جديدة[١] على أنقاض حكومة الجوتيين عام (٢٢٨٢ ق.م.).

بعد ذلك عاد الشعب الجوتي إلى موطنه الأصلي في منطقة الزاب الصغير و (كركوك = آرابخا) حيث لم تقم لهم بعد ذلك قائمة ولم تشرق لهم نهضة سياسية ظاهرة[٢].

---

[١] – ولعلها سلالة الوركاء الخامسة التي أسسها اتوخيجال سنة ٢٢٨٢ ق.م..

[٢] – ورد في دليل المتحف العراقي ص ٤٨ ما يأتي: (سلالة الكوتيين) (حوالي سنة ٢٣٧٠ ـــ سنة ٢٢٨٢ ق.م): (١) أمبيا ٣ سنوات .(٢) أنكيشو ٦ سنوات. (٣) نكل لجاب ٦ سنوات. (٤) شلمى ٦ سنوات. (٥) ألولومش ٦ سنوات. (٦) أنى مابكش ٥ سنوات. (٧) أجيشوشى ٦ سنوات. (٨) إيارلجب ١٥ سنة. (٩) أمباته ٣ سنوات. (١٠) أيارلجش ٣ سنوات. (١١) كورم ١ سنة. (١٢) ... ٣ سنوات. (١٣) ... ٢ سنوات. (١٤) إرارم ٢ سنوات. (١٥) إبرانم ١ سنة. (١٦) خابلم ٢ سنوات. (١٧) بوزرسن (ابن) ٧ سنوات. (١٨) أيارلجندا ٧ سنوات. (١٩) لاسراب ٧ سنوات. (٢٠) تريكان ٤٠ يوماً. المترجم.

٣- حكومة الكاسيين (كسو = كشو)[١]:

لما أخذ الضعف والانحلال ينخران في عظام حكومة الساميين (العموريين) في بابل ودب دبيبه في عهد الملك الحادي عشر السامي المدعو (سمسوديتانا) آخر ملوك هذه الأسرة، تحرك الشعب الخاتي (Khatty) أي الحيثي، وشن هجوماً عنيفاً على مملكة بابل، أسفر عن قضاء مبرم على الأسرة الأولى التي حكمت بابل، ألا وهي الحكومة العمورية (عام ١٩٢٦ ق.م).

وفي رواية لبعض المؤرخين أن الحيثيين لم يحطوا رحالهم في بابل، بل جلوا عنها، وغادروها بعد تدميرها، وقفلوا راجعين أدراجهم إلى بلادهم بغربي الفرات، فأعقب ذلك قيام حكومة وطنية في بابل عمرت قرناً ونصف قرن من الزمن، حيث أغار الكاسيون على بابل، وما لبثوا أن اجتاحوها واستولوا عليها في عام (١٧٦٠ ق.م)، وليتهم وقفوا عند هذا الحد بل شنوا غارة أخرى على البلاد الساحلية (القطر البحري) من مملكة «سومر» في (عام ١٧١٠ ق.م).

---

[١] - تطلق المؤلفات التاريخية القديمة اسم الأسرة الثالثة في بابل على حكومة الكاسيين، واسم الأسرة الأولى التي حكمت بابل من عام ٢٢٢٥ حتى عام ١٩٢٦ ق.م. على حكومة العموريين، وأن الملك «حمورابي» الشهير هو سادس ملوك هذه الأسرة الأولى، وأن عدة حكومات مستقلة كانت تقوم بمدن «سومر» في هذا العهد، وقد اعتبرت في مجموعها أسرة ثانية من الأسرة الملكية. المؤلف.

وورد عن الكاسيين في نفس المصدر ص ٥١: (سلالة بابل) (الكاشيون ١٧٤٦ ـ ١٦٦٩ أو ١٧٥٠ ـ ١١٧٠): (١) جنداش. (٢) أجم الأول. (٣) كاشتلياش الأول أوشى.. أبي رتاش. كاشتلياش الثاني.. تازيجرماش.. خربايـ شباك أجم الثاني (١٥٩٨ ـ ١٥٧٩) كوريجالزو الأول (١٥٧٨ ـ ١٥٦٠) مليشباك الأول (١٥٥٩ ـ ١٥٤١) نازيمرتاش (١٥٤٠ ـ ١٥٢٢) يرنابرياش الأول (١٥٢١ ـ ١٥٠٣) كاشتلياش الثالث (١٥٠٢ ـ ١٤٨٤) أجم الثالث (١٤٨٣ ـ ١٤٦٥) كره أنداش الأول (١٤٤٥ ـ ١٤٢٧) كدشمان حربي الأول (١٤٢٦ ـ ١٤٠٨) كوريجالزو الثاني (١٤٠٧ ـ ١٣٨٩) كدشمان ـ أنليل الأول (١٣٨٨ ـ ١٣٧٠) برنابرياش الثاني (١٣٦٩ ـ ١٣٦٨) كره انداش الثاني (١٣٦٧ ـ ١٣٥٥) كدشمان حربي (١٣٥٥ ـ ١٣٤٥) كوريجالزو الثالث (١٣٤٤ ـ ١٣٢٠) نازيمرتاش الثاني (١٣١٩ ـ ١٣٩٤) كدشمان ترجو (١٢٩٣ ـ ١٢٧٧) كدشمان انليل الثاني (١٢٧٦ ـ ١٢٧١) كودر ـ انليل (١٢٧٠ ـ ١٢٦٣) شجركتي شرياش (١٢٦٢ ـ ١٢٥٠) كاشتلياش الرابع (١٢٤٩ ـ ١٢٤٢) إنليل ـ نادن ـ شومى (١٢٤١ ـ ١٢٤٠) كدشمان حربي الثاني (١٢٤٠ ـ ١٢٣٩) أداد ـ شم ـ إدن (١٢٣٨ ـ ١٢٣٣) إداد ـ شم ـ ناصر (١٢٣٢ ـ ١٢٠٣) مليشباك الثاني (١٢٠٢ ـ ١١٨٨) مردخ أبال أدن الأول (١١٨٧ ـ ١١٧٥) زبابا ـ شم ـ إدن (١١٧٤) إنليل نادن ـ أخي (١١٧٣ ـ ١١٧١). اهـ. ـ المترجم.

وانتزعوها من بين براثن آخر ملوكها المدعو «ئى غاميل = Ea-Gamil»، ثـــم وحدوا بين (سومر) و (آكاد) فأصبحا مملكة واحدة تحمل اسم (كار ــ دونياش kar - Dunyiash)[1] وهو الاسم الذي أطلق على الحكومة الجديدة.

ونحن لسوء الحظ نفتقر إلى معلومات شافية عن عهد مؤسس هذه الحكومـــة وهو الملك (غانديش ــ Gandish) أو «غادداش» اللهم إلا كونه حكم ستة عشـــر عاماً. ويقول المستر «هول» في كتابه «تاريخ الشرق الأدنى القديـــم ص ١٩٩» إن (أولام بوريش ــ Ulam Buriash) الكاسي الذي انتزع البلاد الســـاحلية مـــن «ئى غاميل» السومري في عام (١٧١٠ ق.م)، هو ابـــن ملـــك بـــابل المدعـــو (بورنابورارياش ــ Burnaburariash) وأن (آكوم الثـــالث ــ Agum) الـــذي استولى على مدينة «دور ــ ئى Dur-ea» التي كانت آخر مدينة محصنـــة فـــي سومر، هو حفيد «أولام بورياش».

ويقول، أيضاً، في ص ٢٠٠: إنه على الرغم من قلة ما لدينا من معلومـــات وحقائق عن الكاسيين فمن المسلم به أن الملوك الذين خلفوا الملك «غانديش، هـــم كما يلي على التعاقب:

(«أوششي ــ Ushshi» و «أبي راتـــاش ــ Aby Ratash» و «تاششـــي ــ كورماش ــ Tashshigurmash» و «آكـــوم الثـــاني ــ Agum II» أو «آكـــوم كاكاريم».

وجاء في الجزء الأول من كتاب «التاريخ العام للمؤرخيـــن» ص ٣٢٨، أن الملك «آكوم كاكريم» قد اعتلى العرش عام (١٧٠٠ ق.م). فيدل هـــذا علـــى أن ملوكاً آخرين قد سبقوه على عرش بابل من بعد الملك غانديش حتى هـــذا العـــام (١٧٠٠ ق.م)، كما يؤيد مستر هول هذا الرأي. هذا وفي عهد هذا ا لملك (آكـــوم كاكريم) اشتبك الكاسيون مع الحيثيين في حرب ضروس، حامية الوطيس، انعقـــد فيها لواء النصر للكاسيين ومني فيها الحيثيون بهزيمة شـــنيعة، اســـترد خلالـــها الكاسيون منهم التماثيل وأصنام آلهة بلاد «مردوك ــ Marduk» و «ســـارپانيتوم

---

[1] - يقول المستشرق سركينج في كتابه «تاريخ بابل، ص ٢٤٤» أن لفظ «كاردونياش» يشمل القطرين المتحديـــن سومر وآكاد، على الرغم من أنهما احتفظا بتقسيمهما الإداري والجغرافي.. أما «سر سدني سمث» فيقول إن هـــذا اللفظ مشتق من: «دونياش» وهو اسم معبود من معبودات الكاسيين، و «كار» أي الأرض أو البلاد، فيكون المعنى كاملاً «مملكة الإله دونياش» ويكون الغرض من هذا الإطلاق التبرك والتقديس. بينما يذكـــر كتـــاب «شـــعوب ميسوبوتامي، ص ٩٨» أن كلمة «كردونيا» إن هي إلا لفظة كاسية تطلق على مدينة «بابل» ــ المؤلف.

ـ Sarpanitum» التي كان الحيثيون قد أخذوها ضمن الغنائم عندما استولوا على بابل في أواخر عهد الأسرة الأولى وبمعنى آخر في عهد آخر خلف للملك «حمورابي».

وقد اتسعت رقعة أملاك الحكومة الكاسية في هذا العهد، حيث استطاع (آكوم كاكريم ـ Agumkakrim) أن يبسط سلطانه على جميع بلاد سومر، وضمها إلى بلاد آكاد، فصارتا مملكة واحدة أطلق عليها اسم مملكة «كاردونياش».

ولم تقف آمال هذا الملك عند هذا الحد، بل توالت فتوحاته، واستأنف غزواته الموفقة فشن حربا عوانا على الحيثيين فدحرهم، واستولى على شمالي «سورية» وظل محتفظا بالسيطرة على الشعب العموري حتى عهد الفتوحات المصرية لهذه الديار في القرن السادس عشر قبل الميلاد[1].

وتروي لنا الوقائع التاريخية أنه بعد أن أسدل الستار على حكم هذا ا لملك الذي دام ٢٢ سنة، مضت فترة طويلة تقدر بقرنين وثمانية وعشرين عاما يكتنف تاريخها الغموض والإبهام وليس لدينا عنها معلومات البتة، اللهم إلا أسماء لبعض ملوك يقال إنهم قد خلفوا (أكوم كاكريم).

وهم حسبما يقال (بورنا بوراياش) (الظاهر أنه الثاني): و (كاشتيلياش الثاني ـ Kashtiliash II) ـ و (آكوم الثالث) ثم تعقبها فترة أخرى تذكر فيها أسماء (كاداشمن حربي الأول ـ Kadashmen Kharabe) ـ و (كوريكالزو الأول ـ Kuriqaizn I) و (مه لي شيبك الأول ـ Moly Shipak) وظل هذا الغموض سائدا وعجلة التاريخ معطلة حتى بدأ عهد الملك (كارا ايندداش ـ Kara Indash)[2] في عام ١٤٥٠ ق.م كما ذكر في التاريخ العام للمؤرخين.

ونستطيع أن نقول إنه منذ هذا العهد، أضحى تاريخ الكاسيين معلوما ومعروفا إلى حد ما، وهاك خلاصة وجيزة عنه[3]:

---

[1] - تاريخ الشرق الأدنى القديم ص ٢٠١.

[2] - كان هذا الملك معاصرا لفرعون مصر «تحتمس الرابع».

[3] - التاريخ العام للمؤرخين The historian history of the World (جزء ١ ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩) ـ المؤلف.

١ ــ «كارا ايندااش الأول عام ١٤٥٠ ق.م»:
وفق هذا الملك لعقد معاهدة خاصة بالحدود مع ملك آشور المدعو (آشور ــ بل ــ نيش ــ آشو) وبذلك بدأت العلاقات السياسية بين حكومتيهما، وقد أنشأ معبداً للإله «ئي ــ أننا E anua».
٢ ــ (كدشمان ــ أنليل الأول) أو (كاداشمن ــ بل Kadashmou Bel عام ١٤٣٠ ق.م) وكان معاصراً لفرعون مصر (أمنحتب) الثالث.
٣ ــ (بورنا بورياش الأول Barnaburiash I عام ١٤٢٠ ق.م).
أنشأ هذا الملك معبداً باسم (رب الشمس) ببلدة لارسا، وحارب الملك الآشوري (بوزور آشور الرابع) بسبب نزاع قام بينهما بخصوص مسألة الحدود.
٤ ــ (كوريكالزو الثاني Kuripalzu II عام ١٤١٠ ق.م).
أطلق اسم هذا الملك خلال حكمه على إحدى المدن، ويغلب على الظن أنه غير اسمها السابق بعد أن جددها. (وهي مدينة عقر قوف الأثرية).
٥ ــ (بورنا بورياش الثاني ١٤٠٠ ق.م).
خلف الملك «كوري كالزو» على العرش، وعاش سعيداً طيلة مدة حكمه.
٦ ــ (خارا خارداش ــ Kharakharqash ١٣٧٠ ق.م)[١].
تزوج من ابنة الملك الآشوري المدعو (آشور أوبالبات).
وقد شن ابنه (كدشمان حربي) الأول خربا على (السوتيين Sotu) فانتصر عليهم وفرض عليهم إسكان بعض رعاياه بينهم.
٧ ــ وحدث في عام (١٣٦٠ ق.م) أن انفجر الكاسيون ثائرين في وجه حكومتهم لما رأوا من ازدياد وتغلغل نفوذ الأشوريين في بلادهم، وامتد لهيب الثورة في أنحاء البلاد، وتمكن الثائرون من قتل الملك ونصبوا على العرش مكانه الملك (نازي بورغاش Nazi purgash) ولكن هذا الملك بدوره لم يعمر طويلاً حيث أخطأه التوفيق إبان الحرب التي نشبت بينه وبين الملك الآشوري «آشور أوبالت» ولقي فيها حتفه.
٨ ــ نصب (كوري كالزو الثالث) في عام (١٣٥٠ ق.م) ملكاً على البلاد من قبل الآشوريين وبموافقتهم، وقد استولى هذا الملك على بلاد «عيلام»، ودخل مدينة السوس (سوسا = شوشان) ثم اشتبك في حرب مع الملك الآشوري (بل نراري ــ Bel Nirari).

---

[١] ـ يظهر أنه الثاني كما في الدليل ــ المترجم.

٩ ـــ ١٣ (نـــازي مروتـــاش Nazy Maruttash ١٣٤٠ ق.م) و(كدشـــمان ترجو Turgu – Kadashmen ١٣٢٠ ق.م) و(كدشمان إنليل الثاني أو بوريـــاش ١٣٣٠ ق.م) و(كودر ـــ إنليل ـــ Kudur enlil ١٣٠٤ ق.م)، و(شجراكتي بوريا ـــ Shagarakti Buriash ١٢٩٨ ق.م).

واندلعت في عهد هؤلاء الملوك الخمسة نيران حروب طاحنة، فاشتد أوارهـا وطال أمدها بين بابل وآشور. وهذا هو كل ما لدينا من معلومات عن حكمهم.

١٤ ـــ ثم أعقب ذلك فترة (١٢٨٥ ـــ ١٢٧٠) اشتد فيـــها الـــهجوم علـــى «بابل» وأخذ العدو اللدود ألا وهو الملك الآشوري الأول (توكولتي ـــ نينيـــب = Tukulty - Ninib) يجرد عليها الحملة تلو الحملة، ويشن عليها غارة إثر أخـــرى منذ فجر عام (١٢٨٥ ق.م) حتى أحرز انتصاراً باهراً، وطرق أبواب المدينـــة، ودخلها فاتحاً غازياً، واستولى على خزائن معابدها، ونقلها مع المعبود (مـــردوك) إلى آشور.. ويلوح أن هذه الحوادث قد وقعت ودار رحاها فـــي عـــهد الملـــك الكاسي (بيبي ياشو ـــ Bibe iasho) الذي خلفه على العرش كل من (بيل شـــوم ئيدن) و(كاداشمن حاربي) الثاني (١٢٧٧ ـــ ١٢٧٥ ق.م) و(أدادشوم ـــ ئيـــدن) (١٢٧٤ ـــ ١٢٦٩). أولئك الذين كانوا خاضعين للملك الآشوري[1] الـــذي حكـــم (بابل) سبع سنوات حكماً حقيقياً.

١٥ ـــ لكن أهل (بابل) لم يطل خنوعهم للاستعمار الآشوري بل كانوا علـــى أحر من الجمر يتربصون ساعة لتحرير بلادهم، فثارت ثائرتهم وتحركت فيـــهم حمية الجاهلية الأولى بعد أن نظموا صفوفهم، وما أن أهل عـــام (١٢٧٠ ق.م) حتى قاموا قومة رجل واحد في وجه العـــدو الغـــاصب، ونجحـــوا فـــي طـــرد الآشوريين من بلادهم، ونصبوا على عرش بلادهم ملكـــاً يدعـــى (دادشـــوم ـــ أوسور) الذي كان عهده في بابل عهد رخاء وطمأنينة، وتمكن من قتل (بـــل ـــ كودور ـــ أوسور) ملك آشور. وضم بعض بلاده إلى مملكته.

١٦ ـــ (ملشيپاك الثاني Meli-Shipak ١٢٣٨ ـــ ١٢٢٤ ق.م).

أدار هذا الملك دفة رحى الحرب ضد الملك الآشوري المدعـــو (نينيـــب ـــ آپال ـــ أيشاررا) فانتصر عليه واستطاع أن يظفر به مما أدى إلى تحفـــز ملـــك آشور الجديد (آشوردان) الأول إلى تهديد بابل وشن الهجوم عليها في عهد الملـــك

---

[1] - وهو كما في الدليل (تكلتي ننورتا) الأول ـــ المترجم.

الكاسي (ماردوك ــ آبال ــ ئيددين) أو (مردخ ــ أبال ــ أدن الأول) الذي امتد حكمه (١٢٢٣ ــ ١٢١١ ق.م) ثم أخذت عوامل الفساد والانحلال تنخر في عظام دولة الكاسيين وما أن أتى عام (١٢٠٧ ق.م) إلا وكانت دولتهم قد زالت بسبب ثورة الساميين فيها. وأسدل الستار على مدة حكمها البالغة ٥٧٦ عاما وتسعة أشهر[١].

٤ ـ حكومة الميتاني[٢]

قامت هذه الحكومة في شمال الجزيرة، واتخذت مدينة «واششوغاني» مركزا لها، ويلوح أنها تفرعت من حكومة الكاسيين ومن منظومة السوبارتيين

---

١ - يقول مستر «كينج»: إن اسم آخر ملك كاسي على ما يظهر هو (ئي نادين ــ Ea Nadin) بينما يقول سر سدني سميث في كتابه «تاريخ آشور القديم» ص ٩٤ أن اسمه «إنليل ــ نادن ــ أخي Enlil nadin akhe»، وأن الملك العيلامي «شتروك ــ ناخونتي» قد هاجم الكاسيين وأسر آخر ملوكهم واستولى على بلادهم حيث قامت فيها حكومة محلية جديدة بعد ذهاب العلاميين وبذلك انقرضت حكومة الكاسيين التي بلغ عدد ملوكها (٢٦) ملكا. على ما ورد في جدول هذا المصدر. أما صاحب كتاب التاريخ القديم للشرق الأدنى فيقول في (ص ٣١٨): إن آخر ملك كاسي كان يدعى (بل نادين آخي ــ Bel Nadi akhi) ابن «زاكما ــ شم - أدينا» وأنه مات أو قتل في عام ١٨١٠ ق.م (لعله (١١٨٠) بعد أن دام حكمه ثلاث سنوات تقريبا، وبعد ذلك أقيمت في بابل حكومة (السلالة الرابعة Pashe) وحسب هذه الرواية يرجع السبب في انقراض الحكومة الكاسية لا إلى الهجوم الذي شنه عليها العيلاميون بل إلى ثورة «بابل» على أثر انتصار «آشوردان» الآشوري على «زامماما» الكاسي. اهـ ــ المؤلف.

٢ - ورد في دليل المتحف العراقي ما ملخصه: تقع مملكة «ميتاني» بين بلاد الحثيين من الغرب وبلاد آشور من الشرق وتمتد من حدود الفرات جنوبا حتى الجبال شمالا. وقد ازدهرت هذه المملكة حوالي سنة (١٤٥٠ ق.م) وكان أشهر ملوكها (سوشتار) وهو رأس الأسرة و (أرتاتاما) ــ ابن ــ سنة (١٤٣٠) و (شتارنا). ابن ــ سنة ١٤١٠ و (أرتاشومارا). و (تشراتا) أخ. سنة ١٣٩٩ و (أرتاتاما) الثاني. و (ماتيوازا) ١٣٥٩ وغيرهم..
والميتانيون فرع من الأمم الآرية (الهندية الأوربية) وكان من بين آلهتهم (أندرا) و (وورونا) من الآلهة الآرية الأولى اهـ.

وقال المسعودي المتوفى سنة ٣٤٥ هـ في (التنبيه والأشراف) ص ٧٨ عند ذكر مواطن الشعوب والقبائل الكردية وأسمائها (منهم البازنجان، الشوهجان الشاذنجان، النشاورة، البوذيكان، اللرية، الجوزقان، الجاوانية، البارسيان = البارث، الجلالية، المستكان (أعني المتيكان ــ المتينان الموجودين بحوالي (ماردين) حتى الآن فلا أشك أن لفظه المستكان تصحيف المتيك. المترجم) والجابارقه، الجروغان، الكيكان، الماجردان، الهذبانية وغيرهم ممن بزمام فارس وكرمان وسجستان وخراسان وأصبهان وأرض الجبال من الماهات: ماه الكوفة وماه البصرة وماه سبذان والإيغارين وهما البرج وكرج أبي دلف، وهمذان وشهرزور ودرآباذ والصامغان وأذربيجان وأرمينية وأران والبيلقان والباب والأبواب ــ ومن بالجزيرة والشام والثغور).
وليس أوضح من هذا في باب تحديد الوطن الكردي التاريخي وبيان العناصر والشعوب الهندية الأوربية التي تتألف منها الأمة الكردية وهي لا تزال تحتفظ بتقاليدها وأساطيرها القديمة حتى الآن ــ المترجم.

٦ ـ الحكومات السوبرية

أسس السوبريون بضع حكومات صغيرة، ويلوح أنهم لم يتمكنوا من تـــأليف حكومة قوية متحدة.

٧ ـ الحكومات النايرية = النهرية

لم يستطع النايريون (النهريون) وهم أحفاد الســــوباريين تأسـيس حكومـــة مركزية قوية، بل كانت حكوماتهم على شكل اتحاد أو تحالف Confedration بين عدة حكومات صغيرة. والثابت تاريخياً أن الملك الآشوري «تيجـــلاث بلســـر» الأول قد اشتبك في حرب مع ثلاث وعشرين ملكاً من ملــوك النــايري، وكـــان مسرح تلك الحروب سهل «ملاذجرد» بكردستان الشمالي. (سر ســدني ســمث، تاريخ آشور).

٨ ـ الحكومة الميدية[١]

يقول أبو التاريخ (هرودوت)[٢] المؤرخ اليوناني في صدد تشــكيل الحكومـــة الميدية ما ملخصه: (بعد أن عمرت حكومة الآشوريين (٥٢٠) عاماً فـــي آسـيا الشمالية (لعلها الغربية)، ثار الميديون ــ وكانوا خاضعين للآشـــوريين ــ فـــي وجه حكومتهم فكان لهم السبق على كل من عداهـــم مـــن الشـــعوب الخاضعـــة الأخرى في الاستقلال النهائي التام، إثر معركة حامية الوطيـــس دارت رحاهـــا بينهم وبين الآشوريين. وقد حفزت هذه الحركة الناجحة جميع الشعوب الخاضعـة للآشوريين فقاموا عن بكرة أبيهم وغلى دم الحماس في عروقـــهم واقتفـــوا أثـــر الميديين حتى تخلصوا من ربقة الخضوع عن آشور فاستقلوا اســـتقلالاً تامـــاً لا تشوبه شائبة.

ويروى أنه في أحد العهود، ظهر بين ظهراني الشعب الميدي رجل يدعـــى (ديوسس ــ ديوكس[٣] Deioces) وهو ابن (فراثورث ــ فرا آرتس)، يقال إنه قـــد

[١] ـ هذا البحث عن الميديين ملخص من كتاب (تاريخ آشور) لمؤلفه A. T. Otmstead (٩٢٣ ق.م) ــ المؤلف.

[٢] ـ ولد في هاليكارناس إحدى المستعمرات اليونانية بغربي الأناضول وعاش (٤٨٤ ــ ٤٢٥ ق.م) ــ المترجم.

[٣] ـ دام حكمه من (٧٠٨ أو ٧٠١ ــ ٦٥٥) ويظن أنه كيقباد الذي تذكره الروايات الشرقية من عربية وفارسـية ــ المترجم.

تولى منصب العمدة في قرية ميدية، وأنه كان يتصف برجاحة العقل والرزانة مما حدا بزرافات من الشعب وزعمائه أن يهرعوا إليه في الملمات يلتمسون النصيحة، ويستنيرون برأيه إذا حزبهم أمر من جلائل الأمور، فطبقت شهرته الديار، وعرف بين قومه بأصالة الرأي، وحسن التصرف، وذات يوم قال لقومه: (إذا لم تنشئوا لي مقراً للحكم وحاشية تقوم على تصريف شئونه فإني سأتخلى عن أعباء الرياسة وإبداء المشورة وتصريف الأمور) فصدع القوم ولبوا النداء، وأخذوا في بناء مدينة أطلق عليها فيما بعد (آقباتان = همذان)[1] حيث اتخذت عاصمة للحكم، وبعد أن عمر في الحكم (٥٣) عاماً خلفه في الحكم ابنه المدعو (فرائورت) بعد أن وضع أساس الحكومة الميدية.

والواقع أن هذه الرواية لا يطمئن إليها الباحث لا قليلاً ولا كثيراً، لأن الموطن الأصلي للشعب الميدي هو هضبة إيران، ويلوح أنه كان يمت بصلة النسب إلى الشعوب الآرية الوافدة أخيراً فضلاً عن أن لغتهم من المحتمل جداً أن تكون إحدى اللهجات الآرية الإيرانية. وكانوا أصلاً قبائل رحل، ثم حطوا رحالهم حيث استقروا في الوديان والجبال. وأنشأوا القرى والدساكر متخذين عادات المدن وأحوالها، وبانين مدنهم على سفوح الجبال في أمكنة مشرفة على الوهاد، ومطلة على الوديان. وكانت حياتهم ساذجة تكاد تكون بدوية، ولا تخضع منهم جماعة لأخرى.

ويستدل من الجدول الذي سجل أسماء عظماء هذا الشعب أن رؤساء القبائل المشهورة كانوا متساوين في الحقوق والواجبات لا سلطان لواحد منهم على الآخر، وكانت أسماؤهم لغوياً تشبه الأسماء الإيرانية وأما لغتهم من حيث الأداء والأسلوب فكانت كلغة العشائر الكاسية.. ولم ترد إشارة عن (آهورا مزذا) بين أسمائهم مما يحملنا على الاعتقاد بأن الديانة الزرادشتية) لم يكن لها وجود بين هذا الشعب حينذاك بل ظهرت أخيراً.

هذا، وأن أول ملك جمع شمل الأمة الميدية هو (ديوسيس = كيقباد) ابن (دايوكو = دياكو)[2] الذي كان والياً على (ماناي = ماندا) وكان (دياكو) هذا قد

---

[1] – في الروايات الآشورية (أمدانا) وفي الروايات الهيخامنشية (هنك متان) بمعنى محل الاجتماع وهو (همذان) الحالية في الكردستان الإيراني ــ المترجم.

[2] – رواية مشير الدولة في (تاريخ إيران) نقلاً عن هرودوت تخالف هذا إذ تقول أن (ديوس) هو ابن (فرالــــورت) وأنه و (دياكو) شخص واحد فعلى هذا يكون هو نفسه وقع أسيراً في يد الآشوريين لا ابنه ــ المترجم.

وضع ابنه رهينة لدى (روساش ـــ Rusash) حاكم «أورارتو» فوقع هذا الابن أسيراً في يد الآشوريين أثناء حروبهم مع الأورارتيين، فنفوه إلى (حماة) في سورية عام (٧١٥ ق.م). ويستدل من قرينة الاسم والمكان أن هذا الأمير الصغير هو نفس «ديوسيس = كيقباد» مؤسس الدولة الميدية[1] وقد ظلت أسرته باقية طويلاً، وكان أحفاده ملوكاً للدولة الميدية التي اتخذت مكانها على صفحات التاريخ كدولة من أقوى دول العالم في عصرها.

وقصارى القول إن (ديوس ـــ deioces) بعد أن اتخذ مدينة (آقباتان = همذان) عاصمة لحكومته انصرف إلى تجميلها وتحصينها حتى أضحت آية في الجمال منيعة الحصون، هذا فضلاً عن أن عهده الزاهر قد خلا من نار الحروب والتطاحن والقتال، وقد بذل جهوداً جبارة في توحيد القبائل الميدية المتناحرة المتنابذة إلى أن كللت مجهوداته هذه بعلائم التوفيق وساعده على ذلك انشغال (سناخريب) ملك آشور في حروب وقتال مع البابليين والعيلاميين فلم تتح له الفرصة لعرقلة هذه الجهود، والوقوف في سبيل اتحاد هذه القبائل.

ويقول «هردوت» أن (ديوسس) قد توفي بعد أن حكم ٥٣ عاماً بينما تذكر رواية أخرى أنه لحق بالرفيق الأعلى بعد حكم دام ٤٦ عاماً (٧٠١ ــ ٦٥٥ ق.م)، وقد خلفه على العرش ابنه (فراورتيش Fravartish) أو (فرائوريتس) الذي اتبع في بدء حكمه سياسة المجاراة والمهادنة مع الحكومة الآشورية حتى ألفى نفوذه قد امتد وعظم بين الشعوب الآرية، إذ كانت بعض شعوب آرية قد قدمت من الشرق وانضمت إلى أقربائهم الميديين، هذا إلى جانب خضوع الشعب الفارسي الذي كان ينظر إليه حينذاك نظرة استخفاف، إلى السلطان الميدي، كل هذه الوسائل مجتمعة جعلت الميديين يتحرشون بالآشوريين، فامتنعوا عن دفع الجزية (الأتاوة) التي كانوا يدفعونها منذ القدم مضطرين للآشوريين، ولكن الآشوريين قد تملكتهم ثورة الغضب على الميديين فركبوا رؤوسهم، وما لبث أن اندلعت نيران الحرب بين «فرائوريتس» والآشوريين فأسفرت عن انكسار جيشه ومصرعه هو وجل من كان يصحبه من الأمراء عام (٦٣٣ ق.م) بعد أن حكم ٢٢ عاماً.

---

[1] - يظهر أن هذا الأمير قد نجا من الأسر على أيدي ميدي سوري وعاد إلى (ميديا) وفي الواقع أن (تيجلات بلسر الثالث) ذكر بعض العشائر الميدية الضاربة في سوريا. اهـ. تاريخ آشور لاولمستيد ص ٥١٦ ـــ المؤلف.

وقد خلفه على العرش أخوه الصغير[1] (هووخشترا ـ hovakhshatara = كي اكسارا = كيكاوس) وكان قائداً محنكاً وملكاً حازماً، إذ وجه أول همه إلى الجيش فأعاد تنظيمه حتى أضحى من أحسن جيوش العالم، لأنه رأى بثاقب فكره أن الانتصار على الجيش الآشوري المنظم لا يكون على يد جيش من أفراد القبائل والعشائر المتباينة العادات والمختلفة الطباع، ولهذا أدخل إصلاحات هامة على أنظمته وفصل بين الخيالة والمشاة، وسلح الأخيرين بالقوس والنشاب والسيف، وأحدث خيالة سريعة العدو استطاعت أن تقهر فيما بعد الفرسان الآشوريين الذي انعقد عليهم لواء الشهرة في التاريخ.

أعمال كي أخسار الحربية en ke exsar

بمجرد أن فرغ «كي أخسار» من إعداد جيشه وتسليحه على أحدث النظم، وبعد أن نجح في عقد محالفة مع ملك بابل (نبوبولسر ـ nebopolassr) ليقفا جبهة متراصة متحدة ضد العدو المشترك وهو ملك آشور، بدأت جحافل جيشه تبدأ زحفها في أوائل ديسمبر عام (٦١٥ ق.م) متجهة صوب آشور ومرت ببلاد (نامري) و (مازاموآ) حيث استولت في هجوم خاطف على بلاد «آررافا = arrapha) ومدينتها ذات الأهمية البالغة بالنسبة لمملكة آشور، والتي كان انتزاعها من جسم مملكة آشور خسارة جسيمة لا تعوض. ويلوح أن كي أخسار قد اتخذ هذه المدينة قاعدة لأعماله الحربية.

ثم استأنف الجيش الميدي زحفه في العام التالي (٦١٤ ق.م) متجهاً صوب «نينوى»[2] العاصمة الآشورية، وفي طريقه إليها استولى على مدينة (تاربيزي) ثم يمم شطر الجنوب حسب خطة موضوعة ليتصل بالجيش البابلي وفي طريقه

---

[1] - التاريخ العام للمؤرخين جزء (٢). المؤلف. لكن هذا يخالف ما ورد في (هرودوت) من أن (كيآزارس = كي اخسار) هو ابن (فراورتس) لا أخوه. (المترجم).

[2] - يقول مستر (هول) في كتابه (تاريخ الشرق الأدنى القديم) (ص ٥١١) أنه حدث في أواخر عهد الملك (آشور بانيبال) أن احتشدت جيوش (كي أخسار) مع العشائر المتحدة المسماة (أوممان ـ ماندا) المؤلفة من الجنود السيتيين والماناي وكيمري أرمينية والعشائر الكردية بجبال الجودي وزحفوا على (نينوى) عام ٦٢٦ ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها. ويقول (هرودوت) أن (فرائورت) الميدي زحف على بلاد آشور عام (٦٣٤ ق.م) ولكنه عاد منها منهزماً. وفي عام (٦٣٠ ق.م) حاصر مدينة (نينوى) ولكنها امتنعت عليه فعاد إلى بلاده بسبب هجوم السيت عليها بقيادة (مادايس). فهاتان الروايتان ليستا بعيدتين عن العقل فالظاهر أن الميديين والسيتيين لم يكونوا دائماً على وفاق بدليل مقتل مادايس الذي وقع صريعاً في ميدان القتال على يدي كي أخسار وجيشه. (المؤلف).

استولى أيضاً على مدينة (آشور = الشرقات الحالية) عاصمة آشور القديمة، وقد دمرها تدميراً.. وما أن تم الاستيلاء عليها، وفرغ الجيش الميدي من تدميرها حتى كان ملك بابل قد وصل، حيث عقد مع «كي أخسار» معاهدة جديدة عينت فيها الحدود المستقبلية بين دولتيهما، وتوثيقاً للروابط السياسية بين الدولتين، رؤي تعزيزها وتوكيدها بمصاهرة كريمة تمت بين الأسرتين المالكتين فتزوجت حفيدة (كي أخسار) وهي (أميتيس) بنت أستياع من (نبوخذ نصر = Nebuchadnezzar) نجل ملك بابل.

وتلت ذلك فترة امتدت إلى نهاية عام (٦١٣ ق.م) نفتقر إلى معلومات قاطعة عن تحركات ونشاط الجيش الميدي خلالها، وإن كان «هرودوت» المؤرخ اليوناني يقول: إن (كي أكسار) لما نمى إليه، أثناء هجومه الأول على «نينوى» نبأ اجتياح «السيت = سك ــ Seythian» لبلاد (ميديه) قفل راجعاً إلى بلاده على جناح السرعة ليتولى بنفسه الدفاع عنها ضد المغيرين عليها، ولكنه غلب على أمره أمام عدو قوي الشكيمة، بارع الحيلة، فخضعت (ميدية) ثمانية وعشرين عاماً للقبائل السيثية. وكان (كي أخسار) يعمل طيلة هذه المدة على تخليص بلاده من بين براثن هذه القبائل، حتى هداه تفكيره أخيراً وبعد طول انتظار وفارغ صبر، إلى حيلة رائعة بل وبارعة أنقذ بها عرشه ومجد بلاده، فقد نجح في القبض على زعماء هذه القبائل، فأفناهم عن آخرهم، فخلا له الجو، وأخذ يطارد المحتلين حتى طهر البلاد من شرهم واستعمارهم. وبعد أن أعاد (كي أخسار) إلى ميدية استقلالها المسلوب، استأنف زحفه شطر (نينوى) وحاصرها من جديد.

ولكن رواية (هرودوت) هذه لا تؤيدها الآثار المكتشفة، فضلاً عن أنها لا تطابق الواقع المحسوس، إذ الثابت الذي لا يتطرق إليه أدنى شك أن المدة بين أول زحف على (نينوى) وبين سقوطها كانت ثلاث سنوات على الأكثر، فإذا كانت رواية خضوع (ميدية) للسيت صحيحة، فكيف يمكن التصور أن زحف ملك (ميدية) على (نينوى) حدث خلال هذه المدة؟ والمنطق يقول أن هذا الزحف لا بد أن يكون قد حدث بعد (٢٨) عاماً أي في سنة (٥٨٦ ق.م). إن كان لهذه الرواية نصيب من الصحة؟؟

وقصارى القول إن (كي أخسار) لم يعتوره وهن، ولم يتطرق إليه اليأس في الاستيلاء على (نينوى) مهما كلفه الأمر، ورغم أنها امتنعت عليه في هجومه

الأول عليها، فأعاد الكرة، وشن عليها هجوماً عاتياً، ثم ألقى عليها حصاراً منيعاً، ولما رأى ببعد نظره وثاقب فكره أن المدينة ما زال الاستيلاء عليها صعب المنال، أخذ في تكوين جبهة قوية تستطيع بها قهرها، فبدأ يساوم بعض القبائل السيئية[1] التي كانت تشد أزر الآشوريين وتقف إلى جانبهم، وقد نجح في إغرائهم بنهب وسلب بلاد آشور الغنية وما سيعود عليهم من هذه الأسلاب والغنائم فتألبوا على الآشوريين وهرعوا إليه معلنين انضمامهم إلى جانبه.

كما انضم إليه جيش بابل تنفيذاً للاتفاقية التي أبرمت بينهما، وبهذا وفق (كي أخسار) في تكوين جبهة متحدة يدحر بها المدينة العاتية، وكانت الخطوة التالية لتكوين هذه الجبهة أن أعلن (كي أخسار) نفسه ملكاً على (أومان ــ ماندا)[2] الذي صار لقباً له.

وما أن أهل شهر (سيوان = مايو) حتى بدأت (نينوى) تتعرض لأعنف هجوم شنه عليها الحلفاء، ورغم أنها امتنعت على هذا الجيش العرمرم في هجومين متتالين إلا أنها لم تستطيع أن تحافظ على صمودها وتظل على امتناعها أمام الضربات المتكررة والهجمات المتعاقبة واضطرت مرغمة إلى التسليم، وبهذا سقطت في أيدي الحلفاء في شهر (آب = يوليو) من نفس العام وقد هزتهم نشوة الفرح لاستيلائهم على هذه المدينة العظمى ذات الشهرة الخالدة والمجد التليد.

ولم يطق (سن ــ شار ــ إيشكوم[3] = Sin - Char - ishkum) الملك الآشوري صبراً على فقدان قلب مملكته النابض، فأحرق نفسه ومن معه من خدم وحشم بالنار.

---

[1] - هذا الشعب قوقازي [لعله يقصد أنه من الشعوب التي لم تعرف جنسيتها بعد، كما هو المصطلح بين متأخري العلماء. المترجم] وكان يستوطن شمال (أورارتو) جنوبي البحر الأسود خلال القرن السابع قبل الميلاد، ويظهر أنهم هجروا موطنهم الأول في جنوبي روسيا تحت ضغط العشائر الكيمرية (غومر)، وفي عهد الملك الآشوري (آسرحدون ٦٨١ ــ ٦٦٩ ق.م) أغاروا على الحدود الشمالية لآشور، وأخيراً لجأ أحد زعمائهم المدعو (بارتاتوا) إلى (الماناي) خوفاً من الكيمريين حيث اتفق ضد (سباكا - أشباكا) وضد (كاستاريت) أعني ملكي السيت وكاسكاشي... ويقول (هرودوت) أن بارتاتوا هذا إن هو إلا (پروتوتيوس) والد (مادايس)، وهو الذي استولى بعد فترة من الزمن على جميع بلاد سورية حتى حدود مصر وخربها فعينه الملك الآشوري بدلاً عن (سبكا - سباكاي) المغلوب على أمره. ملكاً وقائداً على جيوش السيت بأرمينية والماناي. اهـ (مستر هول. ص ٤٩٧).

[2] - هذا لقب عام أطلق على اتحاد العشائر الشمالية التي كانت تضم الميديين والسيت والماناي وبعض الكيمريين... ويقول مستر هول في كتابه (ص ٥٥١): أن لفظ ماندا كان لقباً مشتركاً بين الميديين والسيت وأن البابليين كانوا يطلقونه على مجموعة العشائر الشمالية المتوحشة ــ المؤلف.

[3] - ضبطه تاريخ إيران هكذا (ساراكس) ــ المترجم.

وبعد أن فرغ جيش الحلفاء من نهب المدينة ومن تدميرها، أخذ الجيش البابلي يطارد قسماً من الآشوريين الهاربين من المدينة، ويتعقب آثارهم حتى لجأ جماعة منهم بقيادة (آشور أوباليت) إلى (حران) حيث وضعوا هنالك أساس حكومة جديدة..

ولكن (كي أخسار) أبى عليهم الاستقرار في أي مكان وآلى على نفسه إلا أن يشتت شملهم، ويقض مضاجعهم، وقد واتته الفرصة فعلاً لتحقيق هذا الهدف، إذ بعد أن استجم في (ميدية) التي عاد إليها مع السيت في شهر سبتمبر بعد استيلائه على (نينوى) عاماً وبعض العام، استنجد به (نبوبولاسار) ليلحق به ويمد إليه النجدة في (حران) فخف إليه على عجل، وانضم إليه الجيش البابلي فاستطاع بمهارته الفائقة وخططه الحربية السديدة الاستيلاء على (حران) آخر حصون الآشوريين، وبذلك تحققت آماله، ثم قفل راجعاً إلى بلاده مكللاً بأكاليل النصر والغار.

ثم أخذ الحلفاء بعد ذلك في تقسيم الغنائم والأسلاب وتوزيع الميراث بينهم، وقد جاء في كتاب تاريخ إيران القديم[1] أن المستعمرة الآشورية في آسيا الصغرى أضحت من نصيب الحكومة الميدية، وكان خط الحدود بين (ميديه) و (بابل) ممتداً على طول نهر دجلة من الجنوب حتى مدينة (ديار بكر) كما أن خطاً آخر كان يفصل بينهما ممتداً من (ديار بكر) حتى نهر الفرات، أما حدود (كليكيا) فكانت تبدأ عند الضفة اليمنى لنهر الفرات وتنتهي عند (ملطية). ويلوح أن الحد الفاصل بين حكومتي (ميدية) و (ليدية) كان يخترق سهل (أوزن يايلا = الهضبة الطويلة) حتى نهر هالياس (قزيل ايرمق) ثم يأخذ في الامتداد حتى ساحل البحر الأسود.

ولم يدم السلم طويلاً بعد رسم الحدود، إذ يظهر أن القدر قد شاء أن يمضي (كي أخسار) كل عهده في ميادين القتال، وبين صليل السيوف. إذ ما كان يخرج من حرب إلا ليخوض غمار حرب أخرى، وكانت الحرب التالية بينه وبين

---

[1] - كتاب فارسي لمشير الدولة (بيرنيا)، طبع بطهران سنة ١٣٠٨ ف، ورد فيه أيضاً ما يأتي: ولم تنفصم عرى الاتحاد بين ميدية وبابل بالقضاء على آشور بل زاد توثقاً بعد أن زوج ملك (ماد = ميد) أخته لولي عهد بابل (بخت النصر) الذي لما صار ملك بابل، بنى الحدائق المعلقة التي تعد من عجائب الدنيا السبع تكريماً لزوجته هذه أخت ملك ماد. وعلى هذا تكون نسبة بناء هذه الحدائق إلى (سميراميس) ملكة آشور خطأ مشهوراً — المترجم.

الليديين التي تباينت الروايات في استقصاء أسبابها وعوامل اشتعال لهيبها، فتقول رواية مصدرها كتاب (إيران قديم) أن بعض المجرمين السيت قد لجأوا إلى الحكومة الليدية واعتصموا بحماها، ولما طالبت الحكومة الميدية بردهم إليها لم تجب إلى طلبتها. إذ رفضت الحكومة الليدية تسليمهم لها، فكانت هذه هي الشرارة التي أوقدت نيران الحرب بين الحكومتين.

بينما نجد رواية أخرى تعزو أسباب الحرب إلى أن الحكومة الليدية وقد تملكها الطمع في المستعمرات الآشورية التي كانت من نصيب الحكومة الميدية بعد الاستيلاء على (نينوى) مما أدى إلى اندلاع نيران الحرب بين الدولتين، والتحم الجيشان على شاطىء نهر (هاليـاس) ودارت رحى معركة حامية الوطيس وطويلة المدى في مطلع عام (٥٩١ ق.م) ولم تقف رحاها إلا يوم (٢٨ مايو من عام ٥٨٥ ق.م). بمعجزة، فقد حدث خسوف كلي للشمس طيلة هذا اليوم، فأيقن كلا الطرفين أن هذه الظاهرة العجيبة إن هي إلا علامة من علائم الغضب الإلهي عليهما. فرغب كل منهما بينه وبين نفسه في وضع حد لسفك الدماء دون طائل، وما أن عرض (نبوخد نسر = بختنصر) ملك بابل و (سينسيس) ملك كليكيا وساطتهما لإنهاء القتال وعقد الصلح حتى قبله الطرفان بارتياح، وتوقفت العمليات الحربية، واتفقا على أن يكون نهر (هاليس = هالياس) حداً فاصلاً بينهما، ثم عزز هذا الصلح وتوج بمصاهرة ملكية بين الأسرتين المالكتين، فتزوج (آستياغ)[1] نجل (كي أخسار) من (آريتيس ـ Aryenis) كريمة ملك (ليدية) في سنة (٥٨٥ ق.م).

ولم يعمر (كي أخسار) طويلاً بعد إبرام هذا الصلح، بل عاجلته المنية بعده بعام واحد، فخلفه على العرش ابنه (آستياغ) الذي عزف وأحجم طوال عهده عن الاشتباك في الحروب، مما أدى إلى ظهور دولة الفرس وعلو شأنهم، وتحفزهم للاستقلال.

وأحس رجالات ميدية بقوة فارس، وهي ولاية ميدية تزداد شأناً يوماً بعد يوم وأن سياسة ملكهم السلمية، وعزوفه عن شن الحروب سيفضي حتماً إلى انكماش دولتهم وربما إلى تقويض دعائمها وهي التي أقاموها بدماء أبنائهم، فأعلنوا سخطهم على سياسته وكراهيتهم لحكومته.

---

[1] - أو (آستياج ـ آستاك) باللغة اليونانية وأما باللغة البابلية فاسمه (إيختوويكو) وفي المصادر الشرقية من فارسية وعربية (كيكاوس) الذي يظن أنه (نمروذ) إبراهيم الخليل عليه السلام ـ (المترجم).

ولكن ماذا ينفعهم سخطهم، وقد اشتد ساعد الفرس، وعلا سلطانهم على حساب ميدية، وحكومتها السادرة اللاهية؟؟.

وكان يحكم فارس وقتذاك أمراء أسرة (أخميني ـ Achaimenes)[1] الذين انتهزوا فرصة إخلاد الملك إلى الراحة، وبذلوا جهوداً جبارة لينفضوا عن جباههم ذل الخضوع للغير، فشمروا عن ساعد الجد، وشرعوا في تكوين جبهة قوية متحدة للوقوف بها في وجه (ميدية) وقد نجحوا فعلاً في ضم أقوام آخرين إلى جانبهم (كالبارث والهيركان) من الشعوب الخاضعة لـ (ميدية) والتي شقت عليها عصا الطاعة وأعلنت العصيان، وكان بطل هذه المؤامرة التي أثارت هذه الشعوب على (ميدية) حاكم (پارس = فارس) المدعو (سيروس = كيروس Cyrus) الثاني أو (كوروش ــ Kurush) الكبير أي (كيخسرو الكبير). وكان هذا الحاكم نفسه هو الذي حمل لواء الحرب ضد (ميدية)، فزحف على رأس جيش جرار هاجم به ميدية حيث التقى بجيش (آستياغ) واشتبكا في معركة حامية الوطيس. دافع فيها استياغ دفاع المستميت وأبلى فيها بلاءاً حسناً يحدوه الأمل في المحافظة على عرشه وعلى شرف أسرته، واستمرت المعركة سجالاً بين الفريقين، وكان النصر يتأرجح بين الكفتين إلى أن لعبت الخيانة دورها على يد زعيم أحد البيوتات الميدية الكبيرة وكان يدعى (هارباغوس ــ Harpagos) الذي قرر مصير الحرب بعد أن باع شرفه، وأجرم في حق وطنه، فتقدم إلى العدو طائعاً مختاراً، وانضم ومن معه من الجنود إلى (كيخسرو) عدو وطنه اللدود،

---

[1] – هذه الأسرة الملكية الأخمينية من إقليم (انشان - أنزان) ويظهر أن هذا الإقليم يقع في الجنوب الشرقي من ولاية (لورستان) الحالية على مقربة من إقليم (عيلام) القديم، وكانت هذه الأسرة تحكم (فارس - بارس) فقط منذ القدم، ومن المحتمل أنها اكتسبت لقب (الملك) أثناء انقراض الدولة الآشورية، وربما كان ذلك بعد وفاة الملك (آشور بانيبال) وأثناء الاستيلاء على عيلام، ثم أخذ سلطانها يمتد إلى بلاد (بارث - فرث) و (هرقان - خراسان) حيث تم لهم الاستيلاء عليها. ويؤخذ من نقوش (بهستون) ودراسات مستر (هول) أن هذه الأسرة المالكة قد تأسست في أواسط القرن السابع قبل الميلاد وكان على رأسها (هيخامنيش - أخيمين) ولكنها انقسمت إلى فرعين بعد انتهاء عهد ثاني ملوكها المدعو (جيش - بيش) ويقول، تاريخ إيران القديم، إن أحد هذين الفرعين كان (بارسياً) والآخر (انزانياً).

ويقول مستر هول، إن الفرع الأنزاني نشأ منه أربعة ملوك بينما نبت من الفرع الثاني ثلاثة، وأن (سيروس الثاني) الذي يطلق عليه أيضاً اسم (كورش) ويلقب بالكبير هو الملك السابع من ملوك هذه الأسرة وأنه حارب (آستياغ) واستولى على (بابل) ونال شهرة عالمية في الغزو والفتح. أما (داريوش) الأول فهو تاسع ملك في هذه الأسرة ــ المؤلف.

وبانضمامه إلى جانب العدو وجه طعنة نجلاء إلى صدر آستياغ وجيشه، حيث ضعفت روح الجيش المعنوية وأخذت تتتابه الهزائم متلاحقة لم يستطع أمامها صمودا، مما أدى إلى اندلاع نيران ثورة جامحة في ميدية، تمخضت عن خلع (آستياغ) عن العرش (عام (٥٥٠ ق.م).

وهكذا كسب (كيخسرو) المعركة، وبطبيعة الحال أحسن معاملة (هرباغوس) بل وسائر رجال البيوتات الميدية، ولم يكن هنالك كبير فرق في الحقوق والامتيازات بين هذه البيوتات والبيوتات الفارسية بل كان الحال كمثل ما هو عليه الآن بين الإنجليز والأسكتلنديين وكما كان عليه بين البروسيين والبافاريين في عهد الإمبراطورية الألمانية الأخيرة[1].

ولم تقم بعد ذلك قائمة للحكومة الميدية بل أخذت تسير بخطى سريعة واسعة نحو الانحلال والاضمحلال، وما لبثت أن أسدل عليها الستار، وانقرضت إثر انقلاب خطير هز أركانها المتداعية وقضى عليها بالزوال بعد أن حكمت خمسين عاما بعد المائة، وقامت على أنقاضها حكومة الآخمينيين الإيرانية.

وجاء في (تاريخ إيران قديم ــ مشير الدولة) أن الشعب الميدي كان قد توطن أصلا في أذربيجان وكردستان والعراق العجمي[2]، ثم أخذ يسعى جاهدا لنشر نفوذه حتى اتسع سلطانه ابتداء من نهر (هاليس) حتى (باختر) أي (أفغانستان)، ومن بحر قزوين حتى فارس وخوزستان، بينما يذهب العلماء الجغرافيون القدامى إلى أن ميدية كانت منقسمة إلى قسمين:

(١) ميدية الكبرى أي العراق العجمي.

(٢) وميدية الصغرى أي أذربيجان.

---

[1] - (التاريخ القديم للشرق الأدنى ص ٥٥٥) للمستر هول.

[2] - يقول (تاريخ إيران القديم ص ٥٦) أن العراق العجمي كان يضم المقاطعات الحالية (كروس وهمذان وكرمنشاه وقزوين وعراق وأصفهان ونهاوند والري) حتى دربند بحر قزوين الذي كان حدا فاصلا بين الميدين والبارث ــ المؤلف.

الباب الأول

في الحكومات الكردية في العهد الإسلامي

وهي في أربعة عشر فصلاً:

(١) الحكومة الروادية (٢٣٠ ـ ٦١٨ هـ).

(٢) الحكومة السالارية بأذربيجان (٣٠٠ ـ ٤٢٠ هـ).

(٣) الحكومة الحسنوية البرزكانية (٣٣٠ ـ ٤٠٥ هـ) بهمذان.

(٤) الحكومة الشدادية بأران (٣٤٠ ـ ٤٦٥ هـ).

(٥) الحكومة الدوستكية المروانية بديار بكر (٣٥٠ ـ ٣٨٠ ـ ٤٧٦ هـ).

(٦) الحكومة العنازية بحلوان (٣٨٠ ـ ٤٤٦ هـ).

(٧) الحكومة الشبانكارية بفارس (٤١٢ ـ ٦٥٨ هـ).

(٨) الحكومة اللرية الكبرى (٥٥٠ ـ ٨٢٧ هـ).

(٩) الحكومة اللرية الصغرى (٥٧٠ ـ ١٢٥٠ هـ) بلرستان.

(١٠) الحكومات الأيوبية بمصر والشام (٥٦٧ ـ ٦٨٥ ـ ٩٥٠ هـ).

(١١) الحكومة الأردلانية بإيران (٦١٧ ـ ١٢٨٤ هـ).

(١٢) الحكومة الملكية الكردية بخراسان (٦٤٣ ـ ٧٨٥ هـ).

(١٣) الحكومة الزندية بإيران (١١٦٧ ـ ١٢٠٢ هـ).

(١٤) الحكومة البراخوئية ببلوجستان (١١٧٢ ـ ١٣٠٠ هـ).

الفصل الأول

١ ـ الحكومة الروادية[١] (٢٣٠ ـ ٦١٨ هـ):

تقول، دائرة المعارف الإسلامية، «إن هذه الحكومة هي أقدم الحكومات الكردية، بدليل أن (ابن خرداذبه) الرحالة الذائع الصيت، قد رأى بعيني رأسه حكومة (محمد الروادي) قائمة في (تبريز)، حين زارها وجاس خلالها عام (٢٣٢) من الهجرة. وإن إقليم (آذربيجان) قد انضوى تحت لواء أبي الساج محمد أفشين بن ديوداد عام ٢٨٠ للهجرة، وظل يتوارثه الخلف عن السلف من أحفاده حتى عام (٣١٧) من الهجرة حيث قضى على حكم بني الساج بالزوال وأسدل على هذه الحكومة الستار، فخضعت منطقة (المراغة) بعدهم لسلطان الأمير (المظفر) وهو من أكراد الديلم، أعنى أحفاد الرواديين القدماء، ثم ذكر المصدر نفسه أن (مرزبان) وأخاه (وهسوذان) هما من هذه الأسرة الروادية نفسها».

والواقع أننا نفتقر إلى معلومات شافية عن هذه الأسرة الكردية حتى عهد (المرزبان) الذي بدأت المصادر العربية والإسلامية منذ عهده تعج بالمعلومات الوافية، والحقائق المفصلة عن هذه الأسرة.

وسنرى عند حديثنا عن (ديسم) في مبحث الحكومة السالارية أن (مرزبان) ابن (مامه‌لان = محمد) كيف تمكن من الاستيلاء على (آذربيجان) بفضل الدسائس التي حاكها (علي بن جعفر) وزير (ديسم) ضد سيده، وأنه كان لمرزبان كاتب خاص يدعى (عيسكويه) ما فتىء يدس لدى سيده، ويوغر صدره ضد هذا الوزير الجديد طمعا في المال حتى شارفت الدسائس أن تأتي بثمارها المرجوة، لولا أن نبأها قد طير إلى (علي بن جعفر) فنبتت عنده فكرة الغدر بسيده الثاني والتنكر له، وبيت في نفسه أمرا، ثم أخذ ينفذ مكيدته في السر، وبدأ يغري سيده محاولا إقناعه بالاستيلاء على مدينة (تبريز) للحصول على مالها

---

[١] ـ هذه الحكومة في الحقيقة أصل الحكومة السالارية فضلا عن أن حوادثهما متداخلة بل واحدة. وغاية ما هنالك أن فترة فصلت بينهما فنشأ خلالها تغلب بني الساج في أذربيجان، فلهذا كان الأحدر اعتبارهما حكومة واحدة ــ المترجم.

الوفير وثروتها الطائلة، فوقع (مرزبان) في حبائله، وأعـد لـه جيشـاً وأمـره بالزحف على (تبريز) لتنفيذ الخطة الموضوعة.

وسنفصل القول في مجرى حديثنا عن (ديسم) أيضاً الدور الذي لعبه (علـي بن جعفر) واتصاله بأهالي تبريز واتفاقه معهم على أن يستنجدوا بـ (ديسم) ويفتكوا بديالمة المدينة... كما سنشير أيضاً إلى مجيء (مرزبـان) علـى رأس جيشه إلى تبريز وإلحاقه الهزيمة بالعدو وتضييقه الخناق عليـه حتـى استسلم (ديسم) عقب سقوط أردبيل بخيانة ابن النعيمي وزير (ديسم) الثاني له وانحيـازه إلى (مرزبان)، وأقام في قلعه (طارم) هو وأسرته.

والآن نقول، بعد أن تحقق لمرزبان ما تمنى ونجح فيما أراد من الاسـتيلاء على جميع آذربيجان، وجه همه نحو الإصلاحات الداخلية في بلاده.

وبينما كان (مرزبان) يعد لتنفيذ برامجه الإصلاحية ورعاية شـئون بـلاده، فوجيء بغارة شنها الروس على بلاده عام (٣٣٢) من الهجرة بعـد أن عـبروا بحر الخزر على ظهور السفن وغادروها إلى الشاطيء عند مصب (نهر الكـر) ميممين شطر (آذربيجان).

وما أن قاربت طلائع الجيش الروسي قلعة (برذعة) على الحدود الشـمالية لآذربيجان حتى انبرى لهم حاكمها وتصدى لهم هو ورجاله، وبذل محاولة يائسـة لردهم على أعقابهم، ولكن أنى له ذلك أمام قوتهم العاتية، فدارت عليـه الدائـرة وانسحب من الميدان مخذولاً، فتعقبه الروس وحاصروا القلعة نفسها وسرعان ما سقطت في أيديهم، فانطلقوا منتشرين في أحيائـها يحصـرون أهليـها حصـراً ويسفكون دمائهم، ويرتكبون فيها من الفظائع ما تقشعر له الأبدان وتشـيب مـن هوله الولدان.

ولما طيرت هذه الأنباء إلى مسامع (مرزبان) ثارت ثائرته، وغلى الدم فـي عروقه، فأعد جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً من المحاربين، وقاده بنفسه، وسار للقـاء الروس الذين لم يستطيعوا الصمود أمام ضرباته وبسالة رجاله واستماتتهم فـي القتال، فلاذوا بالفرار ولكن فريقاً منهم تسرب حتى بلدة (المراغة) وهناك تفشـى واستشرى بينهم داء عضال قضى على الكثيرين منهم، نتيجة إسرافهم في تنـاول الفواكه الفجة.

ولكن مناوشات الروس لم تنته عند هذا الحد، بل أخذت قوات أخرى تتقاطر وتثير القلاقل من جديد، فصمم مرزبان على قطع دابرهم بحيلة بارعة، حيث بعث بقوة من جيشه لتعد كميناً في طريق القوات الروسية، واشتبك هو ومن تبقى معه من قوات مع الجيش الروسي في معركة حامية الوطيس واضطرهم إلى التقهقر والجلاء عن المواقع التي احتلوها، وانقلبوا على أعقابهم لا يلوون على شيء ظانين أنهم قد تخلصوا من نيران الحرب وما دروا أن كميناً قد أعد في طريق عودتهم لاصطيادهم وإيقاعهم في الشرك، وقد تولتهم الدهشة وتملكهم الرعب حين فوجئوا بأنهم أضحوا بين نارين، فالكمين أمامهم والعدو وراءهم، ووقع الكثيرون منهم صرعى وعلى رأسهم قائدهم في حين اعتصمت الفئة القليلة التي نجت من المذبحة بقلعة (شهرستان) التي كان الروس اتخذوها مستودعاً للأسرى المسلمين والغنائم التي سلبوها منهم، فأسرع إليهم مرزبان وحاصرهم في القلعة، وبينما هو قائم على حصارهم، وتضييق الخناق عليهم، جاءته الأنباء تترى بأن (أبا عبد الله الحمداني) قد زحف ليشن هجوماً عنيفاً على آذربيجان، فاضطر إلى العودة فوراً للدفاع عنها بعد أن ترك قوة من جنده لتقوم على حصار القلعة. وحين وصوله كان (الحمداني) قد طرق أبواب مدينة (سلماس)، وعقد اتفاقاً مع (جعفر بن شكويه) رئيس العشيرة الهذبانية الكردية الحاكمة في تلك الأنحاء.

وما أن التقى الجمعان، وحمي وطيس القتال، حتى بدأت روح التمرد تدب وتستشري بين صفوف الحمدانيين، كما أبت الطبيعة إلا أن تلعب دورها فيكثر تساقط الثلوج، ويشتد الزمهرير فيزداد الحمدانيون ـ وجلهم من العرب ـ نفوراً من الحرب، وقفلوا راجعين إلى الموصل يجرون أذيال الهزيمة والفشل.

أما عن الروس الذين كانوا محاصرين في قلعة (شهرستان) فقد قاموا بمحاولات يائسة للدفاع ولكن ذهبت كلها أدراج الرياح وأخيراً انتهزوا فرصة سنحت فاغتنموها وتسللوا من القلعة خفية وتحت جنح الظلام إلى ساحل البحر حيث حملتهم السفن إلى بلادهم بخفي حنين.

ثم استأنف مرزبان تنفيذ برامجه الإصلاحية، وتنظيم شئون مملكته، ولكن سرعان ما جدت عوامل وظهرت في الأفق مطامع دفعته إلى التفكير في الاستيلاء على أملاك جيرانه، وكان أهم هذه العوامل عاملين:

أولهما: هجوم حكومة خراسان على (ركن الدولة) حاكم الري.

وثانيهما: إهانة (معز الدولة) لسفير (مرزبان).

يضاف إلى هذا أن بعض قواد (ركن الدولة) كانوا لا يخفون استعدادهم لشد أزره، ومده بكل مساعدة ممكنة، وجاءه أحدهم المدعو (علي بن جوانقوله) وأنبأه بأنه سيجد الأمور مذللة، والطريق ممهداً أمامه لفتح (الري) وأن هنالك قواداً آخرين غيره على أتم استعداد لمساعدته والانضمام إلى جانبه في الوقت المناسب.

وبدأت المخابرات بين (مرزبان) و (ناصر الدولة) حاكم الموصل لإقناع الأخير وتشجيعه على الزحف إلى (بغداد)، ولكن (ناصر الدولة) رفض هذا العرض، ولم يحبذ هذا الرأي، بل أشار بوجوب الاستيلاء أولاً وقبل كل شيء على (الري) وبعدها يصبح الاستيلاء على (بغداد) من السهولة بمكان

وعلى أثر ذلك عقد (مرزبان) مجلساً استشارياً مؤلفاً من والده وإخوته. وعرض عليهم خطته، فنهاه والده عن إثارة الحرب، ولكن مرزبان ركب رأسه، ولم تجد هذه النصيحة منه آذاناً صاغية ولا قلباً واعياً، فانفجر والده باكياً ينعي حظ ابنه قائلاً: يا ترى أين سأشاهد ابني بعد هذا العمر الطويل؟ فأجابه مرزبان بعزم وطيد وجنان ثابت.

(ستراني إما متربعاً في قصر الري أو صريعاً بين قتلى هذه الحرب) وأخذ بعد ذلك يستعد للقتال على قدم وساق، ولما ترامت أنباء استعداده إلى مسامع (ركن الدولة) بعث يطلب النجدة من أخويه (عماد الدولة) (ومعز الدولة)، وفي الوقت نفسه دخل في مفاوضات مع (مرزبان) وعرض عليه أن يسلمه (زنجان وأبهر وقزوين) إذا أعرض عن إثارة الحرب بينهما، وكان يقصد من وراء ذلك كسب الوقت حتى يصل إليه المدد من أخويه.

وأرسل (عماد الدولة) قوة لمساعدة أخيه مؤلفة من ألفى فارس بقيادة (باش حاجب)، كما أرسل (معز الدولة) بقوة مماثلة تحت قيادة (سبكتكين) وتدفقت المساعدات على (ركن الدولة) ووافاه المدد من كل صوب وفج، فجاءه (محمد بن الرزاق) على رأس قوة عاتية، كما أتته نجدة أخرى من قبل (حسن فيروزان) تحت قيادة (محمد بن ما كان).

وهكذا أضحى تحت إمرته قوات هائلة، وجيش عرمرم، فجمع الشمل ووحد القيادة، وأجرى حركة تطهير واسعة النطاق بين صفوف جيشه فتخلص من العناصر الشريرة وألقى القبض على من شك في إخلاصهم من قواد وألقى بهم في غياهب السجون، وبعد أن قبض الزمام، وفرغ من الاستعدادات، تحرك زاحفاً على رأس الجيش جاعلاً قبلته وهدفه (قزوين).

وما أن ألقى (مرزبان) نظرة على جحافل هذا الجيش الضخمة حتى أسقط في يده، وأيقن ألا قبل له بمثل هذه الجموع الزاخرة والقوات المتدفقة، ولكنه سرعان ما رجع إلى نفسه، ورأى عليه عاراً وشناراً أن يتراجع أو يتقهقر، فجمع شتات جيشه المنظم المؤلف من الكرد والديلم وكان لا يعدو الخمسة آلاف رجل وخاض به غمار الحرب، وتعرض جناحاه الأيمن والأيسر لهجوم عنيف من قوات ركن الدولة. ورغم ما أبداه هو في الجناح الأيمن من ضروب الشجاعة والبسالة واستماتة جيشه عامة في الدفاع. تمزقت أوصال جيشه شر ممزق. ولبس الهزيمة صاغراً، ووقع هو نفسه والكثيرون من رجاله أسرى. فسلمه (ركن الدولة) إلى وزيره المدعو (أبو الفضل) الذي اصطحبه مخموراً بقوة إلى قلعة (سميرم)[1].

[1] - روى الوزير (أبو الفضل ابن العميد) تفاصيل خدعة حدثت خلال هذا السفر. فقال: إن القواد الديالمة الذين كانوا في رفقتي قد اتفقوا فيما بينهم على إطلاق سراح (مرزبان) قوة واقتداراً وتآمروا على قتلي، فلما علمت سراً بنبأ هذه المؤامرة توجهت إلى (مرزبان) وأظهرت له أنني أنا الآخر على استعداد لخدمته، فأطرق هنيهة ثم قال: إذا كنت صادقاً فيما تقول فأقسم لي بالله العظيم، وأنا مستعد للقيام بكل ما تريد وترغب، فقلت له: إنني لا أضمن صداقة رفاقي من القواد الذين معنا. فقال: إذن أنت لا تعرف أصدقاءك من أعدائك، فأولئك القواد الذين يرغبون في إطلاق سراحي هم أنفسهم الذين يريدون قتلك فقلت له: لقد علمت الخبر اليقين، وثق أنني على استعداد لتقديم الخدمات أكثر من غيري.

وعلى أثر هذه المحادثة اتصلت بهؤلاء القواد جميعاً كل منهم على انفراد وتظاهرت أمام كل منهم بأنني متضامن معهم وعلى استعداد لتنفيذ ما يريدون، فأبدوا سرورهم، واستقر الرأي بيني وبينهم على التنفيذ في أول منزل نترل إليه، فلما وصلنا أول منزل دعاني مرزبان إليه وطالبني بالتنفيذ فقلت له: بما أن بيت (ركن الدولة) في (أصفهان) وبها خزائن ملكه، وجميع مقتنياته فالأفضل أن نواصل السير إليها حيث نستولي على ما فيها من الأموال والمتاع، ثم ننفذ ما اتفقنا عليه. أما إذا أخذتنا العجلة وشرعنا في العمل منذ الآن فلن نأمن قيام المخالفين من القواد والجند علينا ثائرين وقد يفسدون علينا ما دبرنا. وقد خدع (مرزبان) بهذا الكلام المنطقي وأعجب بالفكرة وأبدى رضاءه عنها. وقصارى القول أننا ما كدنا نحط الرحال على أرض (أصفهان) حتى قمت لفوري بإلقاء القبض على هؤلاء القواد الخونة وأفسدت عليهم مؤامرتهم.

ولما بلغ «مرزبان» القلعة، وألقي به في غياهبها أسيرا، أضرب عن تناول الطعام، اللهم إلا حفنة من البر يتبلغ بها سحابة يومه، فلما طير هذا النبأ إلى مسامع (ركن الدولة) بعث إليه بطاهيه الخاص ليقوم على إعداد طعامه ويظل تحت إمرته، فخيل إلى (مرزبان) أن هذا الطاهي قد يشد أزره ويعينه على التخلص من ذل الإسار فاتفق معه على أن يهيىء له طريق الخلاص، ويمهد له سبيل الفرار، ولكن الطاهي كان متسرعا وطائشا فقد أذاع الخبر وأفشى السر في الوقت المناسب، وعلم به «شيراسفار» محافظ القلعة الذي قام على عجل وسارع إلى القلعة وألقى القبض على الطاهي وقذف به من فوق الأسوار فلقي حتفه لساعته، ثم أخذ على أثر ذلك يضيق الخناق على السالار.

وكانت والدة «مرزبان» المدعوة (خراسويه) ــ ابنة جستان بن واهسوذان الملك ــ تتحرق شوقا لابنها وتترقب ساعة خلاصه بفارغ الصبر، فأخذت تسعى سعيا حثيثا متواصلا علها تجد له مخرجا، وبسطت يدها كل البسط لكي تتنسم أخباره وتفك إساره. فنقدت (ابن الضاباني) ــ الذي كان أسيرا مع (مرزبان) ثم نجا من الأسر ــ مبلغا كبيرا من المال على أمل تخليص ابنها من الأسر، كما فعلت مثل ذلك مع بطل مغامر بل مقامر من أبطال المراغة يدعى (ثوبان) اغترارا منها بقوته وذكائه. بعد أن أعطاها على نفسه العهود والمواثيق بأنه لا بد منقذه ومخلصه لها من ذل الإسار، ثم أخذ (ثوبان) «وابن الضاباني» يعدان العدة لتنفيذ ما وكل إليهما أمر تنفيذه، فتنكرا في زي تجار، وحملوا من الأمتعة والبضائع ما يحمله التجار، وسارا حتى بلغ بهما المسير قلعة (سميرم) حيث ضالتهما المنشودة، فبعثا إلى محافظها (شيراسفار) بكتاب قالا فيه: «نحن تجار نحترف التجارة من قديم، وإن على (مرزبان) دينا لنا، حيث أخذ منا بضائع منذ حين، ولم يسدد حتى الآن ثمنها، فنرجو أن تسمحوا لنا بمقابلته لتذكيره بديننا الذي في عنقه». وما أن قرأ المحافظ كتابهما حتى أرسل في طلبهما، فلما مثلا بين يديه، بسطا له شكواهما المزعومة، ثم تطرق الحديث إلى التعريض بسمعة

أما (مرزبان) فقد أرسلته مخفورا تحت حراسة أحد القواد المخلصين الذين لم يشتركوا في هذه المؤامرة، إلى قلعة (سميرم) ــ (المؤلف).

(مرزبان) وعما ارتكبه من مظالم وآثام، وعن غدره بمن كانوا به على صلة من الجمهور والتجار، ثم اختتما حديثهما معه قائلين «الحمد لله الذي أنقذ العالم من شروره» وقد وقع المحافظ في حبائلهما، وخدع بقولهما، وغلب عليه التأثير، فرق لهما وأبدى عطفا عليهما، وسهل لكل منهما مقابلة (مرزبان) على انفراد.

ولم يفطن (مرزبان) بادئ الأمر لما دبراه من حيلة وما بيتاه من خديعة للعمل على تخليصه وفك إساره فأنكر أنه مدين لهما أو لغيرهما، فبادر إلى شتمهما وتوبيخهما. وإن هي إلا إشارة حازمة خفية من عيني أحدهما، حتى فطن للأمر وتنبه إلى أن ساعة الخلاص قد حانت أو أوشكت، فغير أقواله وقال إنه بعد أن فكر قد تذكر أن في عنقه لهما حسابا قديما غير أنه لا يعرف القيمة على التحديد ولا بد من إحضار دفاترهما للاطلاع عليها، وهكذا بدأت سلسلة متصلة الحلقات من الاتصالات بينهما وبينه واستمرت فترة من الزمن دون أن يتسرب نبأ مكيدتهما البارعة.

وكان لـ (خراسويه) غلام ديلمي قد تربى في كنفها وشرب من منهل نعيمها منذ نعومة أظفاره، وكان بارعا في الضرب على الموسيقى والأنغام، فدخل في زمرة هؤلاء التجار الذين يترددون على القلعة بين حين وآخر.

ولا شك أن هؤلاء التجار قد أمطروا محافظ القلعة وموظفيها بوابل من الهدايا حتى تسنى لهم سهولة الاتصال بمرزبان كلما أرادوا ذلك.

وكان لـ «شيرأسفار» محافظ القلعة غلام شاب يتزيى بزي الديالمة من حملة العمود والترس، فعمد إليه (مرزبان) وقربه إليه وغمره بفيض من عطفه وأسبغ عليه كريم عنايته وأمطره بوابل من الهدايا وروائع التحف حتى توثقت بينهما عرى الصداقة والمحبة وأضحى (مرزبان) يوليه كامل ثقته ويطمئن إليه، فعهد إليه بإحضار آلات لفك القيود وتحطيم السلاسل والأغلال، فأحضرها وهكذا أخذ «مرزبان» في فك القيود وتحطيم الأغلال التي كانت تحيط بيديه إحاطة السوار بالمعصم، وذلك بفضل هذا الغلام الديلمي الزي.

وكان (شيراسفار) قد تعود أن يحضر إلى القلعة يوم الجمعة من كل أسبوع ليشاهد القيود والسلاسل عن كثب ثم يعود أدراجه، وقد حدث في يوم جمعة أن جلس (ثوبان) في القلعة إلى جانب (مرزبان) بينما وقف التجار الآخرون في انتظاره على باب القلعة، وكان الغلام الديلمي الزي يجالس «مرزبان» أيضا،

فدخل عليهم «شيراسفار» وجلس إلى جانب «مرزبان»، وشرعا يتناقشان في مواضيع عامة. وفي أثناء الحديث بادره «مرزبان» قائلاً: «إذا أطلقت سراحي وأخليت سبيلي فلك مني ما تريد وأكثر».

فأجابه «شيراسفار» على الفور قائلاً: إنني لن أخون «ركن الدولة» ما حييت، وهنا نهض (مرزبان) متحللاً من القيود والأغلال متجهاً شطر الباب وفي الوقت نفسه قفز «ثوبان» لفوره وهجم على (شيراسفار) وألقاه على الأرض وطعنه بالخنجر طعنة نجلاء أردته قتيلاً يتخبط في دمائه، كما انقض من بالباب من التجار على الحراس وأوسعوهم طعناً وتقتيلاً حتى فنوا عن آخرهم.

ولما أنهى هذا الخبر المشئوم إلى حفاظ الأمن وحماته الذين كانوا موزعين عند اجتماع مرزبان برجاله هرعوا إلى داخل القلعة يستقصون حقيقة الخبر، فلما وقعت أنظارهم على رئيسهم ملقى على الأرض جثة هامدة لا حراك فيها، لم يروا مندوحة من التسليم صاغرين إلى رجال «مرزبان» وأنصاره الذين هرعوا إليه من كل حدب، وتدفقوا عليه من كل صوب، فالتقوا حول رايته وقدموا له فروض الطاعة والولاء (عام ٣٤٢ هـ).

وعلى أثر ذلك كتب إلى أمه وأخيه ومريديه يطلعهم على آخر أخباره ثم ما لبث أن نهض وتوجه إلى أذربيجان. [تجارب الأمم جـ (٢) ــ الكامل ــ ٩].

ونعود الآن لنعرف ماذا حدث بعد أسر «مرزبان»؟

بعد اندحار قوات (مرزبان) ووقوعه في الأسر، عاد من تبقى ونجا من رجاله بقيادة كل من «جستان بن شرمزن»، و «علي بن فضل» و «شهر فيروز بن كردويه» وبعض قواد آخرين مع جيش قوامه ألف رجل من المقاتلة إلى «أذربيجان» والتقوا جميعاً حول (محمد بن مسافر) والد (مرزبان) ثم توجهوا شطر «أردبيل» وتمكنوا من دخولها، ونصبوه حاكماً عليها، ولكن هذا الحاكم أساء معاملة الأهالي واستبد بهم، فهجر ابنه (وهسوذان) المدينة خشية ما توقع حدوثه من انفجار الأهلين ضد أبيه ولجأ إلى قلعة (طارم)، وقد حدث فعلاً ما توقعه إذ لم يمض زمن طويل حتى ضج الناس وانفجروا ثائرين ينادون بسقوط حاكمهم الجائر، وعزم الديالمة على سفك دمه، فخشي (محمد بن مسافر) سوء العاقبة ومغبة الأمر فغادر «أردبيل» وتوجه إلى ابنه (واهسوذان) في قلعة (طارم) ملتمساً الأمان في كنفه والحماية في حوزته، ولكن لأشد ما كانت دهشته

(أردبيل) وبسهولة تم له الاستيلاء عليها فاضطر أخوه (جستان) إلى اللجوء والاعتصام بقلعة (نيز).

حدث بعد ذلك أن ثار جند (الناصر) عليه وأوغلوا في مضايقته مطالبين بأعطياتهم المتأخرة، وكان الناصر على يقين بأن عمه هو المحرك لهم لأنه يكيد له كيداً ويريد به السوء، فأخذ يعض بنان الندم على ما فرط منه ضد أخيه (جستان)، فرجع إلى نفسه، وبعث إلى أخيه طالباً عقد الصلح بينهما، فلبى (جستان) النداء وعادت بينهما الأمور إلى مجاريها فاتصل بينهما حبل المودة والوئام بعد الحرب والخصام. واعترف الناصر بملكية أخيه (جستان)، ولكن الحالة في البلاد ظلت متوترة وكانت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ، فقد اشتدت حاجة الجند إلى المال فألحوا في طلبها من أولي الأمر الذين أصموا آذانهم حتى بلغ السيل الزبى لدرجة أن الأخوين يئسا من إعادة الأمور في البلاد إلى وضعها الطبيعي فما كان منهما إلا أن كتبا إلى عمهما (واهسوذان) يعرضان الذهاب إليه فأعطاهما الأمان ورحب بعرضهما، فاصطحبا والدتهما وهرعا إليه، ولكنه أبى إلا أن تظل الخيانة شيمته فألقى القبض عليهما بمجرد وصولهما دون مبالاة لما أعطاه على نفسه من عهود ومواثيق، وألقى بهما في السجن. وبذلك خلا له الجو فبسط سلطانه ونفوذه على جميع البلاد وأخضعها لإدارته، ثم نصب ابنه (إسماعيل) ولياً للعهد وأقطعه أكثر البلاد، كما انه أعطى مبالغ كبيرة من الأموال لرجال الجيش وقواده وبذلك ضمن ولاءهم له.

وفي خلال هذه الفترة كان (إبراهيم السالار) قد ذهب إلى أرمينية حيث اتخذها له مستقراً ومقاماً، فلما جاءه نبأ إلقاء القبض على أخويه الناصر وجستان، عمد إلى شن الحرب على ابن عمه (إسماعيل) أملاً في إنقاذ أخويه.

ولما علم (وهسوذان) بهذا النبأ المروع، تملكه الفزع واشتد به القلق، ولا سيما أن جماعة من الجمهور وبعض رجال الجيش من الديالمة كانت روح التمرد والثورة قد بدأت تجد إلى أنفسهم سبيلاً في نفس الوقت الذي أعلن فيه إبراهيم الحرب على ابن عمه إسماعيل، فبادر (وهسوذان) إلى قتل كل من (جستان) وأخيه (الناصر) وأمهما. وجهز حملة عسكرية بعث بها مع مبلغ من المال إلى (جستان بن شرمزن) وطلب إليه أن يقاتل بها (إبراهيم السالار) وكان ذلك (عام ٣٤٩ من الهجرة).

ولما فوجىء (إبراهيم) بهذه الحملة لم يستطع الصمود أمامها فاختصر الطريق وقفل راجعاً إلى (أرمينية)، ولكن (جستان بن شرمزن) قد شن هجوماً عنيفاً على بقية رجاله وسدد إليهم ضربات قاتلة وألحق بهم هزيمة شنعاء، وتمكن من الاستيلاء على (المراغة) التي كانت مركز إمارة (إبراهيم) واستولى كذلك على (أرمية). اهـ من (الكامل ج ـ ٨ ص ٢٠٩).

ولما عاد الأمير (إبراهيم السالار) إلى (أرمينية) لم يستسلم للهزيمة، ولم يخلد إلى الراحة والسكينة؛ بل أخذ يعد العدة لإعادة الكرة، فقامت الاستعدادات على قدم وساق حتى تمكن في عام (٢٥٥) من الهجرة إلى حشد جيش كبير ليغزو به (آذربيجان)، ولكي يضمن لغزوته النجاح والظفر اتصل بجستان بن شرمزن واتفق معه على أن يقف إلى جانبه ويشد أزره وتم بينهما التفاهم على خطة العمل، وساعدت الظروف (إبراهيم) حيث مات ابن عمه (إسماعيل) وقتذاك، فانتهز (إبراهيم) الفرصة وزحف إلى «أردبيل» وتمكن بسهولة من الاستيلاء عليها، وصمم على الانتقام لأخويه من عمه، ولكن «وهسوذان» قد اشتم رائحة الخبر وخشي سوء العاقبة ففر هارباً مع «ابن مشكي» إلى بلاد الديلم، وبذلك خلا الجو للأمير «إبراهيم» وتمكن من الاستيلاء على جميع بلاد «آذربيجان» وصادر جميع أملاك عمه وأمواله. أما «وهسوذان» فمنذ أن فر هارباً إلى بلاد الديالمة وهو يعمل جاهداً لتعكير صفو الأمير إبراهيم ومناوأته وقد حقق له الديلم أمنيته بجيش كبير زحف به على «آذربيجان» وتمكن من اقتحام قلعة «طارم» كما أنه أرسل أبا القاسم ابن ميشكي على رأس جيش آخر لمحاربة «إبراهيم»، ودارت بين الجيشين رحى معركة حامية الوطيس أسفرت عن اندحار جيش «إبراهيم» وسفك دم رجاله الذين وقعوا صرعى في الميدان ولم ينج إبراهيم نفسه إلا بأعجوبة ففر إلى الري ملتجئاً إلى «ركن الدولة» زوج أخته الذي قابله بالحفاوة والتكريم وأكرم وفادته.

إبراهيم السالار

في نفس السنة وفي عاصمة (ركن الدولة) أدى إبراهيم السالار خدمات جليلة خلال ثورة الديالمة وشقهم عصا الطاعة على ركن الدولة لدرجة أنه أصيب بجراح خطيرة، وبعد حين بعث ركن الدولة بوزيره (أبي الفضل ابن

العميد) على رأس جيش في صحبة إبراهيم السالار للاستيلاء على آذربيجان وتمكن الجيش البويهي فعلاً من الاستيلاء عليها وتوسط في الصلح بين (جستان بن شرمرن) و (إبراهيم) وتم الصلح بينهما على يديه، وما أن رأى هذا الوزير العاقل (أبو الفضل) ما عليه إقليم آذربيجان من الغنى والثروة الطائلة والخصب حتى أعجب به أيما إعجاب وكتب سراً إلى (ركن الدولة) قائلاً أنها لخسارة كبرى أن يعهد بإدارة مثل هذا الإقليم إلى مثل (السالار إبراهيم) المنغمس في الملذات والشهوات، والمنصرف عن شئون الإدارة والحكم، ثم طلب إليه أن يباشر هو بنفسه شئون هذا الإقليم على أن يسند إلى إبراهيم شئون إقليم آخر في الدرجة الثانية من الأهمية، ولكن هذه المشورة كان مصيرها الرفض البات. وزيادة على ذلك فقد أمر (ركن الدولة) وزيره هذا بالعودة فوراً من آذربيجان إلى عاصمة ملكه.

هذا، ومما يؤسف له أننا نفتقر إلى معلومات شافية عن نهاية عهد إمارة (إبراهيم) وإن كنا نأخذ من رواية (بيشكوتن ــ نشريات ــ ٦) أنه يلوح أن إبراهيم قد استمر يحكم حتى عام ٣٨٠ من الهجرة، ثم خلفه ابنه (راويدي) ثم خلف هذا الأخير ابنه (كلاس) ثم تلاهما في الحكم (واهسوذان بن كلاس)[1] في عام ٤١٥ من الهجرة.

واهسوذان الثاني

اجتاح (الغز)[2] بلاد (آذربيجان) عام (٤٢٠) من الهجرة في عهد هذا الحاكم، وقد بذل محاولات يائسة في مبدأ الأمر ليقي البلاد شر هؤلاء الغزاة المتوحشين. فلاينهم وقدم لهم كل مساعدة ممكنة ولكن ذهبت كل هذه المحاولات أدراج الرياح، وازدادوا تعنتاً وأوغلوا في التدمير والتخريب واسترسلوا في السلب والنهب.

وفي عام ٤٢٩ من الهجرة شن الغز غارة شعواء على مدينة (المراغة) وانتشروا في شرايين المدينة يسفكون الدماء ويذبحون الأبرياء حتى هلك

---

[1] - يطلق عليه منجم العمران في ص ١٨٩ اسم (غلاك).

[2] - كانت (الغز) عشيرة تركمانية من عشائر أطراف بخارى، جبلوا على الوحشية والقسوة وحب السلب والنهب مما حملهم على الانقضاض على البلاد والتسلط على العباد، وكان قسم منهم قد تقدم تجاه (أصفهان) وبقي قسم آخر في (خوارزم) بينما توجه القسم الثالث نحو «آذربيجان» و «كردستان» بقيادة كل من توقا وكوكتاش ومنصور ودانا ــ المؤلف.

الأهلون عن بكرة أبيهم، كما أشعلوا النار في المساجد وأحرقوا المعابد، ونهبوا الأموال واغتصبوا المقتنيات، واستهانوا بأقدس الحقوق الإنسانية ولم يرعوها مما لا يقره دين من الأديان أو يستريح ضمير أحط فرد من بني الإنسان، ولم تقف أعمال السلب والنهب عند حد سكان المدن والقرى فحسب بل اكتوت القبائل الكردية الضاربة في أطراف المدينة، بنارهم، وتعرضت لويلاتهم.

وإزاء هذه النكبة الطامة والاضطهادات المريرة التف كثير من العشائر الكردية حول (أبي الهيجاء بن ربيب الدولة) رئيس عشيرة الهذبانية وتكاتفوا جميعهم مع (وهسوذان) ليقفوا جبهة متراصة في وجه هؤلاء المغيرين المدمرين من الغز، وقد نجم عن تكوين هذه الجبهة القوية أن خاف الغز سوء العاقبة ومغبة الأمر فزحفوا إلى (الري) أشتاتاً، إلا أن الكرد قد طاردوهم وأعملوا السيف في رقابهم وقتلوا الكثيرين منهم.

وكانت قوة منهم قد دخلت (أرمينية) وأخذ رجال هذه القوة يجوسون خلالها وتوغلوا فيها، وما أن جاءهم نبأ هذه المذبحة التي حاقت بأخوانهم حتى عادوا على جناح السرعة إلى (أرمية) وهي منطقة أبي الهيجاء الهذباني واشتبكوا في القتال مع الأكراد ودارت بين الجيشين معركة حامية الوطيس أسفرت عن خسائر فادحة لكلا الطرفين، وعجز أبو الهيجاء عن استئصال شأفتهم وقطع دابرهم.

وفي عام ٤٣٢ من الهجرة دبر (وهسوذان ماملان)[1] مكيدة للتخلص من الغز، فأقام في (تبريز) حفلة عامة دعا إليها رؤساءهم وزعماءهم المبرزين وما دار بخلدهم أنه قد دبر لهم في نفسه أمراً، وفي أثناء الحفلة فوجئوا بإلقاء القبض عليهم جميعاً، ثم أصدر (واهسوذان) أوامره لرجال جيشه بالانقضاض على جند الغز، فشنوا عليهم هجوماً عنيفاً، وقتلوا الكثيرين منهم، وفر، الناجون منهم، من (آذربيجان) كما سيأتي.

وليس لدينا معلومات أخرى عن عهد هذا الحاكم ولا عن أحوال وحوادث هذا الإقليم إلى حين أن قدم إليه (طغرل بك السلجوقي) واستقر فيه سنة (٤٤٦) كما سيأتي قريباً.

---

[1] - حين أغار الغز على (آذربيجان) كان يحكمها (واهسوذان) وهو من الأسرة الروادية وكان مشهوراً باسم (واهسوذان بن ماملان) على رأي (دائرة المعارف الإسلامية ج ٤ – ص ٥٨٤) أما رأي «منجم العمران ج ٩ – ص ١٨٩» فهو أنه كان مشهوراً باسم (واهسوذان بن غلان) ـــ المؤلف.

وتروي لنا (دائرة المعارف الإسلامية ج ـــ ٤) أن عام ٤٣٤ للـــهجرة قــد شهد زلزالاً مروعاً في مدينة (تبريز) جعل عاليها سافلها، ونشر الدمار وأنـــزل الويلات في شتى أنحائها مما اضطر ملكها (واهسوذان) إلى تشييد قلعة جديــــدة ونقل قاعدة ملكه إليها، خشية إغارة الغز وسطوهم على المدينة خـــلال محنتـــها القاسية، ورزئها الجسيم.

وكان يحكم مدينة (تبريز) عام ٤٣٨ للهجرة حاكم يدعى (ناصر خســـرو)[١] متخذاً لنفسه (لقب سيف الدولة وشرف الملة أبو منصور واهسوذان بن مـــاملان) كما يدعى بمولى أمير المؤمنين.

وفي عام ٤٤٦ للهجرة غادر السلطان (طغرل) مدينة (أصفـــهان) وتوجــه صوب (آذربيجان) فخف الأمير أبو منصور واهسوذان بـــن محمــد الـــروادي لمقابلته، وبادر إلى لقائه في طريقه إلى (آذربيجان) قبل أن يصل إليها مقدماً لـــه فروض الطاعة وعلائم الولاء. وهكذا أضحت حكومة آذربيجان الروادية حكومة تابعة تدين بالخضوع للسلطان وأسدل الستار عليها كحكومة روادية مستقلة، منــذ هذا التاريخ.

وإنه ليتعذر علينا ـــ لجهلنا بميلاد تأسيس هذه الحكومــــة ـــ تحديــد عـــهد استقلالها على التحقيق، ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن قسماً من إقليــــم الجبال كان يخضع أيضاً لحكام آذربيجان الرواديين على أن المعلومات التي فـــي متناول أيدينا عن الفترة الأخيرة عن عهد هذه الحكومة من القلة بمكان، حيــث أن المصادر لم تتعرض إلا للأعمال والحوادث التي وقعت في عهد (أحمديل) فقــط. وإن كان (السيد حسين المكرياني) يقول إن (واهسوذان) الثاني قد لحق بـــالرفيق الأعلى عام ٤٥٨ من الهجرة وأن ابنه (إبراهيم) قد حكم بعده واســـتطال حكمـــه وعمر حتى عام ٤٩٠ من الهجرة.

والظاهر أن مدينة (تبريز) سقطت في أيدي الترك في عهد إبراهيم وبذلــــك انتزعت من أيدي الرواديين، وخرجت من حوزتهم ثم ظل حكمهم بعد ذلك قائمــاً في (المراغة) فقط حيناً من الدهر. (الكامل ج ـــ ١٠ ص ٢٠٥).

---

[١] ـ هكذا في الأصل، والصحيح أن الرحالة الفارسي الشهير (ناصر خسرو) يقول إنه حينما مر بمدينة (تبريز) كـــان على رأسها الملك المدعو (أبو منصور واهسوذان بن محمد - مالان) وكان يلقب بسيف الدولة وشـــرف الملـــة. راجع رحلة (ناصر خسرو) ص ١٣ طبع الهند ـــ (المترجم).

تقول «دائرة المعارف الإسلامية» إن الأمير «أحمديل» هو «ابن إبراهيم بن وهسوذان الروادي الكردي» ويلوح أنه نجح في إحياء حكومة «المراغة» التي عمرت حتى عام (٦٢٤ هـ).

وفي عام ٥٠٥ للهجرة حينما اشتعلت نيران حرب ضروس بين جيوش السلطان «محمد بن ملكشاه» وامبراطور الروم، اشترك فيها الأمير «أحمديل» بجيشه إلى جانب الجيوش السلطانية مع كل من (سقمان القطبي) أمير تبريز و (مودود) أمير الموصل و (أبي الهيجاء) حاكم أربل وأمراء آخرين في المعارك التي دارت رحاها في أرض سورية وأبلى فيها بلاءاً حسناً، حيث تصدى لقائد جيش ملك القدس الشهير (جوسلين ـ Jaselin) اهـ. من (تاريخ حلب).

ولكن الأمير (أحمديل) ما لبث أن انسحب من الميدان متظاهراً بأنه مضطر إلى مغادرة سورية والعودة على عجل، إلى (آذربيجان) بسبب وفاة «سكمان القطبي» حاكم (ديار بكر) و (تبريز)، ولكنه في الحقيقة كان يخفي في نفسه أمراً جللاً وهو العمل على استرجاع ملك آبائه وأجداده.

وكان تحت إمرته وطوع بنانه ـ كما يقول ابن الجوزي[1] ـ جيش خاص قوامه خمسة آلاف من الفرسان، ودخل سنوي يقدر بأربعمائة ألف دينار. وكان طموحاً عالي الهمة واسع الآمال. ولكن ما دري أن قدر له غير ما يهوى وخلاف ما يبغي فقد حدث في عام (٥١٠) من الهجرة أن كان الأتابك (طغتكين) حاكم دمشق في ضيافة السلطان (محمد) في بغداد، وبهذه المناسبة كان قد وفد إلى بغداد الكثيرون من الأمراء والحكام ومن بينهم الأمير (أحمديل) الروادي.

وذات يوم بينما كان (أحمديل) جالساً إلى جانب (طغتكين) في حفل زاخر تقدم رجل ينهمر الدمع من عينيه مدراراً وفي يده ورقة يلتمس السماح له برفعها إلى السلطان، فنهض الأمير (أحمديل) وخف صوب الرجل وقد رق له قلبه ليتناول من يديه الورقة فما كان من هذا الرجل - الذي بدا في ثوب البائس

---

[1] - حيث يقول، في (مرآة الزمان)، إن الأمير أحمديل كان قد حضر إلى بغداد وبمعيته خمسة آلاف فارس. (ج ٣ - ص ٣٢) ـ المؤلف.

العاني ــ إلا أن شهر خنجراً كان يخفيه وطعن به الأمير طعنة نجلاء، ولكن الأمير أمسك بتلابيبه وطرحه أرضاً، فتقدم آخر وهجم على الأمير وطعنه طعنة ثانية. وظهر ثالث فطعنه طعنة قاضية أردته قتيلاً على مرآى ومسمع من هذا الجمع الحاشد وهكذا قضي عليه ودفن، ودفنت معه آماله في استعادة ملك آبائه وأجداده.

وقد ظن (طغتكين) لأول وهلة أن هذه الجريمة الشنعاء لا بد من أن دبرها السلطان ورجاله، ولكن سرعان ما تبدد هذا الظن حيث ظهر الحق، وبان أن هؤلاء الجناة من الباطنية[1].

آق سنقر الأحمديلي

خلف هذا الأمير والده الأمير (أحمديل) على إمارة (المراغة) بعد وفاته.

وفي عام (٥١٤) للهجرة حينما شق الملك (المسعود) حاكم الموصل وآذربيجان عصا الطاعة على أخيه السلطان (محمود) وقلب له ظهر المجن، أرسل أتابكه السابق (قاسم الدولة بزرك) ليستولي على إمارة المراغة ويتسلمها منتهزاً الفرصة. ولكن ثورته هذه قد باءت بالفشل وعادت الأمور سيرتها الأولى وبذلك تمهد السبيل لعودة (ابن أحمديل) من بغداد إلى مقر إمارته عام (٥١٥) للهجرة حيث اتخذها مستقراً له ومقاماً دون منازع، ولكن الطمع قلما جمع أسباب الهناء والراحة، إذ لحق بالرفيق الأعلى في هذا العام، الأمير (كون طوغدى) حاكم (أران) من قبل السلطان (طغرل)، وهنا بدأ (ابن أحمديل) يسعى سعياً حثيثاً لدى السلطان طغرل لتعيينه حاكماً على (أران) خلفاً لحاكمها الراحل فأرسل السلطان في طلبه، على أن يصطحب معه عشرة آلاف من المقاتلة، ويقدم المساعدة الممكنة لجيوشه أثناء قيامها بفتح (أردبيل). ولكن تنفيذ هذا الأمر، ومغادرة (ابن أحمديل) لإمارته (المراغة) صار وبالاً، وجر عليه خسائر فادحة، إذ انتهز السلطان (محمود) فرصة تغيبه عن إمارته وانشغاله في حروب السلطان طغرل، واستولى عليها بوساطة (حيوش بك) ولكن سير الوقائع تدل على أن (ابن أحمديل) لم يقف جامداً إزاء الحالة الجديدة بل أخذ يسعى للتقرب من السلطان (محمود)، حتى نجح مسعاه أخيراً فتم التفاهم والوئام بينهما، وعينه السلطان أتابكاً (مربياً) لابنه وولي عهده الأمير (داود).

---

[1] - من (دائرة المعارف الإسلامية ومعجم البلدان) ــ المؤلف.

وفي عام (٥٢٣) من الهجرة اشترك الأمير (آق سنقر بن أحمديل) في الحملة المرسلة على (دبيس بن مزيد)، وبعد عام من اشتراكه في هذه الحملة أبدى نشاطاً محسوساً ليتولى الأمير (داود) السلطة والملك.

وفي عام (٥٢٦) من الهجرة اشتبك جيشا السلطان (طغرل) والأمير (داود) على مقربة من (همذان) وحاقت الهزيمة بجيش الأمير لتألب الجنود عليه وخيانتهم له، وهكذا لبست الهزيمة الأميرين (داود) و(آق سنقر) مما أدى إلى استيلاء السلطان (طغرل) على (المراغة) و(تبريز).

وبعد حين لجأ كل من الأمير داود وعمه الملك المسعود وأتابكه آق سنقر إلى بغداد حيث مد الخليفة إليهم يد المساعدة وزودهم بجيوش وعتاد وأموال طائلة، مما قوى ساعدهم وحفزهم إلى التوجه صوب (المراغة) وسرعان ما وقعت في أيديهم وأضحت في قبضتهم وفيها ازداد نفوذهم وقويت شوكتهم بفضل ما كان يكنه أهلوها للأمير (آق سنقر) من عميق الولاء، وصادق الحب، مما أدى إلى تحرير جميع بلدان آذربيجان وتخليصها من بين براثن غاصبيها، ولكن أنى لهم الوقوف عند هذا الحد، بل يمموا شطر (همذان) وهنالك شتتوا شمل قوات السلطان (طغرل) ومزقوا صفوفها شر ممزق، وسقطت (همذان) في قبضة جنود الملك المسعود. ولكن الأمير (آق سنقر) مثل والده قد اغتالته يد أثيمة في أثناء دخول القوات الظافرة همذان عام (٥٢٧) من الهجرة، إذ كان هذا القاتل باطنياً موفداً من قبل وزير السلطان (طغرل) لارتكاب هذه الجريمة الوحشية.

آق سنقر الثاني

هو ابن آق سنقر الأول ابن أحمديل. ولم يتفق جميع المؤرخين على هذه التسمية بل اختلف بعضهم وذكروه بأسماء متباينة.

وكان يتحدى هذا الأمير، ويناصبه العداء والبغضاء، أمير آخر يدعى (أزبك بن بالنيكاري) الذي كان يلح باذلاً قصارى جهده أملاً في الاستيلاء على (أران) و(آذربيجان) وكان في هذا الوقت (تبريز) خاضعة لحكم آق سنقر أمير المراغة.

وما أن أهل عام (٥٤١) للهجرة حتى ضرب هذا الأمير (أزبك) حصاراً منيعاً حول مدينة (المراغة) ولكنها امتنعت عليه واستطال حصارها حتى عام

(٥٤٥هـ)، حيث خف إليه السلطان مسعود بنفسه على رأس جيوش جرارة ما لبثت أن اقتحمت المدينة وتم للسلطان الاستيلاء عليها وأمر بهدم قلعتها الحصينة، وبعد ذلك بقليل زالت الجفوة بين (أزبك) والأمير (آق سنقر) وتم بينهما الصلح وحل الوفاق والوئام أمام قلعة (روين دز)[١].

ولكن (أزبك) لم يعمر طويلاً بعد هذا الصلح حيث لقي حتفه مقتولاً على يد السلطان (محمد) إثر غضبة جامحة؛ مما أفضى إلى استياء الأميرين «أيلدكز» و «آق سنقر» من السلطان محمد وإقدامهما على تنصيب الملك (سليمان) على عرش «همذان» عوضاً عنه.

ولكن السلطان «محمد» استطاع بعد حين استخلاص «همذان» واستعادة سلطانه عليها، ثم رأى من الحكمة أن يعقد صلحاً مع أميري آذربيجان «أيلدكز وآق سنقر» فأوفد إليهما رسلاً من قبله لمفاوضتهما في عقد الصلح، فلبيا دعوته وحققا رغبته وعقد الصلح في عام (٥٤٩) للهجرة، وهكذا قسم إقليم آذربيجان بين الأميرين الكبيرين.

وقبل أن يلحق السلطان (محمود) بالرفيق الأعلى وتصعد روحه إلى بارئها وضع ابنه الصغير (داود) تحت وصاية الأمير (آق سنقر) لأن السلطان (آرسلان) كان في حماية الأمير (إيلدكز) وتحت وصايته.

ثم حدث بعد ذلك أن قام (بهلوان بن إيلدكز) على رأس حملة عسكرية وهاجم الأمير (آق سنقر) أملاً في تنصيب هذا الأمير المحمي وهو السلطان (آرسلان) بدل والده غير أن أمير (المراغة) الشجاع قد دحر الجيش المهاجم بقيادة بهلوان على ضفاف نهر (سفيدروذ) واضطره إلى التقهقر وذلك بتعضيد (شاه أرمن = لقب ملوك خلاط من الكرد والتركمان) له في عام ٥٥٧ من الهجرة.

ولما تم لأمير المراغة استئصال شأفة هذه الحملة وتشتيت شملها، بعث بخمسة آلاف من الجنود لنجدة (إينانج) حاكم الري الذي كان مشتبكاً حينذاك في القتال مع (إيلدكز) وجنوده. إلا أن (أيلدكز) قد استطاع تشتيت شمل هذه النجدة وألحق بها هزيمة شنعاء. ويلوح أن (آق سنقر) و (إيلدكز) قد زالت بينهما

---

١ - أي قلعة (روين) كانت قلعة حصينة جداً على نهر الصوفي على مسافة ١٥ كيلو متراً في شمال المراغة — المؤلف.

الجفوة بعد ذلك وحل بينهما الوئام والوفاق وتبدد الخصام، بدليـــل مســاعدة (آق سنقر) للأمير (إيلدكز) في حملته على بلاد الكرج.

وفي عام (٥٦٢) للهجرة قام الأمير (آق سنقر) بزيارة، إلـــى بغـــداد حيـــث استقبل من الأهلين استقبالاً منقطع النظير وقدم الملك (داود) لأتابكه وحاميه مـــن ضروب الحفاوة والتكريم ما لم يسبق له مثيل.

وفي نفس هذا العام أعاد (بهلوان بن إيلدكز) الكرة واستأنف إلقاء الحصـــار على (آق سنقر) في (المراغة)، ولكنه سرعان ما رفع الحصار وتم عقد الصلـــح بينهما.

ومما يؤسف له أننا نفتقر إلى معلومات شافية عن الحلقة الأخيرة من عـــــهد هذا الأمير، اللهم ما يرويه لنا ابن الأثير من أن أمير الري (إينانج) قد قتل فـــي عام (٥٦٤) للهجرة، ثم ثار (قتلغ) أخو (آق سنقر). إلا أن الأتابك (بهلوان بـــن إيلدكز) قد عاقبه وسلم حكومة (المراغة) لأخوي (قتلغ) وهما (عــلاء الديــن) و (ركن الدين).

يتضح من هذا جلياً أن الأمير (آق سنقر) الثاني قد توفي عن أربعة أبنـــاء، وأن حروباً دامية قد اشتعلت نيرانها بين (آق سنقر الثالث) وأخيه (قتلغ) لســـبب واضح وواحد. ألا وهو التكالب على الدنيا والتنافس على الحكم. وظلت نـــيران الحرب تزداد بينهما اشتعالاً، مما أدى إلى تدخل (بهلوان ابن إيلدكز) لوضع حـــد لهذه المعارك الدموية وتمكن فعلاً من حسم النزاع بإعطاء الحكومة إلى الابنيـــن الصغيرين للأمير (آق سنقر الثاني) الراحل وهما (علاء الدين) و (ركن الديـــن) وبذلك حرم الأخوان المتنازعان من الحكم.

كما يحدثنا ابن الأثير أيضاً عن حاكم كان قائماً على المراغة عــــام (٥٧٠) للهجرة يدعى (فلك الدين) وكان حفيد (آق سنقر الثاني) وأن والده تنازل له عـــن الحكم، وأن (بهلوان بن إيلدكز) قد أعاد الكرة في أيام حكم هذا الأمـــير وهـــاجم (المراغة) وقلعة (روين دز) ولكن سرعان ما توقفت رحى المعركة وعقد بينـــهما صلح كان ضمن شروطه التخلي عن (تبريز) والتنازل عنها لأسرة (إيلدكز).

ومعنى ذلك ــ كما يتبادر إلى أذهاننا ــ أن مدينة (تبريز) قد ظلـــت حتـــى عام (٥٧٠) للهجرة في حوزة حكام المراغة وضمن دائرة نفوذهم، وأن منطقـــة حوالي جبل (صهند = سهند) بأكملها كانت تدين بـــالخضوع والتبعيـــة لأســـرة

(أحمديلى). وتلت ذلك فترة قاربت الثلاثين عاماً لا نعرف من أخبارها ولا عن حوادثها سوى خبر عن عقد اتفاقية بين «علاء الدين» أمير المراغة و «مظفر الدين كوكبري» أمير (أربيل) عام ٦٠٢ للهجرة، وكان (علاء الدين) يرمي من وراء ذلك إلى الحصول على مساعدة (مظفر الدين) له، وشد أزره في العمل على انتزاع «آذربيجان» من يد حاكمها (أبو بكر إيلدكز)، وتنفيذاً للاتفاقية[1] قام جيشا الحليفين بالزحف تجاه (تبريز)، فما كان من حاكمها (أبو بكر إيلدكز) إلا أن بادر بطلب النجدة من (آي طوغمش) مملوك أسرة إيلدكز القديم الذي لبى النداء واستجاب لطلبته، ولكن ما كادت الحرب تنشب أظفارها، ويشتد أوارها حتى انسحب (مظفر الدين كوكبري) من الميدان عائداً إلى (أربيل) في حين تعقب (آي طوغمش) أثر (علاء الدين) وأخذ يطارده حتى قرع أبواب (المراغة) فاضطر (علاء الدين) إزاء ذلك إلى التنازل عن القلعة التي كانت مثار النزاع لخصمه، مقابل استرداد مدينتي (أرمية) و (أشنة = إشنو).

ولم يعمر (علاء الدين بك) طويلاً بعد ذلك. فقد لقي ربه في عام (٦٠٤) للهجرة ويطلق عليه ابن الأثير اسم (قره سنقر)[2]، وقد خلف بعد وفاته طفلاً صغيراً كفله من بعده أحد رجاله المخلصين الأحرار، ولكن شاءت الأقدار أن تصعد روح هذا الأمير الصغير إلى بارئها في عام (٦٠٥) للهجرة أي بعد والده بعام واحد.

وبعد ذلك أتيحت فرصة ذهبية لأبي بكر إيلدكز فاستولى على شتى أملاك وممتلكات الأسرة الأحمديلية الكردية عدا القلعة (روين دز) التي كان يحكمها ذلك الرجل الصادق من رجال (علاء الدين بك) والذي كان يكفل الأمير الصغير كما ذكرناه.

والظاهر أن (علاء الدين بك) الذي أتى عليه الشاعر (نظامي) في ديوانه (هفت بيكر) ــ ثناء مستطاباً فأطنب في مديحه ــ هو بالذات (علاء الدين بك) حاكم (المراغة)، ثم يكشف لنا هذا الشاعر في ديوانه أيضاً عن اسمي ولدين

---

[1] - تقول (دائرة المعارف الإسلامية) في مادة (تبريز) إن هذه الاتفاقية عقدت بين الأمير (علاء الدين قره سنقر أحمديلى).

[2] - ولا يخفى أن هذا الأمير هو غير (قره سنقر) التركي الذي كان حاكماً على المراغة في عهد (أولجايتوخان) وتوفي عام ٧٢٨ للهجرة ــ المؤلف.

الفصل الثاني

٢ ـ الحكومة السالارية[١] بآذربيجان (٣٠٠ ـ ٤٢٠ هـ)

كانت آذربيجان ــ كما أشرنا في المجلد الأول ــ يطلق عليها اسم (ميدية الصغرى. ففي عام (٣٣ ق.م) استولى عليها الملك الأشكاني (فرهاد) الرابع[٢] وهكذا سلبت الحكومة الأشكانية استقلال ميدية الصغرى، وانتزعته اغتصاباً، وإن كانت قد فشلت فشلاً ذريعاً في قمع حرية أهلها وإضعاف الروح المعنوية بينهم، بل ظلوا يتمتعون باستقلال داخلي. في ظل حكومات صغيرة، تسوس شئونهم وترعى مصالحهم.

ومما يحز في النفس ويوجب الأسف، أننا نفتقر إلى معلومات مفصلة وافية عن تاريخ هذا الإقليم الكردي خلال بضعة قرون قبل الإسلام وإبانه، لدرجة أن المؤرخين والرحالة العرب والمسلمين أنفسهم، قد وقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذه الفترة، وما استطاعوا لها تأريخاً لإعطائنا فكرة واضحة وإمدادنا بمعلومات شافية إضافية عن أحوال هذا الإقليم في فجر الفتوحات الإسلامية، الأمر الذي يتعذر علينا معه محاولة الربط بين مجريات الحوادث والوقائع التاريخية لهذا الإقليم في العهد الإسلامي وبين تلك الوقائع القديمة التي كانت آذربيجان مسرحاً لها.

ومع هذا نستطيع أن نستدل من مجرى الحوادث والوقائع التاريخية على أن هذا الإقليم قد شاهد حكومة مستقلة كبرى قامت على تصريف شئونه، وأنه على الدوام كان مرتعاً لنزاع دائم، وقتال مستعر، بين الحكومات الإيرانية والدولة الرومانية (الشرقية والغربية).

---

[١] - يطلق (الصدفي) في (تاريخ الدول) اسم (الدولة السالارية) أو (الدولة المسافرية) على هذه الحكومة، وواضح أن التسمية الأولى أصح وأنسب لأن مؤسس هذه الدولة كان يدعى (سالار مرزبان)، ويقول أيضاً إن هذه الدولة كانت ديلمية، في حين أن (دائرة المعارف الإسلامية) ليس لديها أدنى شك في أنها كانت كردية، وعلى هذا تكون الديالمة بمقاطعتي (كيلان وطبرستان) فرعاً من الأمة الكردية كما يقول به (إسكندر منشي) في تاريخه (عالم آراي عباسي ص ٧٦٢) وكما ورد في كتاب (حمزة الأصفهاني) أن الإيرانيين كانوا يطلقون لفظ الديلم على أكراد طبرستان.

[٢] - تاريخ إيران القديم ص ١٥٦ ــ المؤلف.

نعم: هنالك عالمان عربيان على التحديد، قد اهتما دون غيرهما، ببحث حالـة آذربيجان وهما (ابن خرداذبه)[1] الذي زار (تبريز) عام ٢٣٢ هجرية في عـهد إمارة (محمد الروادي) أما ثانيهما فهو (الأصطخري)[2] الذي قام بسياحة في إقليم آذربيجان في غضون القرن الثالث الهجري، حيث رأى بعيني رأسه بلاد (تبريز وجبردان = ديخواركان واشنو) تحت حكم العشائر (الردينية) المعاصرة لحكومـة (بني الساج) التي كانت قصبتها قديماً مدينة (المراغة) ثم أضحت فيما بعد مدينـة (أردبيل = أردويل).

ويقول (ياقوت الحموي)، في معجم البلدان، إن إقليم آذربيجان قد ظل فـترة في قبضة الترك إلى أن تغلب «كيخسرو» ملك إيران علـى حاكمـهم المدعـو «أفراسياب» وقتله، وبذلك زالت دولتهم عن هذا الإقليم.

ومما يدل على أن رواية «ياقوت» هذه غير صحيحة البتة، وأنـها محض خرافة أننا نعلم علم اليقين أن «أفراسياب» هذا كان ملكاً على تركسـتان أي مـا وراء النهر، لا حاكماً على إقليم آذربيجان، كما يدعي (ياقوت).

بالرغم من هذا، فالمعروف أن بلاد «ميدية الصغرى» كانت بأكملـها فـي قبضة الأكراد أحفاد الميديين الأوائل منذ عهد الميديين إلى أن تحركت الإغارات التركية نحو الغرب، وظهر الغز ثم السلجوق عام (٤٢٠).

ثم دخل هذا الإقليم في حوزة «يوسف بن أبي الساج» عام (٢٨٨) كمـا ورد في ياقوت وظل في قبضته إلى أن استطاع «مؤنـس الخـادم» أن يسـتخلصه، وينتزعه منه إبان خلافة «المقتدر بالله». ولكن يوسف بن أبي الساج لم يهدأ لـه بال، ولم يطق صبراً على انتزاع هذا الإقليم منه، فأخذ يعمل جاهداً آناء الليـل، وأطراف النهار، حتى أعاده ثانية إلى حوزته.

وما أن أهل عام (٣٢٦ هـ) حتى تهيأ حاكم «الري» المدعـو «وشـمكير» للاستيلاء على هذا الإقليم، وتحركت جحافل جيشه بقيادة أحد قواده «لشكري بـن مردي» حاكم الجبال، وولت وجهها شطر (آذربيجان) التي كان يحكمـها إذ ذاك قائد من قبل «يوسف بن أبي الساج» يدعى «ديسم بن إبراهيم الكردي» الذي قـلم

---

[1] - هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه الفارسي الذي طبع كتابه بلندن سنة ١٣٠٩ هـ، وقد ألفـه بين ٢٣٢ هـ و ٢٧٢ هـ ويظن أنه توفي حوالي سنة ٣٠٠ هـ. كما حققه في دائرة المعارف الإسلامية.

[2] - المتوفى سنة ٣٤٠ هـ ـ سنة ٩٥١ م ـ المترجم.

على رأس جيش جرار، قطع به الطريق على جيش «لشكري»، وحاقت الهزيمة بجيش «ديسم» في بادىء الأمر، ولكنه لم يقبع، ولم يسكت على الهزيمة، بل أعاد الكرة بعد حين، واستأنف القتال، غير أن الهزيمة عادت فلاحقته للمرة الثانية، فاضطر مرغماً إلى التقهقر تاركاً وراءه لخصمه جميع بلدان الإقليم، عدا مدينة «آردهويل = أردبيل» التي استمات أهلوها في الدفاع عنها، ولم تخدعهم أقوال ووعود «لشكري» المعسولة، كما بلغهم عن ظلم الديلم وغدرهم، لهذا وقفوا رجلاً واحداً؛ وطلبوا النجدة من «ديسم» فاتفق معهم على القيام بهجومين في يوم معين على جيش «لشكري» وحسب الخطة الموضوعة، وفي اليوم الموعود؛ خرج الأردبليون من قلعتهم وانقضوا كالصاعقة على جيش «لشكري» ودارت في نفس الوقت الذي هاجمه فيه جيش «ديسم» رحى معركة حامية الوطيس؛ كثرت فيها المذابح وسفك الدماء؛ ولم ينج منها إلا «لشكري» بأعجوبة، وبعد نجاته لجأ إلى «موقان» حيث زوده أصفهبدها «ابن دلوله» بقوة عسكرية، عاد بها لمنازلة خصمه «ديسم» الذي عزف عن الاشتباك في حرب جديدة، بل فضل الانسحاب إلى نهر الرس وتمكن من اجتيازه هو ورجاله بالرموث والأطواف[1] وقد احتجزها في جوار الشاطىء الذي نزل إليه ولم يعدها إلى الشاطىء الثاني ولما وصل «لشكري» من وراءه مطارداً فلول جيشه تعذر عليه اجتياز النهر في بادىء الأمر لعدم وجود «الرموث»، ولكن اليأس لم يجد إلى قلبه وقلوب رجاله سبيلاً، فأخذوا يبذلون المحاولات حتى تمكن بعضهم من عبور النهر من الجهة الشمالية، وبهذا تكشفت أمام أعينهم بارقة أمل في اجتيازه وفعلاً استطاعوا بأكملهم عبور النهر في ليلة ليلاء وانقضوا انقضاض الصاعقة على «ديسم» ورجاله بعد أن أيقنوا أنهم أضحوا في حرز مكين ومكان أمين.

توجه (ديسم) بعد هذه الهزائم المتوالية إلى الري وقابل حاكمها (وشمكير) وقدم له فروض الطاعة والولاء وأظهر له علائم الخضوع، وقبل طائعاً مختاراً الشروط التي أملاها عليه «وشمكير» وأهمها أن يدفع له جزية سنوية مقدارها مائة ألف دينار، وأن يذكر اسمه في الخطبة، على أن يمده نظير ذلك بقوة عسكرية يسترد بها إقليم آذربيجان من بين براثن (لشكري).

---

[1] - هي قرب تنفخ وتوضع في الأنهر ليجتاز الناس المياه عليها — (المترجم).

ولما فوجىء (لشكري) بهذه القوة تنقض عليه وتسدد إليه الضربات، لم يقـو على الصمود أمام ضرباتها، وغادر البلاد حقناً للدماء، قـاصداً بـلاد الزوزان[1] ويعتصم بالجبال بعد أن دمر كل ما صادفه في طريقه من البلاد والقرى ولكـن الأرمن اعترضوا سبيله فلقي حتفه هنالك حيث أوقعوه في الكمين، وقد اسـتطاع ابنه أن يصل إلى الموصل سالماً على رأس قوة صغيرة من جيشه، انضـم بـها إلى حاكمها المدعو (أبو عبد الله الحسين بن سعيد الحمداني). وتم الاتفاق بينـهما على إعداد جيش مشترك لاسترداد آذربيجان، وبعد أن فرغا مـن إعـداد هـذا الجيش توجها على رأسه صوب آذربيجان لمنازلة (ديسـم) الـذي اسـتطاع أن يشتت شمل جيشهما وألحق بهما هزيمة منكرة وهكذا عـادت آذربيجـان مـرة أخرى وأضحت خاضعة لحكم (ديسم).

ومما لا شك فيه أن الأغلبية الساحقة من قوات (ديسم) كانت كرديـة، كمـا كان بعضها الآخر من جنود (وشمكير) الديلميين، وقد تنبه (ديسـم) إلـى هـذه الظاهرة، ولفت نظره أن القوة الكردية تسيطر علـى أكـثر منـاصب الجيـش، وتتحكم في شئونه، وتحتل الكثير من القلاع والمدن الهامة، وأنه أضحى مغلوبـاً على أمره لا يرجع إليه في أي شأن، فأخذ يفكر ويدبر في وسـيلة يسـترد بـها نفوذه المسلوب. وسلطانه المنهوب، حتى هداه تفكيره إلى أن أنجع وسـيلة هـي تعزيز قوة الديلم حتى توازي قوة الكرد وبذلك يتحقق التـوازن بيـن القوتيـن، وتحقيقاً لهذه الفكرة أخذ يقرب إليه بعض الزعماء الديلميين مثل «صعلـوك» و «علي بن فضل» وأخذ يغدق عليهم بعض الإنعامات واختارهم ندماء لـه، ولـم يقف عند هذا الحد، بل أخذ ينتزع المناصب ويخلص المدن والقرى من الكـرد، رويداً رويداً، ويسندها إلى رجالات الديلم المقربين ثم اتبع ذلك بمكيـدة دبرهـا للتخلص نهائياً من بعض الكرد بأن ألقى القبض عليهم وزج بهم فـي غيـاهب السجون، وبذلك أمن شرهم.

وكان (ديسم) نفسه خارجياً، وأما وزيره أبو القاسم علي بـن جعفـر فكـان باطنياً ومن أهالي آذربيجان، فأوغر أعداء الوزير وحساده صدر (ديسم) عليـه فحقد عليه، وبدأ الوزير يشعر بنجاح المؤامرة التي حاكـها لـه أعـداؤه فـأخذ

---

[1] - وهو اسم لاقليم جبلي من بلاد الكرد في شرق شمالي الموصل ذكره ياقوت في المعجـم. ومعنـاه، بالكرديـة مصايف جبلية ـــ المترجم.

الرعب يسري بين جنبيه، وتوجه سراً إلى الطرم ليحتمي «بمحمد بن مسافر»[1]، وقد لازمه سوء الحظ في حله وترحاله إذ ما كاد يحط رحاله على أبواب «ابن مسافر» حتى ألفاه على اختلاف مع عظماء شعبه، تسود بينهم الفرقة، ويشتد بينهم الجفاء، مما ترتب عليه قيام كل من ابني «محمد بن مسافر» المدعوين «المرزبان، وهسوذان» بانتزاع ممتلكات والدهما، ثم ألقيا به سجيناً في القلعة، فاضطر (علي بن جعفر) أمام هذه الظروف أن يسعى جاهداً للتقرب من (المرزبان) حتى تحقق أمله ونال أمنيته، فأخذ يزين للمرزبان الاستيلاء على آذربيجان فوجد منه قلباً واعياً، وآذاناً صاغية لما أوحى به إليه، وما لبث أن اتخذه المرزبان له وزيراً لا يبرم أمراً دونه ولا يقرر شيئاً دون أخذ رأيه والحصول على مشورته. فكان واسع النفوذ، مسيطراً على زمام الأمور، إذ كان علي بن جعفر باطنياً، أما مرزبان فقد كان شيعياً فقد سمح له أخيراً بنشر مذهب الباطنية جهاراً.

وبعد أن فاز (علي بن جعفر) بموافقة المرزبان على فتح آذربيجان، أخذ في إغراء الديلميين الذين كانوا يحاربون في صفوف (ديسم) حتى تمكن من أن يستميل إليه زعماءهم، فأعلنوا انضمامهم إلى جانبه، والعمل تحت قيادته، وكانت هذه الخطوة الموفقة حافزاً قوياً وعاملاً مشجعاً لكل من «علي بن جعفر» و «مرزبان» على الإقدام والتحفز للزحف على (آذربيجان) على رأس جيش عرمرم، تقابل بجيش (ديسم) واشتبكا في القتال، وهنا لعبت الخيانة دوراً حاسماً في تقرير مصير المعركة، فقد تسلل الديلميون وفريق من الأكراد خفية من جيش (ديسم) وتآزروا مع «مرزبان» وحاربوا إلى جانبه، أصدقاءهم بل وحلفاءهم بالأمس، فخارت عزيمة (ديسم)، وأسقط في يده، ووقع في حيص بيص، فترك ميدان القتال حقناً للدماء، وانسحب مع بعض رجاله إلى جبال (كردستان = أرمينية) حيث نزل ضيفاً على صديقه (خاجيك بن الديراني) حاكم تلك البلاد. فأكرم وفادته، وأنزله منزلاً حسناً، ولكن أنى لديسم أن تفل عزيمته أو يستسلم للهزيمة فأخذ جاهداً في تجنيد أكراد تلك الجهات، استعداداً لإعادة الكرة ومحاولة استرداد آذربيجان، إذ بينما اطمأن «مرزبان» ورجاله إلى

---

[1] – جاء في (دائرة المعارف الإسلامية) أن محمداً هذا كان يلقب باسم (مامه لان) وفي مصادر أخرى أنه مشهور بصعلوك ـــ المؤلف.

تخليص بلاد آذربيجان كلها، عدا مدينة (تبريز) وضمها إلى حوزتهم، نرى الخيانة تبرز على المسرح من جديد متمثلة في شخص (علي بن جعفر) وزير (مرزبان) الآن وموضع ثقته. والذي سبق أن مثل هذا الدور مع (ديسم)، فقد حدث بعد حين من تخليص آذربيجان أن أوفده (مرزبان) إلى مدينة تبريز للاستيلاء عليها، فما كان منه إلا أن كاتب أهليها بأن (مرزبان) قد تولاه الجشع، وتملكه الطمع في ثروتهم وأموالهم وأنه موفد إليهم من قبله لابتزاز هذه الأموال، وأشار عليهم بطلب النجدة من (ديسم)، وأن يقوموا بمجرد أن تصل إليهم النجدة قومة رجل واحد وينقضوا على ديالمة (تبريز) لتشتيت شملهم وقطع دابرهم، ورحب أعيان (تبريز) بهذه الفكرة، وأبوا إلا أن يشاطروه الخيانة، وقاموا فعلاً بتنفيذها، وما أن وصل (ديسم) على رأس قواته إلى (تبريز) ملبياً النجدة. وما أن ترامى إلى أسماع قوات مرزبان هذا الخبر، حتى تسربت مجموعة كبيرة من الكرد المستائين من مرزبان خفية من بينها وانضمت إلى جيش (ديسم)، وكانت هذه الحوادث تترى، وتجرى، من وراء ستار دون علم مرزبان، فلما نمى إليه خبرها وجاءه نبأ هذه المكيدة، قام على عجل، وقاد جيشاً كبيراً واتجه به صوب (تبريز)، والتحم مع جيش (ديسم) في معركة حامية الوطيس على مقربة من المدينة، وقد أبلى جيش (مرزبان) بلاءاً حسناً وأظهر مهارة حربية فائقة مما ضمن له النصر على العدو.

تقهقر (ديسم) بعد أن اصطلى بنيران الحرب، وشرب كأس الهزيمة حتى ثمالتها، واعتصم بقلاع المدينة ملتمساً حمايتها له، ولكن (مرزبان) قد تعقبه وضرب حصاراً منيعاً حول القلاع، فضيق بذلك عليه الخناق، ورغم ذلك تمكن (ديسم) هو وبعض من تبقى لديه من قوات من الهروب ليلاً تحت جنح الظلام والإفلات من الحصار الذي طوقوا به، قاصدين صوب مدينة (أردبيل)، فلحق بهم (مرزبان) بعد أن ترك قوة كافية على حصار (تبريز)، وظل يطاردهم حتى تمكن من محاصرتهم في (أردبيل). ولما طال الحصار، وامتنعت المدينة على (مرزبان)، أخذ يفكر في تدبير مكيدة تذلل له الصعاب، وتكفيه مؤنة القتال، وأخيراً حصل على ضالته المنشودة، إذ وفق إلى ممثل بارع لتمثيل أهم أدوار تلك المكيدة. وهي تتلخص في أن «أبا عبد الله محمد بن أحمد النعيمي» الذي اتخذه (ديسم) له وزيراً بعد (علي ابن جعفر) قد اتصل به سراً (مرزبان)

وتبودلت بينهما المخابرات، وكتب ابن النعيمي إلى مرزبان يقول له: إنني سأبذل قصارى جهدي فأقنع (ديسم) بضرورة طلب الصلح، وسيصلك بعض زعماء المدينة وكبرائها موفدين من قبله يطلبون عقد هذا الصلح، فمتى وصلوك فمر بالقبض عليهم، وزج بهم في غياهب السجون، ولا تمكنهم من العودة حتى يستسلم (ديسم). هذه هي رسالة وزير (ديسم) إلى (مرزبان) وهي رسالة يتمثل في كل حرف من حروفها الخيانة والغدر.

نفذ (مرزبان) ما جاء في هذه الرسالة حرفياً، وبهذا نجحت المكيدة، حيث أرغم أهالي المدينة (ديسم) واضطروه إلى قبول الاستسلام حفظاً على حياة المعتقلين، وضماناً لإطلاق سراحهم، ولم يقدم (مرزبان) على أية إساءة إلى (ديسم) بل عامله معاملة كريمة، ولما طلب إليه (ديسم) تخصيص قلعة (طارم = الطرم) لإقامته هو وأسرته أجاب طلبته.

وهكذا خضعت بلاد (آذربيجان) بمالها الوفير وكنوزها الهائلة، وثروتها الطائلة لمرزبان دون أن ينافسه منافس أو يوجد عليه رقيب في بلاد آذربيجان كلها. وأقام (ديسم) ردحاً من الزمن في (طارم) في جو يسوده الهدوء وتخيم عليه السكينة، ولكنه وهو ربيب حرب إذا أخلد إلى راحة لا تلبث أن تسعى إليه، إذ حدث أن أغار الجيش البويهي على (آذربيجان) ووقع (مرزبان) أسيراً، فقام أخوه (واهسوذان) باستدعاء (ديسم) ليضمن وقوف الكرد إلى جانبه. وأكرم وفادته، ووكل إليه أمر الدفاع عن (آذربيجان) ضد المغيرين من (آل بويه).

شمر (ديسم) عن ساعد الجد وتمكن من حشد قوة كبيرة من الكرد وتملك ناصية الأمور في (آذربيجان) ووقف على تمام الاستعداد وكامل الأهبة للقاء الجيش البويهي الذي كان يقوده (محمد بن عبد الرزاق). أما عن حوادث هذه الحرب ووقائعها فقد تعرض لها (ابن مسكويه) في المجلد الثاني من كتابه (تجارب الأمم) وذكرها كما رواها (ديسم) نفسه، حيث قال:

إنه كان لـ(محمد بن عبد الرزاق) القائد على الجيش البويهي كاتب خراساني يدعى (ابن محمود) وكان موضع ثقته وتقديره فاتخذه وزيراً له، وحدث أن أوفده إلى (آذربيجان) لتحصيل الأموال الأميرية، وهنالك لعب الشيطان برأسه، وأبى الشيطان إلا أن يزين له خيانة سيده، فأسرع منضماً إلى (ديسم) بمن معه من القوات العسكرية وما يحمله من أموال أميرية، فلما علم

(محمد بن عبد الرزاق) بهذا النبأ المشئوم، وقع في حيص وبيص، وتزعزع مركزه، فلم يطل الإقامة في (آذربيجان) بل عاد أدراجه إلى (الري) علم (٣٤٢) من الهجرة يجر أذيال الفشل.

وألقى (ديسم) تصريف شئون الوزارة وتدبير مهام الحكم على عاتق (أبي عبد الله النعيمي) و (ابن الصقر[١] المسيحي) وتفرغ هو لتجييش عدد كبير من الكرد والديلم استعان بهم على استرداد سلطانه واستعادة نفوذه في بلاد (آذربيجان) بأكملها. ولكنه ما كان يعلم أن سلطانه في هذه المرة أيضاً سلطان موقوت إلى حين، إذ بعد فترة قصيرة نجا (مرزبان) من ذل الأسر، وأطلق سراح (علي بن ميشكي) هو الآخر من نير سجن (ركن الدولة) فاتفقا مع (واهسوذان) على إخراج (ديسم) من البلاد.

وكان (ديسم) يجهل كل شيء عن نجاة (مرزبان) من الأسر، وكان وزيره (أبو عبد الله النعيمي) يتلمس الفرص بل يتحسسها لخيانة سيده تخلصاً من جشعه فأخذ يوغر صدر ابن أخته المدعو (غانم) ضده ويحرضه عليه حتى ثار في وجهه وكتب إليه ملوحاً له بقوته وقوة الديلم، واغتنم (أبو عبد الله النعيمي) هذه الفرصة التي هيأها لنفسه بإيقاع الخلاف بين (غانم) الذي جاء من أردبيل إلى خاله (ديسم) وطالبه بأموال أبي عبد الله وكاتبه، ملوحاً له بقوته وبقوة الديلم فقتل الكاتب (علي بن عيسى) واستولى على جميع أموال (ديسم) وفر هارباً إلى (ابن ميشكي)، وكان (ديسم) إذ ذاك خارج أردبيل، فما أن بلغه هذا النبأ، حتى أسرع عائداً إليها، وحشد جيشاً كبيراً سار على رأسه لمنازلة (علي بن ميشكي).

وما أن دارت رحى المعركة حتى انسحبت الفرقة الديلمية من جيش (ديسم) وتسللت إلى صفوف العدو فقررت هذه الخيانة مصير المعركة، وحاقت الهزيمة بجيش (ديسم) الذي آثر هو والفريق الكردي من جيشه اللجوء والانسحاب إلى

---

[١] - يذكر(ابن مسكويه) هذا البحث في المجلد الثاني من كتابه (تجارب الأمم) ص ١٣٦ بنوع آخر فيقول: إن (ابن الصقر) كان عاملاً على مال جهتي (خوي وسلماس) من قبل (مرزبان)، ولما بلغه نبأ (ديسم) هرع إليه وسلمه جميع ما تحت عهدته من الأموال، وأظهر له علائم الطاعة وآيات الولاء، فسر منه (ديسم) واتخذه له أميناً، ولما توجه (ديسم) لمحاربة (محمد بن عبد الرزاق) أرسل جميع مقتنياته من النقود والأموال مع (ابن محمود) إلى جبال (موقان)، فخانه (ابن محمود) وأنبأ (محمد بن عبد الرزاق)، وما أن وصل هذا النبأ إلى مسامع (ديسم) وهو يخوض غمار المعركة حتى بدا عليه التأثر وتغلب عليه الحزن مما أدى إلى اندحاره في المعركة وفشله ـــ المؤلف.

(أرمينية) حيث علم هنالك فقط ولأول مـرة، بنجـاة (مرزبـان) مـن الأسـر، ووصوله إلى (آذربيجان) وإرساله (علي بن ميشكي) ليحل محله.

إزاء ذلك اضطر (ديسم) إلى التوجه صوب الموصل ومنها يمم نحو بغـداد ولجأ إلى (معز الدولة) الذي أكرم وفادته، وأجرى عليه راتبـا سـنويا مقـداره خمسون ألف دينار، فأخذ يرفل في حلل من الرفاهة والعيـش الرغيـد، وأحبـه (معز الدولة) حبا جما، لدرجة أن أصبح يناديه باسم (أخي أبا سالم ديسم).

ولكنه ما لبث أن هجر هذه الحياة الرغيدة غير آسف عليها، إذ بعـث إليـه أصدقاؤه وخلصاؤه والأقربون في آذربيجان بكتب تنم عن علائم الولاء وصـادق التشجيع، ويطلبون إليه العودة للجهاد في سبيل استرداد أذربيجان، فلبى النـداء، وترك بغداد على الفور، بعد أن وثق من أن (معز الدولة) لـن يمـد إليـه يـد المساعدة مرضاة لأخيه (ركن الدولة) الذي كان علـى وفـاق مـع (مرزبـان) وبينهما مصاهرة، وبعد أن غادر بغداد، قصد الموصل عام (٣٤٣) من الـهجرة مؤملا العون عند (ناصر الدولة الحمداني)، وبذل محاولات جبارة للحصول على هذا العون ولكن ذهبت كلها أدراج الرياح، وباءت بالفشل، ولكن اليأس لم يجـد إلى نفسه سبيلا، فيمم شطر «حلب» ملتمسا العون عند حاكمها (سـيف الدولـة) ولكن أيضا بدون جدوى.

وأخيرا انتهى به المطاف إلى «أرمينية» حيث قابل «خاجيك بن الديرانـي» لنفس الغرض، وما أن بلغ «مرزبان» نبأ وجوده لدى «خاجيك» حتى كتب إليـه على الفور يطلب منه إلقاء القبض على «ديسم»[1] فتردد (خاجيك) بادىء الأمـر في تنفيذ طلبته ولكن عاد فنفذ الأمر مضطـرا وسـلمه مقبوضـا عليـه إلـى «مرزبان» الذي (سمل) فقأ عينيه وزج به في أعمـاق السـجون. وبعـد وفـاة «مرزبان» قتلوه في سجنه عام ٣٤٥ من الهجرة.

---

[1] - هو (أبو سالم ديسم بن إبراهيم الكردي). قال ابن مسكويه أن ديسما كان يرى رأى الشراة وكذلـك كـان أبوه. إذ كان من أصحاب «هرون الشاري» الذي خرج بالموصل وقتل بها سنة ٢٨٣ هـ فهرب أبوه إبراهيم هـذا إلى آذربيجان وتزوج إلى رئيس من أكرادها فولد (ديسم) فاصطنعه ابن أبي الساج وارتقى معه إلى ما ارتقى إليـه. حيث تغلب على آذربيجان بعد (يوسف بن أبي الساج) سنة ٣١٤ ودام حكمه لها حـتى سـنة ٣٣٠ هـ — المترجم.

الفصل الثالث

٣ ـ الحكومة الحسنويئية[1] بهمذان (٣٣٠ ـ ٤٠٥ هـ)

وضع أساس هذه الحكومة عام (٣٣٠) للهجرة في الدينور وشهرزور الأمير (حسين) زعيم العشيرة البرزيكانية، وكان أخواه[2] (ونداد) و (غـانم) يتزعمـان العشائر العيشانية وهكذا كانت كافـة أرجـاء الدينـور، وهمـذان، ونـهاوند، والصمغان، وبضعة بلدان من إقليم آذربيجان تدين لهم بالخضوع والطاعة.

وقد عاجلت المنية (ونداد) عام ٣٤٩ للهجرة وما أن أهل العـام التـالي أي عام ٣٥٠ حتى لحق به (غانم) وكأنهما كانا على ميعاد، وبموتهما انتقل حكم هذه البلاد جميعها إلى (حسنويه) ابن الأمير حسين الكردي.

حسنويه

اعتلى أريكة الحكم بعد وفاة والده، وفي الحق إنه هو المؤسس الحقيقي لـهذه الحكومة، لأن مركز الحكومة على عهد والده لم يكن قد دعم أو استقر كما أنـه لم يكن قد اتخذ شكلاً نهائياً أو صبغة رسمية. علـى أن معلوماتنـا عـن عـهد «حسنويه» من القلة بمكان، والمعروف أنه قد قام بتقديم مساعدة جديـة لركـن الدولة البويهي في حرب خراسان.

وقد أسعفنا السيد حسين المكرياني فوافانا بموجز عن أحوال (حسنويه) حيث يقول:

وجه (معز الدولة) جيشاً بقيادة (ينال كوش) من الموصل إلى «شـهرزور» فقطع «حسنويه» الطريق على هذا الجيش في غربي (أربل) وألحق به هزيمـة منكرة، فأعاد معز الدولة الكرة وبعث بجيش آخر هاجم (الدينور) وأنـزل بـها الكثير من أعمال النهب والتدمير، وفي هذه الأثناء هوجم (ركن الدولـة) أخـو (معز الدولة) في ناحية جرجان من قبل خصومه، فطلب النجدة من أخيه. وهنـا اضطر (معز الدولة) إلى عقد صلح مع (حسنويه) اشترط فيه أن يخطـب باسـم

---

[1] ـ يطلق الصدفي صاحب دول الإسلام (ج١ ـ ص ٤٢٩) على هذه الحكومة اسم (الدولة الحسينية) ـــ المؤلف.

[2] ـ في ابن الأثير ٨ ـــ ١٥٥ أن ونداداً وغانماً ابني أحمد كانا خالا حسنويه وكانا أميرين على صنف آخـر مـن الكرد يسمون العيشانية ـــ المترجم.

معز الدولة على المنابر. وهكذا تحسنت العلاقات بين الحكومة البرزيكانية الكردية هذه وبين الدولة البويهية وساد بينهما الصفاء والوئام وتبدد الجفاء.

وفي عام ٣٥٦ للهجرة نشب الخلاف بين (عز الدولة بختيار بن معز الدولة) وبين (حسنويه) واشتعلت بينهما نيران حروب طاحنة أسفرت عن اندحار (بختيار) في حين أن (حسنويه) ازداد قوة ونفوذاً. وما أن أهل عام (٣٥٧) للهجرة حتى انقشعت غيوم الجفاء وعادت بينهما المياه إلى مجاريها فتم بينهما الصلح، واتفقا سوياً على أن يقفا جبهة واحدة ضد (أبي تغلب الحمداني) ووافق (بختيار) على شد أزر (حسنويه) ومساعدته لتتسع حدود مملكته حتى «الزاب الكبير» وبفضل اتفاقهما وتآزرهما ألحقا الهزيمة بأبي تغلب الحمداني، ثم عاد (حسنويه) عن طريق أربيل، وشهرزور إلى الدينور.

وقد استشاط (ركن الدولة) غضباً وأبدى استياءه من اتفاق (حسنويه) مع ابن أخيه (بختيار) ولهذا جرد جيشاً بقيادة وزيره أبي الفضل ابن العميد على (حسنويه) في سنة ٣٥٩ هـ. حيث يقول الكامل (ج٨ – ص ٢١٧) إن سبب تجريد هذا الجيش إنما يرجع إلى سوء معاملة (حسنويه) لسهلان ابن مسافر.

ويقول ابن مسكويه (ج٢ – ص ٢٧٠): إن (حسنويه) قد وسع حدود مملكته بإحرازه عدة انتصارات متوالية بفضل ما اكتسب من قوة نفوذ وسطوة في البلاد، وبفضل رضاء (ركن الدولة) عنه وعظيم إعجابه به، على أثر المعونة الكبيرة التي قدمها له (حسنويه) في حروبه بخراسان. غير أن (حسنويه) كان طموحاً رغم ما أحرزه من فتوحات وانتصارات، فكان لا يفتأ يهاجم بلداناً وجهات أخرى طمعاً في بسط سلطانه عليها وإخضاعها لحكمه. وكان يجبي الأموال من القوافل المارة في الطرق والمعابر العامة، كما كان لا يألو جهداً في تضييق الخناق على الأغنياء، ورغم هذا كان (ركن الدولة) يغض الطرف عنه، ولا يعترض سبيله.

ثم حدث أن نشب الخلاف فجأة وعلى حين غرة، بين (حسنويه) و (سهلان ابن مسافر[1] الديلمي) فأعد (سهلان) جيشاً سار على رأسه للإجهاز على

---

[1] – اختلفت المصادر القديمة كابن الأثير وابن مسكويه في ضبط اسم (ابن مسافر) هل (محمد) أو (أحمد) وهل لقبه الكردي (ماملان، مهلان سهلان)؟ وعلى كل فهو شخص واحد مشهور باسم (محمد الروادي الكردي) تارة

(حسنويه) والفتك به، غير أن هذا الجيش قد حاقت به هزيمة منكرة على يد (حسنويه) والذي أحاط بمعسكر العدو إحاطة السوار بالمعصم وألقى عليه حصاراً منيعاً وحال دون إيصال الزاد والذخيرة للعدو، ولم يكتف (حسنويه) بذلك بل أمر بجمع الحطب حول المعسكر المحاصر وأشعل النار فيه فاندلعت النيران واشتد لهيبها حول العدو، وهكذا أضحى الديالمة بين نارين: النار الموقدة من جهة، وحرارة الصيف المحرقة من جهة أخرى، فاضطروا إلى الكف عن القتال والمبادرة إلى التسليم.

وما أن ترامت هذه الأنباء إلى مسامع (ركن الدولة) حتى بادر على الفور بإرسال وزيره (أبي الفضل بن العميد) على رأس جيش عرمرم للتعرف على جلية الأمر، غير أن المنية قد عاجلت (أبا الفضل) عندما وطئت قدماه مدينة (همذان)، وقد خلفه على قيادة الجيش ابنه (أبو الفتح) الذي رأى في صالحه العودة إلى (الري) لتوطيد مركزه والمحافظة عليه هنالك، ولهذا بادر إلى عقد الصلح مع (حسنويه)، وقد صادف ذلك هوى في نفس (حسنويه) وكان لهذا الموقف النبيل من جانب أبي الفتح أبلغ أثر في نفسه مما جعله يبادر بإرسال خمسين ألف دينار، وهدايا متنوعة من الخيول وغيرها تقدر بمثل هذا المبلغ إلى (أبي الفتح)، وهكذا قطع دابر الأعمال العدائية وتبددت الخصومة. أما (ابن الأثير) فقد بالغ في الثناء على (حسنويه) ثناء عاطراً، فيمتدح حسن أخلاقه، وعلو همته، وحزمه في الأمور، كما ورد في دائرة المعارف الإسلامية: «إنه تمكن من الحكم، وازداد سلطانه على البلاد ازدياداً كبيراً بعد وفاة أخويه[1] (ونداد وأبي الغنائم)، حيث شمل سلطانه معظم بلاد كردستان، فكانت الدينور، وهمذان ونهاوند من المدن الشهيرة في هذه المملكة، وكانت مدينة (سرماج) عاصمتها».

وقد انحاز (حسنويه) في الحروب التي نشبت بين عضد الدولة وبختيار إلى جانب الأخير ويلوح أن سبب ذلك يرجع إلى خصومته الأخيرة مع ركن الدولة

وباسم (محمد بن مسافر الديلمي) تارة أخرى وموصوف دائماً بصاحب الطرم وشميران وآذربيجان. وهو جد (بني مسافر) مؤسسو الدولة الكردية المسماة السالارية والروادية اللتان قامتا بآذربيجان ــ المترجم.

[1] - في هذه العبارة اضطراب شديد فبمقتضى ما سبق في أول البحث من أن الأمير حسين الكردي كان له أخوان (ونداد) و (غانم) ينبغي أن تكون العبارة هنا هكذا (بعد وفاة عميه ونداد وغانم). وعلى كل فالنقل السابق من دول الإسلام والنقل هنا من دائرة المعارف لا يتفقان مع ما ذكره ابن الأثير من أن ونداداً وغانماً كانا خالا (حسنويه) لا عماه. حيث ذكر اسم والدهما فقال هما ابنا أحمد.. إلخ اهـ من (ص ٢٥٥ ــ ج٨) ــ المترجم.

والد عضد الدولة، وهذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يمكن القول بأنه سلك هـذا المسلك خوفاً من طمع (عضد الدولة) في بلاده، وقد حدث في النهاية اتفاق بين (حسنويه) و (فخر الدولة) أخي (عضد الدولة) وانضم (حسنويه) إلى جانبه.

ويحدثنا صاحب كتاب (تجارب الأمم) عن هذا التحول في خطة (حسنويه) فيقول: «دخل (حسنويه) في مفاوضات مع (بختيار) عام سنة (٣٦٦) للهجرة واستعد لمساعدته. نعم! إن (حسنويه) لم يتمكن من تقديم النجدة لبختيار في موقعة (رامهرمز) إلا أنه أرسل ابنيه (عبد الرزاق وبدر) مع ألف فارس إلى بختيار أثناء عودته إلى (واسط) واعداً إياه بحضوره بنفسه إليه» وقد أشار ابنا حسنويه على بختياراً بالزحف على بغداد ومقاتلة عضد الدولة بها، لكي يتمكن من الاستفادة من جيش الحمدانيين المرابط في الموصل، ولكن بختياراً لم يكن في وعيه من جراء شدة تعلقه بغلام تركي كان يلازمه دائماً ولهذا لم يعر نصيحتهما آذاناً صاغية ولا قلباً واعياً، فلم يخف عبد الرزاق استياءه منه وبادر بالعودة إلى أبيه على الفور تاركاً أخاه (بدر) مع بختيار تفادياً للوم، ولم يمض طويل وقت على ذلك حتى تنازل (بختيار) عن حقوقه خوفاً من عضد الدولة، فاضطر (بدر) إلى تركه هو الآخر والعودة إلى والده. اهـ.

وقد توفي حسنويه إلى رحمة الله في الثالث من ربيع الأول عام (٣٦٩) للهجرة في مدينة (سرماج)[١].

أبو النجم ناصر الدولة بدر

اعتلى أريكة الحكم بعد وفاة والده في البلاد البرزكانية، وفي نفس العام الذي تولى فيه الحكم استولى على بعض القلاع الواقعة في غربي (أربيل) وضمها إلى رقعة بلاده.

وكانت وفاة (حسنويه) فرصة ثمينة اغتنمها عضد الدولة البويهي، إذ أن أخاه (فخر الدولة) وابن عمه (بختيار) كانا يعتزان بصداقتهما لحسنويه، ويستعينان به عليه؛ مما استثار غضبه وأثار حفيظته وسخطه على حسنويه، فلا عجب إذن أن نرى عضد الدولة راغباً كل الرغبة في إزالة حكم الحسنوئيين وقطع دابرهم بعد وفاة عاهلهم الكبير، وقد بدأ يمهد لتنفيذ هذه الرغبة فبعث

[١] - أنشأها الأمير (حسنويه بن الحسين الكردي) وهي من أجل آثاره الشهيرة. (ياقوت) — المؤلف.

خازنه (أبا نصر خورشيد يزديار) برسالة إلى كل من فخر الدولة، ومؤيد الدولة، وقابوس بن وشمكير، أملاً في التفاهم والاتفاق معهم، في حين كان أبناء حسنويه وهم (أبو العلاء، وعبد الرزاق، وأبو النجم بدر، وعاصم، وأبو عدنان، وبختيار، وعبد الملك)، منذ وفاة أبيهم في شقاق دائم ونزاع مستمر وكان بعضهم يميل إلى الوقوف في جانب فخر الدولة ضد عضد الدولة بينما وقف البعض الآخر ضد هذا الاتجاه. وكان (بختيار) وحده يقيم دون إخوته في قلعة (سرماج) فنافرهم وبدأ في مخابرة (عضد الدولة) مظهراً استعداده لتسليم القلعة له، فانتهز عضد الدولة الفرصة الذهبية وعرف كيف يستغل هذه الفرقة بين الأخوة، فجهز جيشاً ضخماً وأغار به على إقليم الجبال مملكة آل حسنويه وتحرك هذا الجيش ودخل همذان بسهولة، ثم انحاز إليه الكثيرون من أمراء وقواد فخر الدولة والبرزكانية؛ مما أدى أخيراً إلى تسليم (نهاوند) وقلعة (سرماج) إلى عضد الدولة الذي اغتنم، من وراء هذه الفتوحات، الأموال الطائلة والغنائم الكثيرة.

وعلى أثر ذلك عرض أبناء (حسنويه) على عضد الدولة عن طريق القائد (أبي النصر خواشاذه) أن يقدموا له فروض الطاعة، وما لبثوا أن جاءوا إلى معسكر عضد الدولة بكامل هيئتهم وبعد أن قرر عضد الدولة وضعهم جميعاً تحت المراقبة عاد فاعتقل كلاً من عبد الرزاق، وأبي العلاء، وأبي عدنان وبختيار، وعلي[1]،وكذا بعض زعماء الأكراد.

أما (بدر) فقد استدعاه عضد الدولة وأنعم عليه بخلع سنية، وهي سيف من ذهب، وجواد بسرج مذهب ثم عينه أميراً على الأكراد البرزكانية ومن يجري مجراهم ثم أنعم على كل من (عاصم) و (عبد الملك) بما يتناسب مقامهما أما الباقون من أبناء حسنويه والزعماء الأكراد المعتقلين فقد عمد إلى قتلهم عن آخرهم، وصادر أموالهم وممتلكاتهم.

ثم أرسل (أبا الوفاء طاهر بن محمد) على رأس جيش استولى به على قلعة (سرماج) ونهب كل ما للحسنوئيين فيها من خزائن وأموال. وكان ذلك في ذي الحجة من عام (٣٦٩) وبعد عودة عضد الدولة إلى بغداد، شق (عاصم) ومن معه من الزعماء الأكراد عصا الطاعة على أخيه (بدر)، فاضطر (بدر) إلى

---

[1] - كذا في الأصل، ويظهر أنه مقحم إذ لم يسبق له ذكر ولم يذكره ابن مسكويه. انظر (ج٢ - ص ٤١٤ والذيل ٣ ص ٩) ـــ المترجم.

الزحف والهجوم على (عاصم) هو ومن معه من أخوته وتمكن من القضاء عليهم وبذلك خلا له الجو ودانت له البلاد واستطاب له حكم الكرد دون رقيب وبلا منازع.

وبعد ذلك بدأ يصلح من شئون البلاد كما أخذ في توسيع حدوده، ولبث مخلصاً لعضد الدولة وفياً له حتى مماته، وقد اشترك في حروب «فخر الدولة» اشتراكاً فعلياً مرضاة لعضد الدولة. وقد تم الصلح بين الأمير «بدر» وبين (فخر الدولة) بعد وفاة (عضد الدولة). فأدى هذا الصلح إلى نشوب الخلاف بين (بدر) وبين (شرف الدولة بن عضد الدولة). وبعد أن استقرت الأمور لشرف الدولة في بغداد أعد جيشاً كامل العتاد والعدد وأسند قيادته إلى (قره تكين الجوهشياري) وأمره في سنة (٣٧٧ هـ) بالزحف للإجهاز على الأمير (بدر بن حسنويه) والتحم الجيشان على مقربة من (قرمسين = كرمنشاه) وبعد قتال يسير تظاهر الأمير (بدر) بالهزيمة وأخذ يتراجع تاركاً وراءه أثقاله، فلم يفطن (قره تكين) لهذه الخدعة البارعة، وظن أنه دحر عدوه وغلب خصمه، وأوغل هو ورجاله في نهب معسكر الأمير (بدر) وسلبه، وانشغلوا في اقتسام الغنائم والأموال وبينما هم كذلك وإذا بالأمير (بدر) يعود بجيشه وينقض عليهم انقضاض من الصاعقة فقتل الكثيرين منهم، واسترد جميع الغنائم والأموال المسلوبة، واستولى على كل ما يحملون من عتاد وأثقال، ولم ينج من هذه المعركة الطاحنة إلا نفر قليلون ومن بينهم (قره تكين) فقد نجوا بأعجوبة حيث أطلقوا لخيولهم العنان لا يلوون على شيء حتى وصلوا (جسر النهروان) بعد يومين، وظلوا هنالك بضعة أيام حتى تجمعت لديهم فلول جيشهم الممزق المبعثر، ثم عادوا أدراجهم إلى بغداد عام ٣٧٧ للهجرة يجرون أذيال الهزيمة.

وفي الواقع كان هذا النصر المبين بداية موفقة بل ومقدمة لازدياد نفوذ الحكام البرزكانيين وآل حسنويه واستقلالهم، إذ تمكن الأمير (بدر بن حسنويه) من استغلال هذا الانتصار الباهر استغلالاً واسع المدى، فمد نفوذه وبسط سلطانه على إقليم الجبال كله.

وفي عام (٣٧٩ هـ) سار الأمير (بدر) بأربعة آلاف من الفرسان لمساعدة فخر الدولة حين زحفه من العراق إلى الأهواز للقاء عسكر بهاء الدولة الزاحف عليه، فهزم[1].

---

[1] - في الأصل خلاف هذا والتصحيح من ذيل التجارب (ص ١٦٩) ــ المترجم.

وفي الحق، أبدى الحكام البرزكانيون وآل حسنويه نشاطاً ملحوظاً. وتعقلاً وروية أثناء الحروب التي دارت رحاها بين الأمراء البويهيين حيث استفادوا على حساب هذا التناحر والتنابذ بين البويهيين واستغلوا هذا التدهور السياسي فأخذوا يوسعون في رقعة مملكتهم حتى أوصلوا حدودها إلى نهر (كرخا) فأصبح في حوزتهم مدينة (شابور خواست = خرم آباد)، وكذا إقليم الجبال الذي هو بلاد كرمنشاه الحالية، وشهرزور.

كان الضعف قد خيم على الأمراء البويهيين نتيجة التناحر والقتال، وفسدت أمورهم، واضطربت أحوال بلادهم مما كان يضطرهم إلى طلب مساعدة البرزيكانيين الفينة بعد الفينة لكي يحولوا دون توسعهم؛ في حين أن قوة الأمير (بدر) كانت في نمو وازدياد وأسهمه في ارتفاع، مما حمل الخليفة العباسي إلى الإنعام عليه بلقب (ناصر الدين والدولة) في عام ٣٨٨ للهجرة[1].

والذي لا شك فيه هو أن الأمير (بدر) كان نسيج وحده، فكان رجلاً عالي الهمة، عادلاً مطبوعاً على حب الخير، ولم تكن شهرته قاصرة على الأمور العسكرية والحربية فحسب، بل ترك آثاراً تدل عليه في الناحية العمرانية، فمن إصلاح في شئون الإدارة إلى تقدم في ميدان الزراعة إلى نشر التعليم وازدهاره. وكانت له أياد بيضاء على العلم وأهله. ويثني عليه صاحب ذيل كتاب (تجارب الأمم) ثناءً عاطراً، ويشيد بفضله وخصاله الحميدة.

ظل (ناصر الدين بدر) معتلياً أريكة الحكم دون منازع حتى عام (٤٠٠) للهجرة والبلاد مستقلة استقلالاً تاماً، فانقضت معظم أيام حكمه من غير حرب ولا قتال، مما عاد على البلاد باليمن والخيرات، وبات الناس في رغد من العيش والرفاهة، آمنين على أنفسهم وأموالهم. غير أنه ابتداء من هذا العام (٤٠٠ هـ) اضطرب حبل الأمن واختل زمام الأمور بسبب ثورة دبرها ابنه (هلال) ضد أبيه. وقد تعرض (ابن الأثير) لذكر هذه الحرب التي نشبت بين «هلال» وأبيه «بدر» حيث قال: كانت والدة هلال من قبيلة «الشاذنجان» الكردية وكان «بدر» قد جانبها بعد مولد (هلال) مجانبة أفضت إلى عدم التفات «بدر» إلى ولده،

---

[1] - في الأصل (٣٣٨ هـ) ولا شك أنه خطأ مطبعي والتصحيح من ابن الأثير (ج ٩ - ص ٥٤) حيث قال: وفي سنة ٣٨٨ هـ عظم أمر بدر بن حسنويه وعلا شأنه ولقب من ديوان الخليفة (ناصر الدين والدولة) وكان كثير الصدقات بالحرمين... إلخ - المترجم.

والعطف عليه، ثم تفضيل ابنه الآخر «أبي عيسى» عليه. ولما كبر «هلال» وترعرع واشتد عوده خرج مع والده في بعض الأيام إلى الصيد والقنص... وكان من عادة «ناصر الدين بدر» إذا صادف أسداً يقتله بيده ولا يرغب عن ذلك، وحدث ذات مرة أن «هلالاً» لم يدع الفرصة لأبيه وصال هو على الأسد فقتله؛ إلا أن هذه الجراءة النادرة من الشاب لم تعجب الأب! فقال له: أظنك تعتقد أنك قد أوتيت نصراً مبيناً!! فما الفرق بين الأسد والكلب؟. وهكذا لم يخف استياءه من ولده! وأخذ يفكر في إبعاده عنه حتى هداه تفكيره إلى أن يقطعه إقليم «الصمغان» فأرسله إليه، وقد صادف ذلك هوى في نفس «هلال» وامتلأ سروراً لبعده عن أبيه.

ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى اختلف «هلال» مع «ابن الماضي» حاكم « شهرزور» من قبل والده «بدر» الذي كتب لابنه هلال ــ بمجرد أن بلغه نبأ اختلافهما ــ يحذره من قتال «ابن الماضي»، غير أن «هلالاً» لم يصغ لأمر والده، وأخذ يتحرش بابن الماضي، فكتب «ناصر الدين بدر» مرتين إلى هلال يحذره ثانية من التعرض لابن الماضي قائلاً له: «إن كل عمل سيء يصدر منك في حق ابن الماضي ثق أنه يعتبر موجهاً لي».

فما كان من (هلال) بعد هذا التحذير أيضاً إلا العمل على عكس ما طلب أبوه منه وعمد إلى حشد جيش كبير زحف به على «شهرزور» وبعد حصار لم يدم طويلاً تمكن من الاستيلاء عليها، ولم يكتف بذلك بل قتل ابن الماضي وأبناءه وصادر أموالهم جميعاً. وما أن طرقت هذه الأنباء مسامع (ناصر الدين بدر) حتى استشاط غضباً على (هلال) وآلى على نفسه أن يقسو عليه، فأخذ (هلال) إزاء هذه المعاملة الجافة يدس لوالده لدى رجاله من قواد وزعماء ويستولي على ضمائرهم بالرشوة والهدايا، وهكذا ازداد نفوذ الشاب وقويت شوكته، وكان لسخائه وكرمه الحاتمي أكبر الأثر في علو قدره وسمو شأنه لا سيما وأن والده كان ممسكاً في أغلب المناسبات التي كانت تتطلب البذل والسخاء، مما أدى إلى انفضاض الناس من حوله.

ثم تطور الخلاف بين الأب وابنه إلى اشتعال نيران الحرب بينهما وتقابل جيشاهما على باب (الدينور)، وكانت مفاجأة غير سارة لناصر الدين، أن ينضم الفريق الأكبر من جيشه وهم الأكراد إلى صفوف ابنه (هلال) ثم ما لبث أن وقع

هو نفسه أسيراً في قبضه ابنه، ومما زاد الطين بلة أن بعض القواد قد ألحوا في إغراء (هلال) بضرورة قتل أبيه، ولكن (هلال) قد أبى عليهم ذلك، وأبدى كثيراً من النبل وكريم العاطفة نحو أبيه، ثم تقدم إلى والده قائلاً: «أنت لا زلت أميراً، وما أنا إلا قائد جيشك!».

فخادعه والده على الفور فأجابه: (حذار أن يسمع أحد هذا الكلام، لأنه يؤدي إلى مقتلنا كلينا!! وهذه القلعة لك، وهاك إشارة تسليمها إليك، وكل ما فيها من الخزائن والأموال ملك لك، فحافظ عليها، وما دام الناس يريدونك عليهم أميراً فكن أنت أميرهم، وأعطني قلعة آوي إليها وأمضي فيها بقية عمري في العبادة وطاعة الله) وما أن سمع (هلال) ذلك من أبيه حتى سارع إلى تلبية رجائه وتنفيذ طلبته فأعطاه القلعة، ونقده حفنة من المال[1].

غير أن (ناصر الدين بدر) قد أثبت فيما بعد أنه كان يضمر ويبطن لابنه (هلال) خلاف ما أظهر. وما كان في مكنته أن يتناسى أو يزيل ما علق في نفسه من سيء الأثر نتيجة ما ارتكبت يدا ابنه، فما أن استقر به المقام في القلعة حتى كتب إلى (أبي الفتح بن عناز) وإلى (أبي عيسى شاذي بن محمد) في (أسد آباد) يستثيرهما ويحفزهما لمنازلة (هلال). وقد زحف أبو الفتح فعلاً واستولى على (قرميسين) كما زحف أبو عيسى ونهب (سابور خواست) إلا أنه ما أن سمع بقدوم (هلال) حتى غادرها وعاد أدراجه صوب (نهاوند) التي كانت في قبضة (أبي بكر بن رافع) وهنالك أدركه (هلال)، وانقض عليه كالصاعقة، وقتل من الديالمة أربعمائة نفس منهم تسعون من الأمراء وألقى (ابن رافع) القبض على ضيفه أبي عيسى وأسلمه إلى هلال، ولكن هلالاً قد أبى عليه نبله إلا أن يعفو عنه، ويصطحبه في ركابه.

وما أن طرقت هذه الأنباء مسامع (ناصر الدين بدر) حتى بادر إلى طلب النجدة من الملك (بهاء الدولة) الديلمي الذي نفذ طلبته على الفور وبعث إليه بجيش يقوده (فخر الملك أبو غالب).

---

[1] - ورد في ذيل ابن مسكويه، أنه كان لأبي سعد ابن الفضل وزير مملكة الري، يد فعالة في التفرقة بين بدر وابنه. (المؤلف). ولا ندري أي ذيل يقصده المؤلف؟ فإن الذيل المطبوع ينتهي في سنة (٣٨٩ هـ) والخلاف حصل بينهما في سنة (٤٠٠) . فليحرر ــ المترجم.

وحينما وصل هذا الجيش إلى (سابور خواست)، خاطب الأمير هـلال أبـا عيسى شاذي قائلاً؟ ها هو ذا جيش بهاء الدولة قادم! فماذا ترى؟ فأجابـه أبـو عيسى: يجب أن تسارع إلى لقاء هذا الجيش وتقدم فروض الطاعة لبهاء الدولـة محاولاً إغراءه بالمال! فإذا لم تجد هذه المحاولة نفعاً، فـلا محيـص إذن عـن مضايقته هو ورجاله، ثم تعيد الكرة ثانية، لأن هذا الجيـش ليـس فـي مكنتـك منازلته إذ هو غير ذلك الجيش الذي ألحقت به الهزيمة أمام الدينور [1]، مع العلـم بأنه زاحف عليك كطلب والدك.

ولكن (هلالاً) قد خامره، الشك وأخذته الريبة في أن هذه النصيحة بريئة، بل خيل إليه أنها مجرد خدعة، فما كان منه إلا أن قتل أبا عيسى هذا. ثم عزم علـى الانقضاض على خصمه (فخر الملك) ليلاً وفي جنح الظلام مباغتة، ولكن (فخـر الملك) علم بما يدبره له خصمه اللدود في الخفاء فبادر على الفور إلـى حشـد جيشه وترك قوة صغيرة وراءه للمحافظة على العتاد والمهمات في المعسكر ثـم تقدم بخطى سريعة لمنازلة العدو، هنا، وهنا فقط!! استيقظ (هـلال) فقـد أيقـن عندما وقعت عيناه على هذا الجيش الحافل، أن نصيحة أبي عيسى بن شاذي لـم تكن كما تخيل، بل كانت بريئة وسديدة، فعض بنان النـدم ولات حيـن منـدم. وأرسل إلى (فخر الملك) يقول له: «إنني لم أحضر للحرب، فإذا لـم تحـاربني، فأنا مستعد لتقديم فروض الطاعة» فوافق فخر الملك على هذا العرض، وبعـث بالرسول إلى (ناصر الدين بدر) ليطلعه على جلية الأمر، غير أن بدراً قد أسـاء معاملة الرسول الموفد إليه وقابله بجفاء بل طرده شر طردة، ثم بعث هو رسـولاً من قبله إلى فخر الملك يقول له: «إن هذا الذي يعرضه عليك (هلال) إن هـو إلا حيلة ماكرة وخدعة بارعة، لأنه واثق من عدم قدرته على الحـرب، فلذلـك لا يجوز أن نترك له الفرصة! وعلى ضوء هذه الرسالة أيقن (فخـر الملـك) أن بدراً يضمر لابنه عداءاً مستحكماً، فأصدر أمره بإشعال نيران الحـرب. وبعـد اشتعالها بقليل ألقي القبض على (هلال) وسلم لفخر الدولة، وقد ألح هـلال فـي رجائه كيلا يسلمه إلى والده، فلبى (فخر الدولة) رجاءه وحققه، ثم طلـب إليـه إطلاعه على الرمز الذي تسلم القلعة بموجبه، فنفذ (هلال) طلبه وأطلعه عليـه.

[1] هذا هو الظاهر ولكن ابن الأثير يقول باب نهاوند (ج ٩ – ص٨٠) ـــ المترجم.

ولكن والدة (هلال) والحامية التي كانت قائمة على حراسة القلعة رفضوا تسليم القلعة، وطلبوا الأمان من فخر الملك فأمنهم، ثم دخل القلعة وسلمها لبدر بعد أن صادر جميع ما حوت من خزائن وأموال وغنائم لا تحصى وأكداس من الذهب والفضة والمجوهرات والملابس والأسلحة وغير ذلك. (ج ٩ – ص ٧٩، ٨٠ من الكامل).

هذا وما أن استعاد (ناصر الدين) مجده وبلاده من بين براثن ابنه (هلال) بفضل مساعدة بهاء الدولة الجدية، حتى بادر بإعطاء بلاد (شهرزور) إلى عميد الجيوش وزير بهاء الدولة، ومنذ هذا التاريخ أصبح يتعاقب على حكم بلاد (شهرزور) نواب من قبل عميد الجيوش وزال سلطان البرزكانيين عليها وخرجت من حوزتهم.

أما (هلال) فقد ألقي به في غياهب السجن ولبث سجيناً طيلة عهد كل من (بهاء الدولة) وخلفه (سلطان الدولة) في العراق إلى أن ظهر فجأة (طاهر بن هلال) في الميدان وتمكن من تخليص «شهرزور» وانتزاعها من يد نائب عميد الجيوش عام (٤٠٤).

هذا وفي عام (٤٠٣ هـ) أعد ناصر الدين بدر جيشاً زحف على رأسه وألقى حصاراً منيعاً على (حسين بن مسعود الكردي) في قلعة (كوسجد)، وكان البرد وقتذاك قارساً فلاقى رجاله الأهوال وقاسوا مرارة البرد ولكن العدو قد استمات في الدفاع عن القلعة فطالت مدة الحصار دون جدوى ولهذا تملك اليأس رجال (بدر) فقرروا فيما بينهم اغتيال أميرهم (ناصر الدين بدر)، وعلى الرغم من أن رجاله المخلصين قد أحاطوه علماً بأسرار هذه المؤامرة فلم يعرها أية أهمية وقال لهم: «كيف يتسنى لهؤلاء الكلاب الإقدام على عمل كهذا؟» ولكن رجاله وأنصاره قد عادوا وأنذروه بأن اغتياله قد تقرر! فلم يأبه لهم وأصم أذنيه عن سماع أقوالهم.

وبينما كان يجلس ذات يوم على باب معسكره القائم على ربوة، انقض عليه بضعة رجال من عشيرة (الجوزكان = الجوزقان) وأردوه قتيلاً يتخبط في دمائه ونهبوا عسكره وتركوه وعادوا أدراجهم. ولما خرج الأمير «حسين ابن مسعود» من القلعة ووقع نظره على الجثة الهامدة، أمر بتجهيزها وتكفينها ثم شيعها إلى مشهد (علي رضي الله عنه) حيث دفنت به. وهكذا قضى ناصر الدين والدولة

نحبه بعد عمر طويل وحكم دام ثلاثين عاماً، وقد تمتعت البلاد في ظل حكمه باستقلال تام وعدالة مطلقة لا تشوبها شائبة وحسن تدبير للأمور وحزم وعزم في إدارة دفة شئونها مدة ثمانية وعشرين عاماً أي منذ وفاة عضد الدولة عام (٣٧٢) للهجرة إلى أن أنشب الخلاف أظفاره بينه وبين ابنه هلال عام (٤٠٠)[١].

ويذكر لنا مؤلف ذيل تجارب الأمم ـ وهو الوزير أبو الشجاع ـ الكثير عن صفات هذا الملك ومميزاته الفريدة النادرة ومحاسنه:

كان الملوك البرزكانيون قد خصصوا خمسة آلاف دينار لمحافظة الحجاج تصرف سنوياً لرؤساء القافلة التي تصحب الحجاج على شريطة ألا يأخذوا شيئاً من الحجاج. كما كانوا قد خصصوا عشرين ألف دينار أخرى لتطهير الآبار وتعمير المنازل الواقعة في طريق الحجاج، وتوزيع جزء منه على الفقراء من المهاجرين والأنصار في الحجاز. وقد ظلت هذه القاعدة متبعة، وهذه المخصصات تبذل طيلة عهد هذا الملك ثم أوقف صرفها إثر وفاته.

سياسته المالية

كان (بدر) يوجه كل عنايته نحو المسائل المالية وكان له بصددها آراء سديدة وتدابير صائبة وتوجيهات حكيمة جعلت خزائنه تفيض دائماً بالمال ولولا استيلاء فخر الملك ـ كما أسلفنا ـ على خزائنه المكدسة وعلى أمواله الطائلة في «سابورخواست» لكانت خزائنه تحوي ما لا يحصى من أموال ونفائس.

ومن مفاخره التي سجلها له التاريخ من الناحية المالية منعه الاحتكار منعاً باتاً ومجازاة كل من يقدم على ارتكابه، ولا غرو فقد كان يعده خيانة كبرى.

وكان في حالة ظهور عجز في الإيراد العام نتيجة كوارث حقيقية ـ لا بفعل الملتزمين لمرافق الدولة ـ يعوض الملتزم عن الأضرار التي لحقت به من أموال الصدقة أو يؤجل بدل الالتزام مع تقسيطه عليه، ولهذا كان كل فرد يسارع إلى توريد ما تعهد به من المال ولا يمكنه الامتناع عن التوريد أو التكاسل في تحصيل الأموال. وكان يبذل سنوياً مبلغاً كبيراً من المال على الأعمال الخيرية ووجوه البر في داخلية المدن. وما كان يألو جهداً في إنشاء المعامل وإقامة المصانع وإنشاء الطرق التجارية وتمهيدها وإصلاح القائم منها. وكم بذل وأنفق

---

[١] - ابن الأثير ص ٩٢ - ج ٩.

عن سعة في هذا المضمار، مما أدى إلى نهضة بلاده نهضة شاملة، وإلى تقدم تجارتها تقدماً محسوساً ورواجها، وكان ــ من رائع تدبيره ــ إذا أراد إقامة طريق مهم على سبيل المثال، جلب جميع ما يلزم من معدات، ومؤن، ثم يفتتح سوقاً مؤقتة يباع فيها ويشرى كل ما في المدن من سلع، فيؤمها العمال والصناع العاملين في إنشاء الطريق لشراء ما يحتاجونه بأثمان معتدلة تعود على الطرفين بالخير الوفير.

مميزاته الشخصية

كان (بدر) من دهاة السياسة في زمنه، وكان نافذ الكلمة بين بني قومه، قوي السلطة على جيشه، كما كان في نفس الوقت عادلاً، رحيماً ومحباً لرعيته، وكانت له في الشئون المالية آراء سديدة، وكان ثاقب الفكر في جمع الإيرادات وأوجه صرفها. وكان خيراً يميل بطبعه إلى فعل الخير، وكان صائب الرأي مدبراً، حازماً، لا يفهم معنى التردد ولا سيما في وقت الحروب وحال الملمات، وكان حاسماً وحاكماً قديراً. إذ استطاع حكم العشائر البرزكانية بكل حزم وعزم فقضى على روح الفساد، وحب الغارات والرغبة في الغزو التي كانت تسيطر على هذه العشائر، فساد الأمن وعم الإصلاح كل المرافق، وأقبل الشعب على تعلم القراءة والكتابة، وتنبهت الأذهان إلى الاستزادة من مناهل العلوم والفنون كما أنه أمن الزراع والفلاحين وحماهم من الأشرار والمستبدين ووقاهم شرهم كما أمكنه القضاء على تلك العادة السيئة القديمة التي كانت منتشرة بين الفلاحين ألا وهي إحراقهم بيادر بعضهم البعض.

ويؤخذ من رواية صاحب «ذيل تجارب الأمم» أن هذا الملك وقد رأى الفساد والخراب قد أخذا ينشبان أظفارهما في البلاد، صمم في دخيلة نفسه على استئصال تلك الروح الشريرة بالسياسة والكياسة، فأولم وليمة كبرى تزخر بكافة الأصناف من مأكل ومشرب ولكنها خلت من الخبز! فتوقف المدعوون وهم رؤساء العشائر عن تناول الطعام حتى تزود الموائد بالخبز وبينما هم في انتظار الخبز وإذا بناصر الدين يخاطبهم قائلاً: يظهر أنكم لا يمكنكم الطعام دون الخبز! فإذا كان الأمر كذلك فلماذا تستبيحون لأنفسكم الإغارة على زرع الناس وضرعهم وتقضون على معايشهم! سود الله وجوهكم وقبح أفعالكم!!! وإني

لأشهد الله على أني سأهدر دم كل من تسول له نفسه من الآن فصاعداً التعدي على مزروعات الغير، وظلم أخيه من بني الإنسان.

والثابت المحقق أنه قد نفذ قسمه وبر بيمينه حيث سفك دماء الكثيرين من المعتدين بغير حق، وكان هذا عبرة لكل معتبر ودرساً قاسياً لكل مزدجر بل ولجميع العشائر. حيث لم يكن أحد يجسر بعد ذلك على إلحاق الضرر بالمزروعات أو الزراع. وبذلك سادت الطمأنينة وانصرف الفلاحون إلى مزارعهم يعملون ويكدون في أمان وسلام.

وهاك أنموذجاً آخر من آيات عدله:

وخرج ذات يوم بصحبة بضعة من رجال جيشه متفقداً أحوال الرعية!! فصادف فلاحاً يحمل حطباً، وكان فارس من فرسان الجيش قد اغتصب رغيفين من هذا الفلاح. فما أن أبصر (ناصر الدين بدر) صاح به قائلاً: أيها الملك أنا حطاب فقير كان معي رغيفان أسد بهما رمقي، وأستعين بثمن الحطب على إطعام أولادي وعيالي، فاعترضني في الطريق فرسان جيشك وسلبني أحدهم خبزي. فسأله ناصر الدين: أتعرف ذلك الفارس؟ فأجاب الرجل: نعم أعرفه إذا وقع نظري عليه!!.

وعلى أثر هذه المناقشة بين الملك والحطاب، وقف في أحد مضايق الجبال وأمر برجال الجيش أن يمروا أمامه واحداً واحداً وإلى جانبه الحطاب، ولم يمض طويل وقت على مرور الجند حتى تعرف الحطاب على الفارس المقصود وأرشد الأمير إليه، فأمر (ناصر الدين) بالفارس فأنزل عن فرسه، وقال له مشيراً إلى الحطب: احمل هذا الحطب، واذهب به إلى المدينة وبعه، ثم أعط ثمنه لهذا الرجل الحطاب الذي سلبت رغيفه اغتصاباً، وكان هذا الفارس رجلاً معروفاً وذا مال وثراء، فأراد أن يتفادى العقوبة بتقديم مبلغ من المال يزن الحطب المراد بيعه، ولكن ناصر الدين قد رفض ملتمسه، وحمله الحطب وأبى إلا أن ينفذ أمره وكان له ما أراد. وما كان ينبغي من وراء ذلك إلا أن يتخذ العدل مجراه ويشعر الجميع بأنه لا يراعى في إقامة صرح العدل كبيراً وصغيراً، وكان لهذا أوضح الأثر في تقويم الأخلاق.

ويقال إن ملكة الري كانت عظيمة الثقة برجاحة عقل الأمير (بدر) وحسن تدبيره وكانت لا تفتأ تستشيره في الملمات وتستعين برأيه الصائب في تصريف شئون الدولة.

وحدث أن أوفد الأمير (نوح بن محمود بن سبكتيكين)[1] حاكم خراسان رسولاً إلى الملكة يتهددها ويتوعدها بل ويتحرش بها، فما كان منها إلا أن أسرعت بمكاتبة (ناصر الدين) تسأله رأيه، فأجابها على الفور طالباً إليها أن توفد إليه هذا الرسول الذي يتحرش بها.. وما أن وصل هذا الرسول حتى كان (ناصر الدين) قد حشد جيشاً كامل العدة والعدد لدرجة أن صفوفه قد امتدت من باب الري إلى (سابورخواست)، وما أن وقع نظر الرسول على هذا الجيش الحافل، وما أن رأى ما عليه الملك من مظاهر القوة والمنعة والثراء حتى اعترته الدهشة وأخذته الحيرة، ولكن ناصر الدين قد هدأ من روعه وأكرم وفادته واحتفى به، ثم زوده بالنصيحة التالية: «إنه ينبغي للأمير نوح ابن محمود أن يسلك مع الملكة مسلك الوئام والتفاهم، ثم ودعه بمثل ما قوبل به من الحفاوة والتكريم».

ولما عاد الرسول وألقى بهذه النصيحة الغالية على مسامع الأمير نوح ابن محمود وجد لديه قبولاً حسناً واقتناعاً بوجاهتها، وأبدى استعداده للصلح وتجنب إثارة الحرب. هذا وكانت الخدعة الحربية التي مثلها مع (قره تكين الجهشياري) تعد أبرع مثال يدل على مقدرته الحربية.

وما أن لحق «ناصر الدين بدر» بالرفيق الأعلى، وانقضت أيامه حتى بدأ الضعف ينخر في كيان الحكومة البرزكانية. فمنيت بالتدهور والانحلال وساءت أمورها، وفقدت سطوتها كحكومة منظمة، وأضحت إمارة يخيم عليها الضعف، ويضطرب حبل الأمن ويختل في جميع أرجائها.

ويقول ابن الأثير في الكامل[2]: حدث بعد مقتل الأمير «بدر» أن انحازت العشيرة الجوزكانية إلى جانب «شمس الدولة أبي طاهر بن فخر الدولة البويهي» ثم قام «طاهر بن هلال» حفيد «ناصر الدين بدر» مطالباً لنفسه بالملك، ومن أجل هذا اشتبك مع شمس الدولة في حروب طاحنة. غير أن الحظ قد تنكر له، فوقع في يد خصمه أسيراً، ونهبت كل أمواله، وألقى به في غياهب سجن «همذان» مما أدى إلى انضمام العشائر اللورية والشاذنجان إلى «أبي الشوك ابن

---

[1] - في ذيل التجارب، يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين ــ المترجم.

[2] - انظر ابن الأثير (٩ ص ٩٢) حيث ورد: كانت مملكة بدر، سابور خواست والدينور وبروجرد ونهاوند وأسد اباد وقطعة من أعمال الأهواز وما بين ذلك من القلاع والولايات ــ المترجم.

أبي الفتح محمد بن عناز»، كما استولى شمس الدولة على البقية الباقية من الممتلكات البرزكانية.

وفي هذه الأثناء كان «هلال بن بدر» يعاني آلام السجن لدى «سلطان الدولة» فأطلق سراحه على أثر استيلاء شمس الدولة على البلاد، وما أن غادر السجن حتى عمد إلى إعداد جيش ضخم حافل، عزم على أن يسترد به ملك أولاده، فتقدم على رأسه واشتبك مع شمس الدولة في عدة معارك، ولكن هذا الجيش لم يخلص له إذ لم يكن راغباً في القتال مما أدى إلى خذلانه وقتله في ذي القعدة عام (٤٠٥).

وفي عام (٤٠٦) للهجرة قطع «طاهر بن هلال بن بدر» على نفسه العهود والمواثيق بالولاء والطاعة لشمس الدولة بن فخر الدولة بن بويه، وتم التفاهم بينهما، وعلى أثر ذلك زوده شمس الدولة بجيش توجه على رأسه شطر البلاد البرزكانية حيث اجتمع معه طوائف، وما لبث أن اشتبك مع «أبي الشوك» في حرب طاحنة أسفرت عن اندحار أبي الشوك وقواته، وقتل (سعدي) أخي أبي الشوك في المعركة، ورغم ذلك تم الصلح بينهما، وتمكيناً لأواصر هذا الصلح عقد طاهر على أخت أبي الشوك، «الكامل٩، ص ٩٧».

ولكن أبا الشوك ظل يضمر له السوء ويتحين الفرصة للأخذ بثأر أخيه حتى تم له ما أراد بفضل مكيدة دبرها له فقضت على حياته، وبموته دالت دولة أسرة (حسنويه) وانقضت أيامهم، وانقرضت حكومتهم، وخضع شطر كبير من البلدان التي كانت في حوزتهم وخاضعة لسلطاتهم، وكذا جزء من منطقة «شهرزور» لإمارة «بني عناز»[1] الأكراد.

وكان آخر أمراء أسرة (حسنويه) هو الأمير «أبو سالم ديسم بن أبي الغنائم» أخي حسنويه الذي كان قد أقام حكومة في قلعة «كاسان» في منطقة (زهاو = زهاب) على مقربة من «بابا يادكار»، وهي آخر حصن أوى إليه، ولكن أيام هذا الأمير لم تعمر طويلاً، فانهارت بعد وفاة طاهر بمدة قليلة.

---

[1]- هكذا ورد في ابن الأثير بالزاي (عناز) ويذكرها شرفنامه (عيار) بالياء والراء في الآخر. وقد خالفهما المرحوم سعيد باشا الديار بكري في كتابه مرآة العبر بالتركية فذكرها (عنان) بالنون في الأول والآخر. وتبعه المؤلف كما سيأتي في مبحث الحكومة العنانية أو العنازية ـــ المترجم.

الفصل الرابع

٤ـ الحكومة الشدادية بآران (٣٤٠ ـ ٤٦٨ هـ)

إن التاريخ ليفتقر إلى معلومات مسهبة شافية عن (بني شداد) الذين أسسوا حكومتهم في (أران) في عام (٢٤٠)[١] للهجرة، تلك الحكومة التي عمرت حتى عام (٤٦٨) للهجرة حيث استولى ملكشاه السلجوقي على معظم أملاك هذه الدولة، وضمها إلى رقعة إمبراطوريته المترامية الأطراف.. ورغم ذلك ظل بعض أبناء تلك الأسرة الحاكمة محتفظين بالسيادة في بعض الجهات مثل (كنجة ــ جنزه) و (آني) تحت الحماية السلجوقية.

فمن المرجح جدا أن تكون هذه الأسرة كردية[٢] ولقد كان مدن نخجوان، كنجه، تفليس، دميرقبو، قرهباغ، من المدن الشهيرة التي كانت داخلة في نطاق هذه الحكومة الأرانية التي كانت معظم أهلوها ورعاياها من (اللكز ــ لزكي). وفي عام ٣٣٧ للهجرة (٩٤٨ م) حينما وقع فيه (السالار مرزبان بن محمد) حاكم أذربيجان أسيرا في مضيق الري، انفرط عقد حكومته ونادى كل أمراء الأطراف في المدن والقلاع بالاستقلال والانفراد بالحكم وكان من بين هؤلاء الأمراء أمير يدعى (محمد بن شداد بن كارعو) قد بادر قبل غيره من الأمراء إلى إعلان استقلاله في (دبيل) ثم ما لبث أن سطع نجمه، وعلا شأنه حتى وازى نفوذه، وضاهى، نفوذ حاكم آذربيجان. وظل يرفل وينعم بالسطوة والسلطان، حتى عام ٣٤٤ للهجرة (٩٥٥ م) دون منافس أو منازع.. وبعد ذلك أخذ نفوذه يتضاءل ويضمحل كما أخذ نجمه في الأفول حتى تقلص سلطان الدولة ولم يعد يعدو في عهد ابنه منطقة (آران).

كان يحكم (كنجة) وقتذاك أمير يدعى (فضلون) يلوح أنه كان أخا لمحمد بن شداد. وكان لمحمد بن شداد، هذا، ولد يدعى (أبو الحسن علي بن جعفر

---

[١] ـ كذا في الأصل، والظاهر أنه تصحيف من (٣٤٠) هجرية كما في جميع المصادر الأخرى (مثل منجم باشي) و(دول إسلامية).

[٢] ـ تنص أغلب المصادر على كردية هذه الأسرة مثل (الدول الإسلامية) لـ (إستنلي لين بول) و(دائرة المعارف الإسلامية) ــ المترجم.

لشكري)[1] ظل يحكم البلاد ثماني سنوات، ثم خلفه في الحكم أخـــوه (مرزبـــان) الذي لبث في الحكم سبع سنين، (٣٦٨ ــ ٣٧٥) ثم قتله أخ له آخر يدعى (فضل بن محمد) أثناء الطراد والقنص، واعتلى أريكة الحكم مكانه وقد قرب الناس إليـه واكتسب محبة الجميع وحاز ثقتهم بفضل إدارته الحازمة لدفـــة شـــئون البـــلاد، وعمله المتواصل لرفع مستوى البلاد ورقيها، من نشر العلوم والمعـــارف إلـــى تنفيذ سلسلة من المشروعات العمرانية التي كان من بينها إقامة جسر كبير علـــى نهر (الرس ــ آراكس) الشهير إلى غير ذلك من الأعمال الجليلة النافعة. وظـــل هذا الأمير متربعاً على أريكة الحكم، وقابضاً على زمام الأمور سبعة وأربعيـــن عاماً إلى أن توفاه الله إلى رحمته في عام ٤٢٢ للهجرة.

وقد خلفه في الحكم ابنه (أبو الفتح موسى) الذي لم يلبث في الحكـــم ســـوى ثلاث سنوات، ثم خلفه بعده على أريكة الحكم ابنه (أبو الحسن علي بن موســـى الشهير باللشكري) الذي امتد حكمه حتى عام ٤٤٠ للهجرة. وقد أطنب الشـــاعر الشهير (قطران) في مديح هذا الأمير الذي قام بحمايته في مدينة (كنجه) وجـــاء بعده في الحكم ابنه (نوشيروان) الذي لم يلبث في الحكم سوى ثلاثة أشهر لحـــق بعدها بالرفيق الأعلى. وتولى الحكم من بعده (أبو الأسوار شاور بن فضل) الذي تزخر الروايات وكتب التاريخ بتفاصيل مسهبة عن أيام حكمه تفوق كثيراً ما أثـر وكتب عن أسلافه من الأمراء، ولقد أسهب (قطران) الشـــاعر صـــاحب كتـــاب (قابوسنامه) في سرد أعماله ومشروعاته وذكره كثيراً بالخير كما تحدث عنه ابن الأثير المؤرخ حيث يقول: إن أرطغرل بك حينما قدم (كنجة) بعد غزوه لتـبريز[2] في عام ٤٤٦ للهجرة، تقدم إليه الأمير (أبو الأسوار) صاحب كنجة وقـــدم لـــه فروض الطاعة والولاء[3].

وفي عام (٤٥٦) للهجرة لحق (أبو الأسوار) بالرفيق الأعلى، وخلفـــه فـــي الحكم ابنه (منوجهر) الشهير بالفضل الثاني. وحيث أن كتاب (قابوسنامه) الـــذي كتب في عام ٤٦٨ كان باسم (فضلون بن أبي الأسوار) فالظاهر أن استقلال بني

---

[1]- كذا، وهذا ولا شك تصحيف. فالظاهر المعقول هو ما ورد في الدول الإسلامية هكذا «اللشكري أبو الحســـن علي بن محمد. حكم ٢٤ سنة» ــ المترجم.

[2]- وكان أميرها حينذاك الأمير منصور وهسوذان بن محمد الروادي ــ المترجم.

[3]- قد ذكر «منجم العمران» خبر تقديم هذه الطاعة (ج ٩ - ص١٩٠) ــ المؤلف.

شداد قد ألقي عليه الستار بوفاة فضلون هذا، وضمت مملكة (أران) إلى الإمبراطورية السلجوقية في عهد ملكشاه.

وإنه لمن العسير بل ومن المتعذر جداً تتبع أخبار هذه الأسرة بعد ذلك. وقصارى القول، نستطيع أن نقول إن (فضلون) إن هو إلا صاحب هذا الاسم الرسمي (الفضل الثاني منوجهر) الذي كاتب به مادحه ومحميه الشاعر (قطران) ثم إنه بطل جميع الروايات والقصص والأمثال التي ضمنها الشاعر كتابه الشهير (كابوسنامه ــ قابوسنامه). ويظهر أن حكم هذا الأمير البطل كان سائداً في منطقة (كنجة) و (آنى) و (وتوين ــ دوين). ويؤخذ من بحوث (خانيكوف) أن (الفضل منوجهر) كان له ابنان وأنه كان حاكماً على (كنجة) حين استولى عليها ملكشاه في عام ٤٨١ للهجرة. كما كان (أبو الأسوار الثاني شاور) حاكماً على (آني)[1] حينما استولى عليها الملك (داويد ــ داوود) في عام ٥١٨ للهجرة. وكان لأبي الأسوار هذا ولد يدعى (محمود) وكان لمحمود هذا ولد يدعى (قايي سلطان). وتتضمن لوحة أثرية كشفت أخيراً في (آني) معلومات هامة عن هذا الشخص إذ وجد منقوشاً عليها عام ٤٩٥ للهجرة إلى جانب عبارة (قاي سلطان بن محمود بن شاور بن منوجهر الشدادي).

وعلى ضوء ما ورد في هذه اللوحة الأثرية من المعلومات يتسنى لنا ترتيب أسماء وسني حكام بني شداد كالتالي:

١ ــ محمد بن شداد بن كارعو (قرطق = قرطو): تولى الحكم في كنجه سنة ٣٤٠ هجرية باسم (فضلون الأول).

٢ ــ أبو الحسن علي بن جعفر لشكري (٣٦٠ ــ ٣٦٨ هجرية).

٣ ــ مرزبان ٣٦٨ هجرية.

٤ ــ الفضل بن محمد (٣٧٥ ــ ٤٢٢هجرية).

٥ ــ أبو الفتح موسى بن فضل (٤٢٢ ــ ٤٢٥ هجرية).

٦ ــ أبو الحسن علي بن موسى لشكري (٤٢٥ هجرية).

٧ ــ نوشيروان بن علي بن موسى (٤٤٠ هجرية).

٨ ــ أبو الأساور شاور بن الفضل بن محمد (٤٤٠ ــ ٤٥٦ هجرية).

---

[1] ــ استولى الكرج ويقودهم (داويد الثاني) على (آني) سنة ١١٢٤ م (٥١٨ هــ) ومنذ هذا التاريخ أضحت المدينة كرجية بحتة ــ المؤلف.

٩ ــ الفضل منوجهر بن شاور (فضلون الثاني) في (كنجه).
١٠ ــ أبو المظفر فضلون الثالث في (كنجه).
١١ ــ أبو الأسوار شاور بن منوجهر في (آني).
١٢ ــ أبو الفتح جعفر بن علي بن موسى (آلان؟ ٤٧٠ هجرية).
١٣ ــ محمد بن شاور بن منوجهر بن شاور بن الفضل في (آني).
١٤ ــ قايي سلطان بن محمود بن شاور (آني ــ ٤٩٥ هجرية).

الفصل الخامس

٥ ـ الحكومة الدوستكية والمروانية بديار بكر (٣٥٠ ـ ٣٧٠ ـ ٤٧٦)

آ) الدوستكية:

إن مؤسس هذه الحكومة هو (باز) أبو شجاع ابن دوستك. ويقول صاحب تاريخ الموصل: إن (بازاً) الكردي أبا عبد الله حسين هو ابن دوستك الذي كان أميراً للعشيرة الحميدية، وكانت كنيته (أبا شجاع) في حين يرى (ابن خلدون) أن أبا عبد الله حسين هو أخوه، وليس هو نفسه.

هذا وكان (باز) أو (باذ) في أول أمره يرعى غنماً، وكان على جانب عظيم من رجاحة العقل وحرية الفكر، تبدو عليه مخايل الفطنة وعلائم الذكاء والدهاء، كما كان كريم الطبع جواداً، يجود بكل ما ملكت يداه على الفقراء واليتامى والمساكين، حتى ذاع أمر كرمه الحاتمي وانتشر بين الناس. وكان يقوم بين الفينة والفينة بشن غارات على بلدان الثغور حيث يعود منها محملاً بالكثير الوافر من الغنائم التي كان يقسمها قسمة عادلة بين رجاله ورفاقه، مما حبب فيه الكثيرين وأدى إلى التفاهم حوله فقوى نفوذه وعلا شأنه وأخذ نجمه يتلألأ.

وهذه الرواية ــ على ما أعتقد ــ مختلقة، لا نصيب لها من الصحة، لأن العقل لا يمكن أن يستسيغ أن سليل أمير عشيرة كبيرة يقوم برعي الغنم وقطع الطرق وهي أعمال لا يلجأ إليها إلا أفراد عضهم الدهر بنابه فانتابهم بفقر مدقع أو دفعتهم إلى ارتكابها حاجة ملحة، والطبع الذي يتمشى مع المنطق أن ابن سيد العشيرة لا مندوحة في أن يكون أبعد الناس عن الفقر والعوز.

والحقيقة التي لا مراء فيها أن (أبا شجاع) قد قويت شوكته وأخذت دائرة نفوذه تتسع رويداً رويداً حتى تمكن من تعبئة جيش فرض به سلطانه على من حوله من أمراء البلدان.

وما مضى على ذلك طويل وقت حتى واصل الزحف على إقليم «أرمينية» ونجح في الاستيلاء على «أرجيش» وكانت هذه أول مدينة دانت لسلطانه، وكما يقولون: أول الغيث قطر ثم ينهمر، إذ كان لاستيلائه على هذه المدينة أثر واضح في تقوية الروح المعنوية بين رجاله، فازداد بذلك قوة على قوة، وأغرته نشوة

النصر على مواصلة الزحف حتى طرق أبواب «ديار بكـــر» واســتولى علـــى مدينتها «آمد» ثم على مدينة «ميافارقين» وما حواليها من القرى والدساكر[1].

وكان (باذ) عالي الهمة طموحاً، لا يألو جهداً في ســـبيل الرفعــة والمجــد والوصول إلى الذروة. ومن المحتمل ــ كما يقول السيد حسين المكرياني ــ أنــه تمشياً مع التقاليد المتوارثة المرعية وقتذاك، قد أقدم على تكوين علاقات وديــــة مع عضد الدولة، وأنه ــ توكيداً لهذه العلاقات ــ قدم مســاعدة جديــة للجيــش البويهي لكسر شوكة الأمير (أبي تغلب) الحمداني.

وما أن استولى البويهيون على الموصل، وما أن دخـــل (عضــد الدولـــة) المدينة حتى خف (باذ أبو شجاع) للقائه، وأسرع لمقابلته، ولكنه ما كـــاد يغـــادر مجلسه حتى بادر (عضد الدولة) الحاضرين وفاجأهم بقولـــه: إن هـــذا الأمـــير ممتلىء شجاعة ومهابة، وإنه لمن الخطورة بمكان على الدولة أن يبقى حياً بيـــن الأحياء ويظل على قيد الحياة، فأصدر أمراً بإلقاء القبض عليه لولا أن (باذ) كـان قد فطن إلى ما بيت له من شر وما نصب له من شباك فغادر المدينة سراً وعلـــى الفور، حيث لحق بجيشه. (ذيل تجارب الأمم ج٢، ص ٨٤ ــ ٨٧).

وما أن لقي عضد الدولة ربه عام ٣٧٣ للهجرة حتى استطاع (أبو شـــجاع) ضم «نصيبين» إلى رقعة ممتلكاته، فامتد سلطانه إلى أطراف الموصل، الأمـــر الذي شغل بال (صمصام الدولة) وأدى إلى استيائه وإشاعة القلق في نفسه فبـــادر إلى إعداد حملة عسكرية بقيادة (أبي سعيد بهرام بن أردشير) وأعلـــن الحـــرب على الأمير (باذ) الذي عبأ جيشه للدفاع، ثم تلاقـــى الجمعـــان ودارت بينـــهما معركة، حامية الوطيس، أسفرت عن هزيمة (أبي سعد بهرام)، هزيمة منكـــرة، ووقع الكثيرون من قواد الجيش البويهي وزعمائه أسرى حرب.

وفي نفس العام عبأ (صمصام الدولة) جيشاً عرمرماً بقيادة (أبي القاسم سـعد بن محمد الحاجب) وبعث به لمحاربة (أبو شجاع) واشتبك الجيشان فـــي مكـــان يدعى (باجلايا) على وادي خابور الحسينية[2] على مقربة من بلدة كواشي وأســفر القتال عن اندحار البويهيين وتمزيق صفوفهم شر ممـــزق، وأســر وقتــل مــن رجالهم الكثيرون، أما من نجا منهم وهم قليلون فقد عادوا إلـــى الموصـــل وقـــد

---

[1]- (الكامل ج ٩ - ص ١٣٠) ــ المترجم.

[2]- أي نهر الخابور الذي يصب في دجلة ــ المترجم.

تملكهم النصب وأخذ منهم الإعياء كل مأخذ لما صادفهم من صعاب وما حف بهم من متاعب.

وبعد أن بعث أبو شجاع بالأسرى إلى المؤخرة، واصل التقدم بجيشه متعقباً ومطارداً الذين لبستهم الهزيمة من الديالمة حتى بلغ أطراف الموصل وطرق أبوابها، فما كان من أهليها إلا أن انفجروا ثائرين في وجه حكامهم الديالمة، لما لاقوا على أيديهم وفي أيام حكمهم من ظلم فادح وعسف بالغ وجور فاضح، وسلموا المدينة لأبي شجاع.

وبعد أن استقر بأبي شجاع المقام في الموصل، وبعد أن أصلح شئونها ودبر أمورها، أخذ يعبىء الجيوش ويعد العدة لإنقاذ (بغداد) مركز الخلافة من بين براثن الديالمة وتخليصها من تحت نيرهم. وما أن بلغت (صمصام الدولة) أنباء هذه الاستعدادات التي كانت قائمة على قدم وساق حتى بادر إلى حشد جيش ضخم أسلم قيادته إلى (زيار بن شهراكويه) أكبر القواد الديالمة، فزحف (زيار) على رأس جيشه إلى «الموصل» فانبرى له (أبو شجاع) بجيشه والتحم الجيشان ودارت بينهما معركة دامية أسفرت عن خذلان أبي شجاع وانهزامه هزيمة شنعاء ومني جيشه بخسائر فادحة ووقع الكثيرون من رجاله أسرى حرب، ثم قفل راجعاً إلى (ديار بكر) يجر أذيال الهزيمة. وشرع في حشد الرجال والمقاتلة. أما (زيار) فكان مزهواً بما أحرزه من نصر مؤزر، وقد شطر جيشه إلى فريقين بعث بأحدهما تحت قيادة «سعد الحاجب» على بلدة الجزيرة، وزحف الآخر صوب «نصيبين». والذي يبعث على الدهشة أن كليهما قد شق عليه عصا الطاعة، وما نفذا له ما أمرهما به، بل عزفا عن قتال «أبي شجاع» وتفاديا الاصطدام به.

وما أن طرقت هذه الأنباء مسامع (صمصام الدولة) حتى دخل على الفور في مفاوضات مع (سعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان) وتم الاتفاق بينهما على أن يزحف (سعد الدولة) بجيش يستأصل به شأفة (أبي شجاع) وتعطى له (ديار بكر) نظير قيامه بهذه المهمة. ولكن قد جانب النصر جيش «سعد الدولة» فباء بفشل ذريع، وعاد أدراجه إلى حلب يجر ذيل الفشل.

ولما علم (سعد الدولة) بنبأ هذا الإخفاق حتى صمم على التخلص من (أبي شجاع) بسفك دمه، وأوفد من يقوم على تنفيذ هذه المكيدة، وتمكن الموفد من

اقتحام معسكر (أبي شجاع) واندس بين جنوده، وفي ليلة حالكة السواد وتحت جنح الظلام تسرب خفية إلى فسطاط (باذ) ــ الذي كان راقدا في فراشه ــ وطعنه بسيفه طعنة لم تكن القاضية وإن كانت قد سببت له بعض جراح ثخينة، ثم ولى النذل الغادر أدباره.

وبعد ردح من الزمن اندملت هذه الجراح وعوفي من آثارها، وسرعان ما دخل في مفاوضات مع (زيار وسعد) وعقد بينهم صلح اشترط فيه أن يبقى (باذ) حاكما على (ديار بكر) كلها ونصف منطقة (طور عابدين) الجبلية، ثم عاد (زيار) على أثر ذلك إلى «بغداد» تاركا شطرا من جيشه «في الموصل»[1] بقيادة سعد الحاجب. وفي عام ٣٧٧ هـ (٩٨٨ م)، حشد (باذ) جيشا كبيرا زحف به على الموصل، وكان (شرف الدولة) ملك بغداد قد أقام «أبا نصر خواشاذه» حاكما عليها، خلفا لسعد الحاجب الذي كان قد توفي، وما كاد (أبو نصر) يحط رحاله في الموصل ويقف على حقيقة ما عليه جيش «باذ» من قوة وسطوة وبسالة، حتى بادر إلى طلب النجدة من «شرف الدولة»، ولكن «باذ» لم يعط له فرصة، بل أخذه على غرة، وضيق عليه الخناق بما اضطره إلى طلب معاونة عاجلة من لدن عرب قبيلتي «بني عقيل» و «بني نمير»، اللتين شارك الكثيرون من رجالهما وفرسانهما ــ الديالمة – القتال. فانبرى لهم «أبو شجاع» بقوة مختارة من صفوة رجاله تحت قيادة أخيه الذي لقي حتفه صريعا في هذه المعركة وحاق بقوته فشل ذريع وخسران مبين. (راجع ابن الأثير ــ المترجم) وفي (٣٧٩[2] هـ) وفد اثنان من أبناء ناصر الدولة بن حمدان من بغداد وهما (أبو طاهر إبراهيم) و (أبو عبد الله الحسين) واستطاعا تعبئة جيش من بين عرب بني عقيل وبني نمير استعدادا للزحف به على الموصل ولكنهما لم يتجاسرا على تنفيذ خطة الزحف هذه، ولجئا إلى «محمد بن المسيب» أمير بني عقيل، وكان أهل الموصل قد عقدوا ــ وقتذاك ــ اتفاقا سريا مع أبي طاهر

---

[1]- لم يتعرض تاريخ الموصل لبحث مساعدة سعد الدولة، ويقول إن فدائيا كان قد أرسل من قبل (زيار) لاغتيال (باذ) ــ المؤلف.

[2]- يذكر كتاب تجارب الأمم (ج ٣ ص ١٤٥) أن (باذ) قد دبر حيلة بارعة في هذه الموقعة قد بهرت الأعين وبعثت الرهبة في المحيطين به، وهي أنه كان يضع البقر على رؤوس الجبال وبينها رجال بيدهم سيوف تبرق وحراب تتلألأ فإذا شوهدوا عن بعد ظنوا رجالا فلا يتجاسر الجنود على الصعود إليهم.. ولكن حدث أن نزل أخ لباذ وقاتل قوما من العرب فقتل وبلغ قتله من باذ كل مبلغ... إلخ ــ (المؤلف).

إبراهيم الحمداني، في حين نص في الاتفاق الذي تم بين «ابن المسيب» «وأبناء الحمداني» على أن تكون الموصل وأطرافها للحمداني، ومدينتا «نصيبين» و «الجزيرة» لابن المسيب. بعد ذلك زحف جيش الحمدانيين من الشرق، وعرب بني عقيل من الغرب على أن يطبقا سوياً وفي وقت واحد على «الموصل» التي كانت نيران ثورة قام بها الأهلون مشتعلة بين جنباتها، فسارع جيش «باذ» للقاء الحمدانيين الزاحفين من الشرق فالتقى الجمعان ودارت بينهما معركة دامية سفك فيها دماء الكثيرين، ثم تقدم جيشه وتصدى للزاحفين من العرب وبينما هو وجيشه مستميتان في القتال ومطاردة العدو، وإذا بأهل الموصل يعمدون إلى فتح أبواب المدينة على مصاريعها لجنود ابن المسيب، ويطعنون الجيش الكردي من الخلف طعنة قاصمة، فانعكس تيار المعركة، وتحطمت الروح المعنوية بين رجال «باذ» وجرح هو نفسه جرحاً بليغاً ثم ما لبث أن فاضت روحه وصعدت إلى بارئها في اليوم الثاني من شهر جماد الثاني عام (٣٨٠) للهجرة متأثراً بجراحه، وبموته أضحى جيشه أعزل دون قائد فعاد القهقهري إلى «ديار بكر» يجرجر أذيال الهزيمة[1].

[1] يذكر صاحب كتاب الكامل (ج ٩ – ص ٢٦) سنة ٣٨٠ وكذا (ذيل تجارب الأمم) حوادث هذه الموقعة الأخيرة على منوال آخر وهاك ملخصها:
كانت الموصل قد وقعت في أيدي الحمدانيين، وأراد (باذ) أن ينتهز هذه الفرصة ويستولي عليها فحشد جيشاً عرمرماً من الأكراد، وكان يشد أزره في مهمته هذا الأكراد البشنوية أصحاب قلعة (فنك) وكانوا كثيراً. ففي ذلك يقول الحسين البشنوي الشاعر لبني مروان ويعتد عليهم بنجدتهم خالهم باذاً من قصيدة:

البشنوية أنصار لدولتكم ... وليس في ذا خفا في العجم والعرب
أنصار (باذ) بأرجيش وشيعته ... بظاهر الموصل الحدباء في العطب
بباجلايا جلونا عنه غمغمة ... ونحن في الروع جلاؤن في الكرب

فتوجه باذ بهذا الجيش الضخم تجاه الموصل من الجهة الشرقية، فانبرى له فريق من جيش الحمدانيين و (أبي الذواد محمد بن المسيب) بداخل المدينة بعد أن عبروا دجلة، بينما زحف الفريق الآخر وقوامه (٢٠٠٠) من فرسان من عرب بني عقيل واجتازوا النهر أيضاً من شمال المدينة لمناهضة العدو والإجهاز عليه ولما علم (أبو شجاع) بهذه الأنباء أراد أن يحسن موقفه الحربي ويقترب من الجبال ولكن الوقت لم يسعفه، فاضطر أن يطلق لجواده العنان فكبا الجواد وسقط أبو شجاع على الأرض طريحاً يتقاطر الدم من جرح بليغ قد أصابه، وتقدم إليه ابن أخته (أبو علي الحسن بن مروان) وطلب إليه أن يمتطي صهوة جواد ويلحق بالجيش، فرفض وقال له: اذهبوا أنتم ودعوني وحالي فإني قد انتهيت، فاضطر (أبو علي) أن يتركه مرغماً واعتصم مع خمسمائة من رجال الجيش بالجبال.
بعد ذلك عثر رجل من بني عقيل على (باذ) ملقى على الأرض بين القتلى والجرحى و لم يكن قد فارق الحياة فقطع رقبته وقضى عليه وحمل رأسه إلى الحمدانيين الذين لم يكتفوا برقبته بل قطعوا يديه وبتروا رجليه وجاءوا بها إلى بغداد وعلقوا ما تبقى من الجثة على باب الإمارة في الموصل.

ب ـ الحكومة المروانية

إن «أبا علي حسن» الذي هو ابن مروان بن دوستك كما في الجزء الثاني من وفيات الأعيان، قد تخلى عن عمه[1] (باذ أبي شجاع) حين جاءه نبأ إصابة خاله (كذا) واندحار جيشه في المعركة، ويمم شطر «حصن كيف» القلعة المنيعة على ضفاف دجلة معتصماً بها ومستهدفاً بسط سلطانه على البلاد من غير إثارة فتنة.

وكانت زوج عمه الديلمية تقيم في هذه القلعة، فالتمس مقابلتها بحجة أنه يحمل من لدن عمه بعض وصايا يريد الإفضاء بها إليها، فصدقت زعمه وسمحت له بمقابلتها، وأمرت بأن تفتح له أبواب القلعة على مصاريعها، فلما مثل بين يديها؛ أسرّ لها بحقيقة أمره وألقى على سمعها بما دبره في نفسه، فلما وجد قلبها قد تفتح أمامه كاشفها برغبته في الزواج بها فقبلت عرضه راضية مرضية وهكذا ضمن الاستيلاء على القلعة دون سفك دماء وبغير قتال.

ولكن مطامعه ما كانت لتقف به عند هذا الحد، بل أخذ يجند الجند ويعد العدة ويجمع شتات جيش عمه حتى عبأ قوة خارقة يخشى بأسها ويحسب حسابها وقد بعثت فيه هذه القوة روحاً وثابة، فأخذ بها يناضل ويكافح حتى أسس الدولة الدوستكية من جديد وانعقد له لواء زعامتها. وعلى أثر ذلك سارع زعماء كردستان وقدموا له فروض الطاعة دون قتال. فازداد بذلك قوة على قوة، وأضحى واسع النفوذ، عريض السلطان.

وحدث أن رغب أبو طاهر وأبو عبد الله الحمدانيان ـــ بعد أن تم لهما الاستيلاء على الموصل ـــ في مد سلطانهما على ما تبقى من البلدان التي كانت

وقد استثار هذا العمل الشنيع أهل الموصل وأثار مكامنهم فضجوا بالشكوى وأبدوا عظيم استيائهم من هذا الظلم الصارخ والوحشية المتناهية قائلين: كيف يجوز ارتكاب مثل هذه الأعمال مع من له الأيادي البيض في الدفاع والذود عن الإسلام والجهاد في سبيله، ثم عمدوا إلى جثته المعلقة فأخذوها واحتفلوا بدفنها احتفالاً يليق بما لها من تجلة وإكرام... وهذا دليل ساطع على ما كان يكنه الشعب من محبة وتقدير لصاحب الجثة ـــ المؤلف.

[1] ـ اختلفت المصادر في هل (باذ) خال (أبي علي) فقط، كما هو المتبادر من الشائع في ابن مسكويه وابن الأثير. أم أنه عمه أيضاً، كما يؤخذ من مصادر أخرى، بدليل كون اسم والد (باذ) هو دوستك واسم والد (مروان) والد (أبي علي) أيضاً (دوستك) وغاية ما هنالك يجب فرض أن باذ ومروان كانا أخوين لأب وأن مرواناً تزوج بأخت باذ من أم فأولد أبا علي الحسن الذي صار (باذ) خاله وعمه في آن واحد. وبهذا زال الخلاف بين المصادر، وصارت تسمية هذه الدولة كلها دوستكية أصح من التسمية بالدوستكية والمروانية. المترجم.

تدين بالخضوع للحكومة الدوستكية فعبئا جيشاً كبيراً زحفا به ـ ومعهما رأس «باذ» ـ صوب «ديار بكر»، ظانين أن البلاد خاوية على عروشها تفتقر إلى من يدفع عنها غائلة العدو أو يرد عنها كيد الكائدين، ولكن ثبتت قصر نظرهما. بل طاش سهمهما وخاب ظنهما، لأن (أبا علي) كان قد جمع شتاته، وسما مركزه وعلا، فتمكن من إعداد قوة حربية ضخمة ومنظمة يضاف إلى ذلك انفجار الأهالي ثائرين على مظالم الحمدانيين، وسوء إدارتهم وتعسفهم، مما قوى ساعد (ابي علي) وحفزه على العمل... فزحف بجيشه والتحم مع جيش الحمدانيين في معركة دامية أريقت فيها دماء الكثيرين من الحمدانيين وسقطوا صرعى يتخبطون في دمائهم وانعقد لواء النصر «لأبي علي» ووقع «أبو عبد الله» الحمداني في يده أسيراً ولكنه أحسن له المعاملة، ولم ينظر إليه كأسير حرب وما جعله يحس ذل الإسار بل بالغ في إكرامه ثم ما لبث أن أطلق سراحه، فتوجه على الفور للقاء أخيه «طاهر الحمداني» الذي كان قائماً على حصار قلعة آمد (ديار بكر) وقتذاك، فأنبأه بما حدث له وأظهره على جلية الأمر، ونصح له أن يعقد صلحاً مع المروانيين وأن يكف عن الاشتباك بهم، وألا يلج في خصامهم.. ولكن أبا طاهر لم يعره آذاناً صاغية بل أبدى تصميمه على مواصلة القتال، واستطاع حشد قوة هائلة من أبناء عرب بني عقيل وبني نمير، كما اضطر أبو عبد الله مرغماً أن يقف إلى جانب أخيه ويمد له يد المعونة رغم أنه لم يطع له أمراً وما قبل له نصيحة.

وفي اليوم الحادي عشر من صفر من عام ٣٨١ للهجرة سار (أبو علي) على رأس جيشه الضخم لمنازلة خصومه الحمدانيين ودارت بين الجيشين رحى معركة حامية الوطيس انعقد فيها لواء النصر لجيش أبي علي، وباء الحمدانيون بفشل ذريع وخسران مبين، ووقع أبو عبد الله ـ لسوء الحظ ـ أسيراً للمرة الثانية ولكنه عومل في أسره هذه المرة معاملة كلها قسوة وغلظة، وعوقب عقاباً صارماً جزاء ما قدمت يداه. وزج به في أعماق السجون في (آمد = ديار بكر) حيث أنه لم يرعَ ضميراً ولا ذمة، ولم يحفظ عهداً وأبى إلا الغدر والنكران جزاء ما لقي من عفو وإحسان.

ولما اشتدت الخصومة بين المروانيين والحمدانيين واستطال بينهما القتال رأى خليفة مصر أن يبذل وساطته بينهما لحسم النزاع وحقناً للدماء، فأوفد من

قبله جماعة من العلماء يطلبون إلى (أبي علي) الإفراج عن أبي عبد الله، فنفذ طلبتهم وحقق رجاءهم، وقبل الإفراج عنه وفك إساره على شريطة أن يغادر على الفور أراضي الكرد والعراق، فتسلمه العلماء واصطحبوه معهم إلى حلب[1].

أما (أبو طاهر) الحمداني فقد يمم شطر نصيبين بعد اندحاره وفشله الذريع وهنالك رآه صديقه القديم (أبو الذواد محمد بن المسيب) أمير بني عقيل ورأى ما آل إليه أمره من ضعف وخذلان. وما مني به الحمدانيون من سوء المآل، فاغتنم هذه الفرصة الذهبية، فانقض عليه وعلى ابنه (علي) وعلى (المزعفر)[2] أمير بني نمير واغتالهم جميعاً، وبذلك قضى على حلفائه بالأمس..، ثم خلا له الجو فزحف على الموصل واحتلها ثم كتب إلى (بهاء الدولة) سلطان بغداد طالباً إليه تعيين حاكم على الموصل، فعين عليها (أبا الحسن عبد الله) وكان هذا الحاكم مسلوب السلطة، مشلول النفوذ في كل ناحية اللهم إلا جمع الضرائب وجباية الأموال، حيث كان (ابن المسيب) قابضاً على زمام الأمور ومهيمناً على كافة الشؤون.

هذا وكان الملك (أبو علي) كريم الأخلاق سمحها وقد اشتهر بين الناس بالبشاشة واللطف وإقامة العدل بينهم بالقسطاس المستقيم، فأحبته الرعية؛ ومنحته ثقتها وأحاطت به إحاطة السوار بالمعصم. ما عدا أهالي (ميافارقين) الذين انفجروا ثائرين في وجهه وشقوا عليه وعلى رجاله عصا الطاعة، فأطبق عليهم بجيشه صبيحة يوم العيد، وكانوا مجتمعين خارج المدينة في (المصلى) فانتهز فرصة خلو المدينة منهم واقتحمها من أحد أبوابها بينما كان (أبو الصقر) أحد قواده قد اقتحم المدينة من الداخل. اهـ (الكامل ج٩ – ص ٢٧).

وتقول دائرة المعارف الإسلامية أن (أبا علي) قد بسط حكمه ومد سلطانه حتى بلاد (أخلاط) و (ملازكرد) و (أرجيش) وحتى المناطق الضاربة في الشمال الشرقي لبحيرة (وان). كما امتد هذا السلطان غرباً في وقت ما، حتى (الرها) التي انتزعها في عام ٣٨١ للهجرة من بين براثن (باسيلي الثاني) إمبراطور الروم أثناء حروبه في بلاد الشام، وظلت هذه المدينة خاضعة لحكمه ردحاً من الزمن.

---

[1]- هكذا في الأصل، والصحيح كما في (ابن الأثير) مضى إلى مصر ومنها تقلد ولاية حلب وأقام في تلك الديار إلى أن توفي..

[2]- وكذا في ابن الأثير. ولكن في ذيل تجارب الأمم — والزعفير أمير بني نمير (المترجم).

وفي عام (٣٨٧)[1] للهجرة عقد قران الملك أبي علي حسن على ابنة سعد الدولة ابن سيف الدولة الحمداني حاكم حلب وكانت تدعى (ست الناس) وسار موكب زفافها من «حلب» إلى «ديار بكر» حيث تقام الأفراح والحفلات، فأوجس أهالي «ديار بكر» خيفة من وراء هذه الزيجة، وخشي زعيمهم «عبد البر» طغيان المروانيين على نفوذه إذ ربما يفعلون بها مثلما فعلوا في ميافارقين فعمد إلى تدبير مكيدة لاغتيال الملك المرواني حالما تطأ قدماه المدينة، وعهد بذلك إلى شرير يدعى «ابن دمنة» الذي أودى بحياة الملك، فساد الهرج والمرج[2] وأخذت جموع غفيرة من أتباع الملك والمرافقين له يتدفقون كالسيل الجارف شطر (ميافارقين)، وكان بعض من دبروا هذه المؤامرة يبتغون من ورائها الوصول إلى الحكم واعتلاء الملك، لولا أن محافظ المدينة قد فطن لما يضمرون في أنفسهم فأفسد عليهم تدبيرهم، فقد اتصل بالمسؤولين من رجال الدولة، فقالوا له: إن كان الملك لا زال على قيد الحياة فليصعد إلى القلعة وإن كان قد لحق بالرفيق الأعلى فليخلفه من هو أحق بالملك وهو أخوه «ممهد الدولة أبو منصور» الذي وصل إلى مقر الحكم على عجل، واعتلى عرش أخيه.

أبو سعيد المنصور ممهد الدولة

كان أبو سعيد المنصور قد عاد إلى ميافارقين بعد وفاة الشاه «باذ» وظل حاكماً عليها حتى لحق «أبو علي» بالرفيق الأعلى، وعلى أثر اغتيال «أبي علي الحسن» بميافارقين سارع إليها حيث نودي به ملكاً على المملكة المروانية... ويرى (أبو الفداء) أن حكمه قد امتد إلى عام ٤٠٢ للهجرة.

وعلى كل فنحن نفتقر إلى معلومات شافية عن عهد هذا الملك، اللهم إذا استثنينا ما أسعفنا به «الكامل» من نتف مبعثرة وموجزة عن آخر سنة من عهده. وكيف دالت دولته وتقوض عرشه إذ يقول:

---

[1] - ذكر (ابن الأثير) هذا البحث، ضمن وقائع عام ٣٨٠ في حين تذكره (دائرة المعارف الإسلامية) ضمن وقائع عام ٣٨٧ وتجعل وفاته أيضاً في حوادث هذا العام. (المؤلف).

[2] - جاء في الكامل أن (عبد البر) هذا ــ بعد ارتكاب هذه الجناية الشنيعة ــ عقد قران ابن دمنة على ابنته مكافأة له على ما ارتكبه من جرم، غير أن هذا الصهر القاتل قد عمد بعد مدة إلى نسيبه المنحوس الذي كان يعمل ليله ونهاره للوصول إلى الحكم فاغتاله، وصفا له الجو ردحاً من الزمن في (ديار بكر) حيث بنى بها لنفسه قصراً، وحسن علاقاته مع (ممهد الدولة) وسائر الحكومات المجاورة، ودام حكمه فيها حتى عهد نصر الدولة. المؤلف.

«كانت النقود تسك باسم أبي منصور ممهد الدولة، وتلقى الخطب على المنابر باسمه، وكان له صديق يدعى «شروه بن مامه» حاكم البلدة. وكان لهذا الصديق غلام يتولى منصب رئيس الشرطة، وكان ممهد الدولة ينفر منه ويزدريه وهو غير راغب في بقائه، بل كان يسعى جاهدا لاغتياله، لولا أنه عاد فعدل عن سفك دمه إرضاء لسيده ومراعاة لخاطره. ولكن الغلام كان قد فطن لما دبر له، وتبين ما يكنه الملك له من السخط والازدراء فأخذ يسعى ويبذر بذور الفساد بين الملك وسيده حتى عكر صفو العلاقات بينهما وأزال ما بينهما من ود وصفاء، وظل يوغر صدر سيده ويستثير مكامنه ضد الملك حتى صمم سيده على التخلص من الملك وكان أن أقام وليمة، في قلعة (هتاغ = أتاق)[1]، للملك أبي منصور، وكانت هذه القلعة ضمن إقطاعاته.

وما كاد الملك أبو منصور تطأ قدماه أرض القلعة حتى فوجيء بجنود من الكرج، من حامية القلعة، ينطلقون من مكمنهم ويغتالونه في عام (٤٠٢) للهجرة.

وما أن تأكد (شروه) من نجاح مؤامرته الإجرامية حتى غادر القلعة على الفور ميمما شطر أبناء عم (ممهد الدولة) وألقى القبض عليهم مدعيا بأن هذا الإجراء تنفيذا لأمر (ممهد الدولة) ثم توجه إلى (ميافارقين) وتقدم نحو أبوابها حسب الأصول المرعية والمتبعة في المواكب الملكية وبيده المشاعل مما أدخل في روع حفاظ الأمن وحراس المدينة أن الملك قادم من رحلته ويقصد الصعود إلى القلعة، ففتحت أمام موكبه الأبواب على مصاريعها ودخلها آمنا مطمئنا. ولما دانت له الأمور على هذه الصورة وتوطد مركزه كتب إلى محافظي القلاع الأخرى يدعوهم إلى طاعته، وأوفد رجلا من رجاله إلى قلعة «أرزن = غرزان الحالية» طالبا إلى محافظها الأستاذ أبي القاسم المبادرة بالتسليم إلا أن أبا القاسم قد رفض التسليم بإباء وشمم فنهض متوجها إلى (ميافارقين) وما أن بلغ به المسير منتصف الطريق حتى علم بخبر مقتل ممهد الدولة فعدل عن مواصلة السير، وعاد أدراجه إلى (أرزن) حيث بعث على جناح السرعة بمن ينبيء (أبا النصر بن مروان) أخا ممهد الدولة وحاكم قلعة (سعرد) بالخبر وكان أبو النصر هذا مبعدا بأمر أخيه لأنه كان يكن له البغضاء ولا يوده[2].

---

[1] - هي قلعة الهتاخ التي يطلق عليها الآن (ليجه) بولاية (ديار بكر) كما نص على ذلك المرحوم سعيد باشا الديار بكري في كتابه مرآة العبر، باللغة التركية. المترجم.

[2] - يقول الكامل (ج ٩ ــ ص ٢٨) أن سبب الجفاء بين الأخوين هو أن ممهد الدولة رأى في المنام أنه نعتض الشمس وأن أخاه أبا النصر قد هاجمه وانتزعها منه. المؤلف.

الملك العادل نصر الدولة أحمد

امتد حكم هذا الملك من عام (٤٠٢) حتى عام (٤٥٣) للهجرة.. وقد اتفق المؤرخون على أنه كان ملكاً يتحدث بعظمته الركبان وتضرب بعدله وحزمه الأمثال، وبالاختصار فقد كان، لا ككل ملوك بني مروان، بل كان أشهرهم بل ونسيج وحده بينهم، ولا غرو فقد اشتهر بلقب العادل.

يقول ابن الأثير[1]: إن الخواجه (الأستاذ) أبا القاسم حاكم (أرزن) حينما أرسل إلى الأمير (أحمد) يعرض عليه الأمر فسأله كاتبه عما إذا كان في مكنته القيام بأعباء هذا المركز الخطير فأجاب الأمير بالإيجاب أي بنعم!!.

وحينذاك كان (شروه) قد جرد حملة على الأمير (أحمد) ولكن قبل أن تطرق هذه الحملة أبواب (سعرد) كان الأمير (أحمد) قد غادر إلى (أرزن)، وهنالك علم (شروه) أن الموقف جد خطير.

وتصادف وقتذاك أيضاً أن (مروان) والد (ممهد الدولة) كان مع امرأته في (أرزن) وكانا جاثمين أمام قبر (أبي علي)، فجاء الخواجة أبو القاسم بأبي النصر أحمد إليهما وطلب إليه على مرأى ومسمع من قاضي (أرزن) وآخرين: أن يقسم يميناً بالله العظيم بأنه سيحكم البلاد متوخياً العدل والقسطاس المستقيم، وعلى أثر تأديته اليمين سلّمت إليه مفاتيح قلعة (أرزن). ثم تلا ذلك خضوع سائر البلدان والقلاع المروانية بديار بكر الواحدة تلو الأخرى.

وبعد أن دانت الأمور للملك ناصر الدولة داخل الحدود المروانية واستقرت له الأحوال وتوطد سلطانه وعم البلاد موجة من الرخاء وانتشر العدل بين أرجائها[2]، سعى إلى تقوية أواصر الروابط وتوثيق العلاقات مع البلدان المجاورة فأوفد عام (٤١٠) للهجرة الرسل والسفراء إلى القسطنطينية وبغداد ومصر.

ثم نادى بابنه الأمير (سليمان) ولياً لعهد المملكة المروانية وعينه حاكماً على جزيرة بوهتان (جزيرة ابن عمر) واختار مدينة (ميافارقين + سليوان) حاضرة

---

[1] - انظره في (ص ٢٨ - ج ٩) الطبعة المصرية. المترجم.

[2] - إلى أن قال ابن الأثير، فدامت أيامه وأحسن السيرة وكان مقصداً للعلماء من سائر الآفاق وكثروا ببلاده. وممن قصده أبو عبد الله الكازروني وعنه انتشر مذهب الشافعي بديار بكر وقصده الشعراء وأكثروا مدحه وأجزل جوائزهم وبقي كذلك من سنة ٤٠٢ هـ إلى سنة ٤٥٣ هـ فتوفي فيها وكان عمره نيفاً وثمانين سنة وكانت الثغور معه آمنة وسيرته في رعيته أحسن سيرة، فلما مات مَلِك بلاده ولده. ا هـ. المترجم.

لدولته، وقد استن سنة حميدة ليشرف بنفسه على شؤون رعاياه وهي زيارة المدن بين الفنية والفينة لهذا الغرض، وكان يقضي في (ديار بكر) قرابة شهر كلما زارها، كما أنه لم يبخل بزيارته الملكية على مدينتي (وان) و(أرجيش) وبقية مدن كردستان الأخرى.

ولما سمع الخليفة العباسي القادر بالله، بنبأ هذا الملك الذي نشر لواء العدل بين رعيته وساس أمور دولته بحزم وعزم، أكبر فيه هذه الصفات الفريدة وأنعم عليه بلقب (نصر الدولة) في عام ٤٠٨ للهجرة.

ولكن هذه العلاقات التي قامت على الود والإكبار بين الخليفة العباسي والملك المرواني ما لبثت أن ساءت وتعكر صفوها بسبب التجاء أبي القاسم المغربي إلى الملك (نصر الدولة) عام ٤١٥ للهجرة ووزراته له، وظلت العلاقات بينهما متوترة حتى لقي أبو القاسم ربه عام ٤١٨ للهجرة عن عمر يناهز ستا وأربعين بمدينة (ميافارقين)، حيث عادت بينهما المياه إلى مجاريها، فاستؤنفت العلاقات الودية وساد بينهما الصفاء والوئام[١].

واستولى (نصر الدولة) على مدينة «الرها» عام (٤١٦) للهجرة، وكان حاكم هذه المدينة وهو شيخ من نمير يدعى (عطير) وفيه شر وجهل وقد وكل شئون إدارتها إلى نائب عنه يدعى (أحمد بن محمد) فأحسن السيرة وبسط العدل بين ربوعها، ولكن حدث أن قتل الشيخ (عطير) نائبه هذا بحجة سوء سيرته، فاستاء الأهالي وأعلنوا سخطهم على الشيخ لإقدامه على ارتكاب هذا الجرم الشنيع، واتصلوا سرا بالملك (نصر الدولة) طالبين إليه تعيين حاكم للمدينة من قبله ليحكمها باسمه، فلبى الملك نداءهم، وبعث إليهم برجل من رجاله ــ كان نائبا عنه في (ديار بكر) ــ يدعى (زنك). وما أن وصل هذا الحاكم الجديد إلى الرها حتى تسلم مقاليد أمورها باسم الملك.

ولكن الشيخ (عطير) النميري ما كان لينام ملء جفونه مستسلما لمشيئة أهل المدينة، بل سارع إلى تقديم ملتمس إلى نصر الدولة بوساطة الصالح ابن مرداس، فقبل ناصر الدولة ملتمسه وأعاد إليه نصف مقاطعة (الرها) فسر الشيخ ويمم شطر «ميافارقين» لتأدية واجب الشكر للملك وزيارته، وهنالك أشار الوزراء على الملك بضرورة المبادرة بقتله والخلاص منه.

---

[١]- من الكامل لابن الأثير ج ٩ – ص ١٣ و ١٣٥ ــ المترجم.

ولكن الملك رفض الاستجابة لمشورتهم وعزف عن اغتياله، فقال: أتقي شره بالوفاء لا بالغدر، فعاد الشيخ إلى «الرها» وعين فيها وكيلاً عنه، وحدث أن أولم «زنك» وليمة دعاه إليها، وفي طريق عودته من الوليمة، تصدى له ابن الوكيل السابق المقتول «أحمد بن محمد» وقتله؛ مما أدى إلى نشوب حرب بين بني نمير للأخذ بالثأر، واضطرار «زنك» وكيل ناصر الدولة إلى الزحف بجيشه والاشتباك معهم في معركة دامية لقي فيها «زنك» حتفه في أوائل سنة (٤١٨) ومزقت صفوف قوته شر ممزق. وهكذا فقدت قلعة الرها وانقرض حكم المروانيين فيها إذ عدل نصر الدولة نهائياً عن استردادها استجابة لرغبة وشفاعة صالح بن مرداس[١].

وفي عام (٤١٩) للهجرة زحف «بدران بن مقلد» العقيلي على رأس جيش ضخم كامل العتاد للاستيلاء على «نصيبين» فانبرت له حاميتها من جنود «نصر الدولة» ورغم أنها أبلت بلاءً حسناً واستماتت في الدفاع عن المدينة لكنها لم تستطع الصمود أمام جحافل جيش العدو المغير وسرعان ما حاق بها فشل ذريع، فبعث (نصر الدولة) بمدد جديد ولكن دون جدوى إذ كانت الغلبة لقوات «بدران» الحاشدة، ولما علم «نصر الدولة» بنبأ اندحار المدد الجديد تملكه الغضب وبعث للمرة الثالثة بنجدة هائلة قوامها ثلاثة آلاف من الفرسان انضمت إلى صفوف المدافعين عن المدينة وقام الجميع بشن هجوم عنيف مضاد على قوات «بدران» حتى أخذت تتضاءل وتتكمش أمامهم وأخيراً ألحقوا بها هزيمة منكرة. وأخذوا يتعقبون فلولها ويطاردونهم حتى أبعدوهم وبذلك حازوا نصراً مبيناً وأنقذوا القلعة بعد أن كان وقوعها قد أضحى قاب قوسين أو أدنى في يد العدو.

ولكن العدو العنيد لم يستسلم لما حاق به من هزيمة وما لحق به من خذلان فقد انتهز فرصة انشغال قوات «نصر الدولة» في السلب والنهب وأعاد الكرة وانقض على القلعة بهجوم عنيف وألحق بقوات (نصر الدولة) هزيمة شنعاء وطاردها حتى أبواب «نصيبين» وحينذاك بلغه أن أخاه «قرواش» زاحف للإغارة على الموصل، فاضطر مرغماً إلى مغادرة (نصيبين) على جناح السرعة لما كان بينه وبين أخيه من جفاء ونفور.

---

[١] - تقول (دائرة المعارف الإسلامية) على خلاف (ابن الأثير) في الكامل ص ١٣٠: إن ناصر الدولة استولى على الرها من البيزنطيين — المؤلف.

ولم يمض طويل وقت حتى تبدد هذا الجفاء وساد الصفاء والوئام بين (بدران) وأخيه) (قرواش) حاكم الموصل، في حين كانت العلاقات قد توترت بل وساءت جداً بين (نصر الدولة) و (قرواش)، لأن العلاقة الزوجية بين نصر الدولة وزوجته وهي ابنة (قرواش) لم تكن على ما يرام، مما أدى إلى إعادتها إلى أبيها في الموصل فاتخذ (قرواش) من هذا دعامة يتكيء عليها لمطالبة نصر الدولة بمهر ابنته البالغ عشرين ألف دينار، وبقلعة (نصيبين) لأخيه (بدران) وبقلعة (جزيرة ابن عمر) مقابل نفقة لابنته. ولكن نصر الدولة لم يعر هذه المطالب التفاتاً، مما أدى إلى استشاطة (قرواش) غضباً وتصميمه الاستيلاء بالقوة على ما فشل في الحصول عليه عن طريق السياسة والملاينة، ووجه بالفعل جيشاً للاستيلاء على الجزيرة، كما بعث بآخر يقوده أخوه (بدران) إلى نصيبين فحاصرها، ولكن الفشل كان حليف الجيشين، والخذلان المبين رائدهما، مما دفع (بدران) إلى الذهاب إلى (ميارفارقين) حيث التمس من نصر الدولة منحه (نصيبين) فاستجاب نصر الدولة الرغبة وأجاب طلبته حسماً للنزاع وحقناً للدماء، فأعطاه (نصيبين)، كما بعث بخمسة عشر ألف دينار إلى (قرواش) مهراً لابنته. وهكذا زالت أسباب الجفاء وتلاشت العوامل المحركة للقتال وسفك الدماء. وفي عام (٤٢٢) للهجرة كان يحكم مدينة (الرها) كل من (ابن عطير) و(ابن شبل) مناصفة، فباع (ابن عطير) نصيبه لملك الروم مما أدى إلى زحف الجيش الرومي واحتلاله المدينة بأكملها وقتل الكثيرين من مسلمي المدينة. ولما سمع (نصر الدولة) بهذه الأنباء وجه جيشاً إلى (الرها) وضرب عليها حصاراً شديداً، وأخذ يضيق الخناق على الروم ويسدد إليهم ضرباته القاصمة حتى ألبسهم هزيمة منكرة. ودخل المدينة وطهرها من أشلائهم وأنقذها من وبائهم المستطير. ولكن الروم أبوا السكوت على هذه الهزيمة فعادوا بعد قليل وشنوا هجوماً عنيفاً على المدينة وتمكنوا من استردادها.

وفي عام (٤٢٦) للهجرة حشد (ابن الوثاب النميري) جيشاً كثيفاً من العرب ومن غيرهم مستنجداً بأروام الرها أيضاً وزحف به على المملكة المروانية.. وكان «نصر الدولة» قد استعد للقائه على رأس جيش عرمرم تشد أزره نجدات أخرى تقاطرت عليه من الأطراف.. وما أن علم «ابن الوثاب» بنبأ ما أعده (نصر الدولة) من استعدادات هائلة وقوات عاتية حتى تملكه الرعب وخشي

سوء المصير فاختصر الطريق عائدا القهقري دون قتال. أما نصر الدولة فقد كتب إلى ملك الروم يوجه إليه اللوم ويعتب عليه نقضه لمعاهدة الصلح والصداقة المبرمة بينهما. ثم هدده بمحاصرة «الرها». ورد عليه ملك الروم معتذرا عما حدث قائلا إنه حدث دون علمه، وأمطره بوابل من الهدايا إظهارا وتوكيدا للصداقة التي بينهما، فقبل (نصر الدولة) هذا الاعتذار واعتبر ما حدث كأنه لم يكن، وفي رجب عام (٤٢٧) للهجرة أرسل (نصر الدولة) جيشا على (السويداء)[١] بقيادة أحد قواده لمساعدة ابن عطير وابن الوثاب، فاستولى عليها، ثم واصل الجيش زحفه وضرب حصارا شديدا حول مدينة «الرها» فسارع ملك الروم بإرسال نجدة لإنقاذ المدينة والدفاع عنها ولكن الجيش الرومي قد مني بفشل ذريع، وولى مدحورا مخذولا، واقتحم ابن الوثاب والقائد المرواني المدينة وقبضا على زمام الحكم فيها[٢]. وفي عام ٤٣٢ هـ[٣] أغار الغز ــ الذين أغرقوا منذ سنوات بلاد إيران المركزية وبلاد آذربيجان في بحار من الدماء وأعملوا فيها السلب والنهب ــ على البلاد الكردية وإقليم كردستان: فهرعت العشائر الهذبانية عن بكرة أبيها لمقاومة الغز واستئصال شأفتهم ولكن رغم دفاعهم المجيد واستماتتهم في القتال، أفلح المغيرون في التقدم بخطى واسعة والتوغل في داخل البلاد والانتشار في شرايينها. وتوجه فريق من الغز ــ كان في (أرمية) ــ شطر البلاد الحكارية، واشتبك رجال هذا الفريق في قتال عنيف مع أكراد تلك الناحية، وكان هؤلاء الغز مجبولين على الوحشية والغلظة والقسوة فاستحلوا لأنفسهم قتل النساء وسفك دم الأطفال الأبرياء، مما أفضى إلى اعتصام الكرد بين شعاب جبالهم الشامخة وبين ثنايا وهادهم السحيقة، والترصد لعدوهم في المضايق والمعابر حتى تمكنوا منه وفتكوا برجاله فتكا ذريعا وقتلوا منهم ألفا وخمسمائة وقعوا صرعى في حومة الوغى يتخبطون في دمائهم وأسروا منهم كثيرين من بينهم سبعة من القواد ومائة من الزعماء، واستولوا على غنائم وأسلاب تجل عن الوصف ولا حصر لها ولا عد، فضلا عما تركوه من أسلحة

١- الظاهر أن (السويداء) هذه هي قلعة (سورك - سيورك) الحالية بين آمد والرها، سميت بهذا الاسم باللغة المحلية الكردية لأن لون أراضيها أحمر حمرة تضرب إلى السواد بخلاف الرها التي لون أرضها أبيض ــ المترجم.

٢- راجع ابن الأثير (ص ١٦٧ - ج٩) وفيها ذكر غدر السناسنة وأخذ الحاج وإعادة ما أخذوه، بفضل (نصر الدولة) الذي عزم على محاربة الأرمن عموما والسناسنة خصوصا..

٣- انظر ص ١٤٤ ــ المترجم.

ومهمات، أما أولئك الذين تبقوا منهم على قيد الحياة فقد تفرقوا شذر مذر بين الوهاد وحنايا الجبال.

وفي نفس هذا العام زحف (إبراهيم ينال) ــ أخو السلطان طغرل ــ صوب (الري) فأوجس الغز الضاربون في تلك البقاع منه خيفة وتركوا الري وبلاد الجبل وتوجهوا عام ٤٢٣ للهجرة شطر بلاد (ديار بكر) و(الموصل) وفي الطريق إليهما ارتكبوا الكثير من أعمال العنف والتدمير والتقتيل، وأخيراً وصلوا عن طريق الزوزان إلى (جزيرة ابن عمر). وتوجه فريق الغز الذي كان بقيادة (بوقا) و(ناصغلي) وبعض زعمائهم إلى (ديار بكر) ونهبوا (قردى) و (بازبدا) و(الحسينية) و(فيشخابور = فيشابور) ودمروا هذه البلاد تدميراً، أما أولئك الغز الذين كانوا في شرقي الجزيرة تحت قيادة (منصور بن غزغلي) فقد كتب إليهم (الأمير سليمان أبو الحرب) ابن ناصر الدولة يعرض عليهم الصلح على أن يظلوا في أماكنهم حتى يقبل الربيع على أن يرحلوا بعد ذلك إلى الشام[1]، فقبل قائدهم (منصور بن غزغلي) هذا العرض وأبدى موافقته على عقد الصلح. وبعد مدة أولم «أبو الحرب» وليمة دعا إليها هذا القائد. وما أن حضرها حتى ألقى عليه القبض، وبذلك تمكن من تشتيت شمل جيش الغز وتمزيق صفوفهم وقطع دابرهم. إذ كان القبض على قائدهم صدمة عنيفة وطعنة نجلاء صوبت إلى نحورهم وقصمت ظهورهم. ثم وجه كل من (قرواش) حاكم الموصل والملك (ناصر الدولة) وكذا الأكراد البشنوية أصحاب قلعة (فنك) قوات عسكرية عاتية طاردت الغز وألحت في مضايقتهم حتى فروا تاركين وراءهم جميع أثقالهم وما كانوا يمتلكون من الأموال والدواب غنيمة باردة، وقتل منهم كثيرون. وفي هذه الأثناء عاد فريق من الغز ــ الذين كانوا قد أغاروا على أطراف (نصيبين) و(سنجار) بغية النهب والسلب ــ إلى الجزيرة وحاصروها ولكنهم سرعان ما رفعوا عنها الحصار متجهين صوب (ديار بكر) حيث خرّبوا البلاد وسلبوا العباد.

وبعد ذلك أطلق (نصر الدولة) سراح قائد الغز (منصور بن غزغلي) ــ الذي كان أسيراً لدى ابنه الأمير (أبي الحرب سليمان) على شريطة أن يجلو هو وجميع الغز عن البلاد المروانية، وزوده بحفنة من المال، ولكن رغم ذلك لم يحجم هؤلاء القوم المخربون عن السلب والنهب وتدمير البلاد حين جلوا عنها،

---

[1] - انظر ص ١٤٥ ــ ج٩، من ابن الأثير ــ المترجم.

فدمروا أطراف (سنجار) و (نصيبين) تدميراً. وكان فريق آخر من الغز قد أغار على (الموصل) واحتلها وأكثر فيها القتل والفساد. وقد كتب الملك (ناصر الدولة أحمد) كتاباً بعث به إلى السلطان (طغرل) يضج فيه بالشكوى[1]، ويندد بما ارتكبه الغز في البلاد من فظائع وأعمال وحشية وبربرية. وفي عام (٤٣٩) للهجرة ظهر «الأصفر التغلبي» في أطراف (رأس عين) وادعى أنه من المذكورين في الكتب واستغوى قوماً بمخاريق وضعها وجمع جموعاً زاخرة، وبدأ يشن الغارات على أطراف بلاد الروم بغية السلب والنهب والتدمير، ولكن «ناصر الدولة» لم يمهله بل سارع بإلقاء القبض عليه وزج به في أعماق السجن...[2] وفي عام (٤٤٠) للهجرة ساءت العلاقات بين عشيرتي الحميدية والهذبانية الكرديتين من جهة وبين (قرواش) وأخيه من جهة أخرى واشتد بينهما النضال، وأوغلا في الخصام، الذي يروي لنا «الكامل»[3] سببه فيما يلي: — «كان على مقربة من الموصل عدة قلاع للأكراد الهموذية (الحميدية) مثل (عقره = اكرا)، وكان زعيمهم يدعى (أبو الحسن بن العيسكاني الهموذي)، وكان زعيم العشيرة الهذبانية يدعى (أبو الحسن بن موسك) صاحب قلعة هولير «أربيل» وأطرافها، وكان لحاكم «أربيل» هذا، أخ يدعى «أبو علي بن موسك» يناوئ أخاه، فساعده أبو الحسن العيسكاني على أخيه لانتزاع «أربيل» منه، واستولى عليها فعلاً، وقبض على أخيه «أبي الحسن».. ثم جاء «قرواش» حاكم الموصل وطلب إلى كل من أبي الحسن العيسكاني وأبي علي الهذباني أن يعاوناه في الزحف على «ناصر الدولة» فلبى«أبو الحسن بن عيسكان» الحميدي الدعوة بنفسه في حين أوفد (أبو علي الهذباني) أخاه وقد صادف ذلك وقت تحسن العلاقات بين ناصر الدولة وقرواش وعودة المياه إلى مجاريها.

وفي عام (٤٤١) للهجرة نشبت الخصومة بين (معتمد الدولة أبي المنيع قرواش بن المقلد العقيلي المتوفى سنة ٤٤٤ بالموصل) وبين أخيه (زعيم الدولة أبي كامل بركة بن المقلد المتوفى سنة ٤٤٣ بتكريت) فأوعز قرواش إلى ابن أخيهما (قريش بن بدران بن المقلد) أن يشن هجوماً عنيفاً على أبي كامل، فأطبق عليه وقهره، مما أدى إلى التجاء «أبي كامل» إلى رحاب (أبي الحرب سليمان)

---

[1] - ابن الأثير (ص ١٤٦) وفيها أن الغز هم التركمان عبيد وأتباع السلجوق.

[2] - انظر ابن الأثير ص ٢٠١ - ج٩.

[3] - ص ٢٠٤ - ج ٩ — المترجم.

ابن نصر الدولة، المرواني، فأصدر (نصر الدولة) أوامره إلى ابنه (أبي الحرب) أن يشنها حرباً عواناً لا هوادة فيها على (قرواش) انتقاماً منه، كما كتب في هذا المعنى إلى الأمير أبي الحسن العيسكاني، وسرعان ما زحف الجيشان صوب (الموصل)، فتصدى لهما (قرواش) على رأس جيشه على مقربة من المدينة، واشتبك الفريقان في معركة دامية أسفرت عن اندحار ذريع وخذلان مبين لجيش (قرواش) ووقوع قرواش نفسه أسيراً في قبضة (أبي الحرب) الذي سلمه بدوره لأخيه (زعيم الدولة أبي كامل).

ولكن (أبا كامل) الذي استفز الجيوش وحركها ضد أخيه عاد وتملكه الخوف وسرى في أوصاله الرعب من تفاقم قوة الكرد، وازدياد نفوذهم، وخشي ضياع (الموصل) من أسرته، فأطلق سراح أخيه (قرواش) وبعث إلى (الموصل). وكان لهذا التصرف أسوأ الأثر في نفس (أبي الحرب) فعاد إلى بلده ثائراً غاضباً[1]، وفي نفس هذا العام (٤٤١ هـ) طلب السلطان (طغرل) إلى الملك (ناصر الدولة) أن يأمر بذكر اسمه في الخطب التي تلقى على المنابر في أنحاء مملكته فاستجاب لطلبته وأمر بتنفيذ رغبته[2].

وفي نفس هذا العام أيضاً طلب ملك الروم إلى الملك ناصر الدولة أن يبذل وساطته لدى السلطان (طغرل) ليطلق سراح ملك (أبخاز)، فعهد ناصر الدولة بهذه المهمة إلى شيخ الإسلام أبي عبد الله بن المرواني وأوفده إلى السلطان طغرل لهذا الغرض، ليعمل على تحقيق رجاء ملك الروم... فما كان من السلطان طغرل إلا أن أطلق سراح هذا الملك الأسير على الفور ومن غير فدية مرضاة لناصر الدولة ومراعاة لخاطره، فارتفع بذلك قدر ناصر الدولة، وعلا

---

[1] - يقول الكامل في هذا الصدد ما خلاصته: نشب خصام بين (قرواش) وأخيه (أبي كامل) فجرد كل منهما جيشاً على الآخر، وفي هذه الأثناء جاء كل من الأمير سليمان بن نصر الدولة وأبي الحسن العيسكاني الحميدي وبعض عشائر كردية أخرى نجدة لقرواش وساروا إلى بلدة (معلثايا) ودمروها، ثم واصلوا الزحف إلى «المغيثة» ونزلوا بها، وزحف أبو كامل بجيشه العربي مع ابن المسيب إلى مرج «بابنيا» ـــ لعله باب نينوى ـــ وبعد يومين من بدء القتال بين الجيشين انضم الأمير سليمان وغيره من قواد الكرد بجيوشهم وكذلك انحاز فريق من العرب في جيش قرواش إلى صفوف أبي كامل مما أدى إلى ضعف قرواش فكاد يستسلم لولا أن أمراء الجيش العربي قد تقدموا إلى أبي كامل بطلبات تعذر عليه الاستجابة لها، فأسرع بنفسه إلى أخيه ـــ خوفاً من أن يغدروا به - لاستحالة تنفيذ مطالبهم وينضموا إلى صفوف قرواش وقدم لأخيه المعذرة وطلب منه العفو عما بدر منه.. وهكذا تبدد الخصام وساد بين الأخوين الصفاء والوئام. (ج ٩ - ص ٢٠٦) ـــ المؤلف.

[2] - هذه الفقرة وما بعدها من طلب الوساطة غير موجودة في ابن الأثير ـــ المترجم.

شأنه وأمطره ملك الروم بفيض من الهدايا القيمة.. وليبالغ في إرضائه أمر بفتح جامع القسطنطينية على مصراعيه كما أمر بتجديده.

وفي عام (٤٤٦) للهجرة زحف السلطان طغرل على رأس جيش عرمرم صوب (ملاذ كرد = ملاذ جرد) وكانت خاضعة لسلطان الروم. وضرب عليها الحصار، وبهذه المناسبة بعث إليه نصر الدولة بجيش يشد أزره، وبفيض من الهدايا القيمة[١].

وأثناء اشتباك السلطان طغرل مع الروم، ساءت العلاقات وتوترت بين الأمير (أبي حرب سليمان بن نصر الدولة) الذي كان حاكماً من قبل والده على الجزيرة، وبين الأمير (موسك بن المجلي) زعيم الأكراد البختية وصاحب بعض القلاع المنيعة الواقعة شرقي الجزيرة، واستحكم بينهما الخلاف وأوغلا في العداء، إلا أن (أبا حرب) رغم إصراره بينه وبين نفسه على الخلاص منه قد تظاهر برغبته في إزالة الجفاء وتصفية ما بينهما من عداء وخلاف، فوقع الأمير (موسك) في حبائله وعقد معه صلحاً، ولكي يبعث أبو الحرب الطمأنينة في قلبه سعى في زواجه من ابنة الأمير (أبي طاهر البشنوي) صاحب قلعة (فنك) وابن أخت (نصر الدولة)، فوافق أبو طاهر على هذه الزيجة مرضاة لابن خاله، وزفت العروس إلى الأمير (موسك) في حفل رائع مهيب وهكذا ظن الأمير أنه قد أمن جانب عدوه (أبي حرب) وأقبل عليه، غير أن أبا حرب قد أبى إلا إظهار ما أبطن وأضمر، فألقى القبض على (موسك) وزج به في أعماق السجن.

وما أن ترامى هذا النبأ إلى مسامع السلطان (طغرل) في ميدان القتال حتى بعث بخطاب إلى (نصر الدولة) يشفع في الأمير (موسك) يرجوه فك إساره، ولكن السيف قد سبق العذل إذ أظهر نصر الدولة أن الأمير الأسير قد توفي. فشق ذلك على أبي طاهر وطار لبه من هول الفاجعة، وثارت ثائرته وتملكه الغضب ولم يخف استياءه من ناصر الدولة وولده الأمير أبي حرب سليمان وأرسل إليهما كتاباً يقول فيه: «بما أنكما كنتما راغبين في مقتل الأمير (موسك)!

---

١ - ورد في ابن الأثير (ج٩ – ص ٢٢٣) في هذه السنة سار (طغرل بك) إلى آذربيجان فقصد تبريز وصاحبها الأمير (أبو منصور وهسوذان بن محمد الروادي) فأطاعه وخطب له وحمل إليه ما أرضاه وأعطاه ولده رهينة فسار طغرل بك عنه إلى الأمير (أبي الأسوار صاحب جنزة) فأطاعه أيضاً وكذا غيرها فأبقى بلادهم عليهم وسار إلى ارمينية وقصد ملاز كرد إلى أن قال فأرسل إليه نصر الدولة الهدايا والعساكر وقد كان خطب له قبل هذا وأطاعه – (المترجم).

لماذا اتخذتما من كريمتي تكأة ووسيلة لتحقيق مأربكما. فألحقتما بي العار والشنار»؟؟.

وقد أوقع هذا العتب المرير الصارم الأمير أبا حرب سليمان في حيص وبيص بل وأقض مضجعه وأقلق باله. وما هدأ روعه، إلا بعد أن دس لأبي طاهر السم الزعاف فقضى عليه وألحقه بزوج كريمته. وخلف (أبا طاهر) ابنه (عبيد الله)، فأظهر الأمير سليمان نحو هذا الأمير الشاب الكثير من علائم الود وسابغ العطف، وأخذ يمهد للوفاق والوئام وإعادة المياه إلى مجاريها حتى تقرر عقد اجتماع بينهما في مكان ما بين قلعتي (فنك) و (الجزيرة) وما أن التأم عقد هذا الاجتماع حتى نهض الأمير عبيد الله وفاجأ الأمير أبا حرب سليمان بضربة قاضية أردته قتيلاً.

وعلى أثر تلك الحادثة المفجعة والنكبة القاصمة، عين (نصر الدولة) ابنه الأمير (نصراً) حاكماً على الجزيرة وزوده بجيش ضخم كامل العتاد والعدد ليأخذ بثأر أخيه، وفي هذه الأثناء كان الأمير (قريش بن بدران) حاكم الموصل قد اغتنم الفرصة وزحف على رأس جيشه صوب الجزيرة، ولكي يضمن الاستيلاء عليها كاتب البختية والبشنوية، وأبرم معهما اتفاقاً وبذلك وقف الجميع جبهة متراصة في وجه الأمير (نصر) وقطعوا عليه الطريق إلى الجزيرة مما اضطره إلى أن يخوض معهم غمار حرب طاحنة وقع فيها الكثيرون من الفريقين صرعى في ساحة الوغى يتخبطون في دمائهم، وأسفرت في النهاية عن نصر مبين ومؤزر للأمير نصر المرواني، وهزيمة منكرة لجيش (قريش) وحلفائه، ثم عاد (قريش) مثخن الجراح إلى (الموصل) عام ٤٤٧ للهجرة[١].

وهكذا أدت سياسة (أبي الحرب) الخاطئة الخرقاء، وسوء تدبيره، وقصر نظره إلى هذه الحوادث الدامية والأعمال المهينة التي أفضت إلى بذر بذور الشقاق والخصام في البلاد. وتمزيق أوصالها مما أفضى إلى خروج البشنوية والبختية الأكراد عليه وممالئتهم الطامعين في البلاد من الأجانب، ولم يعمر (ناصر الدولة أحمد) بعد ذلك طويلاً بل وافاه الأجل المحتوم ولحق بالرفيق الأعلى في عام ٤٥٢[٢] للهجرة عن أكثر من ثمانين عام حكم منها اثنين وخمسين

١- الكامل (ص ٢٢٦ - ج٩) ـــ المترجم.

٢- في ابن الأثير سنة ٤٥٣ هـــ (ص ١ - ج١٠).

عاماً... وكان يحمل لقب (نصر الدولة) الذي أنعم به عليه الخليفة العباسي (القادر بالله).

هذا وكانت المملكة المروانية في عهده تسودها الطمأنينة وترفل في حلل من الرخاء وكان العدل مبسوطاً بين ربوعها والأمن مستتباً في أنحائها، وانتشرت العلوم كما ازدهرت الفنون، مما هيأ لها مكاناً علياً، وشأناً رفيعاً بين الممالك الإسلامية، وقد تمتع هذا الملك بأبهى مظاهر الملك ومقتضياته وشرب كأس السعادة حتى ثمالتها إلى غير ذلك مما لم يتسن لملك غيره وقتذاك، وكان قصره يعج بالعدد الوفير من الجواري الحسان والسراري؛ بين مغنيات ومطربات يفوق عددهن الخمسمائة جارية. وكانت الأدوات التي تستخدم في مجلس طربه تقدر بأكثر من مائة ألف دينار. وكان مطبخه يضم بين جدرانه الكثيرين من مشاهير وأمهر الطهاة الذين أرسل بعضهم خصيصاً إلى مصر لتعلم فن طهي بعض أصناف الطعام وإجادة طهيها. وكان حرمه الملكي يضم الكثيرات من بنات الملوك والأمراء. وكان يمتلك جوهرة نادرة المثال كانت تسمى (جبل الياقوت) كان قد اشتراها من الملك العزيز أبي منصور جلال الدولة البويهي[1] ثم قدمها أخيراً هدية للسلطان (طغرل). وكان من وزرائه (أبو القاسم المغربي) و (فخر الدولة) ابن جهير. ويقول الكامل: إن عهده كان عهداً زاهراً شهدت البلاد على يديه نهضة شاملة رائعة عمت جميع المرافق، وبرز الكثيرون من العلماء والشعراء والفضلاء، (ج١٠ - ص ٦ و ٧).

ويقول تاريخ الأمم الإسلامية: إن قصر (نصر الدولة) كان كعبة أهل العلم وذوي الفضل فيه يجتمع شملهم ويحجون إليه من كل صوب وحدب، ومن بين هؤلاء العلماء المشاهير (أبو عبد الله الكازروني) العالم الشافعي الذائع الصيت والذي انتشر بفضله ومجهوداته المذهب الشافعي في البلاد الكردية.. وكان ناصر الدولة يبالغ في إكرام الشعراء والعلماء والأدباء ويغدق عليهم من نعمه ومن فيض كرمه وماله، وكان دمث الخلق، عالي الهمة، كريم النفس سمحها. (ج٣ - ص ٤٥٠).

---

[1] - الملك العزيز هذا هو ابن جلال الدولة بن بهاء الدولة البويهي، نودي به ملكاً على بغداد عام (٤٣٥ هـ - ١٠٤٣ م) وأثناء حربه مع الملك أبي كاليجار التجأ إلى رحاب (نصر الدولة) وبقي في (ميافارقين) حتى وفاته حيث دفن بها. (تاريخ الموصل ص ١٤٢) ـــ المؤلف.

وتقول دائرة المعارف الإسلامية إنه كان يدعى بأبي ناصر العـــادل، خـــدم البلاد خدمة عظيمة فأحبته الرعية حباً جماً.

وقصارى القول أن لهذا الملك الهمام أيادي بيضاء على البلاد: فمـــن نشـــر المعارف والعلوم إلى نهضة عمرانية شاملة. إلى إنشاء القـــلاع والمستشـــفيات والحمامات والمساجد والمكاتب في (ميافارقين) إلى توصيل المياه إلـــى داخـــل شرايين المدينة، إلى إنشاء الحدائق الغناء بين أرجائها يؤمها الأهلـــون دون مـــا تمييز أو فارق، كما خلف في المدن الأخرى آثاراً كثيرة تدل عليه، ومن آثـــاره الخالدة كذلك تلك المدينة التي كانت تدعى (الناصرية) على أربعة فراســـخ مـــن ميافارقين.

قاسم أبو ناصر[١]

تولى الملك بعد وفاة والده، بفضل الوزير (فخـــر الدولـــة) وتعضيـــده إيـــاه واستمر يحكم البلاد من عام (٤٥٣) حتى عام (٤٧٢) للهجرة، وقد صادفته فـــي أول عهده عقبة كأداء ولكنه سرعان ما تغلب عليها، ألا وهي مناوأة أخيه الأمـــير سعيد بن نصر الدولة له ــ وقد توفي سنة (٤٥٥ هــ) وشقه عليه عصا الطاعـــة وإعلان العصيان مما أدى إلى تأجج نيران حروب داخلية أسفرت عن تغلبه على أخيه وتحطيم راية عصيانه، وبهذا دانت له الأمور وذللت العقبـــات، ومرضـــاة لأخيه المغلوب أعطاه قلعة (آمد = ديار بكر).

وتقول دائرة المعارف الإسلامية إنه ضم إلى بلاده في عـــام ٤٥٧ للـــهجرة كلاً من بلدتي (حران) و (السويداء = سورك)، وقد نال من مقام الخلافـــة لقـــب نظام الدولة.

منصور

هو ابن الأمير سعيد[٢]، وقد تولى حكم جميع البلاد المروانية بعد والده وعمـــه وأخضعها كلها لحكمه المباشر وقد ورد في رواية أنه خطب في بـــلاده باسـمـــه

---

[١]- ورد في وفيات الأعيان هكذا (أبو القاسم نظام الدين نصر) ج١ - ص ٥٧ ــ المؤلف) والصحيح كما في ابـــن الأثير أيضاً (نصر) لا (أبو ناصر). اهـــ من ابن الأثير (ج١٩ – ص ٧ و ١١) ــ المترجم.

[٢]- ورد في وفيات الأعيان (ج٢ - ص ٦٦) في سيرة (فخر الدولة أبي نصر محمد بن جهير الموصلـــي التغلـــبي) أن ناصر الدولة أبا المظفر منصوراً هذا، هو ابن نظام الدين أبي القاسم نصر. وهذا هو الصحيح.

وباسم الخليفة الفاطمي بمصر على المنابر، مما أدى إلى استياء الخليفة العباسي وغضبه عليه لأن ذلك قد أثار حفيظته.

وفي عام ٤٧٦[1] للهجرة أقطع ملكشاه السلجوقي بلاد (ديار بكر) (لفخر الدولة ابن جهير) الذي كان وزيراً سابقاً للملك (نصر الدولة أحمد) وزوده بقوة عسكرية كبيرة زحف على رأسها إلى (ديار بكر = آمد) فاضطر «المنصور» إلى طلب النجدة والمعونة من جيرانه الأمراء فلبوا نداءه وخف إلى نجدته (شرف الدولة مسلم بن قريش) حاكم الموصل بجيش لجب، فلما رأى فخر الدولة التضامن بين خصومه ووقوفهم جبهة متحدة للإجهاز عليه وما معه من قوة، مال إلى الصلح، لأنه كان كارهاً الاشتباك في حرب بني قومه، ولكن الجنود الترك قد فطنوا لما تنطوي عليه سريرته، فبدأوا القتال ليلاً، تحت جنح الظلام بعد أن تكتموا أسرار هجومهم وأخذوا جيش الموصل على غرة فقتلوا من رجاله الكثيرين واغتنموا منه غنائم وأسلاب كثيرة وأموالاً طائلة، وانسحب (شرف الدولة) من الميدان بعد جهد جهيد، وبكل صعوبة سار إلى (ديار بكر = آمد) فلحق به فخر الدولة على رأس جيشه وحاصر المدينة، وتمكن شرف الدولة من إنقاذ نفسه بفضل وساطة القائد التركي (أرتق بن أكسب). وكان ذلك في سنة (٤٧٧ هـ).

أما فخر الدولة فقد ترك (آمد) محاصرة وتوجه شطر (ميافارقين) وأسعفه (ملكشاه) بنجدة فاستطاع الاستيلاء عليها، ثم عاد ثانية إلى (آمد) عام (٤٧٨) للهجرة حيث كانت حاميتها قد تملكها اليأس وضعفت روحها المعنوية وسئمت الحرب ودبت روح الثورة والانتفاض بين الأهالي فثاروا في وجه رجال الحكم والإدارة، وكان معظمهم من النصارى، إذ كان بنو مروان يقربونهم ويساوون بينهم وبين المسلمين في توزيع المناصب والعدل، وهكذا وقعت (آمد) في قبضة «فخر الدولة بن جهير» بسهولة حيث أخذها من ناصر الدولة أبي المظفر منصور بن نظام الدين سنة (٤٧٩ هـ). أما الملك «المنصور» فقد تمكن من الوصول إلى الجزيرة وهنالك استقر به المقام، واستولى على بضعة قلاع بها

[1] - انظر ابن الأثير (ج١٠ - ص ٤٧ و ص ٥٢ و ٥٣) ـــ المترجم.

وبالبلاد البختية. ولكن فخر الدولة بن جهيز[1] الذي انغمس في نعيم المروانيين وعاش سعيدا في كنفهم قد تنكر لهم وأبى أن يترك الفرصة تسنح والمجد يعود ويتلألأ لآخر ملك من ملوكهم، فجهز جيشا كبيرا هاجم به الجزيرة وحاصرها، وكان بالمدينة أسرة غنية قديمة وهي أسرة (بنو وهبان) وكان لهذه الأسرة باب خاص في القلعة يدعى باب (البوبيه) يسمح بمرور رجل واحد راجلا، وكانوا يمرون منه إلى خارج المدينة. فكسروا باب وهبان وحطموه وبذلك استطاع فخر الدولة هو وجنوده اقتحام المدينة والتسلل إليها من هذه الثغرة، وهكذا تم له فتح المدينة وألقى القبض على الملك المنصور التعس آخر الملوك المروانيين فدالت دولته وأسدل الستار على حكومته. (ابن الأثير (ج١٠ – ص٥٣) ــ أبو الفداء).

---

[1]- كان فخر الدولة بن جهير وزيرا لدى (قريش بن بدران) فأوفده سفيرا من قبله إلى ملك الروم وتصادف أن (ناصر الدولة أحمد المرواني) كان قد أوفد في هذا الوقت نفسه سفيرا إلى ملك الروم فاجتمع السفيران في بلاط ملك الروم، فأراد (ابن جهير) أن يتقدم سفير ناصر الدولة في مقابلة ملك الروم فرفض سفير ناصر الدولة، ولما عاد ابن جهير إلى قريش بن بدران هم بإلقاء القبض عليه وحبسه، ولكنه نجا وتمكن من الوصول إلى حلب، ووزر لمعز الدولة أبي ثمال بن صالح، ثم غادرها إلى ملطية ومنها التجأ إلى (ناصر الدولة) الذي سأله عن السبب فيما أقدم عليه من محاولته التقدم على سفيره لدى ملك الروم فأجابه بأنه قام بذلك تنفيذا لأمر سيده، فسر (ناصر الدولة) من هذا الجواب السديد واتخذه وزيرا له. وبعد وفاة (ناصر الدولة) كان وزيرا لابنه أيضا، ولكنه عاد إلى بغداد بعد مدة ووزر للخليفة. ثم عزل من الوزارة، فأقطعه ملكشاه إقليم (ديار بكر) وهكذا كان سببا في انقراض الدولة المروانية ولكن الله سبحانه وتعالى قد عجل بالانتقام منه حيث قبض عليه (آرتق) في (ديار بكر) وأرسله إلى الموصل حيث مات فيها في محرم أو رجب سنه (٤٨٣) هـ وحيدا في عزلته التي فرضت عليه. (الكامل ج١٠ – ص ٤٨ و ٥٢ و ٥٣ و ٦٧) ــ المؤلف.

الفصل السادس

٦ ـ حكومة بني عنان[١] في حلوان (٣٨٠ ـ ٥١٠ هـ)

أول من وضع أساس هذه الحكومة الكردية، ودعم أركانها هو الأمير (أبو الفتح محمد بن عنان) أمير أكراد (الشاذنجان)، وكان ذلك في عام (٣٨١ هـ) وقد ظل متربعا على أريكة الحكم عشرين عاما دون منافس ولا منازع إلى أن توفاه الله إلى رحمته في سنة (٤٠٠ هـ).

وتولى الحكم من بعده ابنه (أبو الشوك = أبو الشوق) واسمه (فارس) ولقبه (حسام الدين).. وكان بينه وبين (طاهر بن هلال) ــ ملك الحسنوئيين ــ نزاع مستحكم، وعداء قديم. فلا غرابة إذن أن يبادر (طاهر) على أثر إطلاق سراحه من السجن، إلى تجريد حملة عسكرية على (أبي الشوك) دارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس أسفرت عن اندحار ذريع وخذلان مبين لأبي الشوك، وقضى على أخيه قضاء مبرما حيث ذهب ضحية المعركة.. وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل سقطت بضعة من بلدان (بني عنان) في أيدي الحسنويين ورغم ميل الطرفين كليهما ــ على أثر هذه الحرب ــ إلى التفاهم والصلح وإحلال السلام بينهما، بدل التناحر والخصام، ورغم تصاهرهما لتدعيم أركان المحبة وعلائم الود بينهما، إلا أنه لم يمض على ذلك طويل وقت حتى ساءت بينهما العلاقات من جديد، وعادت سيرتها الأولى.. فعمد أبو الشوك سرا إلى إعداد جيش شن به هجوما عنيفا على بلاد الحسنوئيين وتمكن من الاستيلاء عليها جميعها، وفي عام (٤١٤ هـ) توجه (علاء الدولة كاكويه)[٢] صوب «الدينور» فاستولى عليها، ولكنه ما لبث أن عاد فجلا عنها ورجع إلى همذان حين سمع وعلم بسطوة (شرف الدولة) وقوة شكيمته ببغداد.

---

[١] ــ هذا ما ذهب إليه المرحوم سعيد باشا الديار بكري في تاريخه القيم المسمى (مرآت العبر) باللغة التركية ولكن ابن الأثير ومن بعده (منجم باشي) ذكراه هكذا «عناز» بالنون والزاء بخلاف «شرفنامه» فإنه ذكره «عيار» بالياء والراء وأظن أن هذا الأخير أقرب إلى الصواب وأبعد عن التصحيف ــ المترجم.

[٢] ــ هو مؤسس (حكومة بني كاكويه الكردية) التي قامت بأصفهان (٣٩٤ ــ ٤٣٧ هـ) كما في الدول الإسلامية لاستنلي ــ لن بول. وفي منجم باشي ــ (المترجم).

وفي عام (٤٢٠ هـ) شن الغز هجوماً عنيفاً على ولاية (الدينور)، ولكن أبا الفتح بن أبي الشوك قد تصدى لمناوأتهم، واستمات في مقاومتهم، وقتل وأسر الكثيرين منهم، فازداد نفوذه وعلا شأنه. هذا وفي عام (٤٣٠) هـ تمكن من الاستيلاء على (قرميسن)، وعلى كافة بلاد الجبال. وكان أبو الفتح هذا، يدير دفة شئون ولاية الدينور باسم والده، فطمع وتطلع في وقت ما إلى غزو قلعة (بكورا) التي كان يحكمها عمه (مهلهل)، وما لبث أن سار إليها، واشتبك مع عمه في القتال، ولكن الحظ قد خانه فوقع أسيراً، فاضطر والده (أبو الشوك) إلى إعداد جيش زحف به لقتال (مهلهل) الذي سارع إلى طلب النجدة من (علاء الدولة ابن كاكويه)؛ فجاء هذا الأمير، واستولى على ولاية (الدينور) في نفس الوقت الذي زحف فيه (سرخاب) أخو أبي الشوك إلى (الداقوق) واستولى عليها وجرد أكراد تلك البقاع من أسلحتهم وعتادهم. واضطر (أبو الشوك) إزاء هذه الظروف الحرجة إلى الالتجاء إلى (بغداد) لكي يستعين بجلال الدولة على خصومه. ثم ما لبث أن عاد إلى (حلوان) مع جيش بغداد.

أما (مهلهل) فكان قد لجأ إلى (علاء الدولة) الذي نصحه بأن يذهب هو الآخر إلى (بغداد) لعرض شكواه على مسامع (جلال الدولة)، فقبل النصيحة. ولقد أدى تدخل «بغداد» إلى تواد الأخوين وتفاهمهما وعقد الصلح بينهما، ولكنهما قد افتقدا ولاية الدينور التي خرجت عن أيديهما. وعلى أثر هذا الصلح، توجه (أبو الشوك) إلى (شهرزور)، وحاصر قلعة (بيزارشاه) التي وافق صاحبها (أبو القاسم بن عياض) على الصلح مع أبي الشوك على شريطة أن يعمل الأخير على إطلاق سراح (أبي الفتح) من السجن وعاد (أبو الشوك) إلى بلاده، ورفع الحصار عن القلعة؛ إلا أن «مهلهل» قد رفض إطلاق سراح أبي الفتح وأبى؛ مما اضطر «أبا الشوك» إلى السير صوب (الصامغان) والاستيلاء على كافة بلاد «مهلهل». وسرعان ما عادت المياه إلى مجاريها بين الأخوين، وتبدد التناحر وزال الخصام وتم التفاهم والصلح. وفي تلك الأثناء زحف (إبراهيم ينال) ـ أخو السلطان طغرل السلجوقي ـ بجيش لجب إلى (الدينور) فاستولى عليها، كما استولى على مدينة (قرميسن = كرمنشاه) فلم يجد «أبو الشوك» مندوحة من الانسحاب إلى (حلوان) وهنالك أيضاً لم يستطع الصمود ولا الثبات أمام جحافل الزاحفين مما اضطره إلى الالتجاء هو ورجاله، وأبناء

أسرته، إلى قلعة (سيروان) حيث أخذ من هنالك يخابر أخاه (مهلهل) ويستحثه على القيام بدفاع مشترك عن حوزة البلاد.

وعلى الرغم من وفاة أبي الفتح في السجن في هذه الأثناء، فقد تم الاتفاق بين الأخوين، وأخذا سوياً في إعداد العدة لدفع خطر العدو عن البلاد، وقد قام (سرخاب) وقتذاك بغزو (بندنيجين) ونهبها.

وفي عام (٤٣٧) توفي أبو الشوك بقلعة (سيروان) فخلفه في الإمارة أخوه (مهلهل) وحرم منها ابنه (سعد) الذي لجأ إلى (إبراهيم ينال) طالباً إليه إسناد إمارة والده إليه. وكان (إبراهيم ينال) قد عهد بإدارة (قرميسن) إلى (بدر) الحسنوئي، فزحف (مهلهل) على (بدر) هذا، عام ٤٣٨ للهجرة وانتزع منه (قرميسن) كما ألحق هزيمة منكرة بجيش (إبراهيم ينال) الذي اضطر أخيراً إلى تجريد حملة أخرى من الغز بقيادة «سعد بن أبي الشوك» على (حلوان) فاستولت عليها. وإن هي إلا فترة وجيزة حتى عاد (مهلهل) فاستولى عليها من جديد وقهر أعداءه وأجلاهم عنها. وهكذا قضى (سعد) حقبة من الزمن في النزال والقتال مع عميه. حتى وقع أسيراً في يد (سرخاب) وأخيراً شق (أبو العسكر) عصا الطاعة على أبيه (سرخاب) وقلب له ظهر المجن، وعاونه أكراد تلك البقاع ومدوا له يد المساعدة، وبهذا تمكن من أسر والده، وإرساله إلى (إبراهيم ينال) فأقدم هذا الأمير السلجوقي على سمل عيني (سرخاب)، وأطلق سراح (سعد) الذي اقتنص الفرصة واستولى على (حلوان) بعد ذلك. وبعد أن استمات (مهلهل) في محاربة الغز قصد إلى بغداد في عام ٤٤٣ لاجئاً إلى السلطان (طغرل) الذي أعطاه الداقوقا و(شهرزور) و(الصامغان). كما أعطى قلعة (ماهكي) لسرخاب، و(رادندين) لسعد.

ولقد استمرت القلاقل والفتن قائمة بين (سعد) و (مهلهل) بعد ذلك إلى أن وقع (مهلهل) في قبضة «سعد» ثم توسط السلطان طغرل في إطلاق سراح (مهلهل) فرفض سعد. وزحف (بدر بن مهلهل) إلى سعد بجيش جرار في عام ٤٤٦ وقضى عليه.

وهكذا انتقلت الحكومة (العنانية ــ العنازية) هي الأخرى إلى مقبرة التاريخ. اهـ من (مرآة العبر ج٧ – ص ٣٧٤ ــ ٣٨٠).

الفصل السابع

٧ ـ حكومة الشبانكاره (شوانكاره) بفارس (٤١٢ ـ ٦٥٨ هـ)

كان الأمير (فضلويه بن علي بن حسن بن أيوب) من فرقة الراماني من أكراد الشبانكاره، رئيساً لعشيرته وزعيماً لقومه، وقد عين سبهسالاراً للجيش في عهد الصاحب (عادل) الوزير البويهي بفارس. وكان البويهيون قبل هذا التعيين يضيقون ذرعاً بغارات الشبانكاريين عليهم وغزوهم لبلادهم، ويألمون لذلك أشد الألم.

وقد جاء في تاريخ «كزيده» الفارسي أن زعيماً شبانكارياً يدعى (إسماعيل) كان معاصراً لحاكم فارس المدعو (عماد الدين أبو كاليجار) سنة (٤١٦ ــ ٤٤٠ هــ) ثم خلف هذا الحاكم ابنه الأكبر الذي توفي عام (٤٤٧) فاحتل مكانه أخوه الأصغر «أبو منصور فلاستون» وكان الصاحب «عادل» وزيراً لهذا الأمير الأخير. وقد أعلن «فضلويه» عصيانه على هذا الأخير بل إنه قد تمكن من أسره هو ووالدته السيدة «خوراسويه» واستولى على كل بلاده استيلاء تاماً، وسجنه في قلعة على مقربة من (شيراز) ثم قتله في عام (٤٤٨) وخنقت والدته في الحمام بأمر من «فضلويه». وهكذا دان الحكم لأمراء (الشبانكارة) في بلاد فارس أيضاً، ولكن لم يمض على ذلك طويل وقت حتى اشتبك «فضلويه» في قتال مع السلاجقة بقيادة (قاوورت) أخي «آلب أرسلان» أسفر عن إرغامه على الاعتراف بسلطان آلب آرسلان عليه مع بقائه حاكماً لفارس من قبله.

ومضت أيام على ذلك. ثم عاد (فضلويه) فشق عصا الطاعة على (آلب أرسلان) واعتصم بقلعة (خورشاه) حيث حاصره فيها (نظام الملك) الوزير الشهير، واستولى عليها، ثم أسره بعد أن أبدى مقاومة عنيفة ثم ما لبث أن أعدمه. وكان ذلك في عام ٤٦٤ هــ[1]. هذا وقد كانت العشائر الشبانكارية مبعث قلاقل ومصدر فتن في إقليمي (كرمان) و (فارس) فترة طويلة، ففي عام ٤٩٢ للهجرة ــ ١٠٩٩ م) تمكن الشبانكاريون بعضدهم «إيرانشاه» بن «قاوورت» حاكم كرمان من هزيمة (أنز) والي فارس الذي كان معيناً من قبل السلطان (بركيا روق).

---

[1] ــ هذا هو ما رواه ابن البلخي صاحب (فارسنامه) الذي كان معاصراً لهذه الحوادث ــ المؤلف.

وبعد هذه الحوادث بقليل نشبت الحروب بين الشبانكارة وبين (فخر الدين جاولي) المتوفى عام ٥١٠ للهجرة، وهو الذي كان يحكم فارس من قبل السلطان محمد بن ملكشاه حاكم العراق. وسبب ذلك عدم اعتراف (حسن بن المبارز خسرو) أمير الشبانكارة بسلطان (جاولي) على فارس، فشن عليه جاولي هجوماً عنيفاً فتمكن خسرو من صده في البداية بمساعدة أخيه (فضلوي)، ولكن اليأس لم يجد إلى قلب (جاولي) سبيلاً فعاد بعد فترة وعاود الكرة وحاصر (خسرو) في قلعته، ولما أيقن خسرو أن الحصار سيشتد وقد يطول أمده اتفق مع (جاولي)، بل ووافقه في حرب (كرمان) التي نشبت بسبب التجاء (إسماعيل) أحد زعماء الشبانكارة وحاكم (دارابجرد) إلى ملك كرمان ومطالبة (جاولي) بتسليمه له دون جدوى.

ويؤخذ من مجريات الحوادث بعد ذلك أن عشيرة الشبانكارة قد جنحت إلى السلم في عهد السلطان محمد بن ملكشاه، بيد أنها أوقعت نفسها في خضم من القلاقل والفتن في عهد السلطان محمود ابن السلطان محمد نتيجة لسوء تصرف وزيره (ناصر بن علي الدركزيني) تلك القلاقل والاضطرابات التي عرضت تلك الجهات لألوان شتى من الويلات بل ودمرتها تدميراً. إذ عمت البلاد الفتن وسادها الاضطراب ولا سيما خلال حرب (كرمان). وحدث في تلك الفترة أيضاً حدث تاريخي هام جدير بالذكر، ألا وهو انتصار (أبي طاهر محمد الكردي) الذي كان في معية الأتابك (سنقر) السلغري، والذي صار فيما بعد حاكماً مستقلاً (للر الكبير) على الشبانكارة في معركة حاسمة؛ وبعد أن انتصر عليها فرض عليها سلطانه، وكان ذلك بسبب التجاء (زنكي بن تكلا) إلى حمى تلك العشيرة. ولنستعرض الآن العهد الذهبي لعشيرة الشبانكارة. ذلك العهد الذي لم يعمر طويلاً فنقول:

استغل (قطب الدين مبارز) رئيس الشبانكارة وأخوه (قطب الدين محمد) الذي كان أمير (ايغ = إيج) الموقف الذي نشأ عن حالة الاضطراب والفتن التي برزت عقب زوال حكومة سلاجقة كرمان وما ترتب على ذلك من انتشار الفوضى واختلال حبل الأمن في تلك الأنحاء؛ حيث استنجد بهما الوزير (ناصح الدين) ضد الغز فلبيا نجدته واستجابا لندائه؛ ولكنهما قد بادرا إلى احتلال مركز (برده سير) قبل أن يشتبكا في قتال مع الغز وكان ذلك تنفيذاً لرغبة الأهالي وإن

كان خلافاً لرأي الوزير. وباستيلائهما على هذا المركز، ضمنا لنفسيهما حكم بلاد كرمان أيضاً في سنة (١٢٠٠ م ــ ٥٩٧ هــ)؛ ثم اشتبك هذان الأميران في حرب ضروس مع الغز؛ وفي تلك الأثناء ساءت العلاقات بينهما وبين أتابك فارس؛ الأمر الذي اضطرهما إلى العودة سراعاً إلى بلادهما تاركين في كرمان نائباً عنهما من إحدى أسر كرمان القديمة ليدير دفة شئونها نيابة عنهم فعاد الغز إلى النهب والسلب وتدمير البلاد؛ ومما زاد الطين بلة أن أحد أمراء كرمان المدعو (هرمز تاج الدين شهنشاه) قد اتفق مع الغز، وتواطأ معهم على تثبيت أقدامهم في البلاد، فاضطر نظام الدين[1] إلى التحرك من (ايغ) والتوجه لمقاتلة هذا الأمير وظل يقاتله حتى قضى عليه؛ ثم أخذ في مطاردة الترك (الغز) حتى شتت شملهم شذر مذر.

ولم يمض على هذا طويل وقت حتى دخل نظام الدين بلدة (برده سير) ثانية وقد تملكه الزهو وداخله التيه والاستخفاف بالأمور، فما كان من أعدائه إلا أن تربصوا له حتى باغتوه ذات ليلة، وألقوا القبض عليه وعلى أولاده، وكان ذلك في عام (٦٠٠) للهجرة، ثم هاجموا أمراء المبارزية جميعهم وضيقوا عليهم الحصار، وفي خلال هذه الحوادث ظهر على مسرح السياسة رجل آخر، ألا وهو (عجمشاه) ابن الملك (دينار) الذي كان مؤيداً ومحمياً من قبل (خوارزمشاه)، والذي اتفق مع الغز وزحف معهم إلى بلاد كرمان، وما أن تمكن منها حتى بعث بنظام الدين مقبوضاً عليه إلى أتابك فارس ظناً منه أن عمله هذا سيقربه، ويعجل به إلى القبض على زمام الأمور طواعية وبكل سهولة، وأنه سيؤدي حتماً إلى سقوط كرمان في يده سائغة خالصة له ولكن (سعد بن زنكي) أتابك فارس قد خيب ظنه، وأرسل إليه يقول: قد أرسلت لك جيشاً يقوده (عز الدين فضلون) قائد جيش فارس كي تسارع حامية كرمان إلى التسليم. وجاء هذا الجيش فعلا واستولى على مدينة (كرمان) وانتزعها من أيدي الشبانكارة. وقد قدم في هذه الأثناء (المبارز) أخو (قطب الدين) للنجدة والإنقاذ ولكن دون جدوى ومن غير طائل اللهم إلا إحداث الدمار والخراب في شرايين البلاد وبين أنحائها.

وفي (٦٥٨) للهجرة حينما أغار «هلاكو» على تلك البلاد، واستولى على «ايغ». وقتل أمير الشبانكارة، خضعت حكومة الشبانكارة ردحاً من الزمن لسلطان الإيلخانيين ثم لآل المظفر الذين قام ملكهم بفارس.

---

[1] لعله قطب الدين محمد حاكم (ايغ) ــ المترجم.

الفصل الثامن

٨ ـ حكومة أتابكية اللر الكبير (٥٥٠ ـ ٨٢٧ هـ)

أو الحكومة الفضلوئية

قامت هذه الحكومة في جنوب شرقي لرستان بـإيران، وعمرت مائتين وسبعة وسبعين عاماً، أي من عام (٥٥٠) حتى عام (٨٢٧) للهجرة. وكان إقليم (لرستان) يتألف منذ أواخر القرن الثالث الهجري من قسمين: (اللر الكبير، واللر الصغير) حيث كان هنالك أخوان يحكمان ذينك القسمين وهما (بدر) و (أبو منصور) وقد خلف بدراً في اللر الكبير، حفيده (نصر الدين) في الوقت الذي كان النصف من هذه البلاد يدين بالخضوع لأسرة من أكراد «الشول» كان زعيمها يدعى «سيف الدين» وهي الأسرة التي ترجع الروايات القديمة والأساطير حكمها لهذه البلاد إلى عهد الساسانيين.

هذا وفي أواخر القرن الخامس جاءت مائة أسرة كردية، من موطنها الأول بجبل السماق بشمال سورية إلى لرستان، وأقامت بجبل (أمعاد؟) لدى (محمد خورشيد) وزير الملك نصير الدين[1] وكان زعيم هذه العشيرة الكردية يدعى (أبو الحسن فضلوي).

١ ـ أبو طاهر محمد

كانت فارس تخضع للحكام السلغريين[2] في تلك الأثناء، فدخل (أبو طاهر محمد) حفيد «أبي الحسن فضلوي» هذا ــ وهو متصف بالبسالة الفائقة ــ في خدمة حكام فارس الذين كان بينهم وبين ولاة «الشبانكارة» عداء مستحكم ونزاع شديد فعمد حاكم فارس إلى تجريد حملة عسكرية قوية بقيادة أبي طاهر محمد بن علي بن أبي الحسن فضلوي، على حكومة الشبانكارة، فانتصر أبو طاهر في

---

[1] ـ تقول دائرة المعارف الإسلامية (ج ٣) إن هذه العشيرة الكردية بزعامة (فضلوي) وصلت أولاً إلى (ميافارقين) ثم غادرتها إلى (آذربيجان وكيلان) وهناك اتفقت مع (ديباجي) حاكم (كيلان) واستقر بها المقام إلى أن كان عام (٥٠٠) للهجرة حيث عادت فغادرت تلك البلاد إلى الهضبة الشمالية لـ (شتران كوه) بلرستان ــ المؤلف.

[2] ـ مؤسس هذه الحكومة هو (سنقر) أحد القواد السلجوقيين، وضع أساس حكومته عام ٥٤٢ للهجرة، وقد عمرت حتى عام ٦٨٦ للهجرة حيث نالت أخيراً لقب أتابك من السلطنة السلجوقية ــ المؤلف.

حملته انتصاراً باهراً، وعاد ظافراً منصوراً؛ فأعجب به حاكم فارس «أتابك سنقر» وسر منه أيما سرور، وأسبغ عليه من فيض عطفه حيث أقطعه ــ بناء على طلبه ــ ناحية «كوه كلويي = كوهجيلويه» وأصحبه جيشاً لغزو «لرستان» في عام ٥٤٣ هـ ــ وقد أخذ أبو طاهر يعمل بالتدريج على بسط سلطانه على لرستان بالحرب والقتال تارة، وبالسلم وإتباع أساليب الدهاء والسياسة تارة أخرى، حتى انتهى به المطاف إلى إعلان استقلاله وانفراده بالحكم في غير ما خضوع لأحد.

وهكذا تم وضع أساس الحكومة الفضلوئية بفضل مهارة وبسالة «أبي طاهر محمد» الذي عاش حتى عام (٥٥٥) حيث وافاه الأجل المحتوم فمات تاركاً من ورائه خمسة أولاد ذكور وهم: هزار أسب، بهمن، عماد الدين، بهلوان، نصرة الدين أيلواكوش، قزل بجكم؟، وقد تم الاتفاق بين الابن الأكبر وأخوانه على أن يتولى هو الحكم بعد أبيه.

٢ ـ أتابك هزار أسب

كان حاكماً عاقلاً وعادلاً، تقدمت البلاد في عهده تقدماً محسوساً نحو العمران والرخاء، وقد وفدت إلى «لرستان» في عهده بضع عشائر كردية من جبل السماق بشمالي سورية، وكان من بين هذه العشائر بعض عشائر عربية أيضاً. وفيما يلي أسماء هذه العشائر حسبما ذكرت في تاريخ «كزيدة» الفارسي: آسوكي، مماكونه «لعله مماكويه» بختاري[١]، مراسلي، سداسان، زاهديان، علاني = آلاني، كونوند، بي‌وند، بدائي، بوازكي، شنويد، راكي، جاكي[٢]، هارمي[٣]، أسبك[٤]، كفي[٥]، شموس[٦]، نخوئي، كماكشي[٧]، مامهسي[٨]، أويلكي[٩]، ليراوي، دلكي، تواني كيا، مديحا كورد، كولارد.. إلخ.

---

[١]- بخياري.
[٢]- خاكي.
[٣]- هاروني.
[٤]- أشكي.
[٥]- كوبي.
[٦]- تعسفوي.
[٧]- كمانكش.
[٨]- مماسيّ.
[٩]- أوملكي. اهـ من (كتاب كردلر ص ٩٧، ٩٨) ــ المؤلف.

ولقد ازداد موقف «هزار أسب» قوة بفضل تأييد هذه العشائر لــــه، وبــهذا تمكن من طرد الأسرة الشولية من لرستان نهائياً، واستخلاص البـــلاد بأســـرها لأسرته، كما اتسعت رقعة بلاده حتى بلغ امتدادها إلى مسافة أربعة فراسخ مـــن «أصبهان» مما حدا بأتابك تكله السلغري إلى تجريد بضع حملات عسكرية عليـه للحد من نفوذه والقضاء على قوته، بيد أنه أخفق في جميع محاولاته فكان الفشـل حليف كل ما وجهه من حملات.

وهكذا كان يعلو شأن (هزار أسب) يوماً بعد يوم. وقد تقدمـــت فـــي عـــهده التجارة والزراعة في البلاد، واتسعت معالم النهضة العمرانية، فمن إنشاء القـرى والمدن والمؤسسات الخيرية إلى تنفيذ مشاريع عامة في طول البلاد وعرضــــها، وأخيراً أوفد (هزار أسب) ابنه إلى بلاط الخليفة العباســـــي النــاصر لديــن الله، ملتمساً منحه لقب «أتابك» فتكرم الخليفة ومنحه هذا اللقب وبعث إليـــــه بـــالخلع وبراءة اللقب، ولم يقتصر عمل (هزار أسب) السياسي على هذا فقط، بل نجـــح أيضاً في توطيد دعائم الصداقة وصلات المودة مع السلطان محمد الخوارزمـــي بمصاهرة كريمة حيث زوج ابنتـــه للأمـــير (غيـــاث الديـــن) ابـــن الســـلطان الخوارزمي.

وقد لحق (هزار أسب) بالرفيق الأعلى في عام (٦٥٥)[1] بعـــــد قـــرن مـــن الزمان قضاه في الجهاد وبث روح العمران ونشر ألوية السلام في كافة شـــرايين البلاد (ويبدأ هذا القرن من عام (٥٥٥ هـــ) حتى عـــام (٦٥٥ هــــ)[2] إذا كـــان تاريخ الوفاة هذا صحيحاً).

٣ ـ أتابك تيكله

هو ابن «هزار أسب» وأمه من أسرة «السلغريين» حكام فـــارس. ومـــا أن ترامى نبأ وفاة (هزار أسب) إلى فارس حتى سارع الأتابك (سعد) السلغري إلـــى تجريد حملة عسكرية على (تيكله) قوامها ألفان من الجنود تحت قيادة ابـــن عـــم

---

[1] ـ في دول إسلامية ــ أنه توفي سنة ٦٥٠ تقريباً ــ المترجم.

[2] ـ تذكر (دائرة المعارف الإسلامية) هذا التاريخ مبدأ لجلوس الأتابك (تيكله) وتأريخاً لوفاة سلفه (هزار أســــب)، ويظهر أنه غير صحيح لأن (تيكله) كان بعد بضع سنوات من قيام حكومته وخوضه غمار حروب كثيرة، في معيـة (هلاكو) حين اقتحامه بغداد في شهر المحرم من عام ٦٥٦ للهجرة. (١٦ كانون الثاني سنة ١٢٥٨) ــ المؤلف.

لهزار أسب يدعى «جمال الدين عمر» لاسترداد حق الأسرة الشولية المسلوب، وعلى مقربة من قلعة (بيروئه)، اصطدمت هذه الحملة بقوات (تيكله) التي لم يكن يربو عددها على الخمسمائة فارس، ودارت بين الفريقين رحى معارك دامية أسفرت عن اندحار (تيكله) في بادىء الأمر، ولكن القدر ساعده أخيراً فجعل الظفر يتحول في النهاية إلى جانبه، وقد ساعده على هذا إصابة قائد جيش خصمه، بسهم في مقتله فخر صريعاً يتخبط في دمه، الأمر الذي أدى إلى اندحار خصمه بعد أن كان النصر حليفه في بداية المعركة. ولقد جرد السلغريون ــ بعد هذه المعركة ــ ثلاث حملات عسكرية أخرى على (تيكله) ولكن واحدة منها لم تكلل بالنجاح.

وبعد ذلك استقرت الأمور للأتابك (تيكله)، فشرع في توسيع حدود بلاده، وزحف على مقاطعة اللر الصغير، وانتزع بعض النواحي من أيدي حاكمها (حسام الدين خليل). ثم حدث بعد ذلك ــ لأسباب نجهلها ــ أن بعث خليفة بغداد بحملة عسكرية على «لرستان» تحت قيادة كل من (بهاء الدين كرشاسب) و (عماد الدين يونس)، فأنزل هذا الجيش اللجب الدمار ببعض بلدان هذا الإقليم العامر، وأسر أخاً لتيكله في حومة الوغى وألقى به سجيناً في قلعة (لاهوج)، وفي تلك الأثناء كان (تيكله) يعيد تنظيم جيشه ويلم شعثه، حتى إذا فرغ من إعداده، سار على رأسه لمقابلة العدو المغير على بلاده، وقد أسفر القتال الذي نشب بينهما عن اندحار الجيش المغير وخذلانه ومقتل (عماد الدين يونس) وأسر (بهاء الدين كرشاسب) الذي أطلق (تيكله) سراحه أخيراً على شريطة إطلاق سراح أخيه.

وفي عام (٦٥٥ هـ) حينما زحف ملك المغول (هلاكو) بسيوله الجارفة وجحافله المدمرة على بغداد عاصمة الدولة العباسية، كان أتابك (تيكله) يصحب هذه الجيوش الجرارة في معية (هلاكو) حيث أدخله في تومان = فرقة (كيتوقابوس = كيتموقا)، وذلك كي يضمن (تيكله) حماية أملاكه والمحافظة على كيان دولته. بيد أن فاجعة (بغداد) قد كان لها أسوأ الأثر في نفسه ولا سيما قتل الخليفة والإسراف في سفك دماء المسلمين، وقد أبدى استياءه وبالغ تأثره من ارتكاب تلك المآسي في شتى المناسبات، فترامى نبأ ذلك إلى مسامع (هلاكو) فغضب أشد الغضب، وأسره في نفسه، ولكن أتابك «تيكله» كان على علم بغدر

(هلاكو) وشديد بطشه، وبأنه لا يرعى إلاً ولا ذمة فانتهز الفرصة وفر هارباً إلى (لرستان) مقر ملكه، ولكن (هلاكو) كان له بالمرصاد فأرسل في أعقابه حملة عسكرية يقودها (كيتوقابوس) لإلقاء القبض عليه في عقر داره. وما أن سرى نبأ هذه الحملة إلى لرستان حتى تقدم (شمس الدين آلب أرغون) من أخيه قائلاً له «إن المصلحة تقتضي أن ترسلني إلى هلاكو كي أسعى لديه حتى أوفق بينكما ليعود الجيش المغولي من حيث أتى» فصادف هذا الاقتراح هوى في نفس (تيكله) وتقبله قبولاً حسناً ووعد أخاه بألا ينبري لقتال المغول حتى يعود هو إلى لرستان. ولما وصل شمس الدين إلى مرج «فهركه» في حدود لرستان اعترض جيش المغول سبيله، فحاول أن يفهم قواد الجيش مقصده ولكنهم أصموا آذانهم عن الاستماع إلى كلامه وقبضوا عليه وقيدوه بالسلاسل والأغلال وقتلوا جميع المرافقين له ثم استأنفوا الزحف على لرستان ولقد خشي تيكله مغبة الأمر فأقلع عن مقاومة المغول خشية أن يقتلوا أخاه المعتقل ولجأ إلى قلعة «جاينخشت» رافضاً الاستسلام إلى المغول على الرغم من وعودهم وعهودهم المتكررة بالإبقاء عليه والمحافظة على حياته حتى جاءه خاتم الأمان من هلاكو نفسه فنزل من القلعة وسلم نفسه لقواد الحملة الذين أرسلوه بدورهم إلى (تبريز) وهنالك صلبوه حانثين بوعودهم وبمواثيقهم. وقد تمكن رجاله من أخذ جثته سراً وعادوا بها حيث دفنوها في لرستان.

٤ ـ أتابك شمس الدين آلب أرغون

نصبه (هلاكو) أتابكاً وحاكماً على لرستان بعد مقتل أخيه (تيكله)، وأصدر أمره بعودة الجيش من لرستان ولما جاء الأتابك الجديد إلى البلاد ألفاها خراباً يباباً، حيث كان المغول قد عاثوا فيها فساداً وعانت البلاد على أيديهم ألواناً من الظلم والبؤس والشقاء؛ مما ألجأ الأهالي والسكان إلى الاعتصام بالجبال والوهاد. وقد عاد هؤلاء السكان إلى مواطنهم وأخذوا في تعمير البلاد وزراعتها وإنعاش التجارة، فانتعشت البلاد في فترة وجيزة انتعاشاً قل أن يتيسر مثله في البلاد المجاورة. وكان الأتابك يمضي أيام الشتاء في مدينة (إيدج = إيزاج) و(سوس) وفي أطراف (شستر = تستر)، في حين كان يقضي أيام الصيف في

الجبال الكائنة حوالي منابع نهري (شستر) و (زندەرود) الشهيرة بتدفق مياهـــها وغزارة غياضها وباسق أشجارها وحدائقها الغناء التي كانت تبدو كقطعـــة مـــن جنة الخلد ومثلاً مجسماً للفردوس. وهكذا قضى (شمس الدين آلب أرغون) أيـــام حكمه في هدوء ودعة وسعادة وهناءة إلى أن توفاه الله إلى رحمته بعد أن تربـــع على أريكة الحكم خمسة عشر عاماً.

٥ - أتابك يوسف شاه

كان في بلاط (أبقاخان) عندما توفي والده، وبعد أن مضى شهر على هـــذه الوفاة أصدر (أبقاخان) مرسوماً بتعيينه خلفاً لأبيه على حكومة لرستان ولكنه لـــم يذهب إلى مقر ملكه بل آثر البقاء في عاصمة الإمبراطورية المغولية مع مـــائتي فارس من رجاله مكتفياً بتعيين وكيل عنه في (لرستان).

وقد اشترك بجيشه اللوري في حروب (أبقاخان) ضد (براق خـــان) فـــأبدى فيها شجاعة فائقة وبسالة نادرة، كما أنه قد اصطحب (أبقاخـــان) ولازمـــه فـــي حروبه في كيلان والديلم، بل كان له الفضل في إنقاذه من ورطة كـــادت تـــودي بحياته: خلاصتها أن جماعة من الفدائيين من الديلم قد بـــاغتت (أبقاخـــان) فـــي إحدى المعارك الحامية الوطيس وأحاطت به من كـــل جـــانب إحاطـــة الســـوار بالمعصم، فما كان من (يوسف شاه) إلا أن انقض على هؤلاء المغيرين وردهـــم على أعقابهم خائبين مدحورين، مما أثار إعجاب (أبقاخان) وسروره منه وجعلـــه ينعم عليه بمقاطعات خوزستان بأكملها و (كوه كيلويه) ومدينـــــة (فـــيروزان) و (جرباذقان) الواقعة على مسافة سبعة فراسخ من شمال أصفهان وذلك مكافأة لـــه على صنيعه، وجزاء وفاقاً لما قدمت يداه. وقد أغار (يوسف شـــاه) بعـــد هـــذه المعركة بمدة (على كوه كيلويه) وشن هجوماً على الشولية القاطنين بجهة «مامـــه ساني» وتمكن من قتل أخي حاكمها.

وبعد أن انقضت أيام «أبقاخان» وولت، وخضع شـــرقي إيـــران «لأحمـــد تكودار» ساءت العلاقات بين «يوسف شاه» وبيـــن «أرغـــون خـــان» خليفـــة «أبقاخان» ومع ذلك لم ينتفض عليه، بل إنه قد اضطر إلى الاشتراك والمســـاهمة في حروب «خراسان» ضد «أحمد تكودار» بقوة من ألفي فارس وعشـــرة آلاف

من المشاة. ولما أسفرت هذه الحروب عن إلحاق الهزيمة بجيش «أحمد تكودار» في عام (٦٨٣ هـ)، عاد الجيش اللوري إلى لرستان عن طريق «تاباس» و«نوتانزا» مخترقاً الصحارى الشاسعة التي لا ماء فيها ولا أثر للحياة.. عاد هذا الجيش بعد أن مات الكثيرون من رجاله من شدة العطش والإعياء، كما ذهب «يوسف شاه» إلى لرستان بأمر من «أرغون شاه» ليحل محل الصاحب الخواجه (شمس الدين) وهنالك تزوج بكريمة الصاحب ثم ألقى القبض عليه وأرسله إلى «أرغون شاه» وقد عاد «يوسف شاه» إلى لرستان نهائياً بعد شهادة الخواجة شمس الدين وظل بها مقيماً حتى توفاه الله إلى رحمته.

٦ ـ أتابك أفراسياب

وبعد وفاة «يوسف شاه» عين ابنه «أفراسياب» خلفاً له؛ وقد أرسل «افراسياب» أخاه «أحمد» إلى عاصمة المغول، وبقي هو في لرستان يصرف شئون الحكم، وكان ظالماً فتاكاً لا يخاف الله ولا يتقيه في عمله، حيث شرع بصب جام غضبه وينزل المظالم والعقاب على رؤوس الذين يخالفون أهواءه من رجال «هزار أسب»، وألقى القبض على الوزراء أمثال «الخواجه نظام الدين وجلال الدين وصدر الدين»، وصادر أموالهم، ثم ما لبث أن قتلهم ملتمساً أسباب ومعاذير ما أنزل الله بها من سلطان؛ ثم نفى رجال هؤلاء المنكوبين وذوي قرباهم إلى «أصفهان» ولكنهم لم يحدوا من نشاطهم ضده، فأرسل من ورائهم من يتعقبهم ويتتبع آثارهم. وفي هذه الأثناء هلك (أرغون خان) فثار زعماء بعض البيوتات القديمة بأصفهان وقتلوا الوالي المغولي، فانتهز «أفراسياب» هذه الفرصة وعين من أقربائه ورجاله ولاة وحكاماً للمقاطعات الممتدة من همذان وفارس حتى الخليج الفارسي رامياً من وراء ذلك إلى القضاء على نفوذ المغول، وقد أسند إلى جلال ابن الأتابك (تيكله) قيادة حملة عسكرية جردها للمحافظة على «كوهرود»، وهنالك اشتبكت هذه الحملة في قتال عنيف مع المغول أسفر في بادىء الأمر عن هزيمة المغول. ولكن انغماس جنود الحملة في أعمال النهب وإمعانهم في السلب قد أعطى الفرصة للمغول المنهزمين فأعادوا تنظيم صفوفهم وكروا عليهم بغتة فأنزلوا بهم هزيمة منكرة. ولما ترامى نبأ هذه

الحوادث إلى مسامع الإمبراطور «كيخاتو خان» أرسل قـوة عسكرية يقودها الأمير «طولداي إيساجي» وتتألف من جيشي المغول واللـر الصغير لمناوأة «أفراسياب» وقتله، فلم يستطع الأتابك الصمود أمام المغيرين ولجأ إلى قلعة «جاينخست» وقتل الكثيرون من أهالي «لرستان» خلال هذه المعارك والحادثات، كما لجأت جموع غفيرة منهم إلى الجبال والوهاد فراراً من مظالم المغول الذين أسرفوا في القتل والنهب والتدمير إلى أن أحاطوا بالقلعة وأرغموا أفراسياب على التسليم وأرسلوه إلى العاصمة حيث تدخل هنالك في الأمر لصالحه كل من (أروك خان) و(پادشاه خاتون) فعفا عنه الإمبراطور وأعيد إلى مقر حكمه بلرستان، فرجع إلى سابق عهده من الظلم والجبروت ومصادرة الأموال والحريات والقضاء على كبار رجال الدولة وأبناء البيوتات الكبيرة.

ولما تولى (غازان خان) حكم الإمبراطورية، عطف على (أفراسياب) في بادىء الأمر، فأولاه ثقته، ولكنه عاد أخيراً فسحب هذه الثقة منه وقتله وكان ذلك في عام (٦٩٦) للهجرة على أثر انحدار (هوركوداك) أمير فارس في القتال الذي نشب.

٧ـ أتابك نصرة الدين أحمد

تولى الحكم سنة (٦٩٦ هـ) بعد أخيه (أفراسياب) وظل متربعاً على أريكته حتى عام (٧٣٠) للهجرة في رواية. أو عام (٧٣٣ هـ) في رواية أخرى؛ وقد أمضى أكثر أيام حياته في بلاط الايلخانيين، وكان حاكماً عاقلاً مدبـراً ومحبـاً لرعيته. وفق في فترة وجيزة إلى خلق نهضة عمرانية في البلاد، وإلى القضاء على آثار الخراب الذي كان قد أصابها في عهد سلفه، فاستتب الأمن، وعم الرخاء وازداد دخل الدولة وتحسنت حالتها المالية، وقد عين ابنه (عماد الدين بهلوان) نائباً عنه في حكم (لرستان)، كما أنه نصب (خسرو شاه بن الملك حسام الدين) قائداً للجيش، وهكذا نظم الأمور وساس البلاد بحكمة وأدار دفة شئونها بحزم، مما جعل البلاد كلها تشعر بالأمن التام والرفاهية الكاملة، وكان (نصرة الدين) يحب العلم والعلماء ويقربهم إليه دائماً ويشجعهم. ومن آثار ذلك تأليف «ملا فضل الله بن عبد الله القزويني» لكتابه (تاريخ المعجم في آثار ملوك

العجم)[1] باسمه وإهدائه إليه. كما أن كتاب (مجمع الأنساب)[2] قد لقب هذا الحاكم العادل الحازم بلقب (بير). ويقول الرحالة ابن بطوطة أن أتابك (نصرة الدين) هذا قد أنشأ في عهده مائة وستين مدرسة، كان أربع وأربعون منها في مدينة (إيزاج) بينما كان البعض منها منتشراً بين العشائر في أماكن مختلفة في الجبال[3].

٨ ـ أتابك ركن الدين يوسف شاه الثاني

دام حكم هذا الأتابك من سنة (٧٣٣) حتى سنة (٧٤٠). وكان حاكماً عادلاً عاقلاً مدبراً حازماً. ويقول كتاب (مجمع الأنساب) إن سلطان هذا الأتابك كان يمتد حتى البصرة وخوزستان و (لاموستان = لارستان) وفيروزان.

٩ ـ مظفر الدين أفراسياب الثاني

كان اسمه أحمد، وهو ابن يوسف شاه الثاني «أخوه حسب رواية ابن بطوطة» وكانت رحلة ابن بطوطة لهذه البلاد في عهد هذا الحاكم، ويرى الشيخ محمد الخضري أن حكمه قد دام حتى عام ٧٥٦ للهجرة[4].

وليس في متناول أيدينا معلومات شافية عن حكام هذه الأسرة المتأخرين فقد خلت المصادر من أخبارهم اللهم إلا ما ذكره «ميرزا إسكندر» معتمداً على روايات المؤرخين المعاصرين لذلك العهد وهو كما يلي:

١٠ ـ نور الودود

لقد خلف هذا العاهل أفراسياب الثاني في الحكم، وكان مسرفاً متلافاً مبدداً للأموال لا يقف في سبيله شيء، وهكذا قضى على خزينة الأتابكية في فترة

---

١ ـ طبع بفارس سنة ١٢٨٠ موجود بدار الكتب المصرية ـــ المترجم.

٢ ـ لمحمد بن علي شبانكاره (مخطوط) ـــ المترجم.

٣ ـ يوجد في تاريخ كزيده تفصيل عن هذه الحكومة حتى آخر عهد الأتابك (نصرة الدين) ولكني استقيت المعلومات عنها بعد هذا التاريخ من دائرة المعارف الإسلامية وترجمة كتاب (كردلر) للدكتور فريج.

٤ ـ يقول الدكتور فريج إن هذا الأتابك كان معاصراً لتيمورلنك وإنه كان قائداً من قواده، في حين تفصل بين عهد هذا الأتابك، وبين عهد تيمورلنك، فترة مداها أربعون سنة ـــ المؤلف.

وجيزة، ويؤخذ من رواية رواها «جهان آرا» أنه اتخذ (محمد مظفر) حاكم فارس ولداً له «٧١٣ ــ ٧٦٠».

١١ـ شمس الدين بشنك

المعروف أنه ابن يوسف شاه الثاني[١] وخلف (نور الودود)، وقد استمر حكمه حتى عام (٧٨٠) للهجرة، وقد أصيبت البلاد في عهده بأضرار جسيمة على أيدي «آل المظفر» بشيراز حيث اتخذ الشاه منصور المظفري «شستر» قاعدة لأعماله الحربية ضد (لرستان) مما أدى إلى قيام «الشاه شجاع» بنجدة الأتابك بشنك وشد أزره، لأنه كان ينافس الشاه منصور في الحكم وقد عثر في «إيزاج» على قطع من النقود باسم الشاه شجاع يرجع تاريخها إلى سنتي ٧٦٢، ٧٦٤ للهجرة.

١٢ـ بير أحمد

تولى الحكم في لرستان بعد وفاة «بشنك» وقد حدث أن نشب قتال بينه وبين أحد أفراد أسرته المدعو «ملك هوشنك» أسفر عن قتله في المعركة ويروي بعضهم أن كلاً من بير أحمد وهوشنك كانا أخوين وكانا ابنين لنور الودود، وقد أخرج الشاه منصور المظفري بير أحمد هذا من لرستان وعين أحد زعماء اللور حاكماً بدله وبهذا انتهت أيامه ودالت دولته.

وفي عام (٧٩٥) للهجرة حين مر «تيمور» بلرستان، خف إليه (بير أحمد) واجتمع به في مدينة «رامهرمز» ثم في «شيراز» حيث قدم له فروض الولاء والطاعة فأكرمه تيمور وأضفى عليه سابغ عطفه حيث أبقاه على عرش آبائه وأجداده، وسمح له بإعادة نقل ألفي أسرة لورية ــ كانت مبعدة بأمر من الشاه منصور ــ إلى لورستان: ثم أخذ تيمور معه إلى «سمرقند» كلاً من «أفراسياب» أخي «بير أحمد» و (الشاه منصور) كرهينة لديه.

وبعد فترة من الزمن قسم «تيمور» لورستان الكبير بين بير أحمد وأخيه أفراسياب وبعد وفاة تيمور أسر الميرزا بير محمد، بير أحمد هذا في (كوهان

---

[١]- يقول الشيخ محمد الخضري في محاضراته إنه كان يدعى شمس الدين هوشنك، وإنه ابن ابن أفراسياب الثاني ــ المؤلف.

دز) وقد تمكن من أن ينتزع مقاليد أمر لرستان لنفسه في عام (٨١١) للـــهجرة، ولكنه ما لبث أن قتل إبان ثورة داخلية اشتعل لهيبها في البلاد بعد ذلك.

١٣ - أبو سعيد

هو ابن (بير أحمد) وقد لبث في شيراز عامين كرهينة، ثم تولى الحكم بعــد وفاة ولده، وقضى نحبه في عام ٨٢٠ للهجرة.

١٤ - الشاه حسين

كان ابناً لأبي سعيد وخلفاً له، وقد حدث بعد توليه حكم لرســتان أن نشــب قتال عنيف بينه وبين (غياث الدين كاوس) أحد أفراد أسرته أسفر عن قتله أثنــاء المعركة، وكان ذلك في عام (٨٢٧) للهجرة.

١٥ - غياث الدين كاوس

كان ابناً لهوشنك، وقد تمكن من انتزاع الحكم لنفسه من (شاه حسين) ولكــن لم يمض على حكمه طويل وقت حتى غزا (سلطان إبراهيم بــن شــاه رخ ابــن تيمورلنك) لرستان، وقضى على الحكومة الفضلوئية نهائياً، فنتج عن ذلك انتقــال الحكم إلى أيدي رجال العشيرة البختيارية.

ملحوظة

إن كتاب الدكتور (فريج) الألماني الذي ترجمته إدارة المـــهاجرين العامــة بتركيا وطبعته ونشرته باللغة التركية، إذا كانت ترجمتــه صحيحــة ومطابقــة للأصل، فالذي لا شك فيه أنه يحمل بين طياته أفكاراً وآراء مغرضة عن الكــرد لا تمت إلى الحقيقة بصلة، ويكاد العداء يظهر في ثنايا كل سطر مــن ســطوره فهو أبعد ما يكون عن التاريخ الذي يجب أن يكتب كما هو، دون تحــيز وبكــل نزاهة ودقة، لا بتغيير الحقائق فضلاً عن تشويهها وقلبها رأساً على عقب، كمــا حدث من استغلاله مجرد مشابهة لفظية عثر عليها بأن جعل فضلوي من أســرة تركية لا كردية مخالفاً بذلك روايات ونصوص المعاصرين من المؤرخين التــي سجلها كتاب (كزيده) وغيره من الكتب التي يعول عليها، والظاهر أنه تردد فــي

القول بهذه النظرية الغريبة فاضطر أخيراً لأن ينسب غلبة (أبي طاهر) وأنصاره إلى قائد جيش الترك وهكذا استرسل في العداء وطمس معالم الحقيقة بل وأنكر وجود الشعب الكردي وقوميته البارزة في مختلف عصور التاريخ.

ورغم ذلك فإن التاريخ ليعترف ويهتف بأعلى صوته بأن هذه الحكومة المحلية كانت كردية لحماً ودماً، وأنها عاشت مستقلة مائة عام أو أكثر، منذ ظهور (أبي طاهر) على مسرح التاريخ حتى ظهور شبح المغول في العالم الإسلامي. وبعده خضعت للمغول ثم للتيموريين شأنها في ذلك شأن سائر الحكومات الشرقية.

الفصل التاسع

٩ ـ حكومة اللر الصغير (٥٧٠ ـ ١٢٥٠ هـ)

أو الأسرة الخورشيدية

كانت العشائر اللورية وغيرها من العشائر بشمال (لرستان) وشماله الغربي تعيش حتى أواسط القرن السادس الهجري عيشة قبلية، تستقل كل عشيرة وكل أسرة منها بشؤونها الخاصة. وفيما يلي بيان بأسماء عشائر ذلك العهد حسب رواية تاريخ (كزيده):

داوودي، عباسي، محمد كوماري، كروهي، جنكرويي (هذه العشائر هي أصل اللر الصغير حيث كانت الإمارة فيهم، وهي من فرع السلغريين) وهنالك عشائر أخرى غير تلك التي ذكرناها مثل: كارندي، جنكردي، فضلي سنوندي، آلاني، كاهكاهي، راجواركي، دري، براوند، مابكي، داري آبادكي، أبو العباس، علوممائي، كجائي، سلسكي، خودكي، بندوئي، إلى غير ذلك، أما عشائر (ساهي، أرسان، أركي، بيهي) فهي وإن كانت تتكلم اللهجة اللورية إلا أنها لم تكن من اللر، كما أن سكان القرى هم الآخرون فلم يكونوا يدخلون في عداد اللور.

هذا ولم يكن لهذه العشائر جميعها إدارة خاصة حتى منتصف القرن السادس الهجري بل كانت خاضعة للحكومة المركزية في بغداد مباشرة.

ففي عام (٥٥٠ هـ) عين تركي أفشاري يدعى (حسام الدين سوهلي) حاكماً للر الصغير وخوزستان من قبل السلجوقيين، وكان أجداد الأسرة الخورشيدية[1] في معية هذا الحاكم السلجوقي، وكانوا لورا من عشيرة الجنكروي، وكان (شجاع الدين خورشيد بن أبي بكر بن محمد بن خورشيد) من آل خورشيد يحتل مع أخيه (نور الدين محمد) مكانة سامية لدى (حسام الدين سوهلي)، فكان (شجاع الدين خورشيد) محافظاً من قبله لقسم من اللر الصغير.

---

[1] - تقول «دائرة المعارف الإسلامية» إنه كان هنالك قبل تشكيل دولة «أتابكية اللر الكبير» في هذه البلاد، حاكم له وزير يدعى «خورشيد» ويظهر أن لخورشيد هذا علاقة بخورشيد رأس الأسرة الخورشيدية.

١ـ شجاع الدين خورشيد

تولى حكم اللر الصغير بأكمله على سبيل الاستقلال به، بعد وفاة (حسام الدين سوهلي) في عام (٥٧٠ هـ) وكان يرأس عشيرة (جنكروي) التي تنتمي إليها أسرة (شجاع الدين خورشيد) وقتذاك، (سرخاب بن عيار) الذي كان منافساً وخصماً لشجاع الدين، ولهذا جرد عليه (شجاع الدين) جيشاً حاصره في (دزي سياه = القلعة السوداء) واضطر أهالي (مانرود) كلها للهجرة والرحيل، مما أدى إلى تدخل خليفة بغداد في الأمر، وبذل وساطته لحسم النزاع فأمر (شجاع الدين) بأن يتنازل عن قلعة (مانكاره) فقط، وأن يرجع عن خصمه فأطاع (شجاع الدين) أمر الخليفة الذي كافأه على طاعته إياه بإسناده حكم ناحية (طرازك ــ بخوزستان) إليه[١].

ويحدثنا تاريخ (كزيده) عن البقية الباقية من أيام (شجاع الدين) فيقول بأن هذا الأمير كان طاعناً في السن، ولهذا كان يلازمه دائماً في غدوه ورواحه كل من ابنه (بدر) وابن أخيه (سيف الدين رستم)، ويقومان بتنفيذ أوامره. وفي هذه الأثناء كانت عشيرة (بيات) مستولية على أجزاء من بلاد لورستان فقام بدر وسيف الدين بمهاجمة هذه العشيرة وأخرجاها من لرستان بعد قتال عنيف طال أمده. وكان (شجاع الدين) قد عين ابنه (بدر) ولياً لعهده على أن يكون (سيف الدين رستم) ولياً للعهد من بعده، بيد أن سيف الدين قد افترى فرية على (بدر) وتوسل بها لقتله. وقد علم شجاع الدين أخيراً بخفايا هذه الجناية المروعة ولكن القدر لم يمهله بعدها فتوفي إلى رحمة الله في عام (٦٢١ هـ) عن أكثر من مائة عام. وكان حاكماً عادلاً أحبه الناس في حياته وبعد مماته حيث أضحى قبره

---

[١]- يذكر تاريخ «كزيده» هذه الواقعة بشكل آخر فيقول: إن شجاع الدين تمكن مِن سرخاب حتى سلم له بمحافظة «مانرود» ثم أرسل شجاع الدين ابنيه «بدراً وحيدراً» بجيش جرار إلى عشيرة جنكروي فنازلاها وحاصرا قلعة «دزسياه» وقتل «حيدر» في المعركة مما أثار نقمة «شجاع الدين» على أفراد هذه العشيرة وجعله يقتل كل من يقع في يده منهم حتى ثار جميع أهالي (مانرود) وأخذوا يجلون عن أوطانهم. وبعد مدة دعاهم مركز الخلافة للمثول بين يدي الخليفة فذهب إليه كل من (شجاع الدين) وأخيه (نور الدين) فطلب إليهما إخلاء قلعة مانكاره من رجالهما فرفضا طلبه فزج بهما في غياهب السجن، ومات نور الدين في السجن بعد أن أوصى أخاه بألا يترك القلعة لأحد قط، ولكن شجاع الدين لما أيقن بألا نجاة له من السجن إلا بترك القلعة عرض على المسؤولين بدار الخلافة أن يتركها على أن يعوض عنها بقلعة «طرزك»، فقبلوا طلبه. وأطلقوا سراحه، فعاد إلى «لرستان» في عام (٥٩٠) للهجرة حيث حكم البلاد بعد ذلك مدة ثلاثين عاماً أخرى ــ المؤلف.

مزاراً يحج إليه اللوريون بكل تجلة واحترام وله حرمة وقداسة وشهرة عظيمة. إذ كان رحمه الله يمضي أيامه في رحلات صيفية وشتوية فكان يقيم صيفاً في (كيربت)، وشتاء في قرية (دهلوران = دەلوران في بشتكوه)، ولكن العاصمة كانت مدينة (خرم آباد).

٢ ـ أتابك سيف الدين رستم

هو ابن (نور الدين محمد)، وقد نال لقب أتابك، ونشر لواء العدل، وحقق المساواة بين الناس. وهنالك قصص حية تدل على ما كان يسود البلاد في عهده الزاهر من هناءة ورفاهة. وهو الذي أصدر أمراً بمنع الإغارات المشينة التي كانت القبائل دائبة على شنها دون هوادة، مما أثار عليه نقمة بعض الزعماء وغضبهم، فالتفوا حول أخيه (شرف الدين أبو بكر)، وتربصوا له حتى دخل الحمام ذات يوم فانقضوا عليه انقضاض الصاعقة، ولكنه تمكن من الفرار من بين براثنهم بأعجوبة، فتعقبوه وطاردوه حتى قتلوه هو وابن أخيه (علي بن بدر).

٣ ـ شرف الدين أبو بكر

كان عهد هذا الأمير مليئاً بالدسائس والنزاع والمنافسة والعداء المستحكم بين أعضاء الأسرة المالكة.

٤ ـ عز الدين كرشاسب

هو أخو (شرف الدين أبو بكر)، وقد تزوج امرأة أخيه «ملكة خاتون» أخت (سليمان شاه) قائد الخليفة المستعصم.

وما أن علم (حسام الدين بن بدر) الذي كان مقيماً منذ أمد في بغداد؛ بأن (عز الدين كرشاسب) أضحى حاكم لرستان حتى خف سراعاً إلى خوزستان، وهنالك حشد جيشاً تقدم به نحو (لرستان)، وكان (عز الدين) على يقين بأن لا قبل له بمقاومة هذا الجيش الجرار. إلا أنه اضطر لذلك اضطراراً تحت تأثير امرأته وأخته، ولما رأى الجيش اللوري ألا طائل، من وراء التصدي لهذا الجيش، إنحاز إلى المغيرين، فاضطر عز الدين للتسليم والتخلي عن الحكم، فدانت أمور البلاد لحسام الدين وتربع على أريكة الحكم.

٥- حسام الدين خليل

هو ابن (بدر بن شجاع الدين خورشيد)، كان قد لجأ إلى بغداد بعـــد مقتـل والده. ولما دانت له الأمور واستولى على حكومة اللر الصغير كما بيناه، عيـن (عز الدين كرشاسب) ولياً لعهده، ولكنه عاد فدعاه إليه وقتله لأسباب ومعـــاذير انتحلها ما أنزل الله بها من سلطان: ولما ترامى نبأ ذلك إلى مسامع امـرأة عـز الدين (ملكة خاتون) عمدت سراً إلى إرسال ثلاثة أبناء لعز الدين - كـانوا مـا يزالون أطفالاً ــ إلى أخيها شهاب الدين سليمانشاه[1]. ومن هنا بدأ العداء ينشـب أظفاره بين حسام الدين وسليمانشاه لدرجة أنه حدث في خلال شـهر واحـد أن نشب بينهما قتال لعدة مرات لهذا السبب. وفي النهاية حاقت الهزيمة بسليمانشـاه، وأدى هذا الخذلان إلى دخول قلعة (بهار) وبضعة بلدان أخـرى مـن مقاطعـة (كردستان) في حوزة حسام الدين. وأخيراً قـام سليمانشـاه علـى رأس حملـة عسكرية كبيرة، تعضده دار الخلافة لمهاجمة (حسام الدين)، فـالتقى الجمعـان بسهل (شابور خواست) ودارت بينهما رحى معركة طاحنة أسفرت عـن مقتـل (حسام الدين خليل) وانتصار خصمه، في عام (٦٤٠) للهجرة.

٦- بدر الدين مسعود

كان أخاً لحسام الدين، وقد ذهب إلى بلاط (منكوخان) بعد مقتل أخيه ورفـع إليه شكايته وعرض عليه أمره، ثم جاء إلى إيران مع (هلاكو) حين زحفه علـى بغداد. ولما قتل (سليمانشاه) في حادث استيلاء المغول على بغداد، عمـد (بـدر الدين مسعود) إلى نقل أسرة سليمانشاه وذوي قرباه معه إلى لرستان. وبعـد أن حكم البلاد ستة عشر عاماً توفي إلى رحمة الله عام (٦٥٨ هـ). وكـان أمـيراً عادلاً عاقلاً عالماً تقياً رحيماً باراً بالرعية، وبارعاً في فقه الشافعية. وبعد وفاتـه دب دبيب الخلاف ونشب القتال بين اثنين من أبنائه وبين (تاج الدين شاه)، وظـل القتال محتدماً إلى أن جاء (أبقاخان) وتدخل بين الفريقين، وأصدر أمـراً بقتـل ابني (بدر الدين مسعود)، وبإسناد حكم البلاد إلى (تاج الدين).

---

[1]- هو سليمان بن برجم الايوائي مقدم الطائفة الايوائية التركمانية كما في ملحق تاريخ العراق للعزاوي نقلاً مـن نهج البلاغة ــ المترجم.

٧ ـ تاج الدين شاه

حكم هذا الأمير البلاد سبعة عشر عاماً، وكان حازماً في إدارته وعادلاً في حكمه يقول صاحب كتاب (عالم آراي عباسي) في المجلد الثاني منه ان هذه الأسرة الخورشيدية كانت تلقب بالعباسية أيضاً، وذلك راجع إلى أن بلادها كانت من أملاك الخلفاء العباسيين خاصة. وأخيراً في عام (٦٧٧) للهجرة قتل (أبقاخان) هذا الأمير أيضاً.

٨ ـ فلك الدين وعز الدين

بعد أن قتل (أبقاخان)، الأمير (تاج الدين شاه)، عمد إلى تنصيب (فلك الدين) و (عز الدين) ولدى (بدر الدين مسعود) حاكمين على البلاد وتنفيذاً للإرادة الإيلخانية المغولية كانت إدارة الشئون المالية مسندة إلى (فلك الدين) في حين كان يقوم أخوه (عز الدين) بإدارة شئون الأملاك الخاصة بالخاقان (السلطان الأعظم). وقد قام هذان الأخوان بتصريف شئون «لرستان» خمسة عشر عاماً بكل حكمة وجدارة، حتى أصبح للبلاد قوة عسكرية يعتد بها، قوامها سبعة عشر ألف مقاتل. كما نجحا في طرد البياتيين من «لرستان» عن آخرهم، وفي توسيع حدود البلاد حتى بلغ امتدادها إلى (شستر) و (همذان) و (أصفهان) من ناحية، ثم إلى العراق العربي من الناحية الأخرى فكان الأمير (فلك الدين) عاقلاً وعالماً مطلعاً، في حين كان الأمير (عز الدين) طاغياً جباراً قهاراً، ومع ذلك لم يكن لهذا الاختلاف البين، بين الأخوين، أية تأثير على إدارة شؤون البلاد، فقد حكما البلاد بالعدل والمساواة فكانت راية السلام ترفرف في الداخل على الجميع بلا استثناء، كما كانت العلاقات الخارجية طيبة، مع الدول المجاورة، وتسودها المودة والصداقة.

ومن المصادفات العجيبة أن هذين الأخوين قد انتقلا سوياً إلى رحمة الله في عام واحد هو (٦٩٣ هـ).

٩ ـ جمال الدين خضر

كان ابناً للأمير (تاج الدين شاه)، وقد أصدر (كيخاتوخان) مرسوماً بتعيينه حاكماً على البلاد، ولكن ظهر له منافسان قويا الشكيمة وهما (حسام الدين عمر)

حفيد (بدر بن شجاع الدين خورشيد) و (شمس الدين اليـــاس) فـــأخذا يعرقـــلان جهوده، ويناوآنه وينازعانه الحكم والسلطان حتى انتهزا، بالتعاون مـــع المغـــول المحتلين للبلاد، خروجه ذات يوم، للصيد والقنص، فاغتالوه ومـــن معـــه مـــن خدامه، وهكذا انقرضت ذرية «حسام الدين خليل» من البلاد فـــي عـــام (٦٩٣) للهجرة.

١٠ ـ حسام الدين عمر

تولى هذا الأمير مقاليد الأمور قوة واغتصاباً، وقد نازعه الحكـــم وناصبـــه العداء كل من «صمصام الدين محمود» و «نور الدين محمـــود» نجلـــي «عـــز الدين كرشاسب» وسائر أقاربه، وكان «حسام الدين» يعتز بالمغول ويعتمد عليهم بينما كان كافة الأمراء من آل خورشيد يعضدون «صمصـــام الديـــن محمـــود» ويشدون أزره، لأنه كان أميراً شجاعاً راجح العقل. وقد استطاع في فترة وجيزة حشد جيش لجب زحف على رأسه من حدود «خوزستان» إلى ناحيـــة «خـــرم آباد»، مما أدى إلى تنازل (حسام الدين عمر) عن الحكم لصمصام الدين.

١١ ـ صمصام الدين محمود

انقضى عهد هذا الأمير في فتن داخلية ومنازعات طاحنـــة بيـــن الأقـــارب وذوي الرحم حول تولي الحكم. وقد قتله (غازان خان) في عام (٦٩٥) للهجرة.

١٢ ـ عز الدين أحمد[١]

كان ابناً للأمير محمد بن عز الدين حسين بدر الدين مســـعود. وقـــد عيـــن حاكماً على (لرستان) بعد صمصام الدين وهو ما يزال طفلاً، ولهذا أبى ابن عمه (بدر الدين مسعود بن فلك الدين حسن) أن يخضع له بحجة أنه أكبر منـــه ســـناً وأكثر رشداً، مما حمل (أولجايتوخان)[١] على تعيين ابن عمه هذا أتابكاً وحاكمـــاً على (دلار)[١]. وترك قسم (أنجو) من البلاد تحت حكم (عز الدين) الـــذي انفـــرد بحكم كافة بلاد اللر الصغير بعد وفاة ابن عمه (بدر الدين) هذا.

---

[١] ـ في (شرفنامه) «عز الدين محمد» لا «أحمد» والسلطان (محمد خدابنده) لا (أولجايتوخـــان) و (ولاي) لا (دلار) ـــ المترجم.

١٣ ـ دولت خاتون

تولت الحكم في البلاد بعد وفاة زوجها الأمير (عز الدين أحمد)، ولكنها لم تتمكن من مباشرة شئون الدولة كما يجب بسبب تدخل المغول[1] وتقول، رواية من الروايات، إن هذه الملكة تخلت عن الحكم بعد فترة، لعز الدين حسين (ويروي شرفنامه أنه أخوها. المترجم) بسبب زواجها من يوسفشاه أتابك اللر الكبير.

١٤ ـ عز الدين حسين

اعترف السلطان أبو سعيد بحكومة هذا الأمير التي عمرت أربعة عشر عاما.

١٥ ـ شجاع الدين محمود

جاء في رواية للدكتور فريج أن هذا الأمير قد حاول الاستقلال بشؤون البلاد وعدم الاعتراف بسلطة المغول، ولكن الشعب قد أبى أن يسايره في تحقيق هذه الرغبة وامتشق الحسام وقاومه حتى أزاله من الوجود.

ولكن كتاب (شرفنامه) يقول إنه ابن الأمير السابق ويرجع مقتله إلى خلاف من نوع آخر نشب بينه وبين الأهالي. ومهما تعددت الأسباب وتباينت فالثابت أنه قد قضي عليه في عام ٧٥٠ للهجرة.

١٦ ـ الملك عز الدين بن شجاع الدين

كان ما يزال طفلا لم يتعد الثانية عشرة من عمره حين وفاة والده. وفي سنة ٧٨٥ للهجرة وصل (شاه شجاع) من آل مظفر بجيشه إلى (خرم آباد) وتزوج فيها من إحدى بنات الملك عز الدين، وقد تزوج من الأخرى السلطان أحمد الجلايري حاكم بغداد، وفي عام (٧٨٨) للهجرة حينما وصل (تيمورلنك) إلى إيران كان لرستان الصغير يسوده اضطراب وقلاقل، فبادر تيمور إلى الزحف من فيروزكوه إلى لرستان، وحاصر خرم آباد أمدا قصيرا ثم ما لبث أن استولى

---

[1] يذكر تاريخ (كزيدة) حوادث هذه الدولة حتى عهد (دولت خاتون) هذه، أما الباقي فمأخوذ من دائرة المعارف الإسلامية، ومن مؤلف الدكتور فريج أي الترجمة التركية باسم (كردلر) ـــ المؤلف.

عليها وخربها، ثم أعمل السيف في رقاب الناس حتى قضى على جميع رؤساء اللر وعلى رجالهم البارزين، فعم الخراب والدمار جميع البلاد من أقصاها إلى أقصاها.

وتقول، بعض الروايات، إن الملك عز الدين وولده (سيد أحمد) أسرا في قلعة (رميان) الواقعة على مقربة من (بروجرد)، فاعتقل هو في (سمرقند) وابنه في قلعة (أندكان) على مقربة من همذان. ثم أرسلا إلى لرستان بعد ثلاث سنوات، وقد أبدى الملك عز الدين هذا نشاطاً محسوساً في ايام زين العابدين من آل المظفر. وفي عام (٧٩٥) عاد تيمورلنك إلى إيران، وجعل البلاد في هذه المرة خراباً يباباً بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ، كما أغرق لرستان في بحار من الدماء ودمرها تدميراً، ومع ذلك لم يتمكن من القبض على الملك عز الدين ولا على ابنه الذي فر هارباً من البلاد. وقد استغل (محمد سلطان) حاكم فارس اضطراب حبل الأمور في هذه البلاد في تلك الأثناء، فجرد جيشاً في عام (٧٩٨) للهجرة، على خوزستان ولرستان واستولى عليهما. وتقول رواية أخرى إن تيمورلنك قد قبض على الملك عز الدين بن شجاع بعد مدة وقتله سنة (٨٠٤ هـ).

١٧ - الملك سيد أحمد

كان مختفياً حين مقتل والده، ثم خرج من مخبئه وظهر للعيان بعد أن انقضى زمن تيمورلنك وأسدل عليه الستار، وأسس حكومته في لرستان من جديد عام (٨١٠) للهجرة، وظل يحكم البلاد مستقلاً حتى عام ٨١٥ للهجرة.

١٨ - شاه حسين

تولى زمام الحكم بعد وفاة أخيه (سيد أحمد)، وانتهز فرصة النزاع الناشب بين أحفاد (تيمور) وشرع في توسيع حدود مملكته حتى امتدت إلى (همذان) و (جرباذقان) و (أصفهان). وقد غزا إقليم (شهرزور) أيضاً، بيد أن القدر قد قسا عليه فأوقعه أسيراً في أيدي عشيرة (بهارلو) فكانت هذه نهايته، حيث قضى عليه في عام (٨٧١) للهجرة.

١٩ - شاه رستم

كان ابناً لشاه حسين، وقد تولى الحكم بعد والده، ولما رجع الشاه إسماعيل الصفوي من فتح بغداد إلى (حويزه) حشد جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف رجل

بقيادة (حسن بك لالا) و (بيرام بك قرمانلو)، وجرده على (شاه رستم) الذي اضطر إلى الاعتصام بالجبال لأنه لم يستطع الصمود أمام هذا الجيش العرمرم، ولما ضاقت به السبل بادر إلى التسليم، وجاء للقاء الشاه إسماعيل الذي منحه عفوه وأظهر تقديره له وأعاده حاكما على لرستان[1].

٢٠ ـ أوغوزخان

كان ابنا لشاه رستم، أسند إليه الشاه (طهماسب) قيادة جيش إيران وفي الحق أنه كان قائدا مغورا وجنديا صنديدا، وقد زحف في عام (٩٤٠ هـ) بجيش لجب إلى ما وراء النهر لمنازلة (عبد الله خان أزبك) الذي كان قد وصل وقتذاك إلى (خراسان) مهددا إيران كلها بالخطر الداهم والشر المستطير وكان أوغوزخان قد ترك أخاه (جهانكير) نائبا عنه في «لرستان» طيلة أيام حروبه في خراسان وما وراء النهر فما كان من هذا الأخ إلا أن انتهز فرصة تغيب أخيه عن البلاد وانشغاله في الحروب، وسارع بإعلان استقلاله بلرستان بمساعدة الشعب الذي آزره وأيده بجميع قواه، ولما عاد (أوغوزخان) من ميدان الحرب اشتبك مع أخيه في حروب دامية أسفرت عن قتله خلال إحدى المعارك.

٢١ ـ جهانكير

عالج هذا الأمير شؤون الحكم مستقلا ودون منافس، بعد مقتل أوغوزخان، بضع سنين، لم يحدث خلالها توتر في العلاقات بينه وبين الدولة الصفوية، والسر في ذلك هو أنه لما وصل الشاه (طهماسب) إلى تلك البقاع عام (٩٤٨) لتأديب (علاء الدولة رعناش) والي (ديزفولي) فقد سارع (جهانكير) إلى بلاطه، وقدم له فروض الولاء والإخلاص والإجلال.

ويقول (إسكندر منشي)، في المجلد الثاني من كتابه، إن (جهانكير) قد انقلب أخيرا وشق عصا الطاعة على إيران، فجرد عليه الشاه (طهماسب) الأول جيشا لجبا بقيادة (عبد الله خان استاجلو)، ودارت رحى معركة طاحنة بين الفريقين أسفرت عن قتل (جهانكير) واندحار جيشه، وانطلق الجيش الإيراني في شرايين

---

[1] - يقول (تاريخ عالم آراي عباسي) إن «شاه رستم» كان ذا لحية طويلة، وقد أمره الشاه إسماعيل أن يزينها بالدرر والجواهر ويحضر إلى بلاط الشاه على هذه الصورة، فنفذ أمر الشاه. (ج١) ــ المؤلف.

البلاد يعيث فيها فساداً، وقتل الكثيرين من الأبرياء حتى جعل البلاد قاعاً صفصفاً.

وقد لجأ كل من (شاه رستم) وأخيه (محمدي) ولدي (جهانكير) إلى بلاطه بغداد، وبعد فترة توسط لهما (سيد أمير) لدى الشاه، فعفا[1] عن شاه رستم ولكن رغبته الملحة في الاستقلال وسعيه الحثيث المتواصل لتحقيقه أدى في النهاية إلى إلقاء القبض عليه وقتله في عام ٩٤٩ للهجرة.

٢٢ ـ شاه رستم الثاني

كان هذا الأمير ابناً لجهانكير، وقد اعترف الشاه (طهماسب) بحكومته دون رغبة أو ارتياح، لأن حكام (لرستان) ما كانوا ينقطعون أو يكفون عن إحداث القلاقل وإشعال نار الفتن في سبيل نزعتهم الاستقلالية، الأمر الذي دفع الشاه (طهماسب) إلى القضاء على هذه الأسرة القديمة لا سيما وأن شاه (رستم) لم يكن له سوى أخ صغير وحيد. فأوعز في يوم ما إلى الأمير (مسلم كودرزي) أحد أمراء (شاه رستم) بأن يخدع سيده ويستدرجه إلى طهران. فحقق الأمير طلبة الشاه (طمهاسب) الذي تمكن بتلك الحيلة الجهنمية من إلقاء القبض على (شاه رستم) والزج به في غياهب السجون. ولما أدرك الشعب اللوري الغرض الذي يرمي إليه الشاه (طهماسب) من وراء هذا العمل بادر إلى نقل (محمدي) الصغير أخي (شاه رستم) إلى قلعة (چنكوله = شنكوله) وإخفائه فيها، وتولت حراسته قوة عسكرية يعتد بها. وهكذا لبثت البلاد بغير حاكم بضع سنين. وإذا برجل يظهر فجأة مدعياً بأنه (شاه رستم) وأنه تمكن من الفرار من السجن. وكان الرجل يبدي معرفة تامة بالبلاد، فضلاً عن أنه كان يشبه (شاه رستم) تمام الشبه لدرجة أن نساءه أنفسهن لم يفطن إلى كذب هذا الدعي الأفاك، وهكذا تم إحياء حكومة لرستان من جديد ولكن بشكل آخر.

ولما ترامى نبأ ذلك إلى مسامع الشاه (عباس) تملكه الغضب، وأطلق سراح (شاه رستم) الحقيقي على الفور، وسلمه مرسوماً بإسناد الإمارة إليه وأمره بالعودة سراعاً إلى لرستان، وما أن وطئت قدماه أرض البلاد حتى انكشفت

---

[1]- ولكن نفس المؤرخ (إسكندر منشي) يقول إن الشاه (طهماسب) بعد أن عفا عنهما، قسم بلاد لرستان الصغير بين (شاه رستم) وأخيه (محمدي)، في حين أن دائرة المعارف الإسلامية تقول غير هذا القول ـــ المؤلف.

حقيقة الأمر الدعي الكذاب، فقبض عليه وقتل. وهكذا عاد الحق إلى نصابه، وتولى الأمر صاحبه الشرعي.

وفي خلال تلك الحقبة كان أخوه الأمير (محمدي) قد شب وكبر والتف حوله أنصار كثيرون، يطالبون له بالإمارة، وكاد القتال ينشب بين الأخوين لهذا السبب لولا تدخل بعض الزعماء بينهما، وقد أدى تدخلهم إلى عقد صلح بين الأخوين اشترط فيه بقاء أربعة أسداس البلاد تحت إمرة (شاه رستم) وتسليم السدسين الباقيين إلى أخيه (محمدي) وقد تلا عقد الصلح فترة سكون وهدوء ولكن الأمير (محمدي) لم يكن ليقنع بنصيبه، وما فتىء يحدث القلاقل ويثير الاضطرابات ضد أخيه حتى دبر له أخوه (شاه رستم) مكيدة للتخلص من متاعبه. فدعاه ورجاله ذات يوم إلى وليمة كبرى وما أن حضروها واجتمع شملهم حتى ألقى القبض عليهم وزج بهم في غياهب السجن.

وكان للأمير محمدي هذا ثلاثة أبناء، ما أن علموا بما آل إليه أمر أبيهم حتى شقوا عصا الطاعة، وأقضوا مضاجع كل من (شاه رستم) والشاه (طهماسب) فأصيبت البلاد بالنكبات ولقي الناس الكثير من الويلات ولحقتهم الاضرار من جراء ذلك، ولم يقف زعماء اللور مكتوفي الأيدي أمام هذه الحالة المثيرة فاجتمعوا وفكروا في إيجاد وسيلة لإخماد نيران الثورة وقطع دابر الفساد من البلاد. فما وجدوا وسيلة أنجع من إصدار قرار بإعادة (محمدي) إلى الحكم وأرسلوا بمحضر اجتماعهم مشفوعاً برأيهم إلى بلاط الشاه وقد وافق الشاه على هذا الرأي ونفذ طلبتهم بشرط إرسال أبناء (محمدي) إلى طهران كرهائن لديه، وهكذا أطلق سراح (محمدي) ولكن لم يمض على إطلاق سراحه طويل وقت حتى انتهز أبناؤه فرصة سنحت لهم ففروا من طهران ورجعوا إلى أبيهم، ثم أخذ محمدي في مضايقة شاه رستم وإيغار صدره من جديد ومنازعته الحكم حتى تمكن من انتزاع لرستان من يده والانفراد بالحكم، ثم تطورت العلاقات بين محمدي وبين البلاط الإيراني فأصبحت ودية للغاية، كما أنه حسن علاقاته أيضاً بالعثمانيين حيث أنشأ صلات طيبة بينه وبين سلطانهم «مراد» الثالث، كان من نتيجتها أن ضمن للرستان الصغير حماية الدولة العثمانية سنة ٩٩٢ هـ وضم نواحي (مندلي وبدره وجسان وتورساق) إلى بلاده.

بيد أنه لم يمض على هذا طويل وقت حتى ساءت علاقاته بالدولة العثمانية فاضطر إلى التفاهم مع شاه إيران ورفض حماية العثمانيين الذين غضبوا لذلك وأمروا حاكم بغداد العثماني بالزحف على لرستان لتأديب حاكمه فنفذ الأمر ولكنه أخفق في مهمته.

٢٣ ـ شاه ويردي

كان (شاه ويردي) رهينة في بغداد حين وفاة والده (محمدي) وما أن علم بوفاة والده حتى أخذ يفكر في وسيلة للخلاص حتى تهيأت له أسباب الفرار وتمكن من الوصول إلى لرستان في الوقت المناسب واعتلى عرش أبيه واعترف له الشاه (محمد خدا بنده) الصفوي بالحكومة والإمارة.

ويقول «تاريخ عالم آراي عباسي ج٢» أن (شاه ويردي خان) كان قد ذهب إلى همذان حين هاجم الجيش العثماني (نهاوند) واستولى عليها، ولما ترامت الأنباء إلى همذان بأن (سنان باشا) قائد الجيش العثماني متجه صوب (همذان)، كاشف حاكمها بأن الجيش الإيراني قليل العدد لا يعول عليه ولا يمكن الصمود به أمام جحافل العدو ونصح له بعدم التصدي لهذه الجحافل المتدفقة. ولكن حاكم (همذان) قد أصم أذنيه عن الاستماع إلى هذه النصيحة السديدة وخاض غمار الحرب فوقع أسيراً في قبضة العدو، وعاد (شاه ويردي) إلى لرستان. وفي خلال تلك الفترة حدثت هجرة عشيرة (قره أولوس) الضاربة في جهات نهاوند إلى بلاد لرستان فاضطر (شاه ويردي) إلى الترحيب بهم. وقد سلك مع العثمانيين مسلك المداراة وتصنع معهم السياسة رعاية لمصالحه ومحافظة على استقلال البلاد.

وفي العام الألف للهجرة (١٠٠٠ هـ) تحسنت علاقاته بالحكومة الإيرانية حيث لم يجد من جانب الترك المعونة التي كانت ينتظرها منهم، فزوج أخته شاه إيران، وتزوج هو من إحدى أميرات الأسرة الصفوية الإيرانية. ولكن هذا التفاهم وذلك الانسجام لم يدوما طويلاً، إذ نشب القتال بينه وبين (أوغورلي سلطان) البياتي حاكم أصفهان حينما قدم إلى (بروجرد) لتحصيل الأموال الأميرية فقتل في إحدى المعارك الخاطفة وكان الشاه عباس ـ وقتذاك ـ في خراسان، وما أن ترامت أنباء هذا القتال المثير إلى مسامعه حتى عاد سراعاً

إلى لرستان لتأديب (شاه ويردي) الذي لم يصمد أمام الشاه ولجأ إلى الدولة العثمانية، فقسم الشاه عباس بلاد لرستان إلى قسمين أحدهما يشمل منطقة (خرم آباد) وقد أعطاه لمهدي قلي خان شاملو وثانيهما ويشتمل على ما تبقى من البلاد أسنده إلى (سلطان حسين بن شاه رستم). ونقل عشيرة (قره ألوس) إلى منطقة (عليشكر) عام ١٠٠٢ للهجرة، ثم عطف على عشيرة (البيات) فأدبها تأديباً صارماً[1].

وبعد عام أصدرت الحكومة الإيرانية عفوها عن (شاه ويردي) على أثر توسط كل من (اعتماد الدولة) و(فرهاد خان) لصالحه، فعاد إلى لرستان بعد أن تعطف عليه الشاه بالإنعامات والخلع السنية، وأعاد إليه إمارة منطقة (خرم آباد).

وفي عام (١٠٠٦) للهجرة عاد الشاه عباس فجرد عليه حملة من أجل (خرم آباد) فعمد (شاه ويردي) إلى الفرار واعتصم بقلعة «جنكوله»، ولكن قوة من حملة الشاه العسكرية يقودها (الله ويردي خان) قد تعقبته حتى القلعة، وبعد صدام عنيف وقتال قصير الأمد ألقت القبض على (شاه ويردي) وجيء به إلى الشاه عباس في (صدمره) فأمر بقتله. وبعد مقتل (شاه ويردي) ولو ان (حسين خان بن منصور بك) صار حاكماً على قسم من لرستان، إلا أن (طهماسب قلي) أعني نادرشاه أقطع بلدان (الصيمرة وهيزماس وبشتكوه) لعشيرة (أينانلو) وهكذا أسدل الستار على حكومة (لرستان الصغير) وكان ذلك في عام (٩٩٣ هـ ــ ١٥٨٥ م)[2] ومع ذلك تمكن أحفاد (شاه ويردي) من المحافظة على إمارة صغيرة في (بشتكوة) ظلت في أيديهم وتعاقب عليها ابتداء من عهد (حسين خان) حكام منهم، عرفوا باسم الولاة: وهم حسين خان، إسماعيل خان، أسد خان، حسن خان، كلب علي خان، علي خان، حيدر علي خان (هذان الواليان الأخيران كانا ابني حسن خان المتوفى سنة ١٢٥٦ هـ = ١٨٤٠ م) وحسين قلي خان وغلام رضا خان. (وفي عهد هذا الوالي الأخير وهو آخر والٍ مستقل للورستان، عمد (رضا شاه بهلوي) إلى ولاية لورستان فألغى إمارتها المستقلة وربطها مع سائر الولايات الإيرانية بالحكومة المركزية.

---

[1] - تاريخ عالم آراي عباسي جزء ثان ــ المؤلف.

[2] - كذا، ولعله (١٠٠٤ ــ ١٥٩٥ هـ) ــ المترجم.

ملحوظة

إذا أمعنا النظر في أحوال هذه الحكومة العريقة في القدم لوجدنـــا أن فــترة الاستقلال والحرية الكاملة لهذه الحكومة لم تعمر طويلاً، وكل ما في الأمر أنـــها تمتعت بالاستقلال التام في عهد (شجاع الدين خورشيد الثاني) لمدة ثلاثين عامــاً. إذ أفضى النزاع الداخلي، بين أعضاء الأسرة المالكة، حول الحكم، إلى ضعـــف البلاد، وانحلالها. وكان ولا يزال هذا الداء الاجتماعي الفتاك مستشرياً في كيــان أغلب حكومات تلك العهود. ثم توالت إغارات المغول والتيموريين، على البــلاد، تلك الإغارات التي أكرهت الحكومة اللورية على التبعية والخضوع للمغول تــارة والتيموريين أحفادهم تارة أخرى، شأنهم في ذلك شأن سائر الحكومات وقتـــذاك. ومع ذلك فإنها توسعت كثيراً في الداخل وفي الخارج، وأصبحت لا تقل شأناً عن حكومات المناذرة والغساسنة والحمدانيين وأتابكية (ديـــار بكـــر) و(مـــاردين) إذ امتدت رقعة أملاكها من نهر (قارون) إلى (شهرزور)، ومن حدود العراق حتـــى (همذان) و (أصفهان) ولا شك في أنها كانت وحدة سياسية لها شــــأنها بالنســـبة للزمن الذي كانت فيه قائمة.

الفصل العاشر

١٠ ـ الحكومات الأيوبية (٥٦٧ ـ ٦٨٥ ـ ٩٥٠ هـ)

(١) من هو مؤسس هذه الحكومات، وما اسم كل من والده وجده، ومن أين قدموا؟

هذه الدولة أو الحكومات هي بحق أعظم الدول التي أسسها الكرد، ولهذا يجدر بنا أن نبحث بإسهاب وإمعان في موضوع تأسيسها وفي أصل مؤسسها العظيم وتحقيق نسبه. فتذهب (دائرة المعارف الإسلامية) إلى القول بأن جد (صلاح الدين يوسف) مؤسس هذه الدولة، إن هو إلا (شادي = شاذي) بن مروان الذي كان من عشيرة الروادي (رواندي) الكردية القاطنة في منطقة (دوين)، وهذه العشيرة بطن من بطون قبيلة (أزبني – هازبني)[1] الكبيرة، ولا ريب في أن نسبة (شادي) لمدينة (دوين) مسألة في غاية الأهمية. لأننا نعلم أن الحكومة الشدادية الكردية قامت في مدينة دوين[2] ولهذا ليس من السهل الاعتقاد بأن الناس في عهد (شادي) كانوا يجهلوا أو ينسون ذكرى هذه الحكومة وما كان لها من خطورة الشأن. (من حيث أنها من أولى الحكومات الوطنية التي قامت في أقصى الحدود الشمالية لكردستان ــ المترجم).

وذكر بعض المؤرخين – كابن خلدون – سلسلة نسب مفصلة لشادي حيث أوصلها إلى (عوف الحمير الدوسي؟) ولكن ليس لهذا أدنى نصيب من الصحة بل هو بعيد كل البعد عن الصواب، إذ الحقيقة أن التاريخ يجهل اسم جد (شادي)[3].

---

[1] - هي القبيلة الشهيرة باسم الهذبانية في أغلب المصادر العربية والإسلامية ولكن (ابن خلكان) يضبطها هكذا (الهذانية). وهذا أقرب إلى الأصل الكردي الذي هو (هذان ــ هزان ــ خيزان) إذ لا يزال هو اسم طائفة من الكرد جنوب بحيرة (وان). وبلدة بشرق جنوب بدليس ــ المترجم.

[2] - في الواقع أن مسألة (دوين) هذه مهمة جداً، إذ كانت في منطقة (أربيل) أيضاً مدينة تحمل هذا الاسم وكانت عاصمة لحكومة (سوران) الكردية ردحاً من الزمن.. وكان قسم كبير من القبيلة الهذبانية الشهيرة تسكن تلك الجهة في عهد الأتابكية، ويظهر أن هنالك صلة وثيقة بين (دوين) هذه وبين القسم المذكور من الهذبانية وأسرة «شادي» أيضاً، ولذا فهي في حاجة قصوى إلى تمحيص وتنقيب، ويظهر أن لفظ «دوين» كردي ومعناه «الحديث أو السؤال» ــ المؤلف.

[3] - والده معروف وعلى رواية ابن خلكان يدعى «مروان» ج٢ ــ ص ٨٤.

هزيمة منكرة واضطراره إلى التقهقر والفرار من الميدان إلى قلعـــة (تكريـت) لاجئاً إلى رحاب (نجم الدين أيوب) الذي أكرم وفادته وهيأ له الكثير من المعـابر من أرماث وأطواف سهلت له عبور دجلة، الأمر الذي أدى إلى استياء حكومـة بغداد وشدة غضبها على نجم الدين أيوب ولم يقف الأمر عند هذه الحادثة فحسب بل جدت حوادث أخرى ضاعفت نقمة حكومة بغـداد، منـها أن (أسـد الديـن شيركوه) أخا (نجم الدين أيوب) قد أردى ضابطاً مـن حاميـة تكريـت قتيـلاً فتزعزع من جراء ذلك مركز الأسرة بأسرها، وتملك (بهروز) الخـوف علـى مركزه، خشية أن تطيح به هذه العاصفة فسارع إلى إقالة (نجم الدين أيوب) مـن النيابة عنه، وأنذره بوجوب مغادرة (تكريت) على الفور، فاضطر (نجم الديـن) وأخوه وكافة أفراد أسرتهما إلى مبارحة (تكريت) ليـلاً فـي ديـاجير الظـلام، متجهين شطر الموصل إلى رحاب (عماد الدين زنكي) معللين أنفسهم بأمل حسن وفادته لهم جزاء ما سبق أن أسدره له من معروف.

ويقال أن «صلاح الدين» ولد بقلعة تكريت في عام (٥٣٢ هــ ١١٣٧ م) (وهو رأي استانلي لين بول أيضاً) بينما يذهب بعضهم إلى أن (صـلاح الديـن) إنما ولد في نفس الليلة التي أمر (مجاهد الدين بهروز) فيها (نجم الدين) وأسـرته بضرورة مغادرة (تكريت)، الأمر الذي أوقع أيوب في حيص بيص، وجر عليـه الهم والقلق بسبب متاعب الهجرة المفاجئة، والآلام التي نجمت عن الوضع فـي هذا الوقت الغير ملائم.

وما أن وصل (نجم الدين أيوب) وأسرته إلى الموصل، حتى أكـرم (عمـاد الدين زنكي) وفادتهم، وتقبلهم قبولاً حسناً واضعاً نصب عينيه ذلـك المعـروف الذي سبق أن أسداه له (نجم الدين أيوب) فيما مضى، فأجرى له راتبـاً مناسـباً، ولقي الأخوان كل تجلة وإكرام في قصر (عماد الدين)، وكانا له الساعد الأيمـن في بعض حروبه وفتوحاته.. ولما نجح (عماد الدين) في الاستيلاء علـى قلعـة (بعلبك) خلال هجومه العام على سورية عام (٥٣٤ هــ) عين (نجم الدين أيوب) محافظاً لها. هذا ولما لحق (عماد الدين زنكي) بالرفيق الأعلى وصعدت روحـه إلى بارئها، تقاسم أولاده بلدانه فيما بينهم، وعلم (نجم الديـن أيـوب) أن جنـود الشام مقبلون للاستيلاء على (بعلبك) فاستسلم للأمر الواقع، ولم يبد أية مقاومـة، بل رافقهم في العودة إلى الشام. وكان هذا التصرف من جانبه في منتهى الحكمة

والكياسة. وهناك في بلاد الشام بسم له الحظ، وأخذت ثقة ولاة الأمور فيه تزداد وتقوى على مر الأيام حتى عين أخيراً رئيساً على كافة جند الشام. وأما (شيركوه) أخوه فقد بقي لدى (نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي) وتبسم له الدهر هو الآخر فظل يتدرج في سلك الترقي حتى أضحى رئيساً لكافة جنوده وقد ظهرت مواهب «نجم الدين أيوب» الحربية وبراعته النادرة أثناء محاصرة الصليبيين دمشق الشام، في حملتهم الثانية، فقد أبدى نجم الدين، وقتذاك، من الشجاعة الفائقة، والاستماتة في المقاومة ما حير الصليبيين وألحق بهم هزيمة منكرة، وخسراناً مبيناً، فأطاح بسيولهم الجارفة عن الشام إلى مسافات شاسعة.

وعلى الرغم من أن أمير الشام كان قد قدم فروض الطاعة لنور الدين محمود، إلا أن هذا لم يحل دون تفكير نور الدين في إعادة الوضع إلى ما كان عليه في عهد والده «عماد الدين زنكي» وضرورة الاستيلاء على دمشق، وما لبث أن جرد حملة في عام (٥٤٧ هـ) على دمشق بقيادة شيركوه، الأمر الذي أوقع نجم الدين أيوب في مشكلة عويصة، إذ وجد نفسه بين عاملين اثنين لا ثالث لهما ولكن أيسرهما مر، فأما الاتفاق مع أخيه وهذا ما لا يريده وإما الوقوف في وجهه. وهذا لا بد مؤد إلى محاربة نجل ولي نعمته وهو ما يحرص على تلافي الوقوع فيه.. وأخيراً بعد أن أعمل الفكر وفق إلى حل وسط انتشله مما وقع فيه من حيرة، وهذا الحل الوسط، ما هو إلا اتباعه الطرق السلمية لحل المشكلة، فدخل فوراً مع أخيه (شيركوه) في مفاوضات رسمية أفضت إلى دخول جيش (شيركوه) دمشق بعد ستة أيام من إجراء المفاوضات.

وبعد فترة من الزمن عين السلطان نور الدين محمود، نجم الدين أيوب حاكماً على دمشق، وقربه إليه واتخذه له خدناً وصفياً. وأخذت الأمور تجري على أعنتها وتسير على هذا المنوال، حتى وقع اختيار السلطان (نور الدين) على صلاح الدين بن أيوب لفتح مصر.

(٣) - نشأة الأمير صلاح الدين

أمضى (صلاح الدين) بضعة من سني طفولته في (بعلبك) ولكن التاريخ للأسف يجهل تماماً تفاصيل حياته الأولى هذه. ويقول (ستانلي) إنه لا بد وأن يكون مثل (صلاح الدين) كمثل سائر أبناء الأمراء المسلمين الآخرين فتلقى العلم

في المدارس الدينية، وحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة. ولا شك في أنه أتم دراسة علمي الصرف والنحو على أيدي أساتذة خصوصيين في (بعلبك)، وتزود بقسط وافر من سائر العلوم كمبادىء الشعر والإنشاء وعلوم الحديث والقرآن وغيرها، لأن والده وقد كان من عظماء الدولة، كان في مكنته إحضار أساتذة اختصاصيين وعلماء لتثقيف ابنه ثقافة عالية.

ويقول، صاحب كتاب (طبقات الشافعية)، في هذا الصدد، إن صلاح الدين تلقى علم الحديث على الحافظ أبي طاهر السلفي، وأبي طاهر بن عوف، والشيخ قطب الدين النيسابوري، وعبد الله بن بري النحوي، وآخرين من مشاهير علماء عصره. وكان يحفظ القرآن وكتاب (التنبيه في الفقه)، وبعض رسائل أخرى عن ظهر قلب. ويقف مؤرخو العرب مكتوفي الأيدي فلا يذكرون شيئاً عن عهد (صلاح الدين) قبل سفره إلى مصر، وإن كان البعض من المؤرخين الغربيين قد ذكر أن (صلاح الدين) كان يواظب على مجلس (نور الدين) وكان يلقى من لدنه كل تجلة وإكرام بصفته ابناً لحاكم دمشق. وكان شاباً عاقلاً، نجيباً، متديناً، تقياً، ويلوح أنه كان كسائر أنجال الأمراء في عصره يميل إلى الصيد والقنص. ولا شك في أنه كان يجيد لعب الكرة والصولجان، ويشارك السلطان (نور الدين) أحياناً في هذا الضرب الشهير من اللعب. ويؤخذ من كتاب بعث به إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله، أنه شارك أباه وعمه ــ قبل سفره إلى مصر ــ في جميع غزواتهما وفتوحاتهما. وكما صرح صاحب كتاب (حياة صلاح الدين الأيوبي) بأنه كان فارساً بارعاً صنديداً حسبما تقضي عليه قوميته الكردية.

ويقول، القاضي (ابن شداد)، في كتابه (النوادر السلطانية)، إن صلاح الدين من يوم أن قدم من (بعلبك) إلى دمشق الشام مع والده، كان يلازمه ويصطحبه في الحل والترحال، فيتزود من فضله، ويتتبع آثاره ويترسم خطاه، حتى طبقت شهرته الآفاق، وذاع صيته، فأقبل عليه السلطان (نور الدين) كل الإقبال، وقربه إليه، وكان يرفع من قدره، يوماً أثر يوم.

ويقول، صاحب مرآة الزمن، في (ج٣ – ص١٥٦)، إن السلطان نور الدين عينه في سنة (٥٦٠) شحنة للشام.

(٤) ـ سفره الأول إلى مصر

لما استنجد (شاور) وزير الخليفة الفاطمي بمصر بالسلطان (نـــور الديــن) سارع السلطان إلى إرسال حملة عسكرية إلى مصر عام (٥٦٢ هـــ)[1] بقيــادة (شيركوه)، وكان الأمير (صلاح الدين) ــ كرغبة عمه ــ من بين قواد وضبــاط هذه الحملة، وكان يقود فرقة الطليعة في هذه الحملة. ويقول (ابن شداد) إن أســد الدين شيركوه كان لا يبرم أمراً ولا يقدم على أي عمل من غير استشارة الأمــير صلاح الدين، لأنه كان يعتمد الاعتماد كله على رجاحة عقله وحسن تدبيره.

وما أن وصل (شيركوه) إلى مصر حتى ألحق بجيش ضرغـــام ــ خصــم شاور ــ هزيمة منكرة في مدينة (بلبيس) وظل يتعقبه حتى ضيق عليه الحصــار في القاهرة نفسها، وسرعان ما سقطت (الفسطاط) في قبضـــة (شـــاور) ووقــع ضرغام صريعاً في المعركة، وبموته خلا الجو لشاور الذي ســولت لـــه نفســه الغدر بمن استعان بهم للقضاء على خصمه وحال بالفعل بين (شـــيركوه) وبيــن دخول القاهرة، مما أدى إلى قيام (شيركوه) بإرسال حملة عسكرية بقيادة الأمــير (صلاح الدين) إلى مدينة «بلبيس» حيث استولت على الشرقية وما أن طرق هـذا النبأ مسامع (شاور) حتى طلب النجدة من (أماريك) ملـــك الصليبييـــن بـــالقدس للخلاص من (شيركوه) فأسعفه الملك الصليبي بحملة عسكرية قويـــة، ومـــا أن وصلت هذه الحملة إلى مصر حتى وقع كل من شيركوه وصـــلاح الديـــن بيـــن ناري المصريين والصليبيين وظلا كذلك ثلاثة أشهر كاملة وقد استماتا في الدفاع عن بلبيس رغم اشتداد أوار الحرب ولهيبها، إلى أن جد ما أسرع بالحرب إلـــى نهايتها، ذلك أن السلطان «نور الدين» كان قد جرد وقتذاك حملة كبيرة وقادهـــا بنفسه على مملكة القدس لتخفيف الضغط على مصر وحاصر قلعة (بانياس) ومـا أن ترامى هذا النبأ إلى مسامع ملك القدس حتى ساورته المخاوف وسارع إلـــى الدخول في مفاوضات مع شيركوه لعقد الصلح، وتم الاتفاق بينهما على أن يجلــو كل من جيش الشام والقدس عن البلاد المصرية... وتنفيذاً لتلك الاتفاقيـــة عـــاد «شيركوه» بجيشه إلى الشام.

---

[1] - عام ٥٦٠ للهجرة في دائرة المعارف الإسلامية. المؤلف. وفي (ابن خلكان) روايتان إحداهما ســنة ٥٥٩ وهــي الأصح والثانية سنة ٥٥٨ هـــ ـــ المترجم.

وبعد أن خلا المسرح من (شيركوه)، اتصل (شاور) المخادع الماكر بملك القدس وسمح له بإقامة حامية صغيرة من جنده في القاهرة ليستعين بها على قضاء مآربه ويبدو جلياً ما في هذا التصرف من نقض لشروط المعاهدة التي جلا جيش الشام عن مصر بمقتضاها، ولهذا استقر الرأي بين السلطان (نور الدين) و (شيركوه) على الزحف إلى مصر مرة أخرى والاستيلاء عليها نهائياً، ووافق الخليفة العباسي في بغداد على هذا القرار الحكيم والرأي الصائب.

(٥) ـ صلاح الدين يسافر إلى مصر للمرة الثانية

بعد أعوام ثلاثة من السفر الأول توجه (شيركوه) [١] ومعه الأمير (صلاح الدين) على رأس جيش من ألفين من أبرع الجنود الكرد المنتخبين إلى مصر، وسرعان ما وصل هذا الجيش إلى أطفيح على بعد أربعين ميلاً من القاهرة، بعد أن لاقى ضروباً من المشاق وألواناً من الصعوبات والمتاعب، ومن هناك تمكن من الوصول إلى الجيزة حيث كان جيش ملك القدس معسكراً قبالته على الضفة اليسرى للنيل.

وفي هذه الأثناء عقد الملك (آرمون) ملك القدس معاهدة مع الخليفة الفاطمي دخلت مصر بموجبها تحت حمايته، وعلى أثر ذلك اجتاز ملك القدس النيل بجيشه الجرار سراً إلى الضفة الأخرى، وما أن رأى شيركوه ذلك حتى انسحب بجيشه صوب الصعيد فتعقبه ملك القدس حتى (البابين) [٢] حيث وقف شيركوه عن التقهقر وتهيأ للطعان فالتقى الجمعان والتحم الفريقان، وحمي وطيس القتال بينهما، وكان لمهارة الأمير (صلاح الدين) الفائقة في إدارة دفة الأعمال والخطط الحربية ولبسالته النادرة، أكبر الفضل في إلحاق هزيمة ساحقة بجيش القدس، مما أفضى إلى استيلاء جيش الشام فيما بعد على قلعة (الإسكندرية) الحصينة، التي عهد شيركوه إلى صلاح الدين الدفاع عنها فكان هذا أول اعتراف بإمارة صلاح الدين وأعقب هذا أن قسم شيركوه جيشه شطرين، ترك الشطر الأول مع صلاح الدين وعاد بالشطر الثاني صوب صعيد مصر. أما ملك القدس فقد رجع إلى

---

[١] ـ أعني في سنة (٥٦٢ هـ) على أصح الروايات.

[٢] ـ في ابن خلكان، وكانت باطفيح وقعة الباقين عند الأشمونيين. وفي ابن الأثير، وكان يعرف بالبابين. فليحرر ـ المترجم.

القاهرة يجر أذيال الفشل والهزيمة واتفق مع الحكومة المصرية على محـــاصرة الإسكندرية براً وبحراً وأرسل هو أسطولاً من أساطيله إلى مياه الإسكندرية لشـد أزر المحاصرين لها من البر، إلا أن الأمير (صلاح الدين) قد دافع عن القلعـة دفاع الأبطال، وتصدى لجيش مصر والقدس، فأبدى ضروباً من الشجاعة الفائقة والمقاومة الرائعة خلال فترة الحصار التي دامت سبعين يوماً حين كـان يصـد الهجمات البرية والبحرية كالهزبر آناء الليل وأطراف النهار. وكان (شـيركوه) حينذاك قد توجه صوب العاصمة (القاهرة) وضرب نطاق الحصار عليـها فـي (بركة الحبشة) مما أدى إلى انتشار الذعر والخوف بين صفوف أعدائه فطلبـوا الصلح على شريطة خروج كل من جيشي القدس والشام مـن مصـر، وعـدم التدخل في شؤونها مستقبلاً وفي أثناء مفاوضات الصلح على هذا الوضع الـذي ارتضاه الطرفان، أمضى صلاح الدين بضعة أيام لدى ملك القدس في معسـكره بجوار الإسكندرية فانتهز هذه الفرصة بطبيعة الحال ودرس عن كثب الأنظمـة العسكرية عند هؤلاء الأجانب.

وتنفيذاً لشروط الصلح جلا كل من الجيشين عـن مصـر وانتـهى عـهد احتلالهما لها، ولم يمض طويل وقت على عقد هذا الصلح حتـى طمـع الملـك (أماريك) في الاستيلاء على مصر، فزحف عليها بجيش عرمرم، وتمكـن مـن الاستيلاء على (بلبيس) وواصل التقدم إلى الأمام مسرفاً في سفك دماء كثير مـن المصريين من بينهم جم غفير من النساء والأطفال.

وفي هذه المرة لم يجد الخليفة الفاطمي بمصـر مندوحـة مـن الاسـتغاثة والاستنجاد بالسلطان نور الدين فبعث إليه بكتاب خاص وضع عليه خصلة مـن شعور نساء المسلمين للدلالة على أن الحالة قد وصلـت بالمسـلمين فـوق مـا يطيقون، وأنهم جميعاً في أمس الحاجة إلى حمايته وعطفه ونجدته، أما (شـاور) وزير الخليفة الذي كان نسيج وحده في الدهاء والمكر والذي كان لا يشـق لـه غبار في الخيانة والخداع، فقد عمد كعادته إلى مصانعة ملك القـدس، ومحاولـة خداعه بأطماعه في مال مصر وثروتها، ثم دخل معه في مفاوضات لعقد الصلـح وكان يهدف من وراء ذلك إلى كسب الوقت حتى تصل النجدة من لدن السـلطان (نور الدين)، وكان له ما أراد، فقد توقف ملك القدس فعلاً على بعد خمسة أميـال من القاهرة، حيث دارت بينهما المخابرات.

(٦) - سفره الثالث إلى مصر

على أثر استغاثة الخليفة الفاطمي بالسلطان (نور الدين) واستجابة لرجائه الحار، أمر السلطان (نور الدين) بحشد جيش عرمرم لنجدة خليفة مصر ظاهراً، والاستيلاء على مصر نهائياً، وانتزاعها من أيدي الذين لا يحسنون حكمها في الواقع، وتحرك هذا الجيش ــ المؤلف من ثمانية آلاف من نخبة الجنود والضباط ومشاهير القواد ــ صوب مصر بقيادة (شيركوه)، وكان الأمير صلاح الدين غير راغب في السفر هذه المرة لو خلى بينه وبين نفسه، ولكنه عاد فاستجاب لرغبة السلطان في ضرورة سفره، وطلب عمه في اللحاق به مهما كانت الظروف، فاضطر إلى السفر إلى مصر مكرهاً. وما أن سمع (أماريك) ملك القدس بقدوم (شيركوه)، حتى شمر عن ساعد الجد، وأراد أن يحول ــ بادىء ذي بدء ــ دون اتصال الجيش الشامي والمصري بعضهما ببعض، ولكنه أخفق في ذلك إخفاقاً ذريعاً واضطر في سلخ ربيع الثاني من عام ٥٦٤ (كانون ثاني ــ يناير ١١٦٩ م) إلى الرجوع أدراجه إلى القدس مدحوراً مذموماً. وحينذاك وصل شيركوه إلى أبواب القاهرة، فبادر الخليفة وأعيان مصر وسكانها إلى استقباله استقبالاً منقطع النظير، وأعربوا له عن مزيد شكرهم الخالص على ما أسدى لهم من جليل الأعمال، وما أبداه من الشهامة والنخوة لإنقاذهم من نير العدو الذي لا يرحم.

وبعد أن استراح (شيركوه) من وعثاء السفر، ضرب مخيمه في خارج القاهرة لإقامته هو وجنده، وقد شرفه الخليفة بزيارته في مقره، وشكره شكراً خاصاً على أعماله المجيدة وجهوده الفذة الموفقة. ثم أعقبه الوزير شاور في الزيارة متظاهراً بإبداء الكثير من آيات الود وعلائم السرور، في حين كان يضمر خلاف ما يظهر، وكان لا يدع يوماً يمر دون أن يحضر راكباً إلى المعسكر لزيارة (شيركوه) في خيمته، ويتظاهر له بالود الصافي والصداقة الخالصة والله وحده يعلم أنه كاذب ومخادع. إذ كان يرمي من وراء ذلك إلى تهيئة فرصة ذهبية لتدبير مكيدة جهنمية للقضاء على (شيركوه) وقواد جيشه لتنفيذ مأربه، غير أن ابنه (الكامل) قد فطن إلى أن أباه قد فكر في إقامة وليمة فاخرة يدعو إليها ضحاياه لهذا الغرض فخاف مغبة هذا العمل الإجرامي فما كان منه إلا أن هدد والده بإفشاء هذا السر والإفضاء بأسرار هذه المكيدة إلى شيركوه

إذا سولت له نفسه الأمارة بالسوء الإصرار على تنفيذ هذه الفعلة الشنعاء، ورغم ذلك عزم شاور فيما بينه وبين نفسه على ضرورة تنفيذ فكرته وأسرها في نفسه حتى تحين أقرب فرصة مواتية لتنفيذ هذا الهدف السيء الذي لم يكن خافياً على أغلب المحيطين بشيركوه من القواد والضباط.

ولكن القدر قد أراد له ما دبره هو لغيره إذ توجه في يوم جمعة كعادته إلى معسكر (شيركوه) وتصادف تغيب شيركوه عن المعسكر يومذاك فتقدم إليه الأمير (صلاح الدين) وبعض القواد وركبوا معه كالعادة للتنزه والقنص وما أن بعد بهم المسير حتى أبعدوا عنه الخيالة وكان ممتطياً صهوة جواده فانقضوا عليه وطرحوه أرضاً وأوثقوه بالحبال ثم أرسلوه للخليفة الذي أعاده إليهم ليقطعوا رأسه، ويرسلوها إليه فنفذوا أمره على الفور وهكذا أسدل الستار على هذا الوزير الخائن الذي كادت سياسته الخرقاء وأطماعه الدنيئة الهوجاء، أن يؤدي إلى وقوع مصر بأكملها في قبضة الإفرنج وعلى أثر هذا الحادث أخذت الأبواب تتفتح والمجال يتسع أمام (شيركوه) فقد بعث الخليفة العاضد، في طلبه، وأسند إليه منصب الوزارة، ومنحه لقب (الملك المنصور أمير الجيوش).

وهكذا أخذ (أسد الدين شيركوه) يدبر أمور الحكومة المصرية، ويصرف شؤونها، بصفته وزيراً للخليفة، غير أن المنية قد عاجلته، فلم يعمر طويلاً، ووافاه الأجل المحتوم يوم السبت الموافق (٢٢ من جماد الثاني من عام ٥٦٤ هـ) وكان الأمير (صلاح الدين) يقوم بإدارة دفة أغلب شؤون الدولة وتصريف أمورها في حياة عمه.

(٧) - وزارة الأمير صلاح الدين

بعد أيام ثلاثة من وفاة (أسد الدين شيركوه) وقيام ابن أخيه الأمير صلاح الدين بتقبل العزاء في عمه، أصدر الخليفة مرسوماً بإسناد منصب الوزارة إلى الأمير صلاح الدين، غير أن هذا الإجراء قد أوغر صدور بعض قواد جيش (شيركوه) فعادوا إلى الشام وقد تملكهم الغضب والحقد على (صلاح الدين) الذي واتاه الحظ وأخطأهم، وفي الحق أن هذا المنصب الخطير لم يكن يصلح للقيام بأعبائه سوى الأمير (صلاح الدين) ولهذا أنعم عليه الخليفة بلقب (الملك الناصر أبي المظفر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب).

نعم! قد وصل الملك الناصر إلى هذا المنصب الخطير في الثانية بعد العشرين من عمره، كنتيجة حتمية لتقدمه المحسوس في ميدان السياسة والجندية، وما أن اعتلى صلاح الدين أريكة هذا المنصب حتى ألقى نظرة ذات اليمين وذات الشمال وأمعن النظر فيمن حوله، من القواد والضباط، فلم يجد من بينهم من يطمئن إلى إخلاصه له، أو نشاطه في العمل، فأعمل الفكر وأخيرا رأى أن أنجع وسيلة هي أن يجمع حوله والده، وإخوته، وأقرباءه الآخرين، فكتب إليهم طالبا اللحاق به، فسرعان ما حضروا والتفوا حوله. وأكرم (صلاح الدين) وفادة والده، لدرجة أنه تنازل له عن منصب الوزارة ولكن والده رفض قبوله قائلا له «لو لم تكن أنت جديرا بهذا المنصب لما منحك إياه سبحانه وتعالى» وقد آلى الناصر صلاح الدين على نفسه أن يكسب قلوب المصريين كافة ويحوز ثقتهم ويجتذبهم إليه، فأغدق عليهم النعم والأعطيات، وبالغ في إرضائهم، وأحسن معاملتهم في شتى الأمور، وعلى الرغم من أنه كان سنيا، وكافة المصريين تقريبا من الشيعة، لم يفكر مطلقا في التدخل في الشؤون المذهبية، أو الحيدة عن جادة العدل والمساواة، ولهذا اكتفى بذكر اسم السلطان (نور الدين) في الخطبة بعد اسم الخليفة الفاطمي.

هذا وقد استولى الصليبيون على (دمياط) في عهد وزارته هذه، فانبرى لهم بجيش ضخم، وبعد نضال عنيف وقتال مرير، تغلب عليهم وانتزع المدينة من بين براثنهم، وهكذا خلص البلاد منهم وطردهم نهائيا عن الأراضي المصرية ولم يكتف بذلك، بل سار إلى العقبة وهي واقعة في طريق الحاج فاستولى عليها وطهرها من الصليبيين وقد أحدث هذان الانتصاران الباهران في نفوس المصريين خاصة والمسلمين عامة أثرا طيبا وإعجابا به منقطع النظير. فعلا شأنه وارتفع قدره في نفوسهم فازدادوا به تعلقا لا فرق في ذلك بين العامة من الجنود وبين الأمراء والقواد.

وحدث أن (مؤتمن الخلافة) المدعو (جوهر) قد حدثته نفسه مناضلة الملك الناصر (صلاح الدين) ومخاصمته خصومة غير شريفة. فأخذ يدس له ويدبر له المكائد، لدرجة أنه اتصل بالإفرنج يستقدمهم لاحتلال مصر ثانية ليوقع صلاح الدين بين ناري العدوين الخارجي والداخلي، وكان مؤتمن الخلافة هذا معتزا بجيش سوداني يقرب عدده من خمسين ألفا، فكان يعتمد عليه الاعتماد كله، غير

أن الملك الناصر سرعان ما سنحت له فرصة ذهبية للقضاء عليه قضاء مبرماً، فثارت لذلك ثائرة السودانيين في جيش الخليفة.

وقد عمد الملك الناصر إلى تعيين أخيه (شمس الدولة تورانشاه) لإخماد هذه الثورة الجامحة، فعرف هذا الأخ الشجاع؛ والبطل المغوار، كيف ينتقم من الثوار أشد انتقام ويستأصل شأفتهم في أقل من بضع سنين، وقطع دابرهم من البلدان المصرية بكل الوسائل من تقتيل، إلى تشريد، إلى طرد، وإبعاد إلى البلاد السودانية حيث تسلمهم هناك «العادل» أخو «الملك الناصر» وقضى عليهم قضاء مبرماً وأجهز عليهم، وكان صلاح الدين قد عين (بهاء الدين قرهقوش) في وظيفة (مؤتمن الخلافة) بعد مقتل (جوهر)، ولم يكن الملك الناصر يتخلص من ثورة السودانيين، وفتنتهم الجامحة، حتى زحف الصليبيون إلى (دمياط) لأن ملك القدس كان قد عقد اتفاقاً مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية على احتلال مصر.

وتنفيذاً لهذا الاتفاق، عجل ملك القدس بالزحف إلى (دمياط) قبل وصول جيش الروم وأسطولهم، ولكن الملك الناصر كان قد اتخذ أهبته وحصن هذه القلعة تحصيناً منيعاً، وأعدها لدفاع طويل الأمد، ولهذا تمكنت القلعة من الصمود، وصدت هجمات جيش ملك القدس وأسطوله بعد حصار دام خمسين يوماً، وعاد المهاجمان أدراجهما يجران أذيال الهزيمة والخسران المبين دون أن ينالا من القلعة. وفضلاً عن ذلك فقد لعبت الطبيعة دورها، وأبى القدر إلا أن يقتص من رجال العدو وأسطوله ويريهم جزاء ما عملوا، فسلط عليهم في عرض البحر ريحاً صرصراً وعاصفة هوجاء شتت شملهم وقضت على ما تبقى لهم من سفن الأسطول الرومي، وانتهز الملك الناصر هذه الفرصة الذهبية، فترك مهمة الدفاع، وأخذ يوغل في مطاردة العدو ثم توجه بحملة عسكرية شطر فلسطين، وأطلق لجيشه العنان للسلب والنهب وشن الغارات وتضييق الخناق على العدو ومضايقته أينما وجد.

ولا ريب في أن هذا التحول الخطير في الموقفين العسكري والسياسي في مصر، وقيام جيش مصر بالزحف على فلسطين، قد أحدث دوياً هائلاً في مصر وبهر أبصار المصريين واستلفت أنظار أهليها الذين عانوا الظلم، واكتووا بنار الفوضى، إلى تلك الحالة الجديدة التي وصلوا إليها، بفضل إدارة الملك الناصر الحازمة، ودهائه السياسي، الذي أفضى إلى نتائج باهرة، ومواقف مشرفة، حيث

أخذ جيش مصر يضيق الخناق على العدو في عقر داره، وأثار بين صفوفه الرعب والذعر والقلق المستمر، الأمر الذي أفضى إلى ازدياد محبة المصريين للملك الناصر مما بعث فيه قوة على قوة، وفي نفس الوقت الذي كان فيه الملك الناصر وزيراً للخليفة العاضد بالله، كان أيضاً سرداراً لجيش السلطان نور الدين، فكان طبيعياً أن يكن له كل إخلاص وولاء.

هذا وكان كل من (القاضي الفاضل) والكاتب الشهير (عماد الدين الأصفهاني) يتمتع ويحظى بكامل ثقة الملك الناصر وعطفه السابغ عليهما حيث كانا يتوليان إدارة المخابرات الرسمية وإسداء المشورة الخاصة له في الملمات والحادثات. وقد اختار أخيراً لسكرتاريته الخاصة في عام (٥٨٤) القاضي الذائع الشهرة (ابن شداد) الذي رافقه في جميع فتوحاته وغزواته.

وما أن فرغ (الملك الناصر) من إخماد نيران الثورات الداخلية، والقضاء على مطامع الإفرنج في مصر، حتى شرع يعمل جاهداً على الانفراد بالحكم والاستقلال، والتخلص من التبعية للغير؛ وأخذ يمهد لذلك بنشر المذهب السني بين المصريين بدلاً من المذهب الشيعي الذي كان سائداً بينهم، وأنشأ خصيصاً لهذا الغرض مدرستين دينيتين إحداهما (الناصرية) والأخرى (الكاملية) تدرس فيهما مذاهب أهل السنة والجماعة، فيقول ابن الأثير: إن صلاح الدين قد هدم السجن الشهير الذي كان يعرف باسم (دار المعونة)، وأقام مكانه مدرسة للشافعية، كما حول (دار العدل) أيضاً إلى مدرسة للشافعية وعزل جميع قضاة الشيعة واستبدلهم بقضاة من الشافعية.

وكان السلطان (نور الدين) يشدد عليه ويلح في جعل الخطبة باسم الخلفاء العباسيين وهو الاتجاه الذي كان يميل إليه الرأي العام أيضاً، ولكن الملك الناصر قد آثر التريث، ولم يتعجل البت في هذا الموضوع واضعاً نصب عينيه أولاً، وقبل كل شيء، تقوية مركزه قبل أن يخطو هذه الخطوة ويستجيب لرغبة السلطان، وإن هي إلا فترة زمنية حتى جمع مجلس شوراه كعادته، وطرح على المجتمعين مسألة تحويل الخطبة عن الفاطميين إلى الخلفاء العباسيين فأقروها بالإجماع، وهكذا تحولت الخطبة إلى اسم الخلفاء العباسيين حسب قرار المجلس؛ وكان الخليفة الفاطمي العاضد بالله وقتذاك مريضاً طريح الفراش. فأمر الملك الناصر بأن يكتم عنه الخبر ويبقى في طي الكتمان، ولم يطل بهم هذا التكتم إذ

عاجلت المنية الخليفة العاضد بعد ذلك ببضعة أيام وكان ذلك فـــي عـام (٥٦٧ هــ)، وقد شق نعيه على الملك الناصر، لأن وفاته جعلتـــه وجـــهاً لوجـــه مـــع السلطان نور الدين.

وبعد أن قام الملك الناصر بدفن الخليفة العاضد؛ وتقبل العزاء فيـــه، أخلـــى قصر الخلافة من قاطنيه من الفاطميين وأتباعهم وأسكن النساء منـــهم فـــي دار أخرى، وفرض عليهم رقابة دقيقة تتلافى حدوث القلاقل والفتن التي قد تنجم عن اتصال الجمهور بهم ثم وزع أموال القصر وخزائنه على الأمراء والقــواد وذوي الحاجة من الجند والشعب.

وبعد أن أضحى الملك الناصر حاكم مصر المستقل، كان بـــاكورة أعمالـــه إنشاء قلعة القاهرة. حيث وجد هذه العاصمة الكبيرة تضم الفسطاط وقطائع أحمـد بن طولون والقاهرة المعزية، فأنشأ حول هذه كلها سوراً متيناً وقلعـــة حصينـــة للمحافظة على المدينة سميت قلعة (صلاح الدين) وبنـــى فيـــها دوراً وقصـــوراً ومنازل لنفسه ولأهله ولسائر أتباعه. ولما كانت سياسة الملك النـــاصر (صـــلاح الدين) ترمي إلى تجنب إغضاب السلطان (نور الدين) منه، وعدم إثارة الشـــكوك والشبهات حوله، فقد عمد إلى ذكر اسم السلطان نور الدين بعد اسم الخليفة فـــي الخطب على المنابر، وضرب النقود باسمه، ثم انتقى هدية فاخرة من بين كنـــوز خزائن قصر الخلافة وبعث بها إليه.

وحدث في وقت ما أن قصد الملك الناصر إلى قلعة (الشوبك) في فلســـطين الواقعة على الطريق التجاري بين مصر والشام لفتحها. ومـــا أن ســـمع بقـــدوم السلطان نور الدين إلى تلك الجهات، حتى قفل راجعاً إلى مصـــر علـــى جنـــاح السرعة صارفاً النظر عن فتح القلعة. حيث لم ير من السياسة الحكيمة الاجتمـاع بالسلطان في تلك الآونة، إذ أن بعض أمراء (نور الدين) الذين كـــانوا بصحبـــة (أسد الدين شيركوه) والملك الناصر صلاح الدين إبان فتح مصر، ثم غادروهـــا إلى الشام حين تولى (صلاح الدين) زمام الأمور فيها، ما فتئوا يعملون جـــاهدين ويسعون سعياً متواصلاً للتأثير على السلطان نور الدين لينتزعوا ثقته، ويغـــيروا من رأيه في صلاح الدين حتى أنه ليقال: أن السلطان تحت تأثير منهم قد فكر فـــي مواصلة الزحف على مصر والاستيلاء عليها بعد رجوع الناصر صلاح الديـــن من قلعة (الشوبك) إلى القاهرة.

وما أن ترامى هذا النبأ إلى مسامع الملك الناصر حتى بادر وجمع مجلس شوراه على الفور للنظر في هذا الموقف الجديد، وقال أحد أعضاء المجلس إنه يجب مقابلة السلطان بالقوة والحيلولة بينه وبين دخوله مصر. فاستهجن (نجم الدين أيوب) – والد الملك الناصر – هذا الرأي ولم يستصوبه بل اشتد به الغضب وقال: «إن هذه البلاد إن هي إلا بلاد السلطان نور الدين وكلنا له رعايا مخلصون وعبيد خاضعون» ثم فض المجلس وانتحى بابنه جانباً ووجه إليه لوماً لاذعاً على ما بدر منه، ثم أسدى إليه نصائح في غاية من السداد والحكمة. وفي الواقع لم يكن في مكنة السلطان نور الدين مواصلة الزحف إلى مصر وقتذاك بسبب انشغاله بأمور الجزيرة أي كردستان الجنوبي. وبعد حقبة من الزمن ندب الملك الناصر أخاه (تورانشاه) لتنظيم أمور السودان وتدبير شؤونه.

وما أن فرغ السلطان (نور الدين) من تنظيم شؤون الجزيرة، وتسلمه كتباً من الملك الناصر معبرة عما يكنه له من ولاء وطاعة، حتى بعث يطلب أن يزحف على رأس جيشه ويجتمع به في فلسطين ليقوما معاً بزحف مزدوج على ملك القدس، فلبى الملك الناصر نداءه، وسافر بجيشه إلى فلسطين، بيد أنه اضطر للعودة إلى مصر قبل ملاقاة السلطان، بحجة مرض والده وخطورة حالته، بسبب سقوطه على الأرض إثر كبوة فرسه على مقربة من باب النصر بالقاهرة، حيث توفي إلى رحمة الله إثر هذا الحادث.

ورغم هذا فقد أبدى السلطان أشد الاستياء من عودة الملك الناصر إلى مصر، فغضب واستقر رأيه على أن يزحف بنفسه إلى مصر للاستيلاء عليها، ويعزل الملك الناصر من ولايته عليها، لولا أن المنية قد عاجلته قبل تنفيذ ما استقر عليه قراره، وقد وافاه الأجل المحتوم في يوم الأربعاء (٢١ من شوال من عام ٥٦٩ = ٢٥ مايو ١١٧٤ م) وكان الملك الناصر قد أبدى قبل وفاة السلطان نور الدين كثيراً من ضروب النشاط المحسوس، فأول ما وجه إليه همه كان تنظيم الجيش فقد وجه إليه الكثير من عنايته وساعده أبوه في تنظيمه ودقة الإشراف على شؤونه، وحسن تدريبه، حتى استطاع الملك الناصر بفضل هذا الجيش من فتح شمالي أفريقيا، وسواحل البحر الأبيض من أيالتي طرابلس الغرب وتونس، ومن ناحية أخرى أرسل أخاه (تورانشاه) إلى اليمن، فتمكن من غزوها في رجب عام (٥٦٩) وهكذا خضعت تلك البلاد الشاسعة وولاية (عدن) ذات الأهمية، لسلطان بني أيوب في مصر.

وفي هذه الأثناء دبر من وراء ستار، الشاعر المعروف (عمارة اليمني) مع بعض رفاقه، إشعال نيران ثورة جامحة، وكانوا قد اتخذوا أهبتهم، واتصلوا بالإفرنج لنجدتهم إذا لزم الأمر، غير أن الملك الناصر قد اكتشف أسرار المؤامرة قبل وقوعها، فقضى عليها في المهد، واستأصل شأفة المدبرين لها على الفور، وقد تصادف هجوم أسطول صقلية على الإسكندرية وقتذاك، فدافع الملك الناصر عنها دفاعاً مجيداً، ومات ملك القدس الصليبي في تلك الآونة، فاستراح الملك الناصر بموته من عدو لدود، وخصم عنيد.

ولا شك أيضاً أن الملك الناصر قد أضحى، بعد وفاة السلطان نور الدين، سلطاناً مستقلاً تمام الاستقلال، وحاكماً مطلقاً للشرق الإسلامي، لا شريك له في حكمه.. إذ لم يبق أمامه من ينازعه السيادة المطلقة على الشرق والدفاع عن الإسلام.

نعم كان هنالك نجل السلطان نور الدين الطفل، يحكم بعض القلاع والبلاد، وابن أخيه سيف الدين حاكم الموصل، والملك السلجوقي في بلاد الروم (الأناضول).. ولكن هؤلاء الملوك والأمراء جميعهم لم يكونوا ليصلوا إلى مقدرة الملك الناصر لما كان يتمتع به من النفوذ الواسع، والسلطان العريض في العالم الإسلامي، حتى يتسنى لهم منافسته.

ولما كان الملك الناصر قد شعر ورأى، أن من أقدس واجباته الدينية محاربة الإفرنج، وطردهم من البلاد الإسلامية، فقد وجد أن من الحكمة وأصالة الرأي أن يتفق مع سائر الأمراء والملوك المسلمين، ليوحدوا قواهم، ويجمعوا شملهم، ويقفوا جبهة واحدة متراصة لتحقيق هذه الغاية، فكانت هذه الخطة القويمة أساس سياسته الرشيدة مستقبلاً، وقد حالفه التوفيق كل التوفيق في تنفيذها.

(٨) ـ بعد وفاة السلطان نور الدين

قبض الملك (الصالح إسماعيل) على ناصية الأمور، بعد وفاة والده السلطان (نور الدين) وله من العمر حينذاك خمسة عشر عاماً، ولكن التوفيق قد جانبه، وكنتيجة حتمية لسوء إدارته تغلب عليه رجال والده وقواد جيشه، فاستولى ابن عمه (سيف الدين) حاكم الموصل على جميع البلاد التي كانت خاضعة للسلطان (نور الدين) كما استقل كل من الأمراء الآخرين بشؤون البلاد التي كانوا يحكمونها نيابة عن السلطان.

وما أن ترامت هذه الأنباء إلى مسامع الملك الناصر حتى بادر على الفور بإرسال خطاب إلى وزير الملك الصالح، المدعو (شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم) موجهاً إليه اللوم فيه على ما فرط منه، قائلاً له: «إذا لم تخلصوا الخدمة للملك الصالح إسماعيل ولم تحافظوا على ملكه تماماً، فسأحضر بنفسي وأحافظ على حقوقه» ولكن الأمراء والقواد قد أصموا آذانهم عن الاستماع لهذه النصيحة، فقد عمد (شمس الدين ابن الداية) حاكم حلب إلى إيفاد (سعد الدين كمشتكين) إلى الملك الصالح إسماعيل ليدعوه إلى حلب ليحول بهذا دون مجيء الملك الناصر لمساعدته والتمسك به ولكن أهل الشام قد عارضوا — أول الأمر — في ذهاب الملك الصالح إسماعيل إلى حلب فعاد (كمشتكين) دون أن يصحبه معه، ولكنه سرعان ما عاد ثانية لنفس الغرض وفي هذه المرة استطاع بدهائه أن يخدع الملك الصالح إسماعيل وينقله إلى حلب ثم ألقى القبض على (شمس الدين بن الداية) وعلى أولاده وسائر أقربائه، وزج بهم جميعاً في غياهب السجن.

وهكذا سيطر (كمشتكين) على حلب، وفرض عليها سلطانه، وشرع يعمل جاهداً على تعزيز مركزه وتوطيده، فاتصل بملك الإفرنج بالقدس، وعقد معه اتفاقاً ضد الملك الناصر للحيلولة دون زحفه إلى الشام وحلب فاضطر الملك الناصر إلى عرض هذا الأمر على الخليفة العباسي المستضيء بالله، فبعث إليه بخطاب مؤثر يشكو فيه سوء الأحوال وتحرجها في بلاد الملك الصالح إسماعيل، الأمر الذي قد يؤدي إلى تمزيق أوصال البلاد ووقوعها في أيدي الإفرنج، وفي الواقع كانت الأحوال السياسية، والظروف الدولية، مواتية للملك الناصر لتحقيق غايته النبيلة إذ كانت كل من فلسطين وسورية خاضعة لملك صبي لم يعركه الدهر ولم تحنكه التجارب، وهما (بلدوين) الرابع الشهير بـ (بلك = لعله بمعنى الأرقط) ابن الملك (آموري)، والملك الصالح (إسماعيل)، فكان من حسن السياسة أن ينتهز هذه الفرصة ويخضع هاتين المملكتين لحكمه المباشر؛ إلا أنه لما جبل عليه من بعد النظر، آثر التريث، ولم يتعجل الأمر، لأنه لم يكن راغباً في إغضاب أهل الشام منه، ولهذا كان لا يفتأ يكاتب الملك الصالح (إسماعيل) مبدياً له ما يكنه له من الإخلاص والطاعة، وكان يسك العملة ويقرأ الخطبة باسمه، وما أن حضر الملك الصالح إلى حلب، وصار

(كمشتكين) حاكماً مستقلاً بها، حتى ساور القلق والمخاوف (ابن المقدم) وأنصاره من القواد والأمراء فأرسلوا يستنجدون بسيف الدين حاكم الموصل، لمساعدتهم.

ولكن (سيف الدين) قد آثر التريث، وطال به التردد لأنه لم يكن يثق فيهم، وأخيراً استقر رأيه على مفاوضة الجانب الآخر، والاتفاق مع الملك الصالح. فلما تبين أمراء دمشق حقيقة الأمر أسقط في أيديهم، ولم يجدوا محيصاً هذه المرة من الاتصال على الفور بالملك الناصر، وأرسلوا إليه يلتمسون النجدة من لدنه، ويرجون العمل على إنقاذهم من الورطة التي وقعوا فيها.

وقد بادر الملك الناصر الذي كان يتحين الفرصة منذ أمد بعيد، إلى الزحف بجيش عرمرم شطر (سورية) فوصلها بعد أن قطع صحراء التيه، ماراً ببلاد فلسطين الخاضعة للصليبيين غير هياب ولا وجل، ولا سيما أنه كان قد مهد السبيل لذلك سياسياً، حيث كان قد عرض على الخليفة ببغداد رغبته الملحة في ضم سورية إلى أملاكه حتى يتسنى له التفرغ لمحاربة الإفرنج والدفاع عن مصالح المسلمين دفاعاً ناجعاً، لأن حكومة الملك الصالح لم تكن لتستطيع القيام بهذه المهمة المجيدة، فضلاً عن أنها لا تعمل لها قط، بل الأدهى والأمر أنها عقدت اتفاقاً مع الإفرنج ضد مصالح المسلمين.. وهكذا استطاع الملك الناصر الحصول على إذن من الخليفة، واعترف له الجميع بأنه المدافع عن الإسلام بحق، مما أفضى إلى تدفق النجدات والإمدادات على جيشه من كل صوب وفج عميق. ولم يتصد له أي كائن ليحول بينه وبين الوصول إلى تحقيق رغبته.

وما أن وصل إلى مدينة (بصرى = أسكي شام) حتى هرع حاكمها لمقابلته طائعاً مختاراً واضعاً نفسه طوع أمره ورهن إشارته، ومن هذه المدينة توجه الملك الناصر رأساً إلى دمشق الشام، فوصلها في أواخر ربيع الأول عام (٥٧٠ هـ)، وقصد تواً إلى بيت والده حيث استراح قليلاً؛ ثم أخذ في تسلم القلعة وما احتوته من الخزائن والأموال الطائلة، التي لم يحتجزها أو يستأثر بها لنفسه بل وزعها جميعها على أهل الشام مما أثلج صدور جميع الطبقات وشتى الهيئات من الأهالي، وكان الملك الناصر بما طبع عليه من فطنة، وذكاء خارق، يبدو في جميع حركاته وسكناته بمظهر الذي أقدم على هذا العمل لا لشيء إلا لمساعدة ابن ولي نعمته الملك الصالح. وإنقاذاً له من بين براثن المحيطين به والطامعين

فيه. مما قربه إلى قلوب الناس وحببهم فيه وحفز أمراء الشام وأعيانها إلى الانخراط في سلك جيشه، واتباع أوامره.

وبعد أن نظم الملك الناصر أمور الشام، وعين أخاه (سيف الإسلام طغتكين) واليا عليها، تقدم نحو (حمص) فاستولى على المدينة ثم ترك قوة من جنوده لمحاصرة القلعة ثم واصل سيره إلى (حماة) وكان أمير هذه البلاد وقتذاك المدعو (عز الدين جرديك) الذي كان مع الأمير (صلاح الدين) في سفرته الثالثة إلى مصر ثم عاد إلى الشام حينما تولى (صلاح الدين) الوزارة في مصر، مؤثرا عدم البقاء في معيته، وما كان من هذا الأمير الذي لم يرض الخضوع للملك الناصر في بادئ الأمر، إلا أن عاد أخيرا واطمأن لمواثيق الملك الناصر وعهوده وسلم المدينة إليه، محتفظا بالقلعة في قبضة أخيه.

وقد أوفد الملك الناصر الأمير عز الدين هذا إلى حلب كمندوب من قبله للمفاوضة فيما يعود على المسلمين بالخير من إطلاق الأسرى وحقن دماء المسلمين ولكن ما كاد الأمير عز الدين هذا يصل إلى حلب، حتى ألقى (كمشتكين) القبض عليه، وزج به في أعماق السجن، ولما ترامى هذا النبأ إلى مسامع أخيه بادر إلى تسليم القلعة إلى الملك الناصر الذي توجه إثر ذلك صوب حلب وضرب نطاق الحصار عليها في اليوم الثالث من جمادى الثانية عام (٥٧٠) ثم أعلن على الملأ أنه لم يأت كعدو يقصد بالمسلمين سوءا، إنما جاءهم لإنقاذ الملك الصالح من بين براثن (كمشتكين) وبعض الأمراء والقواد من العصاة والطغاة.

ولما أحس (كمشتكين) بخطورة الحالة أوجس خيفة، وفكر في القضاء على الملك الناصر بأيدي الفدائيين الإسماعيليين، فأوفد من قبله رسولا خاصا للمرشد الإسماعيلي المدعو (شيخ الجبل راشد الدين سنان) يطلب إليه اختيار بضعة من رجاله للفتك بالملك الناصر وسفك دمه، فما كان من هذا الزعيم الإسماعيلي إلا أن لبى نداءه، واستجاب لطلبته، وبعث بجماعة من الفدائيين لارتكاب الجريمة، إلا أن الملك الناصر كان قد علم بأسرار تلك المؤامرة الدنيئة فتمكن من القبض عليهم وأعدمهم جميعا.

بعد ذلك اشتد ضغط (كمشتكين) على الملك الصالح لكي يحرض الأهالي ويستفزهم لقتال الملك الناصر، وفعلا نشب القتال بين الطرفين، ودافع الحلبيون

عن قلعتهم بشدة، ثم أطلق (كمشتكين) سراح (رياموند) حاكم طرابلس الصليبي الذي كان أسيراً منذ عهد السلطان (نور الدين) في قلعة حلب، أطلق سراحه كي يكون له ظهيراً ضد الملك الناصر وقد انتهز هذا الحاكم الصليبي، الذي تولى الوصاية على بلدوين، ملك القدس، بعد إطلاق سراحه فرصة طلب (كمشتكين) إليه مساعدته، فزحف شطر «حمص» لينتقم لنفسه من المسلمين، ولكن الملك الناصر حامي حمى الإسلام والمسلمين كان له بالمرصاد، وما أن علم بذلك حتى بادر إلى رفع الحصار عن (حلب) والتوجه على الفور للقاء جيش القدس المحاصر لحمص، ولكن (رياموند) لم يصمد ولم يقو على الوقوف أمامه، فقفل راجعاً أدراجه، واستولى الملك الناصر وقتذاك على قلعة (بعلبك) ثم عاد إلى دمشق الشام. وحينذاك استنجد الملك الصالح بالأمير (سيف الدين) حاكم الموصل فخف الأخير على الفور لنجدته، وسار بنفسه على رأس جيش ضخم إلى حلب، وانضم جيش الموصل إلى جيش حلب للوقوف صفاً واحداً ضد الملك الناصر ومناوأته من الناحيتين وإيقاعه بين النارين.

ولكن الملك الناصر، لما جبل عليه من توخي مصلحة المسلمين، وحقن دمائهم، والحيلولة دون إفادة أعدائهم الفرنج من الخلاف بينهم، قد أفسد عليهم تدبيرهم وخطتهم، وعرض عليهم الصلح مبدياً استعداده للتخلي عن جميع البلاد السورية التي استولى عليها وانتزعها منهم ما عدا دمشق الشام التي رأى أن الضرورة تقتضي أن يحكمها هو نيابة عن الملك الصالح، ثم يعود إلى مصر.

بيد أن سيف الدين والملك الصالح لم يقبلا هذه الشروط السخية، وآثرا القتال على قبولها، فاضطر الملك الناصر إزاء ذلك إلى الزحف إليهم ونشب القتال بين الفريقين في التاسع عشر من رمضان عام (٥٧٠ هـ) على مقربة من (حماه) حيث دارت بينهما معركة دامية أسفرت عن انتصار باهر للملك الناصر، بينما مني خصومه باندحار ذريع. فولوا الأدبار يجرون أذيال الهزيمة إلى أن دخلوا قلعة (حلب). فتعقبهم الملك الناصر وضرب الحصار على تلك القلعة ولكن سيف الدين قد تمكن من عبور الفرات إلى الموصل، إلا أن جيش الملك الناصر لم يكف عن مطاردته حتى أبواب الموصل، مما اضطر (سيف الدين) إلى أن يجرد جيشاً مؤلفاً من ستة آلاف من خيرة جنوده ليرد به المطاردين فالتحما في مكان

يدعى (تل السلطان) ودارت الدائرة على جيش الموصل في هذه المـــرة أيضـــاً؛ وأسر من رجاله الكثيرون؛ واستحوذ الملك الناصر على الكثير من الغنائم. أمـــا من نجا من فلول جيش الموصل فقد هربوا إلى حلب وبعد هذا النصـــر المبيـــن؛ استولى الملك الناصر في طريقه إلى حلب، على قلاع (بزاغـــة) و (المنبـــج) و (أعزاز)، ثم ضيق نطاق الحصار على (حلب) وحدث وقتذاك أن هجـــم فدائـــي إسماعيلي بغتة وعلى حين غرة على الملك الناصر أثناء حصاره لقلعة (أعـــزاز) على مقربة من (حلب) وطعنه بالسيف في أم رأسه، غير أن قلنسوته الذهبية قـــد حالت دون إصابته إصابة خطيرة وتكاثرت حاشية الملك الناصر علـــى الفدائـــي فأردوه قتيلاً فما هي إلا فترة وجيزة حتى تتابع الفدائيون وأخذوا ينقضون علـــى الملك الناصر، الواحد تلو الآخر، كان نصيبهم جميعاً القتل بنفس الطريقة التـــي قضي بها على زميلهم الأول. والذي لا شك فيه أن هؤلاء القتلة الفدائيين كـــانوا محرضين ومبعوثين من قبل (كمشتكين) الخائن.

وقد شدد الملك الناصر الحصار على حلب على أثر تلك الحادثـــة الطائشـــة مما اضطر أهالي حلب وأرغمهم إلى طلب الصلح ببضعة شـــروط عرضوهـــا. وقد حضرت وقتذاك كريمة السلطان نور الدين وأخت الملك الصالح إلى الملـــك الناصر، لتشفع لأخيها بين يديه ولتطلب الصفح عن أهالي حلب فـــأكرم الملـــك الناصر وفادتها وبالغ في الحفاوة بها ولبى رجاءها حيث أطلق ســـراح أســـرى حلب على الفور وداوى جرحاهم مرضاة لها ومراعاة لخاطرها.

وأخيراً وافق الملك الصالح على الصلح وأقر السلم نزولاً عند رغبة الأهالي وتمشياً مع ميولهم وكف عن المطالبة بالبلاد التي فتحها الملك الناصر. وبهذا لـــم يتبق في حوزته من أملاكه سوى حلب وأعمالها.

وقد عاد الملك الناصر إلى الشام في شهر شوال من تلك السنة، حيث تلقـــى بها خلعة خلعها عليه الخليفة العباسي والإنعام عليه بلقـــب الســـلطان وصـــاحب مصر والشام. ومنذ ذلك اليوم لم يعد يذكر اسم الملك الصالح في الخطبة ولم تعد تضرب السكة باسمه بل أصبحت تضرب باسم الملك الناصر يوسف بن أيـــوب، وقد وزع الملك الناصر جميع الغنائم التي حصـــل عليـــها فـــي هـــذه الوقـــائع والحروب على الجيش من ضباط وجنود دون أن يستأثر بشيء منها لنفسه.

(٩) - عهد السلطنة

بعد أن أتم السلطان (صلاح الدين) تنظيم شؤون البلدان الشـــامية. وتدبـــير أمورها عمد إلى التنكيل بالإسماعيلية أعنف تنكيل وأمره، ثم عين أخاه (شـــمس الدولة تورانشاه) – الذي كان قد قدم من اليمن إلى الشام لزيارته – وكيلاً عنـــه على كافة البلاد الشامية؛ ثم عاد إلى مصر، وشرع في بناء سور القاهرة وإقامـــة قلعتها الشهيرة العاتية. نعم، إن هذه القلعة قد جددت مراراً وعمرت تكـــراراً، إلا أن العلامة الدالة على راية السلطان الخاصة، والتي هي عبارة عن صورة نســـر حمراء في أرضية صفراء، لا تزال موجودة وماثلة للعيان على أحد أسوارها.

وما أن عاد صلاح الدين إلى مصر، وعلم الإفرنج بعودته، حتـــى بـــادروا بانتهاز هذه الفرصة، وزحفوا بجيشين مستقلين، مـــن الجـــانبين صـــوب الشـــام وبعلبك، وأوغلوا في النهب والسلب، وأمعنوا في تدمير البلاد وتخريـــب القـــرى حتى ألحقوا هزيمة منكرة بجيش (تورانشاه) وأسروا كثيرين من المسلمين.

وما أن ترامت هذه الأنباء إلى مسامع السلطان (صلاح الدين) حتى نـــهض على الفور كالأسد الهصور وزحف بجيش ليس بكبـــير إلـــى فلســـطين، وظـــل يواصل السير إلى أن وصل (الرملة) وما فتيء أن اشتبك بجوارها بجيش قـــوي للإفرنج، وأسفر القتال عن انتصار العدو، وقد نجا السلطان نفسه بأعجوبة نـــادرة من شر هذه النكبة المريعة المباغتة وكان ذلك في عام (٥٧٣) للـــهجرة ووقـــع الأمير الفقيه (عيسى الحكاري) أسيراً، ولكن ما لبث أن افتداه السلطان بـــالكثير من المال فأنقذه من ذل الإسار، ومن الذين أسروا في هذه الموقعة الدامية الأمـــير (تقي الدين عمر) وغيرهم من الأمراء والقواد حيث أصيـــب جيـــش الســـلطان بخسائر فادحة مما أفضى إلى السلطان أن يترك جميع أثقاله وأحمالـــه ويتوجـــه إلى مصر معانياً الأهوال والمشقات. وقد توجه جيش الإفرنج هذا بعد الموقعـــة إلى (حماة) وضرب نطاق الحصار عليها ولكن من حسن الحظ أن كان الأمـــير سيف الدين أحمد المشطوب بالقلعة المذكورة فشارك حاكمها شهاب الدين محمود في الدفاع عنها دفاع الأبطال واضطروا العدو إلى الرجوع عنها خائبين.

ولما عاد السلطان (صلاح الدين) إلى مصر، قامت الاستعدادات على قـــدم وساق لإعداد جيش قوي في تلك المرة، وقد تم إعداده في خلال ثلاثـــة أشـــهر، وما أن تم تجهيزه حتى بادر بالزحف إلى سورية حيث سارع جيشها بالانضمـــام

إلى جيش مصر، ثم شرع في مضايقة الإفرنج، وأمعن في مناوشـــتهم، بشـتى الوسائل، حتى اضطر جيشهم الذي كان محاصراً وقتذاك لمدينة (حماة) إلى رفـع الحصار والتخلي عنها والتوجه صوب (جارم) الخاضعة لحكومة حلـــب، ومـا تركوها ورحلوا عنها إلا بعد أن نقدهم الملك الصالح، الطائل من الأموال، ولمـا لمس الإفرنج ضعف موقفهم، وحروجة مركزهم أمام سطوة السلطان شرعوا في تحصين حدودهم، وإنشاء قلعة حصينة من جديد على مقربة من (بيت يعقـــوب) ولا شك أن هذه القلعة لم تكن في صالح الإسلام، ولهذا لم يأل الســلطان جـهداً ليثني الإفرنج عن إتمام تحصين هذه القلعة ببذل الأموال وإغداقـــها عـــن ســعة عليهم ولكن دون جدوى فلم يكلل مجهوده بالنجاح ولـــم يســتطع المـــال تثبيـط عزيمتهم فاستمروا في مواصلة العمل حتى أتموا تحصينها وهكذا أضحت القلعــة نقطة حربية هامة، تمكن ملك القدس بفضلها من تجريد حملة قوية على سورية.

وما كان من السلطان إزاء هذا إلا أن جرد هو الآخر حملة عسكرية تحــت قيادة ابن أخيه (فرخشاه)[1] لمقابلة العدو. وما لبث أن احتدم القتال بين الفريقيـــن وحمي وطيسه حتى أسفر في النهاية عن انتصار (فرخشاه) انتصاراً باهراً وعــن هزيمة منكرة لملك القدس الذي أوشك أن يقع في ذل الإسار، لولا أن غامر أحـد الفرسان الإفرنج المدعو (همفري) وأنقذ ملكه.

وكان (صلاح الدين) قد زحف من ناحية أخرى بجيش خاص إلى قلعة (بيت يعقوب) وألقى عليها حصاراً شديداً، وأطلق لرجاله العنان للنهب والتدمـــير فـــي أطراف بلدتي (صيدا) و (بيروت).

هنالك تحركت شهوة الانتقام من السلطان في نفس ملـــك القـــدس، فزحـــف بجيش عرمرم إلى حيث يكمن جيش السلطان، واشتبك معه في معركة دامية فـــي (مرج عيون) ولكن دارت الدائرة على الإفرنج ولحقت بهم هزيمة شنعاء ووقـــع الكثيرون منهم أسرى ومن بينهم قواد عديدون على رأســـهم (ريـــاموند) حـــاكم طرابلس؛ و«بلدوين» حاكم الرملة، و «هرج» حاكم الطبريـــة، وغـــيرهم مـــن الأمراء والعظماء، وكان ذلك في الثاني من محرم عام (٥٧٥) (١٠ يونيه عـــام ١١٧٩ م).

[1] ـ هو أبو سعيد عز الدين داود فرخشاه بن نور الدين شاهنشاه بن نجم الدين أيوب ـــ المترجم.

وبعد شهرين من إحراز هذا النصر الباهر المبين، زحف السلطان صوب قلعة (بيت يعقوب) على مقربة من بانياس فاستولى عليها بعد قتال دام خمسة أيام، وأسر حاميتها، ثم أخربها وجعل عاليها سافلها[1].

ولقد أدى سقوط قلعة (يعقوب) في أيدي المسلمين إلى هلع الإفرنج وخوفهم وقلقهم على مصائرهم التي أضحت في كفة القدر، فطلبوا عقد هدنة لمدة عامين، فوافق السلطان (صلاح الدين) على هذا العرض، وأبرم جميع الأمراء والحكام هذه الاتفاقية ما عدا حاكم (أنطاكية) الافرنجي. واقتنص السلطان هذه الفرصة واغتنمها كي يتفرغ لتنظيم شؤون البلاد الجزرية. إذ كان (نور الدين) حاكم (حصن كيف)، على خلاف شديد مع حميه (قليج أرسلان) من ملوك سلاجقة الروم (الأنضول)، والذي كان قد أعلن الحرب على نور الدين في حين كان نور الدين حليفاً للسلطان، وفضلاً عن ذلك كان السلطان مستاء وغير راض عن أعمال ملك الروم من جراء موقعة (حصن رعبان).

ورغم كل هذه الأسباب مجتمعة، فقد رأى السلطان – حقناً لدماء المسلمين – أن يتفادى الاصطدام بهؤلاء، وألا يتدخل في القتال الناشب بين الصهر وحميه مفضلاً القيام بهجوم على ما كان يسمى (أرمينية الصغرى) لإرغام حاكمها المدعو (روبين)[2] على الخضوع وقبول عقد صلح معه.

والذي لا يحتمل الشك، أن هذه الانتصارات الباهرة المتوالية قد استرعت أنظار الجميع إلى ما كان يتمتع به السلطان من المقدرة الفائقة، والنفوذ الشامل والتوفيق الرائع.. ولا أدل على ذلك من مسارعة الحكومات الصغيرة المجاورة إلى الاعتراف بسلطان (صلاح الدين) المطلق، وخطب وده، وتقديم فروض الطاعة وعلائم الولاء والخضوع له، وإلى عقد أواصر الاتفاق، وتوثيق عرى الاتحاد معه.

وقد استقر رأي كل من حكام (الموصل) و (الجزيرة) و (أربل) و (حصن كيف) و (ماردين)، وملك الروم، وحاكم أرمينية، على مهادنة السلطان عامين كاملين ابتداء من جمادى الأولى عام (٥٧٥ هـ)، (تشرين أول سنة ١١٧٩ م).

---

[1] - انظر ابن الأثير (ج١١ – ص ١٨٥) تجد فيه التفاصيل.

[2] - وهو الشهير بابن ليون، كما في ابن الأثير (ج١١ – ص ١٩٠) – المترجم.

وقد قطعت هذه الهدنة دابر النزاع، وإثارة القتال والبغضاء بين المسلمين كافة.. وبفضلها تلألأت عظمة السلطان صلاح الدين وقوة شكيمته بأجلى مظاهرها في طول وعرض البلاد القائمة بين البحر الأسود والخليج الفارسي والبحر الأبيض، وأفضى كل ذلك إلى إمكان توحيد القوى الإسلامية المبعثرة المشتتة وضم شملها، وتوجيهها لمحاربة الإفرنج الدخلاء على البلاد، وهكذا تمكن السلطان من العودة إلى مصر في رجب عام (٥٧٦ هـ) راضياً وقد اطمأن قلبه كل الاطمئنان على مصالح الإسلام، تاركاً ابن أخيه الأمير (فرخشاه) نائباً عنه في دمشق الشام.

وما أن وطئت قدما السلطان أرض مصر حتى شرع على الفور في إصلاح أمورها وتنظيم شؤونها، وبدأ بتنفيذ سلسلة من المشروعات النافعة، فأنشأ بها المدارس والمكاتب، ثم أخذ في تحصين قلعة الإسكندرية التي كان يحكمها وقتذاك أخوه (شمس الدولة تورانشاه) الذي تسلمها إثر تخليه عن حكم (بعلبك)، وقد توفي بها قبل وصول السلطان إلى مصر.

وبينما كان السلطان منهمكاً في إصلاح شؤون مصر وتدبير أمورها، جاءه النبأ بأن (رينولد آرناط) حاكم الكرك قد أخل بشروط المعاهدة القائمة، حيث سطا على قافلة إسلامية من التجار على مقربة من (الكرك)، فسارع السلطان إلى إلقاء القبض على الحجاج المسيحيين الذين كانوا على ظهر سفينة لاجئة إلى ثغر (دمياط).

وفي خلال هذه الفترة، طير نبأ وفاة (الأمير سيف الدين غازي) حاكم الموصل والجزيرة (كردستان الجنوبي) وكان قد أوصى قبل مماته ببلدة (جزيرة ابن عمر) لابنه (سنجرشاه)، وببلدة (عقر الحميدي) لناصر الدين كشك، وببقية بلدان الجزيرة والموصل لأخيه «عز الدين مسعود» وبعد فترة من الزمن، وفي اليوم الخامس بعد العشرين من رجب من عام (٥٧٧ هـ) توفي إلى رحمة الله الملك الصالح (إسماعيل) وكان قد أوصى هو الآخر قبل مماته «بحلب» لعز الدين مسعود الذي تبادلها «بسنجار» مع أخيه عماد الدين في الثالث عشر من المحرم من عام (٥٨٧ هـ).

وقد تأثر صلاح الدين لوفاة الملك الصالح كل التأثر وأخذ منه الحزن كل مأخذ، وفي الوقت نفسه لم يخف استياءه من استيلاء عماد الدين على «حلب»

غير أنه لم يكن في مكنته الزحف على «حلب» احتراماً للاتفاقية المعقودة التـــي تحرم القتال عامين كاملين. وفي الواقع لم يكن يخطر ببال صلاح الديـــن، ومـــا كان يدور بخلده نقض شروط هذه الاتفاقية ولا الحنث بالعهود التي ارتبط بـــها، مع أنه لم يكن باقياً من مدة العامين المذكورين سوى أربعة أشهر فقط.

ولكن سرعان ما تواترت الأنباء وأخذت تترى بأن بعض الموقعيـــن علـــى الاتفاقية، على اتصال بشيخ الجبل وبالإفرنج يدبرون معهم المكـــائد ويحيكـــون الخطط لمناوأة السلطان صلاح الدين، فأمام هذه الحالة الدقيقة لم يكن الســـلطان ليقف مكتوف الأيدي حتى يؤخذ على غرة، فعول، دونما تردد على إيقافهم عنـــد حدهم وإفساد خططهم، فتحرك بجيشه بمصر متجهاً صوب الشام وكان قد بعـــث بأثقاله وعتاده إليها قبل تحركه مع أخيه (تاج الملوك بوري).

وما أن اقتحم بجيشه الأراضي السورية حتى أمعن رجاله في نـــهب البـــلاد الخاضعة للإفرنج الذين لم يستطيعوا مقاومته ولا الوقوف في وجهـــه أو علـــى الأقل الحيلولة بينه وبين تخريب بلادهم، ولهذا تمكن بكل سهولة من الوصـــول إلى دمشق في صفر عام (٥٧٨ هـ) وبعد أن أخلد إلى الراحة فيها بضعة أيـــام شن هجوماً آخر على الإفرنج وانتزع منهم بلدة (بيسان) ثم قفـــل راجعـــاً إلـــى الشام، وبعد أن أمضى في ربوعها شهراً، توجه شطر «بيروت» وحاصرها بـــراً وبحراً، وقبل استيلائه عليها، سار نحو الجزيرة تلبية لدعوة (كوكبوري) حـــاكم «حران» له.. وفي هذه الأثناء كانت مدة.العامين المحرم خلالهما القتال كنـــص الاتفاقية السالفة الذكر قد انتهت، فأبدى معظم حكام البلاد الجزرية بل أغلبيتـــهم رغبتهم الصادقة في الانضواء تحت لواء السلطان، وعرضوا عليه هذه الرغبـــة بالفعل، ولا شك في أن هذا التطور السياسي كان خير مقدمة، وبدايـــة موفقـــة، تبشر بانعقاد لواء النصر للسلطان على طول الخط.

وقد بادر السلطان إلى استغلال هذه الفرصة استغلالاً واسع المدى، فزحـــف على الموصل وكان هدفه أن ينتزعها من حاكمها، فألقى عليها الحصار غير أنـــه اضطر بعد شهرين من محاصرتها إلى رفع الحصار عنـــها، والتوجـــه صـــوب (سنجار) والاستيلاء عليها في اليوم الثاني من رمضان عام (٥٧٨ هـ)، وفـــي هذه الأثناء تواترت الأنباء بأن الإفرنج يستعدون لنهب جنوبي ســـورية، ولكـــن السلطان لم يعر هذه الأنباء أية التفاتة أو أهميـــة، قـــائلاً: إن الإفرنـــج هنـــالك

يستولون على القرى، ونحن هنا يمكننا أن نستولي على المــدن والبنــادر، ثــم نسترد منهم جميع ما امتلكوه من البلاد الصغيرة حين عودتنا إلى تلك الجهات.

والواقع أن جل غرض السلطان كان منصباً على توكيــد اتحــاد الأمــراء المسلمين وتأمين خضوعهم لقيادته ليضمن بذلك تأليب جميع قوى الإسلام ضــد الإفرنج واستعادة القدس إلى حظيرة الإسلام. ولهذا كان يفضل تســوية مســألة البلاد الجزرية أولاً وقبل كل شيء، ولقد توجه السلطان بعــد اســتيلائه علــى (سنجار) شطر قلعة (آمد) (ديار بكر) تلك القلعة العظيمة الحصينــة، فاســتولى عليها، بعد أن طوقها وألقى عليها الحصار ثمانية أيام.

وتواترت الأنباء وقتذاك بأن (عماد الدين) حاكم حلب، قد مد يــده للإفرنــج واتفق معهم على مناوأة السلطان. وأنهم يبيتون الهجوم علــى بــلاده، فســارع السلطان إلى اجتياز الفرات على الفور لإفساد خططــهم، وفــي طريقــه إليــهم استولى على «عينتاب» وكان ذلك في اليوم السادس عشر من محرم عــام (٥٧٩ هــ) ثم يمم شطر «حلب» فطوقها وألقى عليها حصاراً منيعاً، ولما أيقن «عمــاد الدين» بألا قبل له في هذه المرة بمقاومة السلطان والوقوف في وجهــه، أبــدى ميلاً واضحاً لعقد الصلح، عارضاً على السلطان مبادلة «حلب» «بسنجار» ومــا يتبعها من البلدان وهي «نصيبين والخابور والرقة وسروج».

فقبل السلطان هذا العرض في اليوم السابع عشر من عام (٥٧٩ هــ) (١٩ حزيران ١١٨٣ م)، ودخل «حلب» ظافراً يحدوه النصر، وقابله أهلوها بــالفرح والسرور والترحاب، دون سفك دماء.

وكان قد جاءه أثناء ضربه الحصار على (حلب) نبأ وفاة أخيه (مجد الديــن بوري) فتأثر على وفاته بالغ التأثر، واشتد به الحزن، وأخذ منه الألم كل مــأخذ. وقد أرسل (محي الدين بن الزكي) قاضي الشام؛ قصيدة عصماء يمتــدح فيــها السلطان، ويشير إلى فتوحاته مطلعها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر   مبشر بفتوح القدس في رجب

ولا شك أن فتح «حلب» وضمها إلى قائمة البلدان السلطانية، كــان نصــراً للسلطان مؤزراً حيث أعلى من قدره وعظيم شهرته، بل وجعله هذا الفتح المبيــن في طليعة عظماء الإسلام وأمرائه طراً، فقد دانت له جميع البلاد الجزريــة مــا عدا (الموصل) حتى (الرملة) بفلسطين، ومنها حتى طرابلس الغرب ثم اليمــن،

وكان أمراء تلك البلاد جميعها يأتمرون بأمره وينفذون طوعاً أحكامه وينتـــهون بنواهيه ولم يعد يشغل بال السلطان ويسيطر على أفكاره سوى فكـــرة استرداد (القدس)، وطرد الإفرنج من كافة البلاد الإسلامية.

ولقد غادر السلطان مدينة (حلب) في الثالث من جمادى الأولى مـــن عـام (٥٧٩ هـــ) وكان الإفرنج حينذاك، قد انتهزوا فرصة وفاة (عز الدين فرخشـــاه) نائب السلطان في دمشق وأغاروا على البلاد السلطانية، حتى وصلوا قرى الشـام وأخذوا يخربون ويدمرون وينهبون ويسلبون. وحدث ذلك في الوقت الذي كـــان أمير الكرك الإفرنجي ممعناً هو الآخر في شن الغارات على البـــلاد الإســـلامية حتى وصل إلى أطراف المدينة المنورة ولم يكن بينه وبين اقتحامـــها إلا مـــدى يسير، لولا وصول الأمير (لؤلؤ) في الوقت المناسب لإنقاذ المدينة من المغيرين، فاشتبك معهم في حرب ضروس طاحنة، غلبهم فيها على أمرهم، وردهم علـــى أعقابهم خائبين، مدحورين، بعد أن أسر منهم الجم الغفير.

ولا ريب أن هذه الحوادث قد أثرت في أفكار واتجاهات السلطان تأثيراً بعيـد المدى. فوطن نفسه للانتقام من الإفرنج شر انتقام، فعـــبر نـــهر الأردن بجيـش عرمرم. وما أن وصل (بيسان) حتى أحرقها، ثم التحم بالعدو شمالي (العفولـــة) ولكن العدو ما لبث أن ولى الأدبار، ولم يجسر على الاشتباك بجيشه الضخم فـــي القتال. وقد عاد إلى ناحية (الصفورية).

وعلى أثر ذلك نظم السلطان صفوفه وواصل الزحف حتى وصل إلى الكرك وحاصرها حصاراً منيعاً وضيق الخناق عليها ولكن القلعة الحصينة قد امتنعـــت عليه، ولم يفده حصاره، ولكن اليأس لم يجد إلى نفسه سبيلاً فأعاد الكـــرة وعـــاد إليها بعد عام ولم ينل منها أيضاً[١].

---

[١]- نشرت بحلة (كل شيء) المصرية في العدد ٢٩٦ الصادر بتاريخ ١١ يوليو سنة ١٩٣١ تحت عنـــوان (صـــلاح الدين والأميرة الإفرنجية) قصة تدور حول محاصرة الكرك ملخصها:

«في عام (٥٧٩ هـــ) ألقى السلطان صلاح الدين الحصار على قلعة الكرك وفي هذه الأثناء كان (همفروي) الرابـــع (كونت دي تورون) قد عقد زواجه على كريمة الكونت (رينو دي شاتليون) وكانت الاستعدادات تجري في أحـــد أبراج القلعة توطئة للاحتفال بالزواج فأوفدت والدة العريس وهي الأميرة (إيتانات) هيئة من كبار قومها حـــاملين هدايا فاخرة إلى السلطان صلاح الدين، ورسالة منها إليه ترجوه فيها ألا يطوق البرج الذي يقام فيه الاحتفـــال في الليلة المعلومة وأن يتقبل المسلمون هدايا العرس بقبول حسن ثم تخاطب السلطان فتقول «أتذكر حينما كنت أســيراً في قصرنا ما كنا نحوطك به من التجلة والإكرام، وتيسير أسباب الراحة لك، والعناية بك؟ فتقديراً لهذه الذكريـــات

وإثر هذه الحوادث طلب الإفرنج جميعاً الصلح والمهادنة من السلطان لمدة أربع سنوات، فقبل السلطان طلبتهم، وعاد إلى الشام. وفي هذه الأثناء رغب حاكم الموصل ــ بعد موافقة الخليفة العباسي ــ في عقد صلح مع السلطان وإزالة ما بينهما من جفوة وشقاق، فأرسل إليه وفداً مؤلفاً من (القاضي بهاء الدين بن شداد) الذي كان مقرباً من السلطان ومكرماً لديه، ومن (صدر الدين شيخ الشيوخ)، بيد أن السلطان لم ير من مصلحته، في شيء، قبول عروض الصلح مؤثراً إعمال السيف وإثارة الحرب، ولهذا جهز جيشاً توجه به صوب الموصل، وألقى الحصار عليها في عام (٥٨١ هـ)، وأوفد إليه حاكم الموصل في هذه المرة والدته وهي كريمة عمه المغفور له السلطان (نور الدين)، أملاً في موافقة السلطان على عقد الصلح إكراماً لوفادتها، ولكن الموفدة قد عادت بخفي حنين.

ولما جاءت الأنباء بقيام اضطرابات ونشوب قلاقل وفتن في أنحاء (خلاط) رفع الحصار عن الموصل، وتوجه صوب (ميافارقين) فاستولى عليها في ربيع الآخر عام (٥٨١ هـ) ثم عاد إلى محاصرة الموصل واستمر حصاره لها حتى انتابه مرض عضال، وألح عليه المرض واشتدت به العلة، فاضطر للعودة إلى «حران» ليمضي فيها بعض الوقت، وقد قابله في طريقه إليها مندوب آخر من قبل حاكم الموصل، ليعرض عليه شروطاً ملائمة للصلح؛ منها الخطبة وضرب النقود باسم السلطان مع التنازل له عن بعض البلاد؛ غير أن المرض، الذي لا يرحم، قد اشتد على السلطان لدرجة أن بلغ ببعضهم اليأس في شفائه، وأوصى السلطان باللازم وما يتبع، ولكن حدثت المعجزة إذ لم يمض على ذلك طويل وقت حتى خفت وطأة المرض وأخذ يتماثل للشفاء في أواخر ذي القعدة عام (٥٨١ هـ) وقد وصل وقتذاك إلى (حران) القاضي ابن شداد وعرض على مسامع السلطان ــ باسم حاكم الموصل ــ شروط الصلح، فقبلها السلطان وهي تقضي بالاعتراف بالسلطان حاكماً على شمال الجزيرة، وشطر من كردستان (أرمينية) وعلى أثر ذلك، عاد السلطان من حران إلى حمص وهنالك لبث فترة من الزمن، ثم عاد إلى الشام حيث وصلها في المحرم من عام (٥٨٢) للهجرة.

الصادقة، أرجو ألا ينقلب فرح ابني إلى ما يكدر الصفو» ــ فبناء على هذا يكون السلطان قد أسر في وقت ما وأنه كان مقيماً في إساره لدى (همفروا). (المؤلف) ــ (المصادر الإسلامية لا تعرف مثل هذه الروايات والقصص ــ المترجم).

(١٠) السلطان صلاح الدين والصليبيون

لما استتب الأمر للسلطان صلاح الدين، أو بمعنى آخر بعد أن انتهى من تدبير شؤون الشام والجزيرة، وقضى على أسباب الفرقة والشقاق التي كانت مستحكمة الحلقات بين أمراء تلك البلاد وحكامها حيث أخضعهم جميعاً لأمره وتسنى له بفضل ذلك أن يضم شمل القوى المتنازعة، ويجمعها حول فكرة موحدة، وهدف واحد ألا وهو «ضرورة فتح القدس وطرد الصليبيين من البلاد الإسلامية جمعاء».

وهكذا أقدم بكل جرأة وعزم من حديد على إعلان الجهاد المقدس ضد الإفرنج. وكانت الظروف مواتية له ومساعدة من ناحية الإفرنج أنفسهم إذ كان أمراؤهم وقوادهم في فلسطين متنابذين متناحرين وعلى الخلاف مع بعضهم البعض مواظبين، ولا سيما بعد وفاة (بلدوين الرابع) حيث تزعزعت أركان الحكم، واختل النظام بينهم، وقام (رياموند) حاكم طرابلس بتصريف شؤون الحكم ــ بالنيابة ــ فترة من الزمن، ولما تزوجت (سيبيل) أخت الملك المتوفى بأمير يدعى (جوي) ثم توجت بدل أخيها، أقدم زوجها الأمير (جوي) على حشد جيش ضخم؛ وزحف به على (رياموند) الذي كان وقتذاك في (طبرية) فاضطر (رياموند) إلى طلب النجدة من السلطان، إلا أن السلطان قد آثر التريث ولم يسرع بموافاته بما طلب منه من نجدة إذ لم يكن راغباً في أن يكون هو البادىء بنقض شروط المعاهدة القائمة، ولكن الذي أقدم على نقض الشروط في هذه المرة أيضاً هو أمير من أمراء الإفرنج وهو (رينولد) حاكم الكرك، وكان ذلك في عام (٥٨٢) للهجرة حيث كانت قافلة إسلامية مارة على مقربة من الكرك فهاجمها الإفرنج، وسلبوها، وأسروا من يصطحب القافلة من رجال ونساء... وجاء في رواية أن أخت السلطان كانت ضمن الأسرى أيضاً.. ولم يكتف (رينولد) بارتكاب هذا الحادث، بل بدر منه الكثير مما يعتبر ماساً بشعائر الدين الإسلامي وكرامة المسلمين. ولما ترامى نبأ هذه الحوادث المثيرة إلى مسامع السلطان، استشاط غضباً، وغلى الدم في عروقه، وأقسم الإيمان المغلظة بأنه إذا قيض له أن يقبض على (رينولد) فإنه سيتولى بنفسه وبيده قتله، جزاء وفاقاً لعمله المنكر.

وقد أعلن السلطان الجهاد العام، واتخذ التدابير اللازمة للمحافظة على طريق الحاج وتأمينه، ثم أقام معسكره في «قصر السلامة» على مقربة من

«بصرى» وما هي إلا فترة وجيزة حتى وصل الجيش من مصر وعسكر إلى جانبه، وفي هذه الآونة تواترت الأنباء بأن ابنه الملك (الأفضل علي) قد عقد له لواء النصر على جيش للإفرنج في جهة «عكا» وألحق بهم هزيمة منكرة، وخسراناً مبيناً.

وأخيراً، وبعد نزاع طال أمده، تصالح «رياموند» مع إخوانه الإفرنج وأزال ما كان بينه وبينهم من فرقة وجفوة فقوي جانب الإفرنج وأضحوا ــ كما كانوا قبلاً ــ كتلة موحدة متراصة. وإزاء ذلك، عقد السلطان مجلس حرب للتشاور فيما يجب اتباعه بصدد الحالة الحربية الراهنة، وموقف الإفرنج العدائي من المسلمين، وبعد المناقشة استقر رأي المجلس على شن حرب لا هوادة فيها على الإفرنج.

وفي يوم الخميس ١٦ ربيع الأول من عام (٥٨٣ هـ) تحركت جحافل الجيوش الإسلامية فعبرت نهر الأردن في جنوبي «الطبرية» يوم الجمعة، ثم تقدمت قوة إلى الأمام مستطلعة أنباء العدو الذي كان معسكراً في المكان المسمى «صمورية»، ثم ترك السلطان قوة عسكرية أمام العدو، لمناوشته وشغله، وعاد هو ببقية الجيش إلى «الطبرية»، واستولى عليها؛ غير أن أهل «رياموند» قد تمكنوا من اللجوء إلى القلعة بأموالهم ونسائهم، وطلبوا النجدة من الملك (جوي). وبعد أن طال أمد المفاوضات والمشاورات بين الحكام الإفرنج استقر رأيهم بالإجماع على محاربة السلطان، ثم عمدوا إلى قطع المياه عن جيوش السلطان، ولكن تدبيرهم هذا قد ذهب سدى، لأن السلطان كان قد سبقهم واتخذ تدابير فعالة تحول دون وصول الأعداء إلى أغراضهم، بل المدهش أنه قد حدث العكس وظل الأعداء محرومين من المياه في أيام اشتد فيها القيظ وحمي وطيس القتال، فلم يجدوا مندوحة من الرجوع إلى معسكراتهم خائبين مدحورين. وفي غداة ذلك اليوم شن الجيش الإسلامي حملة قاسية وهجوماً عنيفاً على الجيوش الإفرنجية، فأذاقها مرارة الحرب والقتال علاوة على ما ولده فيها العطش والجوع من الخور والضعف وأسفر القتال عن هزيمة الإفرنج واندحارهم. ويعتبر اليوم السادس بعد العشرين من ربيع الآخر من عام (٥٨٣) للهجرة، يوم انهيار أساس ودعائم السلطة الإفرنجية بفلسطين حيث وقع في الأسر كل من الملك (جوي)، وأمير الكرك، وأخي الملك، وأمراء آخرين وغيرهم كثيرين من كبار الإفرنج...

وكان من بين الغنائم الكثيرة التي استحوذ عليها المسلمون، خشبة الصليب المقدس.

والذي لا يتطرق إليه الشك أن هذه الهزيمة كانت منكرة بل وقاصمة، فلم يصب بمثلها الإفرنج منذ وطئت أقدامهم أراضي البلاد الشرقية. وقد أقيم سرادق فاخر ــ على أثر إلحاق الهزيمة بالإفرنج ــ للسلطان، حيث جلس في صدره ومن حوله بضعة من قواده وكبار الأعيان، ثم قدم إليه الأسرى يتقدمهم الملك (جوي)، وأمير الكرك المشهور. وما أن استقر المقام بالملك (جوي) حتى طلب ماء جيء به إليه فسارع إلى شربه وبعد أن تناول جرعة منه، ناوله إلى أمير الكرك، ولكن السلطان منعه من ذلك قائلاً: «نحن لم نعطه هذا الماء حتى يأمن من انتقامنا منه» ثم استرسل في سرد وتبيان ما ارتكبه أمير الكرك من المظالم والقسوة ضد المسلمين، وما ألحق بالحجاج المسلمين من الأذى وما وجه إليهم من إهانات... ثم انفرد السلطان قائماً وضرب عنقه بنفسه وبذلك بر بيمينه وتأثر الملك (جوي) بهذا الحادث، وتملكه الذعر والخوف على نفسه، إلا أن السلطان قد بعث في نفسه الطمأنينة، وأزال ما انتابه من خوف وذعر، ثم أكرم وفادته، وأمر بتقديم المساعدات والتسهيلات الضرورية له ولجميع الأسرى الآخرين وبترحيلهم إلى الشام بكل تجلة وإكرام، ما عدا مائتي أسير أمر السلطان بقتلهم جميعاً، لما سبق أن أظهروه من قسوة وارتكبوه من مظالم حيال المسلمين.

وبعد فترة من الزمن زحف السلطان على قلعة (الطبرية)، فاضطرت زوجة (رياموند) اللاجئة إليها، إلى تسليمه القلعة، ثم واصل السلطان الزحف حيث توجه صوب ما تبقى من بلاد فلسطين ودخلها الواحدة تلو الأخرى، فاتحاً غازياً، وكان كلما طرق أبواب بلدة سارع أهلوها بتسليمها إليه، ولم يكن بها من الحاميات إلا عدد قليل، وكان السلطان يعامل الأهالي من غير ما فارق جنسي ولا ديني، وأحسن معاملة الجميع دون استثناء مما حببه إليهم عامة.

وبعد أن تم له الاستيلاء على (الطبرية) واصل الزحف على (عكا) التي استماتت حاميتها في الدفاع عنها، بادىء الأمر، ولكنها عادت واستسلمت أخيراً ورضخت للصلح، وسمح السلطان لأهليها بمغادرة البلدة، فدخلها جيش المسلمين في اليوم الثاني من جمادى الأولى (٥٨٣ هـ)، وأدوا صلاة الجمعة في الجامع الذي كان الإفرنج قد حولوه إلى كنيسة... وقد اغتنم المسلمون الكثير الطائل من الأموال من هذه القلعة.

ثم بعث السلطان إلى أخيه الملك العادل بمصر يبشره بالانتصار ويأمره بالإغارة على البلاد المتاخمة حتى الحدود المصرية، وتطهيرها من فلول الصليبيين فقام الملك العادل بالمهمة التي وكل إليه تنفيذها، فاستولى على حصن (مجدل يابا) ومدينة (يافا)، ووقع في قبضته الكثيرون من الإفرنج أسرى وكان السلطان قد أرسل بنفسه بعض سراياه من قلعة (عكا) إلى الأطراف، فاستولت هذه القوات على (الناصرة) و(قيسارية) و(حيفا) و(صفورية) و(الشقيف) و(الفوله) و(معليا) في حين استولت جيوش إسلامية أخرى على «نابلس» و«سبسطيه» وبها قبر زكريا، ومدن أخرى في تلك الجهات... ثم زحف السلطان بنفسه على قلعة «تبنين» التي كان قد أنفذ ابن أخيه (تقي الدين عمر) للاستيلاء عليها واستولى هو عليها، ثم عرج على «صيدا» فاحتلها دون سفك دماء، كما استولى على «بيروت» بعد قتال دام ثمانية أيام وأراد السلطان بعد ذلك الاستيلاء على (عسقلان) لأنها تقع على طريق مصر والبلاد الشامية، وتعتبر مفتاح القدس. ومن دواعي الأسف أن السلطان قد أهمل الاستيلاء على قلعة «صور» حينذاك حيث كان يجتمع فيها رويداً رويداً فلول الصليبيين المهزومة، غير أنهم كانوا يفتقرون إلى زعيم يلتفون حوله، ويأتمرون بأمره، فكان الاستيلاء عليها في غاية السهولة. إلا أن السلطان لأسباب نجهلها لم يبد اهتمامه بها حينذاك، فأحجم عن الاستيلاء عليها في هذا الظرف المواتي.

وهكذا أصبحت هذه القلعة فيما بعد أهم مركز عسكري حصين للنصارى، حيث قدم المركيز (كونارد) عن طريق القسطنطينية بجنود كثيرين، وعتاد ضخم، واعتصم بهذه القلعة، ونظم بها خطط الدفاع عن البقية الباقية من أملاك الصليبيين في تلك البقاع، وسميت هذه الحملة بالحملة الصليبية الثالثة التي جرت الكثير من الويلات والمصائب على المسلمين.

ولا شك أن هذا الإهمال اليسير لمن أكبر أخطاء السلطان السياسية والعسكرية، لأن أهالي (صور) كانوا يطلبون الصلح ويعرضون التسليم بلا قيد ولا شرط، ولكن ما لبثوا أن تراجعوا وغيروا رأيهم إثر وصول (كونارد) هذا، وقد أراد السلطان أن يستعين بوالد (كونارد) الذي كان أسيراً لديه في دمشق على تسليم (صور) ومنع أهليها في الدفاع عنها ولكنه أخفق فيما أراد. وذهبت مساعيه في هذا الصدد أدراج الرياح. وقد توجه السلطان بعد ذلك إلى (عسقلان)

وحاصرها أربعة عشر يوماً، بذل في أثنائها مجهوداً جباراً أملاً في الاستيلاء عليها بطريق سلمي، بوساطة الملك (جوي) ولكن دون جدوى... فاضطر في آخر جمادى الثانية للقيام بهجوم عنيف على القلعة واضطر المدافعين إلى التسليم بشروط... وأعقب ذلك استيلاؤه على غزة والرملة وخليل الرحمن وبيت لحم، وبيت جبريل وبضعة بلدان أخرى.

وقد أتم السلطان هذه الفتوحات العظيمة في مدة لا تزيد على شهرين على التحديد؛ الأمر الذي لم يتيسر لأحد من السلاطين قبله في سنين. وقد أدى ذلك كله إلى فتح الطرق إلى القدس الشريف من كل الجهات أمام المسلمين. ونظراً لأن السلطان كان يقدر قيمة هذه المدينة المقدسة في نظر المسلمين والنصارى على السواء، ويعرفها حق المعرفة، فلم يرد ـ رحمه الله ـ الإقدام في بادئ الأمر على محاولة الاستيلاء عليها عنوة، بالوسائل العسكرة المدمرة، فأوفد رسلاً من قبله إلى أهالي القدس وأولي الأمر فيها كي يسلموا المدينة بطريقة سلمية حقناً للدماء، ولكن الإفرنج قد ركبوا رؤوسهم، ورفضوا قبول الصلح؛ كما أبوا التسليم بطريقة سلمية، وسبب ذلك هو أن (بلبان)[1] حاكم الرملة سابقاً والذي وقع أسيراً في قبضة السلطان في معركة (حطين)، كان قد طلب إلى السلطان السماح له بقضاء ليلة واحدة في القدس، ثم يعود بعدها مستصحباً معه أسرته المقيمة في القدس. فسمح له السلطان وأجابه إلى طلبته، واعتماداً على شرفه العسكري، إلا أن هذا القائد العديم الشرف قد أخلف وعده، وتخلف في القدس ليقود ويترأس حاميتها، وينظم الدفاع عنها.. وقد تسنى له حشد ستين ألفاً من الجنود وتجهيزهم أتم تجهيز بفضل الأموال الطائلة مما هو مدخر في خزائن الكنائس وغيرها، والتي وضعها مطران القدس تحت أمره ورهن إشارته للإنفاق منها على شؤون الدفاع.

ولما وصلت الأنباء الأكيدة عن هذه الاستعدادات الهائلة إلى السلطان صلاح الدين، توجه على الفور بجنوده صوب القدس، فوصلها في الخامس عشر من شهر رجب من عام (٥٨٣ هـ)، وضرب نطاق الحصار حولها. وبعد أن أمعن النظر في المراكز الحربية وفحصها فحصاً دقيقاً طيلة أيام خمسة كاملة تراءى

---

[1]- في ابن الأثير (ج١٢ - ص ٢٢٣) باليان بن بيرزان صاحب الرملة ومرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك ـ المترجم.

له صلاحية الجهة الشمالية من المدينة للقيام منها بالهجوم العـــام، فنقــل إليـــها معسكره على الفور، واتخذ (جبل الزيتون) مركزاً لقيادته. وأخذ يضيق الحصــار على المدينة من هنالك ثم بدأت الجيوش الإسلامية تتقدم شيئاً فشيئاً، وتجتاز مـــا في طريقها من العقبات والعراقيل التي كانت تحوط المدينة ولـــم يلبــث سـكان المدينة أن اشتد بهم الضيق، فاضطر المدافعون من الإفرنج إلى طلب الصلـــح، والأمان.. وبعد مفاوضات طويلة شاقة بين الطرفين، تم الاتفاق على أن يغـــادر الإفرنج المدينة والقلعة في خلال أربعين يوماً، نظير دفع كل واحد من الرجـــال عشرة دنانير، وكل واحدة من النساء خمسة دنانير، وعن كل طفل دينارين فديـــة لنجاتهم وسلامتهم من الهلاك.

وهكذا سلمت المدينة لصلاح الدين وبدأ خروج أهاليها وحاميتها منـــذ يـــوم الجمعة السابع بعد العشرين رجب من عام (٥٨٣ هـــ) وبذلـــك تحققـت نبـــوءة (محي الدين) قاضي الشام حين فتح حلب حيث قال إن القدس أيضاً ستفتح فـــي شهر رجب كما فتحت (حلب) فيه[١].

وقد استدعى السلطان هذا القاضي لمقابلته، وكلفه بإلقاء خطبة الجمعة فـــي القدس يوم فتحها، وكان عدد المصلين في ذلك اليوم كبيراً لدرجـــة أن المســـجد الأقصى قد ضاق بهم على سعته، وكانت الفدية التي فرضها (صلاح الدين) على حامية القدس من الإفرنج قد اختص بها الإفرنج وأتباعهم دون غـــيرهم، لأنـــه سمح للنصارى المحليين بأن يلبثوا في القدس كسائر النصارى الذميين، خاضعين لأحكام الشريعة الإسلامية، ولم يدخل السلطان المدينة إلا بعد أن غادرها قـــواد وزعماء الجيش الصليبي، وما أن وطأت قدماه أرض المدينة حتى أصدر عفـــواً عن سبعة آلاف من أولئك الذين عجزوا عن دفع الفدية من الإفرنج، وذلك تلبيـــة وتحقيقاً لرجاء أخيه الملك العادل (أبي بكر محمد) ثم أصدر عفـــواً آخـــر عـــن عشرة آلاف آخرين حين تحقق عجزهم عن دفع الفدية ولم يكتف بهذا، بل إنه قد أباح يوماً كاملاً لخروج الفقراء من ذكور وإناث دون أن يطالبوا بدفـــع الفديـــة، كما أذن للقسس والموظفين الدينيين، بأن يحملوا معهم ما يلزمهم من الأمتعة.

---

[١] - قال لي المرحوم إبراهيم أفندي الحيدري إن القاضي محي الدين جعل البيت الآتي مقدمة لخطبة الجمعة التي ألقيـــت يوم الفتح في المسجد الأقصى:

الحمد لله ذلت دولة الصلبي وعز بالكرد دين المصطفى العربي المؤلف.

وخلاصة القول إن السلطان قد أظهر في فتح القدس من آيات العدل ومظاهر الرحمة والعطف، ما قد فاق وتجاوز ما يتصوره العقل، وهذا أمر متفق عليه ويعترف به المؤلفون والمؤرخون الإفرنج ويدهشون له، إذ كان السلطان يكرم مثوى الضعفاء والعاجزين، ويحترم النساء، ويقدم لهن كافة التسهيلات وأجل الخدمات، وقد أثر عنه أنه أكرم وفادة الملكة (سيبيل) وحقق رجاءهم إذ أرسلها إلى زوجها الملك (جوي) الذي كان أسيراً في نابلس كما أنه أجاب طلب الكثيرات من الأمهات والزوجات اللائي مررن أمامه باكيات مولولات بإطلاق سراح أبنائهن وأزواجهن من الأسر.

ولا يخفى أن هذه المعاملة الشريفة السامية التي عامل بها (صلاح الدين) إفرنج القدس وفلسطين، كان على العكس تماماً من تلك المعاملة القاسية التي عامل بها هؤلاء الإفرنج المسلمين لأن (جود فري) حينما استولى على القدس سنة (٤٩٢ هـ ــ ١٠٩٩ م)، قد ارتكب ما يندى له جبين التاريخ من الفظائع والأهوال مع المسلمين الآمنين، إذ قتل منهم سبعين ألفاً من الرجال والنساء على التحديد.. وهذه حقيقة ثابتة لا يمكن أن ينكرها المؤرخون المسيحيون، بل إنهم قد اعترفوا بها بكل جلاء وصراحة.. ولبث صلاح الدين في القدس قرابة شهر نظم خلاله بعض أمورها، فعمر الجوامع والمؤسسات الإسلامية وأعاد إليها بهاءها ورونقها من جديد؛ وأنشأ المدارس والمعاهد وأجرى عليها ما يكفيها من الصدقات الجارية والأوقاف الثابتة، ثم توجه على رأس جيشه الظافر إلى (صور) حيث كان أسطوله قد توجه من مصر صوب ميناء هذه القلعة بأمر منه، غير أن المركيز (كونارد) كان قد اغتنم الفرصة وحصن هذه القلعة تحصيناً قوياً، ولهذا لم تكلل بالنجاح جميع الجهود التي بذلها السلطان لاقتحام هذه القلعة والاستيلاء عليها عنوة من البر والبحر. وكان الشتاء قد أقبل ببرده القارس، فانصاع السلطان لنصيحة بعض الأمراء والقواد ورفع الحصار وعاد بالجيش حيث أخلدوا إلى الراحة.

ولكن السلطان ما لبث أن عض بنان الندم حيث لم يكن هؤلاء الأمراء في بادىء الأمر قد عرفوا أهمية هذه القلعة وما لها من قيمة حربية. مثل ما كان يعلم السلطان، فكان من الواجب إذن الاستيلاء على هذه القلعة الوحيدة الباقية في قبضة الصليبيين بأي وسيلة كانت ليطهروا البلدان الفلسطينية منهم تمام التطهير.

وقد كتب الفوز للسلطان، في هذه الحروب، حيث استولى علـــى (المرقــب والجبلة، واللاذقية؛ وصهيون) وغيرها من القلاع والمدن ثم عاد عـــن طريــق حلب إلى دمشق الشام وصرف عامة جيوشه للراحة والاســتجمام وتوجــه هــو بخاصة عسكره خلال الشتاء إلى (صفد) و(كوكب) فاستولى عليهما.

وفي نفس الوقت جاءت الأنباء تترى بأن أخاه (الملك العادل) قــد اســتولى على قلعة (الكرك) الشهيرة.

نعم! إن السلطان قد تمكن من انتزاع جميع قلاع سورية وفلسطين ومدنــهما من براثن الإفرنج ما عدا قلعة صور ذات الأهمية، والتي أدى بقاؤها في قبضــة الإفرنج إلى تهديد المسلمين بخطر شديد، ولا سيما أن التعصب الأوروبي كـــان قد بلغ منتهاه من الشدة وقتذاك، وكانت جموع الصليبيين، من الحملة الثالثة، قــد أخذت تتدفق كالسيل الجارف على فلسطين، وتعتصم بقلعة «الصور» الأمـــر الذي أدى إلى تغيير موقف السلطان من خطة الهجوم إلى خطة الدفاع ابتداءاً من عام (٥٨٥ هـ).

وقد حشد (كونارد) قائد قلعة الصور، قوة عسكرية هائلة في هـــذه القلعــة، ودلت كافة القرائن وجميع الدلائل على أن هذه القوى آخذة في الزحـــف علــى البلاد الإسلامية، حيث صارت فيما بعد مقدمة لأكبر نكبـــة حـــاقت بالإســـلام. وتفصيل ذلك، أن الملك (جوى) قد حشد – على خلاف ما أعطى على نفسه مــن العهود والمواثيق – جيوشاً حافلة وكثيرة في طرابلس وكان يتلقى بين آن وآخر نجدات وإمدادات كبيرة عن طريق البحر من الإفرنج.

ولم يقف السلطان إزاء ذلك مكتوف اليدين، بل أخذ بدوره في إعداد جيـــش لملاقاة خصومه في (مرج عيون = مرجعيون) هذا من ناحية ومن ناحية أخــرى ضرب نطاق الحصار على قلعة (شقيف أرنون). ولما جاءته الأنباء بأن الإفرنــج قد ضيقوا الحصار على (عكا) ترك فريقاً من جيشه ملقياً الحصار على الشــقيف وتوجه بالأغلبية العظمى من جيشه لرفع الحصار عن عكا. وكان المحاصر لـــها من الإفرنج هو الملك جوي وقد دام هذا الحصار عامين كاملين، وكان الســـبب في طول مدة الحصار هو تلقي الإفرنج النجدات تلو النجدات، واشترك (كونـارد) أيضاً في هذا الحصار.

ولو أن صلاح الدين قد أبدى اهتماماً بحصار «عكا» من بادئ الأمر ووجــه ضربة قاضية إلى المحاصرين قبل تزايد عددهم واشتد ساعدهم، وقبل وصـــول

(كونارد) لنجدتهم، لما طال الحصار إلى هذا الحد، ولما طمع الإفرنج في الاستيلاء على القدس مرة أخرى. بل الذي حدث هو العكس، إذ أن السلطان قد اهتم بادئ ذي بدئ بقلعة الشقيف وترك الفرصة للملك (جوى) كي يحشد قواته ويزيدها يوماً فيوماً. وما أن وصل السلطان صلاح الدين إلى عكا، ورأى الإفرنج منهمكين في تضييق الحصار، حتى بادر إلى مناوشتهم وسبر غورهم، وإن هي إلا بضعة أيام حتى سنحت له الفرصة للقيام بهجوم مباغت عنيف في إحدى نواحي (عكا) واقتحمت قوات كبيرة البلدة تحت قيادة ابن أخيه الأمير (تقي الدين عمر بن شاهنشاه)، وفتحت الطريق لإيصال النجدات والعتاد.

ويقول (ستانلى) إن السلطان قد تمكن بنفسه من دخول (عكا) في أصيل اليوم الثاني من شعبان عام (٥٨٥ هـ): ونصب الأمير (حسام الدين السمين) حاكماً للقلعة وقائداً عليها. ولما أرخى الليل سدوله عادت القوات الإسلامية إلى معسكرها خارج القلعة، فانتهز الإفرنج الفرصة وأقاموا تحصينات هائلة في الجهات والمراكز الملائمة. ولا سيما ذلك الطريق الذي كان السلطان وجنوده قد افتتحوه نهاراً بكل مشقة فقد أغلقه الإفرنج في وجوههم وهكذا ذهبت جميع جهود السلطان وجنوده في هذا اليوم هباء وضاعت سدى ولقد تجاسر العدو بعد ذلك فقام في الخامس من رمضان عام (٥٨٥ هـ) ـ علاوة على تضييقه الحصار ـ بهجوم شامل وعام على جيوش الإسلام فشتتها، وأبعدها عن أطراف (عكا)، وحدث ذلك في الوقت الذي كانت فيه كافة قوات الإسلام موزعة ومبعثرة في جهات عدة... فكان فريق منها مضطراً للوقوف أمام (أنطاكية) ليرصد حركات أميرها (بوئمند= بيمند) وفريق آخر يقوم على حراسة (دمشق) مما عسى أن تقوم به الحاميات الإفرنجية بطرابلس الشام من حركات ضد المدينة، بينما كانت هنالك قوة أخرى كبيرة تسهر على حماية «دمياط» و«إسكندرية» من غزو الصليبيين المفاجئ لهما.

وهكذا أفضى هذا الانكسار الجزئي[1] من جهة، وحلول شهر رمضان وإصرار قواد الجيش الإسلامي على الرجوع وترك القتال، فترة من الزمن، من جهة أخرى، إلى اضطرار السلطان إلى الانسحاب والتراجع إلى الوراء حتى

[1] ـ كانت الغلبة والنصر في النهاية في جانب السلطان بحيث قتل من الصليبيين زهاء عشرة آلاف من الجنود والضباط والقواد. (تاريخ إسلام ص ٣٨١) ـ المؤلف.

(الخروبة) وترك (عكا) بمن فيها تحت رحمة القدر، وقد استاء صلاح الدين وحز في نفسه الألم من نشاط الإفرنج وشدة غيرتهم وحرصهم على مصالحهم في الوقت الذي ينفر فيه المسلمون من مواصلة القتال مفضلين عليها الراحة والإخلاد إلى السكينة، لأنه كان يقدر مغبة هذا الأمر تمام التقدير ويعلم بل ويتنبأ بمدى الأخطار المحدقة بالمسلمين، ولهذا أرسل كتبا إلى شتى البقاع الإسلامية يدعو فيها الملوك والأمراء والزعماء لنجدة الإسلام والمسلمين، وأمضى الشتاء في (الخروبة) دون القيام بأي عمل إلى أن تماثل للشفاء من المرض الذي ألم به، وقد اجتمعت حوله خلال ذلك الجيوش الإسلامية، فنهض على الفور وتوجه على تلك الجيوش الجرارة لملاقاة الإفرنج في اليوم السابع عشر من ربيع الأول من عام (٥٨٦ هـ)، فوصل (عكا) بعد سبعة أيام، وكان العدو قد ضيق الحصار على المحاصرين، وفي هذه الآونة كان الأسطول الإسلامي قد وصل من مصر ودخل مياه (عكا) واشتبك مع أسطول الإفرنج، في القتال، وألحق به هزيمة منكرة، وتمكن من دخول الميناء حيث استطاع إمداد المحاصرين بمعدات تمكنهم من مواصلة الدفاع.

وفي هذا الوقت بالذات، جاءت الأنباء تترى بأن (فردريك باربا روس) إمبراطور الألمان، قد دخل في صفوف الصليبيين الذين تحركوا قاصدين فلسطين وكانت طلائع الجيش الألماني قد وصلت إلى شمال بلاد قليقية (أطنه الحالية) فلم يسع السلطان أمام سيول الصليبيين المتدفقة الجارفة إلا الاستعانة بملوك المسلمين وحكامهم في أطراف الأرض ومشارقها ومغاربها، حتى أنه أرسل وفدا لسلطان مراكش (يعقوب المنصور) يطلب إليه مد المسلمين بالمعونة والمساعدة. ومما يؤسف له أن استصراخ السلطان هذا قد ذهب هباء ولم يجد آذانا صاغية، ولا قلوبا واعية، إذ لم يلب أحد منهم دعوته ونداءه.

وهكذا بقي بطل الإسلام وحامي حماه وحيدا منفردا أمام أعدائه الكثيرين مستعينا بالله وبقواته الخاصة.

ومن عجائب القدر أن إمبراطور الألمان الذي كان على رأس جيش لجب من جيوش الصليبيين قد لقي حتفه غريقا في أحد الأنهار[1] حين اجتيازه له في

[1]- هو نهر جيحان الذي يجري في كيليكيا (قليقية) ويقال له في كتب الجغرافيا الإسلامية القديمة نهر المصيصة ـ المترجم.

الحادي عشر من شهر حزيران (يونيو) عام (١١٩٠ م = ٥٨٦ هـ) مما أدى إلى عودة فريق من جيشه إلى بلاده، في حين توجه الفريق الآخر بقيادة نجله (دوق دوسوا بيادا) إلى فلسطين عن طريق أنطاكية.

وكانت جيوش الصليبيين قد انقسمت إلى شطرين، شطر يقوم بأعباء الحصار، وشطر وهو الأكبر قد خصص لمحاربة السلطان ومنازلته، وقد قام هذا الفريق من الصليبيين فعلا بمهاجمة السلطان في العشرين من جمادى الآخرة من عام (٥٨٦) للهجرة (٢٦ تموز سنة ١١٩٠ م) فتزعزع جيش السلطان واضطرب كيانه في، بادىء الأمر، ولحق به انكسار جزئي، وتشتت فريق منه حتى وصل إلى أبواب «دمشق» و«الطبرية» واقتحمت، بعض طلائع الإفرنج، معسكر السلطان، وهنا أخذت الحمية تدب في الجيوش الإسلامية فثبتت أمام العدو كالطود وكرت على جحافله كرة عنيفة فألحقت بها هزيمة منكرة. وهكذا دب دبيب الفزع والخوف بين صفوف العدو فولوا الأدبار ولاذوا بالفرار ومن ناحية أخرى كان المدافعون عن قلعة (عكا) قد تمكنوا، ببعض الوسائل، من إحراق الأبراج التي كان العدو قد أقامها لتضييق نطاق الحصار عليهم.

(١١) اتصال السلطان بالجيش الإنجليزي

في اليوم الثاني والعشرين من شهر جمادى الآخرة من عام (٥٨٦ هـ)، وصل جيش كبير من جيوش الصليبيين بقيادة الكونت (هنري) ابن أخت ملك الإنجليز إلى أبواب (عكا) وأقام معسكره خارجها، وأعد نفسه للقيام بهجوم عام على جيوش المسلمين.. هنالك فطن السلطان إلى عدم ملاءمة مستقره ومقامه لمنازلة العدو، فانسحب سراعاً إلى الخروبة، بيد أن هذا العمل من جانب السلطان قد قوى من عزائم الإفرنج، فأمعنوا في تشديد الحصار، ولكن محافظ القلعة وهو الأمير (حسام الدين) من ناحية، (وبهاء الدين قره قوش) قائد التحصينات والمهمات من ناحية أخرى، كانا يبذلان مع الأبطال من المدافعين جهود جبارة لصد هجمات العدو الشديدة.

وقد أتى المؤرخ (ميشو) على حسن بلاء هذين القائدين ثناء مستطاباً لما أظهراه من ضروب البطولة والبسالة أثناء الدفاع، لأنهما تمكنا من إحراق البرج السيار الذي كان يقذف حمماً على القلعة وأبراجها من قبل الإفرنج، وكانا

يخرجان بين الفينة والفينة إلى خارج القلعة ويقتحمان صفوف العدو ويضطرانها إلى تغيير قواعدها ومراكزها والتقهقر والتراجع إلى الوراء.

وقد أفضى ذلك إلى استماتة الكونت (هنري) في القتال، وتشديده الحصار، وتركيز كافة جهوده في هذا السبيل، وفي هذا الوقت كانت الذخيرة والميرة قد أخذت تنفذ من معسكري الطرفين ولا سيما لدى المحصورين في القلعة ولكن السلطان قد تمكن من جلب كمية طائلة من العتاد والأقوات من (بيروت) وإيصالها للمدافعين عن القلعة، ولما أيقن الصليبيون أن وسائل الحصار التي أقاموها غير كافية لإسقاط القلعة أمام بسالة المسلمين، واستماتتهم في الدفاع عنها. بعثوا برسلهم إلى أوروبا من جديد يستصرخون الملوك والزعماء والقسس وعلى رأسهم البابا، فأخذت القوات الصليبية تترى وتتدفق على (فلسطين) وتصل إلى أبواب قلعة (عكا) طيلة فترة الحصار.

وانتهز الكونت (هنري) الفرصة التي رآها سانحة للصليبيين فقام بهجوم عام على الجيوش الإسلامية واحتدم بين الفريقين وطيس القتال.. وكان السلطان وقتذاك مريضاً طريح الفراش لم يتمكن من الاشتراك والمساهمة في المعركة الناشبة، فجلس في خيمته يشاهد عن كثب معارك حرب ضروس طال أمدها، واشتد أوارها ثم أسفرت عن اندحار ذريع وخسران مبين للإفرنج، مما أدى إلى تقهقرهم وتراجعهم إلى قواعدهم ومراكزهم السابقة.

ويقول (السيد أمير علي الهندي) مؤلف تاريخ الإسلام المصور أنه لو كان السلطان هو الذي يدير بنفسه دفة القتال في هذا اليوم لانعقد لواء نصر مبين، ولسجل عمل حاسم لا مثيل له للمسلمين.

وفي تلك الأثناء كان الأسطول الإفرنجي بعيداً من «عكا» بسبب تغير حالة الجو في البحر. فاستغل المسلمون هذا الموقف، كما استغلوا فرصة النصر فاستبدلوا حامية «عكا» بحامية أخرى تحت قيادة الأمير (سيف الدين علي المشطوب)، ولكنها كانت أقل من الأولى عدداً، على خلاف رأي السلطان وهذا علاوة على عدم كفاية العتاد والسلاح لدى الحامية الجديدة، ويقول بعض المؤرخين إن سبب سقوط «عكا» في أيدي الإفرنج إنما يرجع إلى قلة عدد المدافعين عنها، وعدم رغبتهم الصادقة في القتال، وتدفق نجدات متوالية على الإفرنج، إذ وصل (فيليب أوجوست) ملك فرنسا في الثاني عشر من ربيع

الأول من عام (٥٨٧ هـ)، إلى أبواب «عكا» وجعل من جيوشه وسائر جيوش الصليبيين جبهة متحدة متراصة، مما أدى إلى تفوق قوة الإفرنج تفوقاً محسوساً على جيوش السلطان، فاضطر السلطان إلى طلب النجدة والمساعدة من الأمراء المسلمين الخاضعين لسلطانه.

وقد زاد الطين بلة وصول (ريتشارد قلب الأسد) ملك الإنجليز أيضاً إلى ميدان القتال، وهو الذي اشتهر في أوربا بقوته الخارقة وبسالته النادرة[١] وما لبث أن اشتد الحصار على (عكا) براً وبحراً، واستبسل المدافعون واستماتوا في القتال إلى حين، ولم يكن (صلاح الدين) قد تلقى نجدات بعد، ولذا لم يكن في مكنته حتى هذه الساعة القيام بهجوم على المحاصرين لتخفيف الضغط على المحصورين الذين كانوا قد أشرفوا على الفناء والاضمحلال بسبب قلة الأغذية، واستفحال وطأة الأمراض المنتشرة من جراء الجوع والعرى والفاقة، وسائر ويلات الحرب. وقد أمر السلطان في هذه الآونة بإرسال سفينة محملة بالأغذية من «بيروت» ولكن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن وجرت الأقدار على خلاف المبتغى، إذ اعترض سبيل السفينة جمع من قوات ملك الإنجليز، فما كان من قائدها إلا أن سارع بإغراقها خوفاً من وقوعها المحقق في أيدي العدو. وقد جاء هذا الحادث ضربة قاضية على آمال المدافعين في الثبات على الدفاع عن القلعة التي لبثت عامين كاملين تقاوم كافة الهجمات التي أحاطها بها الإفرنج من جميع الجهات. فمن غارات شعواء وقتال عنيف إلى اشتداد وطأة الأمراض الفتاكة إلى غير ذلك، ما كان له أكبر الأثر في إضعاف الروح المعنوية بين جوانح الجنود فاضطروا إلى طلب المعونة من السلطان وألحوا في الطلب، ولكن السلطان لم يكن في مكنته إجابتهم لقلة ما لديه من قوات.

ولما كانت الحالة تسير من سيء إلى أسوأ، فقد ذهب الأمير «سيف الدين علي المشطوب» قائد الحامية إلى ملك فرنسا وقال له: «إننا على استعداد لتسليمكم المدينة على شريطة أن تعاملونا كمثل المعاملة التي عاملناكم بها سابقاً» فرد (فيليب أوجوست) على هذا العرض المعقول بقوله: «لا أقبل قط بقاء أحد من حامية عكا وسكانها حياً على وجه الأرض» فاضطر القائد إلى العودة إلى

---

[١]- حينما وصل ملكا الإنجليز والفرنسيين إلى (عكا) كانا مريضين، فبعث إليهما السلطان بثلج وفاكهة من جبل لبنان. اهـ (تاريخ الإسلام المصور) ــ المؤلف.

قلعته يائساً حزيناً، وقاومت القلعة فترة أخرى ولكن بكل صعوبة، إلا أن الجوع والقحط قد أثرا في النهاية على المدافعين، فقرروا تسليم القلعة بشرط واحد، وهو المحافظة على أرواح المسلمين، وكان ذلك في اليوم السابع عشر من رجب عام (٥٨٧هـ) (١٢ تموز = يوليو ١١٩١ م) وكان الاتفاق يقضي بإطلاق سراح ألف وستمائة أسير صليبي لدى المسلمين ودفع مائتي ألف دينار لزعماء ورؤساء الصليبيين الذين لم يكترثوا بتنفيذ هذه الشروط، وداسوا بالأقدام على العهود والمواثيق، فأسكرتهم نشوة النصر والتعصب الممقوت وعرضوا سكان (عكا) عموماً إلى هلاك محقق حيث أعدوا لهم مذبحة دامية وأعمل فيهم ملك الإنجليز وجموعه السيوف التي خلفتها حامية القلعة عند باب من أبواب المدينة حتى أفناهم عن آخرهم في اليوم الثالث بعد العشرين من رجب، وهكذا أفضى الدفاع عن القلعة إلى التضحية بستين ألفاً من المسلمين في هذه المرة. وأخيراً كانت بذور الشقاق والخلاف قد أخذت تدب بين الصليبيين أنفسهم مع بعضهم البعض قبل الاستيلاء على (عكا) لأن العلاقات بين ملكي الإنجليز والفرنسيين كانت متوترة جداً، كما كان التنافس على أشده بين الملك (جوي) والمركيز (كونارد) حول تاج فلسطين، فكان الملك (فيليب) يعضد المركيز كونارد ويقف إلى جانبه، بينما كان الملك (ريتشارد) يحمي الملك جوي ويشد أزره، وحدث أن أبدى الملك (فيليب) امتعاضه وشديد استيائه من ملك الإنجليز نتيجة بعض تصرفات غير لائقة بدت له منه، فغادر فلسطين في اليوم السابع من رجب عام (٥٨٧ هـ) إلى أوروبا، ومن ناحية أخرى كان المركيز (كونارد) يفاوض السلطان سراً للاتفاق معه ضد ملك الإنجليز.

ولا شك في أن هذه الأمور قد حدت من سطوة الصليبيين وصولتهم، وقوت ساعد المسلمين وخففت عنهم لوعة ما نزل بهم من الكوارث والبلايا وقد توجه ملك الإنجليز صوب (يافا) بعد أن أمضى شهراً في عكا للراحة والاستجمام، ولكن جيشه لم ينج في الطريق من مهاجمة القوات الإسلامية له، حيث ألحقت به خسائر جسيمة فما كان من ملك الإنجليز ـ رداً على ذلك ـ إلا أن بادر إلى تحصين قلعة (يافا) تحصيناً منيعاً، وأضاف إلى ذلك بناء قلاع أخرى في السهول المحيطة بتلك القلعة ولكن الجيوش الإسلامية كانت له بالمرصاد فلم تكن تترك له الفرصة الكافية لإتمام تحصيناتها. ولقد احتدم الصدام بين الفريقين

المتنازعين إلى حد أن ملك الإنجليز نفسه قد تعرض للأسر والخطف مراراً وتكراراً.

وصفوة القول إن ملك الإنجليز لما أدرك ورأى ثبات السلطان ومضاء عزمه ورباطة جأشه وعزمه الأكيد على مواصلة القتال مهما كانت الظروف مع ما يتمتع به من الصفات الحربية النادرة، ومضاء العزيمة، أيقن أنه أمام خصم جبار لا يشق له غبار، وأنه لا يقاس بغيره من الخصوم. فآمن بأن مناوأته لمثل هذا الخصم العنيد ضرب من المحال وعبث لا طائل من ورائه، فلهذا وبسبب اعتزامه العودة إلى إنجلترا قد استقر رأيه على طلب الصلح من السلطان. وكان السلطان صلاح الدين على ما اتصف به من خلق متين، وجنان ثابت ومضاء عزيمة، طاهر القلب والنفس، رقيق الشعور مرهف الإحساس والعاطفة؛ فلهذا كان شديد التأثر لكثرة ما أصاب المسلمين من الويلات والمصائب والنكبات، وهذا ما حمله عن أن يأذن للملك العادل بالدخول في مفاوضات مع الملك (ريتشارد) لعقد الصلح. فاجتمع هذان العاهلان وتولى الترجمة بينهما (همفري دوتورن)... إلا أن المفاوضات لم تسفر عن اتفاق لعدم ملاءمة الشروط التي عرضها ملك الإنجليز لوضع حد لهذه الحروب الطاحنة الدامية.. ومع ذلك لم تتوقف المساعي لتحقيق هذا الهدف النبيل. والذي قام بالمسعى هذه المرة هو (ماركي دوفروا) وملك الإنجليز. وبعد أخذ ورد انتهى الملك العادل والملك ريتشارد إلى إقرار الشروط التالية:

(١) يتزوج الملك العادل أخت ملك الإنجليز على أن يترك له ملك الإنجليز جميع البلاد الساحلية التي تحت سلطانه كهدية للزواج.

(٢) يتنازل السلطان صلاح الدين عن البلاد التي فتحها وانتزعها من الصليبيين للملك العادل، على أن تكون مدينة القدس مشتركة وحرة بين المسلمين والنصارى تحت إدارة أخت ملك الإنجليز وقرينة الملك العادل.

ولقد قبل السلطان صلاح الدين هذه الشروط على مضض حيث لم يطمئن إليها، في حين رفضها رجال الدين من المسيحيين ولم يقبلوها، واعتبروا الملك ريتشارد وأخته خارجين على الدين المسيحي، ولهذا لم تنفذ شروط هذا الصلح البتة. والفائدة الوحيدة التي جناها صلاح الدين خلال فترة الصلح هذه وإبان المفاوضات والمخابرات، هي انتهازه الفرصة وإلحاقه الخراب والدمار بقلعة

(عسقلان) الشهيرة في اليوم التاسع بعد العشرين من شعبان عام (٥٨٧هـ) حتى لا تقع غنيمة باردة في أيدي الافرنج، ما دام المسلمون يرفضون الدفاع عنها، لأن الدفاع عن (عكا) قد كلفهم غالياً ... ثم عرج السلطان على (الرملة) فأمر بتخريبها أيضاً... ثم واصل الزحف بجيشه إلى (عين النطرون) فلم يترك في هذه المنطقة عامراً إلا ودمره، كيلا يفيد منه الأعداء،،، ولما أقبل الشتاء ذهب السلطان سراً إلى القدس، وأذن للمجاهدين بالانصراف، تاركاً قوة صغيرة في تلك الأنحاء بعيدة عن الأبصار لترصد وترقب حركات العدو من ناحية، وتعزز حصون القدس وقلاعها، من ناحية أخرى.

وفي أوائل ذي الحجة عام (٥٨٧هـ)، في صميم الشتاء القارس، توجه (ريشارد) نحو الرملة فاستولى عليها، بعد جهد جهيد، ثم واصل الزحف والغزو حتى (بيت النوبة)، ولكنه لم يستطع الصمود والثبات هنالك فقفل راجعاً تاركاً وراءه بعض قوات الصليبيين للإغارة على الأطراف، فذهب هؤلاء إلى (يافا) و(عكا)... وهكذا انكمشت بل ونقصت قوات (ريشارد) ووزعت وبعثرت في شتى الجهات...

ثم أراد هو – وقتذاك – تعمير قلعة (عسقلان) ليتخذها مقراً ومركزاً لحركاته العسكرية الخاصة... إلا أن الشقاق الذي كان ينخر في عظام الصليبيين، ويهدد كيانهم، ومنافسة (كونارد) لملك الانكليز، ووصول أنباء غير مطمئنة له من انكلترا، قد ثبط همة (ريشارد)، وسرعان ما أبدى ميله مرة أخرى لعقد الصلح، فدخل في مفاوضات لهذا الغرض.

وما أن أقبل الربيع، حتى تواترت الأنباء بظهور بوادر ثورة داخلية في أطراف الجزيرة، فاضطر السلطان لتجريد قوة، من جيوشه، لإخماد تلك الثورات في مهدها قبل تفاقمها واندلاع لهيبها... حينذاك أراد (ريشارد) أن يستغل هذا الموقف ويقوم بمهاجمة السلطان في هذه الآونة... وفعلاً حشد جيشاً كبيراً، وزحف به صوب البلاد السلطانية، في منتصف جمادى الأولى من عام (٥٨٨ هـ) وظل يواصل الزحف حتى وصل (حصن الداروم).

وبعد أن سفك (ريشارد) دماء الكثيرين من أهالي تلك البقاع من المسلمين، وخرب المدن والقرى في تلك الأصقاع، أراد أن يعود من حيث أتى، خشية أن يلحقه اندحار مفاجيء فيقعده عن استرداد القدس؛ بيد أن الصليبيين لم يذعنوا

لأمره. فاضطر لمواصلة الزحف والغزو حتى (بيت النوبة) حيث كان السلطان قد أعد نفسه للدفاع المجيد، فكان قد خرب الطرق، وغور الآبار، وأنضب العيون، في جميع المسالك التي يحتمل أن يسلكها العدو، الأمر الذي أساء الصليبيين أيما إساءة، وأقض مضاجعهم، فساورهم قلق شديد مضن.. وكان أن عقدوا مجلساً حربياً قرروا فيه العدول عن استرداد (القدس)، والزحف على مصر نفسها بدل الزحف على القدس.

ولما عاد الملك (ريشارد) إلى «عكا» بعث برسالة إلى السلطان، أثار فيها مسألة الصلح من جديد، ودارت بينهما مفاوضات انتهت بعقد صلح في اليوم الثاني بعد العشرين من شعبان عام (٥٨٨ هـ). (٢ كانون أول سنة ١١٩٢ م) على شريطة أن تبقى (يافا) أيضا في قبضة الصليبيين.

تلك هي النتيجة الحتمية التي وصلت إليها الحملة الصليبية الثالثة في بلاد المشرق بعد فقدانهم الآلاف من الضحايا التي قدمتها جماعات الفدائيين والمتطوعين من الأوروبيين الذين ساقتهم نزوات التعصب الأعمى الممقوت، إلى بطاح فلسطين، وسهول القدس المترامية الأطراف، وما ذلك إلا بفضل قوة السلطان صلاح الدين ومضاء عزيمته. وحسن تدبيره للأمور، وجرأته النادرة، وسرعة خاطره في أحرج الأوقات وأشدها حلكة وخطرا، ولهذا لم يحصل صليبيو الحملة الثالثة، في فترة الخمس سنوات التي خاضوا خلالها غمار معارك طاحنة، ذهب ضحيتها معظمهم ونجا الباقون بالعودة إلى بلادهم، إلا على بلدتين على الساحل حيث بسطوا سلطانهم عليهما.

وأما ما أفاده (صلاح الدين) من هذه المعارك والحروب الأخيرة، فلنذكر في هذا المقام ما ذهب إليه صاحب كتاب (حياة صلاح الدين الأيوبي) حيث يقول: «إن حروب فلسطين قد ابتدأت من بعد معركة (حطين) الكبرى، ولم يكن حينذاك في أيدي المسلمين ولا قرية واحدة من أرض (فلسطين)، ولكن صلح الرملة الذي أبرم في اليوم الثاني بعد العشرين من شعبان عام (٥٨٨ هـ)، قد مكن المسلمين من بسط سلطانهم ونفوذهم على كل (فلسطين) سوى قطعة من الأرض مستطيلة تمتد من الصور إلى عكا، حيث طرد الإفرنج من كافة البلاد في تلك البقاع الشاسعة، وعادت القدس إلى أملاك السلطان، وبذلك ظهر شأن الإسلام واسترد شرفه ورونقه من جديد».

عاد (صلاح الدين) بطل الكرد والإسلام بعد هذا الصلح إلى القدس حيث تفرغ لتنظيم شؤونها وتدعيم أمورها، فأنشأ بها من المدارس العلمية والملاجئ الخيرية، والمستشفيات، ما خلد به ذكره على مدى السنين والأيام ثم أبدى رغبة صادقة في الحج إلى بيت الله الحرام، ولكن قواد الجيش وزعماء الإسلام قد ثنوه عن عزمه والتمسوا منه العدول عن هذه الفكرة خشية أن تتصدى له العصابات الصليبية في الطريق وتعتدي عليه، إذ كان الطريق إلى بيت الله الحرام ماراً بمنطقتهم، وإزاء إلحاحهم قد عدل السلطان، بصفة مؤقتة عن تحقيق هذه الأمنية المباركة.. ثم قام بجولة تفتيشية في البلاد الساحلية ومعه قوة خاصة صغيرة، فتفقد الشؤون والقلاع، وأمر بتهيئة الوسائل لراحة السكان، وتعزيز القوات ثم توجه عن طريق (نابلس) و (بيسان) و (كوكب) إلى (بيروت) حيث اجتمع هنالك بأمير (أنطاكية)، وأخيراً عاد إلى دمشق في اليوم السادس بعد العشرين من شوال عام (٥٨٨ هـ).

(١٢) - وفاة السلطان صلاح الدين

قام السلطان خلال الفترة التي أقامها بدمشق ــ علاوة على معالجته شؤون الدولة ــ بتوزيع الصدقات من ماله الخاص على المساكين واليتامى والفقراء والذين انقطعت بهم السبل، وعلى الغزاة والمجاهدين، وترحيلهم إلى بلادهم، وإلى جانب ذلك كان يقضي بضع ساعات من أوقات فراغه في الخروج للصيد والقنص، وفي اليوم الرابع عشر من صفر عام (٥٨٩ هـ)، خرج السلطان لاستقبال الحجاج العائدين من (مكة) حيث كان الاحتفال بعودتهم رائعاً وبالغ الروعة. فقد شهده جمع غفير من العظماء والكبراء وعامة الناس، وقد بلغ بالسلطان التأثر من بهجة هذه المشاهد الروحانية أن أجهش بالبكاء لعدم تأدية فريضة الحج في هذه السنة المباركة، وشوقاً منه لزيارة بيت الله الحرام..

وما أن عاد إلى مقره العالي حتى اعترته قشعريرة قاسية وانتابته حمى شديدة وأخذ المرض الذي لا يرحم يشتد ويلح عليه يوماً بعد يوم إلى أن توفاه الله إلى رحمته في يوم الأربعاء الموافق السابع بعد العشرين من رجب عام (٥٨٩ هـ) (٤ مارس سنة ١١٩٣ م)، عن سبعة وخمسين عاماً.. فبكاه الناس على اختلاف طبقاتهم بكاء مراً، واعتكفوا في بيوتهم طيلة يوم الوفاة حداداً

وحزناً عليه، فلم يكن يرى في المدينة سوى أسواق مقفلة، وشوارع مقفرة، وقد أقيمت مراسم الجنازة على أبسط وأقل ما يمكن من المظاهر ـ تنفيذاً لوصيته ـ ودفن حيث مات.. وبعد نحو من ثلاث سنوات، اشترى نجله (الملك الأفضل علي) داراً يمتلكها رجل صالح بجوار الجامع الأموي، وأقام بها ضريحاً نقل إليه رفات والده العظيم وكان ذلك في يوم عاشوراء باحتفال مهيب عظيم، وأقام مأتماً كبيراً وجلس بالجامع لتقبل العزاء ثلاثة أيام كاملة.

هذا وفي اليوم التالي لوفاته، احتشد جمع غفير من الناس في الميادين والشوارع، يبكون وينتحبون، فكان عويلهم يرتفع ويصعد إلى عنان السماء، ولكن السلطات سرعان ما تدخلت لمنع الاسترسال في هذا الصراخ، ولم تسمح لأي فرد بالرثاء والعويل، اللهم إلا الشاعر (العماد الكاتب الأصفهاني) الذي رثله بقصائد طويلة عصماء، أبكت الناس أجمعين.

ويقول الدكتور أحمد البيلي: «مات السلطان وبموته فقدت الأمة الإسلامية سلطاناً قوياً أعزها وأقالها من عثرة كادت تؤدي بها إلى الهلاك والدمار.. توفي صلاح الدين وقد قدر فضله أعداؤه إذ وجدوا فيه أستاذاً كبيراً، وعاملاً عظيماً، فأخذوا عنه دروساً في الشجاعة والفروسية، ونماذج في الكرم، ومثالاً يحتذى لمكارم الأخلاق، وينبوعاً للرحمة والشفقة، فاغترفوا من فضائله غير قليل، وكان للسلطان في حياته سبعة عشر ولداً من الذكور وأنثى واحدة، كما نص على ذلك صاحب كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي.

(١٣) ـ صفاته العالية وخصاله الحميدة

نبينا من مجريات تاريخ حياة هذا العاهل الإسلامي، والبطل المغوار، كم بذل من جهود جبارة ومضنية لبث الروح المعنوية بين الغزاة المسلمين والمجاهدين وتقوية روح الشجاعة والإقدام وحب التضحية فيهم منذ أن صار وزيراً للخليفة العاضد حتى يوم أن لقي ربه.. وكم قدم من الخدمات الجلى لا للعالم الإسلامي فحسب، بل للعالم الشرقي بأسره.. وكيف نجح في تذليل الصعاب، وتحطيم العقبات وإزالة العراقيل التي كانت تقف حجر عثرة في سبيل توحيد الجهود الإسلامية، والوقوف جبهة متراصة كالبنيان المرصوص في وجه الفرنجة المغيرين الطامعين، وذلك بالتغلب على الأمراء المسلمين من المنشقين

المستقلين اللاهين، وبالظفر بالفرنجة الصليبيين المغيرين على الشام ومصر اللتين طالما فرقت بينهما أهواء السياسة، والخلافات المذهبية، والأغراض الطائفية والحزازات الشخصية، فتمكن هذا العبقري الهمام من الجمع بين هذين القطرين تحت راية عدله وإدارته الحازمة.. وكيف لازمه التوفيق في إنشاء وحدة إدارية شاملة تنتظم عقد جميع البلاد الإسلامية التي يقطنها كثير من الأقوام المتباينة الجنس والمختلفة اللغة، بادئاً بكردستان موطن آبائه وأجداده البهاليل حتى بلاد تونس من ناحية، واليمن وعدن من جهة أخرى.

وكيف نشر لواء العدل في تلك الأصقاع، وعامل الناس بالقسطاس المستقيم، وحقق المساواة، وقوى فيهم الشعور بالأخوة الإسلامية.. فلا عجب إذن ألا يبقى أو يوجد بين هؤلاء الأقوام أحد غير راض عنه، أو يتوانى عن بذل النفس والنفيس مرضاة له، وهذا أبلغ دليل على ما كان يتمتع به السلطان من كامل ثقة الجمهور وعظيم احترامهم لذاته، ولا غرو فقد كان ينتصر للمظلوم ويعينه على الظالم، ويغيث الملهوف، ويقسو على القوي، ويحارب العدو، ويتساهل في حقوق نفسه، ويتسامح، وكان كل همه منصباً على رعاية شؤون الإسلام وتحقيق المسلمين والحرص على حقوقهم والسهر على مصالحهم.

ولم يكن صلاح الدين سلطاناً مستبداً يفعل ما يريد أو يبرم كما يتراءى له، بل كان الأمر شورى بينه وبين ذوي المكانة والعقل الراجح، وأصحاب الرأي الصائب والفكر الثاقب من رجالاته. وذلك تمشياً مع روح الشريعة الإسلامية الغراء المستمدة من كتاب الله والسنة النبوية. ولم يعرف عنه أنه مال قط إلى الاستبداد بالرأي، أو الانفراد بالبت في المسائل والشؤون العامة.. وطالما تنازل عن رأيه الخاص احتراماً لرأي الجماعة ونزولاً على إرادة الأغلبية. (كما حدث ذلك في مسألتي «صور» و «عكا»).

وكان السلطان بارعاً في كسب القلوب واسترضاء الناس وذلك لمحاولة توفير الخير والرفاهة للجميع.. فلا عجب أن كانت وفاته صدمة عنيفة ونكبة عامة للجميع، لأنهم كانوا يعتبرونه أباً باراً، وملكاً عادلاً، ومخلصاً لرعاياه، وسلطاناً قوي البطش بأعداء الإسلام، وشديداً على خصومه أينما كانوا. وبالجملة فقد كان الخادم المخلص للدين والعامل على رفع شأنه وليس أدل على ذلك من النصيحة التالية التي ألقاها على مسامع نجله الظاهر (غازي) حين عينه في منصب من مناصب الدولة ألا وهي:

«أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمر الله به، فإنه سبب نجاتك، واحذر من الدماء والدخول فيها والتقلد بها، فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والأمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس، فإنه لا يغفر إلا برضاهم، وما بينك وبين الله يغفره بتوبتك إليه فإنه كريم».

ولا يمكن أن يلحظ الإنسان من بين ثنايا أخبار (صلاح الدين) أو يلمح من أحواله مع رعيته أبهة الملوك وعظمة السلاطين، فكان لأي فرد من الأفراد حق الوصول إليه والمثول بين يديه دون مشقة أو عناء، لا يعترض سبيله حاجب أو يقف دون حائل، لا يعتريه خوف ولا رهبة، ولصاحب المظلمة أن يذهب بنفسه للقاء السلطان لبث شكواه، وكان ذوو الحاجات وأرباب المظالم يتزاحمون عليه فلا يظهر عليه ضجر أو ملل، ما توافد الناس عليه من كل فج إلا لأنهم لمسوا فيه لين الجانب، وإحقاق الحق، والألفة والأنس، والتلطف مع الجميع على السواء..

وكان فوق ذلك رقيق القلب سريع التأثير، تتحرك عواطفه وتدمع عيناه إذا ما طرق سمعه صوت ضعيف أو أنين مسكين، وكان يجزل العطايا للبؤساء واليتامى والمساكين، وكان شفوقاً لدرجة لا يستطيع معها أن يرى خادماً له يضرب.. وعجيب هذا من سلطان كان السادة في أيامه لا يفتأون يقسمون ويضربون عبيدهم وخدمهم.

وكان رحمه الله مثال البساطة النادرة في ملبسه ومأكله ومسكنه، وقد حدث أن شيد له منزل أنيق في دمشق فألقى عليه نظرة عاجلة ثم قال «ما كنا لنجلس في هذا المكان إلى الأبد، فهذا المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت، وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه ».

ولم تفتنه أموال ملكه الواسع فكان يقول: «إن المال والتراب سيان عندي» لذلك كان يكره أن يسأله سائل دون أن يعطيه وإذا عاد السائل وطلب المزيد أعطاه دون أن يقول له «قد أعطيناك من قبل» ولكثرة بذله، وسعة سخائه كان أعوانه ينكرون وجود مال لديهم حتى لا يتمادى في البذل حتى تنفذ الأموال ولا يجد ما يجهز به الجيوش لمحاربة الأعداء.. وليس أدل على جوده وكرمه من أنه حين وافته المنية لم يوجد في حوزته مال، كما أنه لم يترك ضيعة ولا

قصراً.. وإلى هذا يشير صاحب السمو الملكي الأمير (محمد علي) ولي عهد المملكة المصرية الآن في الرحلة الشامية «كان رحمه الله غاية في الجود والكرم، حتى قيل أنه لم يترك بعد وفاته سوى سبعة وأربعين درهماً، وهي ثروة ربما ترك السائل لأولاده أضعاف أضعافها، ولكن السخاء والحنان والشفقة على المساكين والفقراء تستنفد المال ولو كان مثل الجبال».

وفي عام ١٣١٦ للهجرة (١٨٩٨ م) حينما زار إمبراطور ألمانيا وإمبراطورتها بلاد الشام، ألقى ـ وهما في دمشق ـ خطبة قال فيها ما ترجمته: «ومما يزيد في سروري أنني موجود في بلد عاش فيه ذلك الرجل الذي كان أعظم رجال عصره، وفريد دهره، شجاعة وبسالة، ومن كان مثال الشهامة النادرة، والذي طبقت شهرته الآفاق، ألا وهو البطل المغوار صلاح الدين الأيوبي، وقد أرسلت الإمبراطورة إكليلاً بديعاً من الزهر ليوضع باسم الإمبراطور على ضريح بطل التاريخ الإسلامي، وقد نقش عليه بالعربية (ويلهلم الثاني قيصر ألمانيا وملك بروسيا تذكاراً للبطل السلطان صلاح الدين الأيوبي).

ويقول مؤلف كتاب (حياة صلاح الدين الأيوبي): كيف لا تجتمع الأمة الإسلامية بأسرها على محبة هذا الرجل العظيم الذي كشف عنها الغمة التي حاقت بها من جراء تعدّي الفرنجة عليها وعلى بلادها وديارها، والذي نهض بجلائل الأعمال في سبيل الشرق والشرقيين؛ وإعلاء شأن الإسلام والمسلمين والذي قال لجنود الأعداء (قفوا مكانكم، فها قلب أسد أقوى من قلب أسدكم) دون أن يخشى سهام العدو المصوبة إلى قلبه، ولقد كان يمتطي صهوة جواده ويقود جنده وهو مريض ويقول (إني إنما أشعر بالمرض حين أترك ظهر جوادي) فلا غرو إذا وضع الناس أرواحهم بين يديه وأنفسهم طوع بنانه ورهن إشارته.. نعم! وصل السلطان صلاح الدين هذه المكانة في أمته بل وعند أعدائه بإقدام شهد بثبات جنانه، ودرية استمال بها القلوب والألباب. وخبرة افتتح بها البلدان وقاد بها الأجناد. وحنان وشفقة جعلتا له في المكانة في قلوب رعيته ما لم يتسن لغيره من قبله، فأحبها وقام بكلياته على رعاية مصالحها، فكان خلاصة الشرف الإسلامي، والبقية الباقية من المجد الشرقي ومثال البسالة الكردية النادرة.

وكان يضم مجلسه العلماء والوجهاء، ويقصد بابه الفقراء والضعفاء وكان من شيمته التواضع حتى قال قائل: (أدهشني منه التواضع والتقى) وكثيراً ما

كان يعرض نفسه للأخطار مع جنده، محافظة على ملكه الذي كان العدو يتربص له ويرنو إلى انتزاعه منه، وهذا إقدام وشمم وعلو نفس قل أن يتحلى بها غيره من السلاطين والملوك.

ولقد شهد له بهذا بل وبأكثر من هذا أعداؤه أنفسهم، فقد قال «استانلي» ما ترجمته: «ولم يخطىء الناس إدراك أوصافه وأخلاقه، فهو دون منازع شريف النفس، همام، شهم، شجاع، وديع، رقيق، شفوق، طاهر القلب نقيه، ناصع الحياة، زاهد فيها، مجد، كدود، بسيط، ساذج في جميع أحواله، غيور على دينه.. بهذه الصفات الفريدة النادرة أصبح جديراً بأن يكون مثال البطولة في الإسلام».

وجاء في كتاب تاريخ المؤرخين ما ترجمته: (والذي أدهش المسيحيين من أمر صلاح الدين هو مروءته وشهامته وسخاؤه وكرمه ورحمته وحلمه وصفحه وعفوه، لا سيما محافظته على العهود والمواثيق. ومن المدهش حقاً أن تكون هذه الأوصاف التي ملأت قلوب أهل أوروبا إعجاباً هي الأوصاف التي يصفون بها ذلك الرجل الذي انتصر عليهم وألحق بهم الهزيمة في آسيا).

وقال عنه «استيفن سن»: (كان صلاح الدين موفقاً في خططه، ماهراً في عمله، سريعاً في تقدير قوى عدوه، ما تردد لحظة واحدة في تنفيذ ما رسمه. أما عن نشاطه فما كان الملل يجد إلى نفسه سبيلاً، وكان صبوراً على الشدائد وعظيم الثقة بنفسه.. كل هذه كانت من صفاته البارزة بوضوح وجلاء، نظرته في الأمور نظرة صادقة، وحكمه عليها حكم عادل، كان إذا عز له أمر بادر بتنفيذه دون تردد أو إبطاء... وقد خدمته كل هذه المزايا في أعماله السياسية والحربية). كما قال عنه السيد أمير علي الهندي في كتابه (تاريخ الإسلام المصور) أنه كان من أعظم الملوك الفاتحين وأشدهم بطولة وبسالة في العالم. وقال عنه (أحمد زكي باشا المصري) في خطاب ألقاه ونشر في مجلة «رعمسيس» ما نصه: (وقد كان القبط يحبون هذا الملك العظيم صلاح الدين الذي حماهم وراعاهم وعرفوا في ظل أيامه السعادة والهناء. وأي دليل على هذا أكبر من وضع صورته إلى جانب الآنية المقدسة؟).. ثم أردفت المجلة هذه بقولها إن أحد شعراء الأندلس المدعو عبد المنعم الأندلسي، قد زار مصر في ذلك الحين فدهش لما رآه من حب القبط لصلاح الدين. ونظم في ذلك قصيدة تمثل الحقيقة التاريخية، نورد منها هذين البيتين:

فحطوا بأرجاء الهياكل صورة | لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم
يدين لها قس ويرقى بوصفها | ويكتبه يشفي به في التمائم

وقد ورد في تاريخ «هاممر» أن (صلاح الدين) قد أوصى في أواخر حياته بالتالي «ادفنوا معي سيفي الذي حاربت به في قبري ليكون لي خير شاهد يوم القيامة».

(١٤) - آثاره العمرانية والمدنية

تلك حياة صلاح الدين كما رأيناها كلها حرب وقتال وجهاد.. إلا أنه قد وجه عنايته إلى جانب هذا إلى النواحي العمرانية التي يذكرها له التاريخ بمداد الفخر والتقدير.. رأى أن التدريس في جامع الفسطاط (جامع عمرو) يسير على منوال ما هو متبع في الأزهر، فابتنى في عام (٥٦٦ هـ ١١٧٠ م) المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق وخصصها للشافعية، وهي أول مدرسة أسست في مصر.. ثم ابتنى المدرسة القمحية بالقرب من الأولى وخصصها للمالكية.. ثم ابتنى مدرسة للحنفية في عام (٥٧٢ = ١١٧٦ م) واتخذ لها مقراً دار الوزير البطائحي وتعرف الآن بالمدرسة السيوفية، ولم تقف مجهودات السلطان عند فتح هذه المدارس بل رتب الوظائف للمدرسين والطلبة فيها على السواء، فتمكن بذلك من نشر المذهب السني وإحلاله عند العامة والخاصة محل المذهب الشيعي، ويقول صاحب «كتاب صبح الأعشى»: أما الخوانق والربط فلم يكن للديار المصرية بها عهد قبل الدولة الأيوبية. وكان المبتكر لها هو السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) رحمه الله، فابتنى الخانقاه الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء، ووقف عليها قيسارية الشرب داخل القاهرة وبستان الحبانية بزقاق البركة.

هذا ويرجع الفضل إلى (صلاح الدين) في وضع أساس الأسطول المصري حيث رأى بثاقب فكره وبعد نظره أن مصر ينبوع متدفق يستقي منه قوته البحرية. فبنى السفن، وعمر الأسطول، وبلغ من اهتمامه بأمر الأسطول أن أنشأ له ديواناً خاصاً يسمى ديوان الأسطول سلم مقاليده لأخيه الملك العادل. وقد كانت الإسكندرية ودمياط الميناءين البحريين في ديار مصر يضاف إليهما مدينة «تنيس» الخربة الآن.

أما (الفسطاط) و (قوص) فكانتا من أعظم الموانى النيلية، وكـانت السفن الحربية تبنى في هذه الموانىء وترابط بتلك الثغور حتى إذا أزفت الآزفة شـقت طريقها إلى البحر لإعلاء كلمة الإسلام.

تطلع صلاح الدين إلى الإسكندرية فوجدها محط أنظـار الفرنجـة، ولكـي يطمئن عليها قلبه أمر بعمارة أسوارها وأبراجها، ثم ابتنى بـها (بيمارسـتاناً = مستشفى) بعد أن ابتنى آخر بمصر. وفيه يقول صاحب صبح الأعشـى: (ولمـا ملك السلطان الديار المصرية، واستولى على القصر، وكان القصر قاعة بناهـا العزيز بن المعز في عام (٣٨٤) للهجرة، فجعلها السـلطان بيمارسـتاناً، وهـو البيمارستان العتيق الذي بداخل القصر). ثم أنشأ السلطان بها داراً للغرباء، كمـا أنه مهد بعض الجسور، وطهر الترع لإصلاح حال المزارعين، ولما كان مـن عادته أن يسرح جنده في الشتاء، فقد كان حال الزراعة مرضياً. ثم نظـر إلـى الأهلين وقد أثقل كاهلهم وزراء الفواطم بمختلف أنواع الضرائب، فبـادر علـى الفور إلى إلغاء المكوس، وقرأت نسخة مسجلة على المنابر يوم الجمعة الموافـق ٣ صفر عام (٥٦٧ هـ) ـ (٣٠ يونيو سنة ١١٧١ م). وإليك نبـذة مـن هـذا السجل: (وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميـع التجار المترددين إليهما وإلى ساحل المقسم (المقس) والمنية بـأبواب المكـوس صادرها وواردها، فيرد التاجر ويسفر ويغيب عن مالـه ويحضـر ويقـارض ويتجر براً وبحراً مركباً وظهراً سراً وجهراً لا يحل ما شده ولا يحاول ما عنـده ولا يكشف ما ستره ولا يسأل عما أورده أو صدره ولا يستوقف في طريقـه ولا يسرق بريقه ولا يؤخذ منه طعمه ولا يستباح له حرمه).

من هذا السجل يدرك المرء لأول وهلة مدى ما كان يصادفـه النـاس مـن عبء هذه الضريبة وغيرها التي ما كانت تترك غادياً ولا رائحاً إلا كشفت ستره ومدت أيدي العمال والموظفين إلى ماله فسلبته، وإلى متاعه فنهبته، ووردت بعـد ذلك منه إلى الخزانة السلطانية ما شاء طمعها.

ويقول الدكتور أحمد بيلي: إن الإنسان ليدرك من إبطال هذه المكـوس مـا كان يعانيه السكان من الذلة من جهة، وما كان يرمي إليه صلاح الدين من نشـر التجارة وتسهيل سبلها من جهة أخرى، لاعتقاده وتأكده بأنها مرقى الأمـم إلـى الحضارة والمدنية، ولذلك أثر عنه أنه كان يبيحها مع الفرنجـة أثنـاء حروبـه معهم.

ولما أبطل مغارم أهل الحجاز أيضاً؛ عوض أمير مكة عنها بألفي دينار وألف أردب من القمح سنوياً هذا عدا عدة إقطاعات بالصعيد واليمن، وبهذا زال عن كاهل الحجاج ذلك العناء الذي كان يقف حجر عثرة في سبيل الكثيرين من راغبي أداء الفريضة. واختتم كلامه بقوله: هذا قليل من كثير من مناقب هذا السلطان الكبير، والقائد العظيم وعندي أنه لو كثر بين ملوك المسلمين أمثال صلاح الدين لما وصلت الأمم الإسلامية من الضعف والوهن في أمورها الداخلية والخارجية إلى ما وصلت إليه.

ويقول السيد أمير علي: إن القاضي الفاضل الذي كان وزير السلطان كان ساعده الأيمن في تنفيذ مشروعاته الخيرية، إذ لم تكن حكومة صلاح الدين الشوروية مؤلفة من (قره قوش) و (حسام الدين) و (المشطوب) فقط، بل كانت تضم غيرهم من أمثال القاضي الفاضل وعماد الدين الكاتب وعيسى الحكاري وبعض علماء آخرين[١].

(١٥) ـ أنجال السلطان صلاح الدين

قسم السلطان مملكته قبل مماته بين أولاده، فعهد بحكومة فلسطين وسورية إلى الملك «الأفضل أبي الحسن نور الدين علي».. وبحكومة مصر إلى الملك «العزيز عثمان أبي الفتح عماد الدين» وبحكومة (حلب) إلى الملك «الظاهر الغازي غياث الدين».. وكان أخوه «الملك العادل» يحكم شطراً من البلاد الجزرية، كما كان أبناء عمه «شيركوه» منفردين بحكم حمص وبلادها. أما اليمن فكان يحكمها أولاد أخيه «سيف الإسلام طغتكين» ولكن السلطان لم يعين ــ حين وفاته ــ خلفاً له على أريكة الحكم ولا وارثاً، ولهذا أستقر كل من هؤلاء يدير دفة الحكم في مكانه حسب النظام السابق قرابة عام وكلهم معترفون بإشراف الملك الأفضل عليهم.

---

[١] - يقول الرحالة الشهير عبد اللطيف البغدادي الذي اجتمع بصلاح الدين في القدس بعد الصلح، أن أول ليلة تشرفت فيها بمقابلة السلطان رأيته في مجمع من العلماء يصغي إلى كلامهم تارة ويناقشهم في مباحثاتهم تارة أخرى وكان يهتم بتحصين قلعة القدس وتشييد سورها حتى أنه كان ينقل الأحجار بنفسه للبنائين وكان يحضر يومياً من شروق الشمس للإشراف على البنائين والعمال، وكان يقضي ليله في تصريف شؤون الدولة. (تاريخ الإسلام المصور) ــ المؤلف.

(الملك الأفضل، والملك العزيز، والملك العادل)

كان الملك الأفضل أكبر أنجال السلطان (صلاح الدين) وكان يخضع له رؤساء باقي الحكومات الأيوبية وكان «ضياء الدين ابن الأثير» ـ أخو ابن الأثير المؤرخ الشهير ـ وزيره ومدبر أمور مملكته المترامية الأطراف. ومن دواعي الأسف أن هذا الوزير كان ضعيف الرأي، سيء التدبير تنقصه الحنكة في السياسة والدربة في الإدارة، مما أفضى إلى اضطراب زمام الأمور واختلال النظام، وأبعد الكثيرون من عمال الدولة وذوي المناصب الكبيرة ممن حنكتهم التجارب وعلمتهم الحوادث، وممن برعوا في الإدارة - من رجال صلاح الدين ـ أبعدوا عن مناصبهم، فاضطروا أن يرحلوا إلى مصر الواحد تلو الآخر حيث ضم شملهم بلاط الملك العزيز، ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى أعلن الملك العزيز استقلال مصر.

وفي عام (٥٩٠) للهجرة توجه بجيش لجب صوب (سوريا) واستولى على بلاد أخيه وضمها لمصر، غير أن تدخل الملك «العادل» وبعض الأمراء الأيوبيين وتوسطهم في الأمر، قد حسم النزاع بين الأخوين تلك المرة، ولم يمض على ذلك عام أو بعض عام حتى أعاد الملك العزيز الكرة وزحف على (سورية) مرة أخرى وفي هذه المرة وقف الملك «العادل» إلى جانب الملك «الأفضل» وأثار بحسن تدبيره وبدسائسه المحكمة الفعالة الجيش المصري ضد ملكه العزيز فاضطر هذا الملك الشاب إلى العودة إلى مصر خائباً مدحوراً.

وكان الملك العادل يتظاهر في بادىء الأمر بالسعي الحثيث لإزالة ما بين أبناء أخيه من الشقاق والخلاف إلا أنه لما تحقق لديه ما جبل عليه رجال الملكين المتنازعين في مصر وسورية من قلة التجارب وسوء الإدارة، وأيقن أن ما عاناه صلاح الدين في تكوين الدولة الإسلامية الموحدة من الجهود المضنية الجبارة سيذهب هباء وسدى، وأن هذا الصرح الشامخ الذي يعتز به بنو أيوب سينهار من جراء التشاحن والتطاحن بين أنجاله القليلي الدربة والضعيفي الإرادة. إزاء هذا عمد إلى ما يكفل تركيز إدارة البلاد كلها تحت سلطانه وحكمه الحازم وفرض إرادته العليا على الجميع ولا سيما أن أحوال ابني أخيه كانت تساعده على تحقيق هذا المأرب، وعلى هذا الأساس قام بنصرة الملك الأفضل واضطر الملك العزيز إلى العودة إلى مصر كما ذكرنا.

وأخيراً وبعد أن أصلح ذات البين بين الملكين عاد الملك الأفضل إلى سورية ولبث هو في مصر بحجة إصلاح أمر الملك العزيز، وتنظيم الإدارة بها وفي الواقع أنه كان يضع أساس حكومته في مصر، وبعد حقبة من الزمن تشبث، لسبب ما، بالزحف مع الملك العزيز على رأس جيش كبير صوب سورية وكان ذلك في عام (٥٩٢) للهجرة، وانتزع الشام من الملك الأفضل الذي اضطر إلى قبول قلعة (صرخد) واتخذها له مقاماً بدل دمشق الشام.

وهكذا خضعت البلاد الشامية لحكم الملك العادل تحت ستار خضوعها لمصر ولملكها.

نعم! إن هذه التدابير ولا سيما بين الأقرباء والأنسباء ليست من الأمور المقبولة من الوجهة الأخلاقية. وإن كانت ضرورة ملحة من وجهة المصلحة العامة للمحافظة على كيان أسرة بني أيوب، ولضمان عدم تشتيت القوى الإسلامية أمام هجمات الصليبيين المتوالية على أطراف البلاد وتحفزهم في كل وقت لاسترداد ما فقدوه من البلاد في حروبهم مع صلاح الدين فمن هذا يتضح أن مصلحة البلاد نفسها كانت تتطلب قيام حاكم قوي وقائد بارع وإداري حازم على رأس الحكومة ليتولى مهمة الدفاع عنها والذود عن حياضها.

ولا شك في أننا إذا نظرنا إلى هذا الموضوع من تلك الناحية أي من وجهة المصلحة العامة لما وجدنا أي سبب وجيه يحملنا على توجيه العتب التاريخي لفاتح الكرك ألا وهو الملك العادل الذي ــ بعد أن تم له ما أراد من إخضاع سورية إلى تنظيم أمورها ــ قام بجولة تفتيشية في أنحاء البلاد الجزرية. ونظم أمورها، وحسن أحوالها ثم اضطر للعودة إلى سورية على جناح السرعة بسبب وفاة الملك العزيز الفجائية في ٢٧ المحرم من عام (٥٩٥) بمصر، واستدعاء الملك الأفضل من قلعة (صرخد) إلى مصر، وتعيينه نائباً ووصياً على الملك المنصور (محمود ابن الملك العزيز) الذي كان وقتذاك لا يزال طفلاً صغيراً.

ولقد شاء الملك الأفضل استغلال منصبه الجديد، فأخذ يعمل جاهداً على استرداد حقه المسلوب من عمه الملك العادل، ودخل فعلاً في مفاوضات مع أخيه الملك الظاهر بحلب فوعده هذا الأخير بتقديم يد المساعدة له، وشد أزره حينما يصل جيش الملك الأفضل إلى سورية، غير أن الملك العادل كان عالماً بما يجري بين الأخوين من مخابرات وما دار بينهما من مفاوضات فبادر بقوة نفوذه

ورشيد سياسته وبعد نظره إلى إثارة نيران الفتنة وإشعالها بين صفوف جيش الملك الأفضل وبين قواده، ثم ما لبث أن زحف إليه بجيشه. وضيق عليه الخناق. إلى أن اضطر إلى تسليم نفسه في ربيع الثاني عام (٥٩٦ هـ) وبهذا أبعد الملك الأفضل والملك المنصور محمود من مصر وبضم البلاد المصرية إلى البلاد الأخرى الخاضعة لنفوذه وسلطانه.

وعاد الملك الأفضل وقد باء بفشل ذريع إلى قلعة (صرخد) وفي خلال ذلك زحف أخوه الملك الظاهر بجيشه من حلب إلى الشام على أمل الاستيلاء عليها، فضيق عليها الحصار ولكن سياسة الملك العادل الرشيدة قد برزت ونجحت في هذه المرة أيضاً، حيث تدارك الأمور بسامي حكمته قبل استفحالها ونجح في الوقيعة بين الأخوين مما أدى إلى رفع الحصار عن دمشق، وتخلى الملك الظاهر عنها، وعودته بجيشه إلى حلب كما عاد الملك الأفضل هو الآخر إلى قلعة (صرخد) ثانية، إلا أن الملك العادل قد أقطع الملك الأفضل قلعة النجم وقلعة سروج، وقلعة صمصاد. ولكن هذا الإنعام لم يدم طويلاً حيث عاد فانتزعها منه بعد فترة يسيرة، وكان ذلك في عام (٥٩٩ هـ) وذلك رغم شدة إلحاح والدة الملك الأفضل ورجائها إبقاء تلك القلاع في قبضة ابنها، ولكن الملك الأفضل قد عمد إلى تحصين قلعة «صمصاد» وتعميرها ثم أعلن تبعيته لسلطنة سلاجقة الروم (الأنضول) وأمضى ردحاً من الزمن على هذا الوضع إلى أن توفي أخوه الملك الظاهر، فأراد ــ بتعصيد من الملك (كيكاوس) ملك السلجوق في قونية ــ أن يستولي على حلب فيقيم له بها حكومة خاصة، غير أن هذه المآرب والآمال قد تحطمت لعدم توفر الإخلاص بين المتفقين، ولسبب تدخل الملك الأشرف نجل الملك العادل في الأمر في الوقت المناسب، فعاد الملك الأفضل الذي جانبه الحظ أدراجه إلى صمصاد في عام (٦١٥ هـ) يجر ذيل الفشل، ولبث فيها منعزلاً عن الناس إلى أن توفاه الله إلى رحمته فجأة في عام (٦٢٢ هـ).

١ـ سلطنة الملك العادل

أعلن الملك العادل (سيف الدين) نفسه سلطاناً في القاهرة في اليوم السادس عشر من ربيع الآخر عام (٥٩٦ هـ) وكان قد أخضع جميع البلاد التي كانت

تابعة لصلاح الدين عدا (حلب) وأطرافها كما سبق الذكر، وسلك مسلك أخيه في إدارة دفة الحكم في البلاد، وتصريف شؤونها العامة بمنتهى العدل والعزم، فوزع المناصب ـ باسمه ـ على أنجاله، فعهد بمصر إلى نجله الملك الكامل، وبالبلاد الشامية إلى الملك المعظم عيسى؛ وبالبلاد الجزرية إلى الملك الأشرف موسى، كما عهد إلى آخرين من أولاده ببعض بلاد أقل أهمية تابعة لأملاك أخوتهم في تلك البقاع. ولم تكن وطأة الصليبيين شديدة على البلاد الإسلامية في عهد الملك العادل، ومع ذلك فقد نقض الفرنجة شروطهم واتفاقاتهم التي كانوا قد ارتضوها وأبرموها في عهد (صلاح الدين) وذلك ديدنهم دائماً مع المسلمين، إذ زحف جيش كبير منهم عن طريق البحر صوب (بيروت) فاستولى عليها في الوقت الذي كان فيه أنجال صلاح الدين متنابذين متطاحنين ولم يقف الملك العادل مكتوف الأيدي، بل بادر بإعداد جيش قوي بمجرد أن دانت له الأمور واستقرت الأحوال، وزحف على رأسه إلى «يافا» واستولى عليها.. وكان الصليبيون يحاصرون ـ وقتذاك ـ بلدة (التبنين) ولكنهم عجزوا عن فتحها، وما لبثوا أن طلبوا عقد الصلح فأجيبوا إلى طلبهم وتم عقد هدنة مدتها ثلاث سنوات.

وهكذا مرت بسلام عاصفة الحملة الرابعة من حملات الصليبيين السبع على البلاد الإسلامية، وسبق أن أشرنا إلى أنه لما توفي الملك الظاهر (غازي) حاكم حلب في عام (٦١٣ هـ) قام الملك الأفضل ـ يعضده الملك السلجوقي كيكاوس ـ بمحاولات للاستيلاء على حلب، وأن محاولاته قد أخفقت والآن نقول إن ذلك الإخفاق قد أدى إلى سقوط (حلب) كغيرها في قبضة الملك الأشرف نجل الملك العادل، وهكذا انتهت بل انقرضت حكومات أبناء البطل المغوار (صلاح الدين) في كافة البلدان انتهاء مبرماً، وقد كان من حسن طالع الملك العادل أن نيران الحملة الصليبية الرابعة لم يمتد لهيبها ولم يتطاير شررها في تلك المرة إلى البلاد الإسلامية، بل اقتصرت على القسطنطينية فأحرقتها وجعلتها خراباً يباباً.

وفي عام (٦١٣ هـ ـ ٦١٤ هـ) = (١٢١٦ ـ ١٢١٧ م) أثار البابا (إينوساني) الثالث، أوروبا كلها، وتمخض عن هذه الإثارة «الحملة الصليبية الخامسة» التي كان من زعمائها ملك المجر، وأمراء النمسا وبافاريا، وسائر أمراء جنوبي ألمانيا، وكان عدد جنود الحملة مائتين وخمسين ألفاً معظمهم من الألمان.. ويمم الجميع شطر السواحل الشامية عن طريق البحر حتى نزلوا في

كافة الأراضي المصرية، وكان الملك المعظم عيسى شرف الدين ــ وقتــذاك ــ ملكاً على البلاد الشامية، والملك الأشرف موسى مظفر الدين يدير دفــة شــؤون (حلب)، وقد طال وقت الحصار على (دمياط) حيث كــان الصليبيــون يلحــون ويمعنون في التضييق على المحصورين مما أدى إلــى مــوت الكثــيرين مــن المحاصرين والمحصورين نتيجة تفشي الأمراض وانتشار الأوبئة والجوع، وقــد سقطت (دمياط) ــ دون غيرها ــ في أيدي الفرنجــة بعــد حصــار دام عامــاً ونصف عام. وكان تعداد أهالي هذه المدينة وحاميتها حين هبت للدفــاع ســبعين ألفاً، في حين أن هذا العدد قد نقص وانخفض إلى ثلاثة آلاف حين تسليم المدينــة للفرنجة، ولم يكتف المتعصبون من الفرنجة بهذا القدر من الضحايا بــل تمــادوا في غيهم، فأقاموا مذبحة عامة بعد تسلمهم المدينة وقضوا علــى الثلاثــة آلاف الباقية ظلماً وعدواناً.

ثم توجه الجيش الصليبي إلى القاهرة بعد سقوط دمياط في قبضتهم، ولكــن جيش الملك الكامل المعد لمقابلة المغيرين ــ وإن كان قد عزز بجيوش وقــوات من قبل أخوته الملوك ــ كان لا يزال دون قوات العدو عدة وعدداً، ولــم يكــن يعول عليه في الهجوم والسبق ولهذا آثر الملك الكامل الدخول في مفاوضات مــع قائد الصليبيين العام، وعرض عليه الصلح، على أساس أن ترد (دميــاط) إلــى المصريين وأن تعاد فلسطين إلى الصليبيين، ولكن هذا الصلــح كــان نصيبــه الرفض البات من قبل الصليبيين وقد كان لسقوط (دمياط) ثغر مصــر الأوحــد، ولزحف الصليبيين على القاهرة حاضرة المملكة المصرية، أكــبر الأثــر فــي أوروبا، فشدد ذلك من عزائم الصليبيين، وقوى ســواعدهم، وتملكــهم الجشــع وتولاهم الطمع في امتلاك «مصر» نهائياً، وقد اضطر الملك الكامل ــ إزاء هــذا ــ إلى التنازل عن القدس وفلسطين في سبيل إنقاذ «مصر» وفي هــذه الأثنــاء لعبت الطبيعة دورها حيث طغى نيل مصر وفاض، وكان الصليبيون قد أبطــأوا طويلاً في إنجاز أعمالهم فسنحت فرصة ذهبية للملك الكامل الــذي عمــد إلــى إصدار الأمر بتحطيم جميع السدود، وهدم الجسور المقامة على النيل وإطلاقــه في أراضي الدلتا التي سرعان ما أغرقتها المياه عن آخرها، وبذلك قطــع خــط الرجعة على كافة المغيرين حيث تعذر إيصال المدد إليهم من البحر، ممــا أدى إلى تعرضهم إلى ألوان من البؤس والشقاء، فضلاً عن العصابات الإسلامية التــي

كانت تتخطفهم من ذات اليمين وذات الشمال، مما اضطر الصليبيين إلى طلب الصلح وهم صاغرون، فأجيبوا إلى طلبهم، واشترطوا أن يسمح لهم بالعودة إلى بلادهم، وأن يصرح لحجاجهم بزيارة بيت المقدس. ولم يمض طويل وقت على إخفاق الحملة الصليبية السادسة في مهمتها، حتى بدأ الشقاق يدب دبيبه، بين أنجال الملك العادل، وتفاقم النزاع، واشتدت وطأة التطاحن بينهم. إذ كان الملك المعظم عيسى حاكم (سورية) قد قلب ظهر المجن لأخيه طمعاً في ملكه، وكان يصبو إلى انتزاع مصر منه، وسعى لهذا الهدف سعياً حثيثاً، وبذل محاولات جدية للاتفاق مع (جلال الدين خوارزمشاه) لتحقيق هذا الغرض.

ولما بلغت أنباء هذه المساعي مسامع الملك الكامل أعرب عن غضبه وشديد استيائه. وفي تلك الأثناء كان «فردريك الثاني» إمبراطور ألمانيا ميمماً نحو مصر بجيش لجب، فأظلمت الدنيا في وجه الملك الكامل حتى اضطر إلى مفاوضة الإمبراطور ليعقد معه الصلح، وفي خلال المفاوضات مات الملك المعظم حاكم سورية، وكان ذلك في ذي القعدة من عام (٦٢٤ هـ) تاركاً بلاده لابنه الملك «الناصر داود» فانتهز الملك الكامل هذه الفرصة، وزحف على رأس جيشه إلى الشام.

وقد فكر الملك الأشرف في بادىء الأمر في أن يمد يد المساعدة للملك الناصر ويشد أزره ثم عاد فعدل عن هذه الفكرة وتفاهم مع الملك الكامل، وما لبثا أن استوليا سوياً على الشام التي أقطعها الملك الكامل للملك الأشرف عام (٦٢٦ هـ) في مقابل بعض البلاد الجزرية، كما عوض الملك الناصر عما فقده بقلعتي الكرك والشوبك[1]، ثم قام الملك الكامل بتنظيم شؤون (سورية) وبعدئذ توجه إلى الجزيرة حيث أصلح الكثير من أمورها، وأخذ فيها من التدابير ما يكفل منع تدفق سيول الخوارزميين والمغول، وبعد ذلك استولى على بعض القلاع هنا وهناك، ثم أقطع «حصن الأكراد» ملكاً خاصاً لنجله الكبير (نجم الدين أيوب)، وعينه حاكماً على الجزيرة.. وبعد حقبة من الزمن سمح له بأن يجرد حملة عسكرية تقوم بإلقاء القبض على فلول جيش (خوارزمشاه) المبعثرة، حتى يتمكن بذلك من إيقاف سيول المغول المتدفقة.

---

[1] - يقول تاريخ الإسلام المصور أنه قد عوض بقلاع الحران والرها والرقة ولكن الوقائع التالية لا تؤيد ذلك - المؤلف.

وفي عام (٦٢٩) للهجرة (١٣٢٩ م) وصل «فردريك» إمـــبراطور ألمانيـــا إلى (سورية) وكانت مفاوضات الصلح قد انتهت بينه وبين الملك الكامل، وكـــانت شروط هذا الصلح تقضي بخضوع القدس والناصرة، وما حواليهما وجزء مـــن الساحل الممتد من «عكا» حتى «يافا» لحكم الإمبراطور بصفة مؤقتة، علـــى أن تكون هنالك هدنة يقف فيها القتال لمدة عشر سنوات وستة أشهر وعشرة أيـــام، وكان هنالك شرط آخر يقضي بأن يقوم الإمبراطور بمساعدة الملك الكامل ضـــد أعدائه أياً كانوا. ومع ذلك لم ترض هذه الشروط المســـلمين والنصـــارى علـــى السواء... وقد غادر الإمبراطور فلسطين وسافر إلى ألمانيا.

وبعد هذا الصلح، تعقدت الأمور، وتفاقم الشر بين الملك الكامل وأخيه الملـــك الأشرف، وبين سلطان سلاجقة الروم، فبعث السلطان كيقباد الســـلجوقي بحملـــة عسكرية على شمال الجزيرة في عام (٦٣١ هـ) واشـــتبك فـــي القتـــال مـــع الأيوبيين؛ وكانت الغلبة للسلجوقيين في بادىء الأمر إذ اســـتولوا علـــى بعـــض أملاك الأيوبيين، بيد أنهم لم يستطيعوا المحافظة عليها والاحتفاظ بـــها، ووقـــف القتال بين الفريقين بوفاة السلطان (كيقباد) حيث اضطر الجيش الســـلجوقي إلـــى الجلاء عن البلاد التي احتلها في عام (٦٣٣ هـ).

ولم يدم الوئام والوفاق طويلاً بين الملك الكامل والملك الأشرف حيث اتفـــق الملك الأشرف ــ لمناهضة أخيه ــ مع بقية ملوك الأسرة الأيوبية وأمرائها ومـــا أن ترامى هذا النبأ، إلى مسامع الملك الكامل، حتى عمد إلى إعداد جيش زحـــف على رأسه إلى الشام، وقبل أن يلتحم في القتال مع جيـــوش الأشـــرف وحلفائـــه توفي أخوه الملك الأشرف إلى رحمة الله بدمشق الشام في الرابـــع مـــن شـــهر المحرم عام (٦٣٥) للهجرة، وهكذا سقطت «دمشق» في قبضة الملـــك الكـــامل دون حرب أو قتال، وعوض الملك صالح إسماعيل ــ أخو الملـــك الأشـــرف ــ عن ذلك بقلعتي (بعلبك) و (بصرى).

وبعد ذلك ببضعة شهور لقي الملك الكامل ربه في دمشق الشام في اليـــوم الواحد بعد العشرين من شهر رجب من عام (٦٣٥ هـ ــ ٨ مـــارس عـــام ١٣٣٨ م).

٢ ـ صفاته ومزاياه

لا ريب أن الملك الكامل، كان على جانب عظيم من المقدرة والكياسة، فقد أظهر صفات نادرة، ومهارة فائقة، في ميدان السياسة والقتال، وتعتبر وفاته نذيراً بتدهور الحكم الأيوبي، وكان يحمل لقب (فارس) قدمه له الملك (ريشارد) قلب الأسد، وكان خير خلف لوالده الكبير وعمه العظيم في حب العلم، ونشر العرفان، والاهتمام بحركة التجديد والعمران وتعميمها في البلاد، وله في هذا الميدان آثار خالدة في البلاد، كما أن له أيادي بيضاً على نظام الري في مصر، حيث بذل جهوداً مشكورة في هذا المجال.

ومن أعماله الأخرى التي تمت في عهده، إتمام تحصينات قلعة القاهرة الشهيرة، وفي الحق أن بعض أعماله الأخرى كتسليمه القدس، وبعض الأماكن الأخرى في فلسطين، لإمبراطور ألمانيا، وإن كانت عرضة، في الظاهر على الأقل، للوم والعتب، إلا أن المرء لا ينبغي له في مثل هذه المواقف أن يصدر حكماً قاطعاً إلا بعد أن يمعن النظر ويدرس بحذر وإمعان، الظروف والملابسات الداخلية التي كانت محيطة به، وذلك إلى جانب ما كان بين الأخوة من غيرة وحسد، وهذا فضلاً عن الظروف السياسية الخارجية للدولة.

الملك العادل الثاني

على أثر وفاة الملك الكامل، نادى أمراء الأسرة الأيوبية وأعضاؤها بنجله (الملك العادل الثاني) سلطاناً، وكان أصغر أنجال الملك سناً ولم يكن لدى هذا الملك الجديد أدنى قابلية أو استعداد لتولي زمام الحكم لصغر سنه، وضعف رأيه، وميله إلى البطالة. فكان الحق إذن في جانب أخيه الأكبر الملك (نجم الدين) الذي كان ــ وقتذاك ــ حاكماً على الجزيرة وملقياً الحصار على قلعة (الرها) وما أن ترامى إلى مسامعه نبأ نعي والده حتى عمد إلى رفع الحصار عن الرها أملاً في العودة سريعاً إلى (سورية)، بيد أن الخوارزميين في جيشه قد تألبوا عليه وتمادوا في غيهم وحاولوا إلقاء القبض عليه ولكنه استطاع التخلص منهم بأعجوبة ولجأ إلى قلعة (سنجار) وما أن علم (بدر الدين لؤلؤ) صاحب الموصل وأشد خصوم الملك نجم الدين، حينذاك، بهذا النبأ، حتى عول على اغتنام هذه الفرصة للقضاء على خصمه والتخلص منه فجاء على رأس جيش

عرمرم لإلقاء الحصار على سنجار ومن حسن الحظ أن كان للملك نجم الدين وزير وقاض، راجح العقل، قد أحسن تصريف الأمور، وتمكن من خلق جو للتفاهم وإزالة الجفوة بين سيده وبين الخوارزميين المتألبين العصاة، وبهذا تكتل الجميع وألحقوا بالعدو هزيمة منكرة فرجع بدر الدين لؤلؤ مع فلول جيشه القهقرى مدحوراً يجر أذيال الهزيمة، ثم توجه الجيش الظافر صوب (ديار بكر) وألحق هزيمة أخرى بسلطان الروم الذي كان ملقياً الحصار على هذه القلعة. وهكذا عادت البلاد الجزرية كلها مرة أخرى لحكم الملك (نجم الدين).

وفي عام (٦٣٦ هـ) عرض (الملك الجواد يونس) حاكم الشام، على الملك نجم الدين أن يسلمه الشام نظير إقطاعه مدن (سنجار) و (الرقة) و (العانة) من البلاد الجزرية، فلم يدع الملك نجم الدين هذه الفرصة الذهبية تفلت من يده، فتقبل العرض على الفور فرحاً مسروراً. وما لبث أن ترك ابنه (تورانشاه) في منصب حاكم الجزيرة وأقطع بعض البلاد منها لأمراء وقواد خوارزميين، ثم توجه هو على رأس جيش عرمرم صوب البلاد الشامية وتسلم «دمشق» حسب الاتفاق. وكان الاتفاق قد تم وقتذاك بين «الملك العادل الثاني» وابن عمه (الملك داود) حاكم الكرك على أن يهاجما سوياً (الملك نجم الدين أيوب) وقد لجأ حينذاك بعض القواد والضباط من أمراء جيش الملك العادل الذين كانوا ساخطين عليه لسوء معاملته لهم إلى صفوف جيش الملك نجم الدين كما أبدى الملك داود هو الآخر رغبته في الانضمام إلى الملك (نجم الدين) على شريطة أن تسلم له (دمشق) بيد أن هذا الطلب قد رفض رفضاً باتاً فاضطر للبقاء إلى جانب الملك العادل لتنفيذ الخطة التي تم الاتفاق بينهما على تنفيذها.

وفي عام (٦٣٧ هـ) تحرك الملك نجم الدين أيوب على رأس جيش من خمسة آلاف مقاتل من الشام وهدفه الزحف على مصر والاستيلاء عليها، فوصل نابلس ولبث فيها مدة ليتعرف مدى صداقة عمه (الملك إسماعيل) ومدى تعضيده له في هذه المهمة إذ أن عمه هذا كان يظهر له الكثير من علائم المودة والمحبة بألفاظ معسولة وأقوال خلابة، في حين أنه كان يبطن لابن أخيه خلاف ما يظهر ويضمر له في نفسه الشر والخيانة والغدر ويحيك له المكائد؛ فكان يتفاوض سراً مع أمير (حمص) لاتخاذ تدابير مشتركة لإثارة جيش الملك نجم الدين ضده، وقد توصلا إلى غرضهما بخداع وإغراء قواد جيش الملك نجم الدين بوعود كاذبة

وأماني خلابة وباطلة، فانفض جيشه وكذا أنصاره من حوله وبقي هو وحيداً لا سند له في قلعة نابلس. وما أن علم الملك (داود) حاكم الكرك بذلك حتى زحف بجيش على نابلس. وأسر الملك نجم الدين وبعث به إلى قلعة الكرك رغم طلب الملك العادل إرساله إليه في مصر.

وفي هذه الفترة انتهت مدة المعاهدة المعقودة بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك ولكن الإفرنج كانوا غير راغبين في تسليم القدس إلى المسلمين حسب الشروط المتفق عليها فزحف الأمير (داود) على القدس واستولى عليها بعد حصار دام واحداً وعشرين يوماً وكان ذلك في جمادى الأولى من عام (٦٣٧ هـ) وأزال جميع التحصينات التي كان الإفرنج قد أقاموها حول المدينة.

ثم بدأ الحظ يبتسم من جديد للملك (نجم الدين أيوب) حيث فشلت المفاوضات بين الأمير (داود) والأمير (إسماعيل) والملك (العادل) لعقد اتفاق دائم بينهم، فبذل أمير (حماة) وساطته لعقد أواصر الاتفاق وإيجاد التفاهم بين الملك (نجم الدين أيوب) والأمير (داود) اللذين سرعان ما عقد بينهما اجتماع في القدس وأبرما معاهدة ثنائية بينهما تقضي بإعطاء مصر للملك نجم الدين، وبقاء البلاد الشامية، وغيرها من البلاد الشرقية في قبضة الملك (داود).

ولقد أثار هذا الاتفاق مخاوف الملك العادل، وساوره قلق شديد على ملكه، فأصدر أمره على الفور لعمه الملك (إسماعيل) بأن يبادر بالزحف على موقعي هذا الاتفاق، فتحرك عمه، على رأس جيشه، وعسكر بمدينة (بلبيس) ليعد العدة، ويتخذ الأهبة للزحف إلى فلسطين، وكان فريق كبير من جيشه من جماعة المماليك وهم المدعوون بالأشرفية نسبة إلى الملك الأشرف أخي (الملك الكامل) ساخطين على سيدهم الملك (العادل) ومتذمرين منه، فانتهزوا الفرصة وانفجروا ثائرين في المعسكر، وألقوا القبض عليه، وخلعوه عن العرش وانتزعوا منه السلطة؛ وبعثوا به إلى «قلعة القاهرة» وزجوا به سجيناً في غياهبها[1].

وبعد بضعة أيام ولوا سلطنة مصر للملك نجم الدين أيوب.

---

[1]- وقد بقي الملك العادل أبو بكر حبيساً في هذا السجن حتى عام (٦٤٥) للهجرة، حيث نفذ فيه حكم الإعدام في هذه القلعة ـــ المؤلف.

١ـ الملك الصالح نجم الدين أيوب

هو أكبر أولاد الملك الكامل، ولد بمصر في عام (٦٠٣ هـ) وعينه والده ولياً للعهد في عام (٦٢٥ هـ) إلا أنه فقد ثقة والده فيه أخيراً فأبعد عن مصر نتيجة دسائس حاكتها والدة الملك «العادل الثاني» ضده لدى زوجها فأوغرت صدره من ابنه وقد عانى الملك الصالح الكثير من الويلات والمشاق كما ذكرنا كي يصل إلى هذا المركز السامي، إلى أن ساعده الحظ على حساب الملك العادل الذي أفضى فشله الذريع في تصريف الأمور، وإدارة دفة شؤون الدولة إلى خلعه والإلقاء به في غياهب السجن ودعوة الملك الصالح نجم الدين إلى مصر والمناداة به سلطاناً عليها في عام ٦٣٧ للهجرة (١٢٤٠ م). ولم يمض على إعلان السلطنة طويل وقت حتى جاء نبأ موافقة الخليفة ببغداد على هذا الإجراء.

وهكذا استتب الأمن ودانت الأمور للملك الصالح بمصر دون قتال أو نزاع، كما كانت البلاد الشرقية (كردستان) أيضاً خاضعة لإدارة ولده (تورانشاه) الحازمة، ما عدا البلاد الشامية التي كان الحكم فيها مضطرباً، بسبب تطاحن الأمراء الأيوبيين والولاة على اعتلاء أريكة الحكم، ولولا هذا لأمكن القول دون تردد بأن عهد (صلاح الدين) الذهبي قد بعث من جديد، وإن الشيء الوحيد الذي كان يقض مضاجع الملك الصالح «نجم الدين أيوب» لهو إيجاد وسيلة يتذرع بها للتنصل من معاهدة القدس المعقودة بينه وبين الأمير (داود) بشأن تملك الأخير لسورية، تلك المعاهدة التي عقدت في ظل من الضغط والإكراه مما لا يجعل لاستمرار سريانها أية قيمة قانونية أو أخلاقية. وهذا ما حدا بالملك الصالح إلى المبادرة بإعلان سقوط هذه المعاهدة مع الوعد في الظاهر بتنصيب الأمير (داود) والياً على دمشق من قبله.

ولقد أمضى الملك الصالح العام التالي لحكمه في تنظيم أمور مصر وشؤونها الداخلية فضرب بيد من حديد على أيدي المجرمين الذين عاثوا في أنحاء المملكة فساداً وجرد حملة عسكرية على عرب مصر العليا (الصعيد) فنكل بهم أفظع تنكيل، وألقى القبض على الزعماء منهم والرؤساء، ثم عمد إلى تقسيم أراضيهم وتوزيعها بين مماليكه، ثم أنشأ لنفسه في جزيرة الروضة المحاطة بالنيل قصراً، وثكنة لمماليكه الخاصة.

وفي السنة نفسها حدث صدام بين الملك نجم الدين وبين خصومه الداخليين من أعضاء الأسرة؛ حيث كان يدرك الأمير (داود) تمام الإدراك ما ينطوي عليه إلغاء المعاهدة السابق ذكرها من أن السلطان لا يترك له مجالا لتوسيع نفوذه، كما أن الأمير (نجم الدين إسماعيل) عم السلطان كان يعرف حق المعرفة أن السلطان لا يمكن أن يترك له الشام لقمة سائغة. ومن أجل ذلك كان بادىء القلق دائم الاضطراب، ومن ناحية أخرى كان (بدر الدين لؤلؤ) صاحب الموصل قد وسع من دائرة نفوذه في الجزيرة وفي سائر البلاد الشرقية إذ استولى على مدينة (آمد) من (تورانشاه) نجل السلطان الذي لم يكن باقيا في حوزته وتحت حكمه سوى قلعتي (حصن كيف) و (الهائم).

فإزاء هذه التطورات والأحوال المتلاحقة، اتفق الأمير (داود) والأمير (إسماعيل) صاحب دمشق مع الإفرنج بفلسطين ضد السلطان نظير إعطائهم بلاد (الطبرية) و (شقيف أرنون) و (صفد) وهي من البلدان التي كان قد فتحها السلطان (صلاح الدين) سابقا؛ وفضلا عن ذلك، فقد سمحوا للإفرنج بشراء السلاح في دمشق.

وخلاصة القول إن اتفاقا هاما قد تم بين هؤلاء الأمراء الأيوبيين الذين أضلهم الطمع، وبين الإفرنج الذين أعماهم التعصب، للقضاء على الملك (نجم الدين أيوب) وأخذوا في إعداد العدة لتنفيذ هذه الخطة المرسومة، وكان الأمير (نجم الدين إسماعيل) عم السلطان هو الرأس المدبر للحركة، وصاحب الرأي فيها، وكان هو نفسه قد دبر مكيدة وحاك دسيسة أخرى في وقت ما، لانتزاع «دمشق» من قبضة (الملك الجواد يونس) الذي هرع إلى صفوف الإفرنج فرارا منه، فاستغل الأمير إسماعيل الاتفاق المعقود مع الإفرنج، وأرسل للإفرنج مبلغا من المال وتسلم منهم الأمير «الجواد» وقضى على حياته ظلما وبهتانا.

وصفوة القول إن الأميرين «داود» و «إسماعيل» قد وصل بهما الأمر إلى درجة قصوى من الخسة والدناءة لكي يهدما صرح السلطنة الأيوبية من أساسه، فأخبرا الإفرنج سرا بأن الأسرى المسلمين الذين لديهم في (شقيف أرنون) سيقومون بالثورة، وما أن علم الإفرنج المتعصبون بهذا النبأ حتى بادروا سراعا بنقل أولئك الأسرى إلى «عكا» وهنالك قتلوهم عن بكرة أبيهم.

وبعد حقبة من الزمن زحف جيش المتحالفين المعبأ من الإفرنج وجنود الأميرين (داود) و (إسماعيل)، واشتبك بجيش السلطان (نجم الدين) فيما بين (غزة) و (عسقلان)، ودارت بين الفريقين رحى معركة طاحنة انحاز خلالها الجيش الإسلامي الذي كان يقوده الأمير (إسماعيل) إلى جانب السلطان، مما أسرع بالمعركة إلى نهايتها، فأسفرت عن اندحار جيوش المتحالفين اندحاراً ذريعاً، وأسر الكثيرين من الإفرنج، فاضطروا إلى الإذعان وعقد الصلح مع السلطان الذي عاد بجيشه إلى مصر بعد توقيع شروط الصلح، وفي السنة التالية قام الإفرنج ومعهم الأمير (داود) ببعض مناوشات ومصادمات دموية في سورية منتهزاً فرصة ابتعاد جيوش السلطان عنها.

وفي عام (٦٤١ هـ) جرت مفاوضات للصلح بين الملك (نجم الدين أيوب) والأمير (إسماعيل) على أساس إطلاق سراح الملك (غياث الدين)[١] ابن الملك نجم الدين الذي كان أسيراً لدى الأمير (إسماعيل) وأن يعترف به ملكاً وتلقى باسمه الخطب على المنابر، ولكن حدث أن ترامت أنباء إلى الأمير (إسماعيل) بأن هنالك مخابرات سرية بين الملك (نجم الدين) والخوارزميين ولذلك قطع المفاوضات الجارية مع الملك نجم الدين أيوب.

وفي أواخر هذا العام عقد كل من (داود) و (إسماعيل) اتفاقاً نهائياً مع الإفرنج، ووقعاه فعلاً، وأخذا في تنفيذ نصوصه التي تقضي بترك الجزء الأكبر من فلسطين بما فيه القدس الشريف، وبعض مراكز إسلامية مقدسة أخرى في تلك البقاع إلى الإفرنج، في عام (٦٤١ هـ)، كما اضطر الأمير (داود) الذي كان من ألد خصوم الإفرنج إلى تسليم الصخرة المقدسة وركاب البراق في المسجد الأقصى.

ولم يجد الملك (نجم الدين) مناصاً إزاء هذه الحالة الحرجة من الاستنجاد بالخوارزميين الذين استجابوا لطلبه ولبوا نداءه في عام (٦٤٢ هـ) وأغاروا على الطرق والمنافذ المؤدية واستولوا عليها، كما أعملوا في تلك الجهات الكثير من أعمال التخريب والتدمير. وفي نفس الوقت أرسل الملك (نجم الدين) من

---

[١] - كان هذا الأمير قد وقع أسيراً في قبضة الأمير إسماعيل أثناء ذهاب الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى نابلس ووقوعه أسيراً — المؤلف.

مصر جيشاً لشد أزر الخوارزميين، كما أن الأمير (إسماعيل) أرسل جيشاً لمساعدة الإفرنج، فاشتبك الجمعان ودار بينهما القتال في أطراف (غزة) وأسفرت هذه المعركة الدامية عن اندحار ذريع للإفرنج وحلفائهم، وعن غلبة الجيش المصري والخوارزميين الذين نهبوا البلاد نهباً تاماً، واسترد الجيش الإسلامي المصري القدس وبقية بلاد فلسطين في عام (٦٤٢ هـ)، وبقيت هذه البلاد في قبضة المسلمين ابتداء من هذا التاريخ حتى عام (١٣٢٦ هـ ــ ١٩١٨)[1]، واستطاع الأمير (داود) أن يحتفظ بالكرك والسلط وعجلون (في مملكة شرق الأردن الآن).

وقد واصل الجيش المصري زحفه حتى طرق أبواب الشام وألقى عليها الحصار، ولما طال أمد الحصار اضطر صاحبها الأمير (إسماعيل) للتسليم في عام (٦٤٣) مقابل تسلمه قلعتي (بعلبك) و (بصرى).

وقد بعثت هذه الانتصارات الباهرة الطمع في نفوس الخوارزميين فازدادوا طغياناً وعتواً، ولم يقنعوا بما أقطع لهم من الأراضي وما وزع عليهم من الأموال، بل انضموا إلى صفوف جيش الأمير (إسماعيل) الذي أمرهم بحصار (دمشق الشام) والاستيلاء عليها، ولكن قائداً أيوبياً ظل مستميتاً في الدفاع عنها حتى أوائل عام (٦٤٤ هـ) حيث نهض أمير (حلب) و (حماة) الذي قعد عن تقديم أية مساعدة حتى وقتذاك للملك (نجم الدين) نهض لمقاومة الخوارزميين واستئصال شأفتهم قطعاً لدابر فسادهم الذي عم البلاد، وسرعان ما زحف بجيشه للاشتباك بهم، فاضطر هؤلاء الخوارزميون لرفع الحصار عن دمشق والمبادرة إلى التحرك للقاء الجيش الزاحف عليهم من (حلب)، وما لبث أن التقى الجمعان في القصب (لعله القصير) ودار بينهما قتال عنيف أسفر عن اندحار الخوارزميين وخذلانهم، وقتل أحد قوادهم، وهروب آخر ولجأ الأمير (إسماعيل) نفسه إلى (حلب) حيث شمله أميرها (يوسف الثاني) برعايته، ولكنه فقد (بعلبك) إذ استولى عليها الملك (نجم الدين أيوب) وأسر أولاده ونساءه وذهب بهم إلى

---

[1] - كانت القدس في قبضة السلجوقيين أيام ضعف العباسيين، فاستولى عليها عام (٤٣٩ هـ) الخليفة الفاطمي المستنصر بالله. وفي عام ٤٩٢٠ استولى عليها الإفرنج وأباحوا فيها القتل سبعة أيام حيث حشدوا في المسجد الأقصى تسعين ألفاً وقتلوهم عن آخرهم.. وفي عام (٥٣٨) استردها السلطان (صلاح الدين) ــ المؤلف.

القاهرة، كما فقد الأمير (داود) هو الآخر جميع ممتلكاته ما عدا (الكرك) تاركـــاً فيها نجلاً له صغيراً جداً، ولجأ هو أيضاً إلى (حلب).

وقد أبدى أمير حلب عظيم استيائه من الملك نجم الدين، ودفاعاً عــن ملكــه عزم على أن ينتزع «حمص» من الملك «نجم الدين» فأرسل جيشاً ضرب عليها حصاراً قوياً قرابة شهرين تمكن بعدهما من انتزاعها من قبضة الأمير الأشرف، في عام (٦٤٦)، وهذا ما استثار حفيظة الملك (نجم الدين) وأثار غضبـــه ولــم يقف مكتوف اليدين بل حضر بنفسه إلى الشام لمنازلة «الناصر يوسف الثـــاني» وبعث بقائد من قواده على رأس جيش آخر لاسترداد «حمص» وما أن ترامـــى إلى مسامع الملك (نجم الدين) بعد وصوله إلى الشام أن الحملة الصليبية الســابعة التي كان يقودها «لويس السابع» ملك فرنسا، متجهة صـــوب (دميــاط) حتــى اضطر إلى عقد صلح عاجل مع (الناصر يوسف) بعد أن توسط بينـــهما خليفــة بغداد، ثم عاد سريعاً إلى مصر لإعداد العدة وتهيئة وسائل الدفاع عـــن البــلاد، ورغم ما أصابه من مرض شديد فقد انتقل إلـــى معســكره باشــمونين بناقلــة المرضى، ومع ذلك فلم يستطع طرد الصليبيين واسترداد (دميـــاط) مــن بيــن براثنهم، لانتشار الفوضى واختلال النظام بين جنوده خلال فترة مرضه، وعـــدم تمكنه وقتذاك من الإشراف عليهم، كما أن البدو من قبيلة الكنانة الذيـــن كــانوا مكلفين بحراسة بعض النواحي القريبة من ميدان القتال فقد كانوا يعيثـــون فـــي الأرض فساداً، ويعتبرون تلك الأنحاء التي خلت من جند السلطان الموكول إليــهم أمر حراستها، كلأ مباحاً لهم، ومرعى خصيباً، يتصرفون فيه حســبما يــتراءى لهم.

هذا، وقد نظر الملك (نجم الدين) قبيل وفاته، إلى أولاد الأمير (داود) نظــرة عطف وشملهم برعايته، وفي الواقع أن ولده الكبير حين رأى والده سبق أن عهد إلى ابنه الصغير قلعة الكرك، سارع بالزحف صوب هذه القلعة فاستولى عليـــها وأسر أخاه فيها، ثم جاء على عجل للقاء الملك نجم الدين وقدم إليه القلعة نظـــير إعطائه جهة أخرى، فما كان من الملك نجم الدين إلا أن سارع إلى إرسال قــائد من قواده على رأس قوة عسكرية لتسلم القلعة المذكورة وقد توفي الملــك (نجــم الدين) ولحق بالرفيق الأعلى في اليوم الخامس عشر من شـــعبان ســنة (٦٤٧) (٢٣ تشرين ثاني (نوفمبر) سنة ١٢٤٩ م).

٢ ـ أهدافه وآثاره

كان الهدف الأسمى لهذا السلطان هو تأسيس دولة قوية ذات شوكة وسلطان على نسق حكومتي (صلاح الدين) ووالده الملك الكامل، حيث كانت تبسط سلطانها على مصر وفلسطين وسورية والجزيرة، وقد تحقق هذا الهدف مع وجود فارق قليل في أواخر أيام حكمه، يستثنى من ذلك إمارتا حلب والموصل المستقلتين. وقد أعد الملك (نجم الدين) قوة عسكرية خاصة من مماليكه[1] لإظهار قوته وماله من عظيم السطوة والبأس، والواقع أن هذه القوة قد أفادته كثيراً طيلة عهده لحسن نظامها وقوة مراسلها ولكنها وهي قوة أجنبية، عن الأسرة الحاكمة وعن البلاد، قد انقلبت، أخيراً، شأنها في ذلك شأن غيرها، من القوات الغريبة، إلى معول هدام أدى في النهاية إلى اضمحلال الحكومة الأيوبية بمصر ثم في الشام.

وقد كان الملك (نجم الدين أيوب) قوي السلطة، مهاباً من قواده وموظفيه شديد الوطأة عليهم، لا يجرؤ أيهم على أن ينبس أمامه ببنت شفة أو يسأله عن شيء. كما وجه الملك اهتمامه وكامل عنايته بأعمال الإنشاء والتعمير، فشيد القصور، وأنشأ المدارس، وما قصرا الروضة والكبش بمصر إلا شاهدان على ما نقول، بل يعتبران من آثاره الخالدة على مر السنين وكر الأعوام، وزيادة على ذلك فقد خطط مدينة الصالحية كي تكون مدينة دفاعية محصنة على الحدود الشرقية.

عهد سلطنة تورانشاه

كان (تورانشاه) وهو ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب حين وفاة والده حاكماً على إقليمي الجزيرة وكردستان، وكان قد اكتسب خبرة واسعة، ومرن على سياسة الحروب والقتال خلال حروب والده ضد (بدر الدين لؤلؤ) صاحب

---

[1] - هؤلاء المماليك يطلق عليهم لقب (المماليك البحرية) وكانوا حرساً خاصاً للسلطان، أرقاء من الجركس والكرج اشتروا بالمال وكانوا يقيمون في ثكنة عسكرية بجزيرة الروضة وسط النيل.. وقد نشأت طائفة أخرى من هؤلاء المماليك في عهد السلطان قلاوون أشهر سلاطين المماليك، كان يطلق عليهم لقب «المماليك البرجية» لأنهم كانوا يقيمون عادة في الأبراج الداخلية لقلعة القاهرة ــ فالطائفة الأولى من المماليك قضت على حكومة الأيوبيين بوادي النيل ودام سلطانهم في مصر وسورية من (٦٤٨ ــ ٧٩٢ هـ).. وأما الطائفة الثانية منهم فقضت على حكومة الطائفة الأولى في سنة (٧٨٤ هـ) ودام سلطانها حتى دخول السلطان سليم الأول العثماني مصر في سنة (٩٢٢ هـ) حيث قضى على هؤلاء الآخرين ــ المؤلف.

الموصل، وضد سلطان سلاجقة الروم، حيث كان يتولى أعباء القيادة ويشرف بنفسه على شؤون الجيش والدفاع عن الحدود، وقد نال شهرة رائعة في ميادين القتال وإدارة شؤونها، فلما جاءته الأنباء بوفاة والده العظيم سافر إلى مصر على عجل، فوجد أن زوج والده «شجرة الدر» - التي كانت على جانب كبير من رجاحة العقل وحسن التدبير ــ قد أخفت نبأ وفاة والده عن الناس فبايعه الأمراء والقواد وسائر رجال الدولة وأولياء الأمور، ونادوا به ملكا على البلاد خلفا لوالده. وفي خلال هذه الفترة كان جيش الصليبيين بقيادة (سن لوئيس) قد اتخذ (دمياط) مقرا وقاعدة لحركاته العسكرية، ثم قام الصليبيون منها بحملة عسكرية كبيرة على عاصمة مصر بعد أن تدفق عليهم الكثير من الإمدادات والمعونة من قبل الإنجليز والفرنسيس. وقد كانت مدينة المنصورة أول هدف للصليبيين.. وما أن وصل (تورانشاه) إلى القاهرة حتى عمد إلى إعداد العدة وتهيئة وسائل الدفاع عنها، وحشد الجيوش لصد المغيرين. ولما كان الصليبيون قد تباطأوا كثيرا في الوصول من (دمياط) إلى (المنصورة) حيث لم يصلوا إلى ضواحيها إلا بعد نحو من شهر، فقد استفاد (تورانشاه) من هذا التباطؤ واستغله في حشد جيش للدفاع عنها بعد أن أقام التحصينات اللازمة حولها.

وفي هذا الوقت وصل جيش آخر للصليبيين وهو ألماني، وضرب حصارا قويا حول المدينة، دون مبالاة بما أعد من وسائل الدفاع عن هذه المدينة التي تحيط بها الترع والجداول المتفرعة من النيل، الذي كان لفيضانه الفضل في قلب خطط (سن لوئيس) رأسا على عقب. هذا فضلا عن هدم الجسور والمعابر الواقعة على النيل وفروعه بين المنصورة والقاهرة بأمر من الملك (تورانشاه) مما أفضى إلى تدفق السيول وإحاطتها بجيش الصليبيين إحاطة السوار بالمعصم، وقطع خط الرجعة عليهم من كل جانب.

وفي هذا الظرف المواتي شن (تورانشاه) هجوما عنيفا على الصليبيين من جميع الجهات، وضيق عليهم الخناق، وبهذا قطع الطريق بينهم وبين دمياط، فتفشى بينهم المرض، وحل بهم الجوع، وذاقوا ألوانا من البؤس والشقاء. ولم يكتف (تورانشاه) بهذا فقط، بل أقدم على عمل آخر جريء يرمي به إلى تطويق دمياط، ومنع الصليبيين من القيام بأية محاولة للهروب من أي جانب، وذلك بأن عمد إلى نقل قطع من السفن على ظهور الجمال إلى ساحل البحر، وإنزالها إلى

البحر الأبيض بعد تركيبها وتجهيزها وتزويدها بالمقاتلين، ثم أرسلها إلى مياه دمياط، وهكذا قطع طريق البحر أيضاً على الصليبيين فوقعوا في حيص وبيص. والخلاصة، أن قائد الصليبيين وجيوشهم قد اضطروا ـ أمام هذه الظروف العصيبة ـ إلى التقهقر والانسحاب دون نظام ولكن الجيش المصري الذي كان لهم بالمرصاد، لم يهيء لهم فرصة للنجاة بل أسر منهم الكثير الأغلب ثم شتت شمل الآخرين في عام (٦٤٧ هـ)، ووقع (سن لوئيس) نفسه أسيراً في يد الملك (تورانشاه) ومعه ذلك العلم المقدس الذي كان قد أخذه من دير (سان دنيس) تبركاً به، وأسر معه الكثيرون من القواد والزعماء، وذوي الرأي منهم، ولم ينج الملك (لوئيس) من ذل الأسر ومرارة الاعتقال إلا بعد أن أمضى اتفاقية تعهد فيها بتسليم (دمياط)، ودفع فدية عن نفسه وعن قواد جيشه وسائر رجاله قدرت ـ وقتذاك ـ بثمانمائة ألف دينار من الذهب، وبمغادرته للقطر المصري على الفور على ألا يعود إليه قط. وبعد أن نفذ هذه الشروط غادر مصر إلى سورية ولبث هنالك ثلاث سنين. وقد قدرت خسائر الصليبيين في هذه المعركة بأكثر من ثلاثين ألف نسمة من المقاتلين. اهـ. (معالم تاريخ العصور الوسطى).

وبعد انتهاء مشكلة الصليبيين، تفرغ الملك (تورانشاه) لتوطيد النظام بين جنوده المماليك، إذ كان القسم المسمى منهم «بالمماليك البحرية»، وهم مماليك والده العظيم، عتاة، طغاة، لا يخضعون لنظام ولا لعرف. وكان (تورانشاه) يعتز بجيش الجزيرة ضد هؤلاء المماليك العتاة، وكان يحاول جاهداً إخضاعهم بقوة هؤلاء الجزريين؛ وقد فطن الجنود المماليك إلى هذا الخطر المحدق بهم، فخرجوا عن طاعة السلطان، وقلبوا له ظهر المجن، فدبروا له مؤامرة أسفرت عن اغتياله، وكان ذلك في عام (٦٤٨) للهجرة.

ويقول بعض المؤرخين ان لشجرة الدر ـ امرأة والد تورانشاه ـ يداً في هذه المؤامرة الدنيئة، ويظهر أن لهذا القول نصيباً من الصحة، لأن هذه المرأة الطموحة الذكية كانت طامعة في الملك، وبصفتها زوجة أب وليست أماً، كانت تكره (تورانشاه)، فضلاً عن أنها كانت على اتصال بمدبري المكيدة والذين حاكوا أطراف المؤامرة من المماليك البحرية، وليس أدل على ذلك من زواجها برئيس هؤلاء المماليك الذين اغتالوا (تورانشاه) وهو المدعو (أيبك). ومن هنا لا يبعد أن تكون (شجرة الدر) مطلعة على نوايا المتآمرين قبل وقوع الجناية.

وعلى كل فإنه لمن سوء طالع المملكة الأيوبية أن تحرم من ملك قاهر، وقائد محنك مغوار، مثل (تورانشاه) الذي كان آخر سلطان أيوبي يجمع بين صفات الجندي الماهر، والإداري الحازم، والقائد المحنك. إذ كان المأمول أن تنهض المملكة الأيوبية وتتقدم على يديه تقدماً عظيماً محسوساً لولا أن عاجلته المنية واختطفته يد المنون، حيث ذهب ضحية جناية أثيمة قام بها غلمانه وغلمان والده من الجند الأجنبي قبل أن ينفذ برنامجه الإصلاحي.

ولقد شهد التاريخ بأن الملك (تورانشاه) ذلك القائد الداهية الجريء هو أول ملك يعمد إلى إنشاء سفن وينقل قطعها على ظهور الجمال إلى البحار حيث يكوّن منها أسطولاً عظيماً ينازل به خصمه فيصرعه. وقد أتى بعده بقرنين وأربع سنوات السلطان التركي (محمد الفاتح)، وقام بمثل هذا العمل تماماً أمام أسوار القسطنطينية، ولا شك في أنه قد اقتدى في ذلك بتورانشاه. والفضل للسابق كما يقولون.

وعلاوة على ذلك، فقد كفاه فخراً أنه هو الذي أباد الصليبيين، وطردهم من الديار المصرية، وأوقع «سن لويس» ملك فرنسا في الأسر.

نهاية حكومة الأيوبيين بمصر

بعد أن أقدمت جماعة المماليك البحرية العصاة على ارتكاب جريمتهم الشنعاء. وهي اغتيال (تورانشاه)، عمدوا إلى تولية (شجرة الدر) ــ زوجة أبيه ــ مكانه على عرش مصر، وألقوا الخطب على المنابر وسكوا العملة باسمها الذي اصطلحوا عليه وهو (المستعصية الصالحة ملكة المسلمين أم الملك المنصور خليل) ولقد بادرت الملكة إلى تعيين (معز الدين أيبك) رئيس جماعة المماليك البحرية قائداً عاماً لجيوش مصر. بيد أن سلطنة (شجرة الدر) لم تعمر طويلاً لمعارضة الأمراء والقواد بمصر لها، وإصرارهم على تعيين ملك من أسرة بني أيوب حتى تمكنوا في النهاية من تنصيب الملك (الأشرف موسى) ابن بنت الملك الكامل وابن آخر أمير أيوبي في اليمن مكان (شجرة الدر) وكان ذلك في عام (٦٤٨ هـ) (٥ أغسطس سنة ١٢٥٠ م)، ولكن الحكم والنفوذ في الحقيقة كان يتركز في يد القائد العام (معز الدين أيبك)[١].

---

[١]- يقول السيد أمير علي مؤلف (تاريخ الإسلام المصور) أن (آيبك) محرف (أغابك) والأقرب إلى الذهن (آي بك) بمعنى الأمير قمر ــ المؤلف.

وبعد عام توترت العلاقات بين مصر وبين الملك الناصر يوسف حاكم حلب، واحتدم وطيس القتال بين قوات الفريقين، ودام بينهما النزاع ثلاث سنوات، وأخيراً عقد صلح بين الملك الناصر وبين معز الدين أيبك عام (٦٥٢ هـ) وذلك بفضل تدخل خليفة بغداد لحسم النزاع ووضع حد لسفك الدماء.

وفي عام (٦٥٣ هـ) أعلن معز الدين أيبك استقلاله التام في حكم مصر، بعد أن خلع الملك الأشرف، وبعث به إلى أقربائه في اليمن، وهكذا انتقلت السلطنة الأيوبية العتيدة بوادي النيل إلى أيدي غلمانهم المماليك، وتكررت تلك الغلطة بل تلك المأساة السياسية والعسكرية حين أودى بسلطنة العباسيين وقضى عليها، أولئك الذين جيء بهم لتأييدها والدفاع عنها. فكان الواجب يحتم على الملك الكامل الأيوبي ــ قبل أن يجند الجند من هؤلاء المماليك العتاة – أن يلقي نظرة على تاريخ العباسيين وخلافتهم ليتخذ عبرة بما آل إليه أمرهم بسبب إكثارهم من الجند المماليك.

٢ ـ الحكومة الأيوبية بحلب (٥٧٩ ـ ٦٨٥ هـ)

أقطع السلطان صلاح الدين بلاد حلب هذه ــ لأول مرة ــ لابنه الملك الظاهر «غازي» وله من العمر وقتذاك، أحد عشر عاماً. وبعد بضعة أشهر ألقى عبء إدارتها على عاتق أخيه الملك العادل. وفي عام (٥٨٢ هـ) شرع يقسم البلاد الخاضعة لسلطنته العريضة من جديد، فنصب أخاه الملك العادل أتابكاً (قيماً) لابنه الملك العزيز بمصر، وأعاد (حلب) إلى حكم الملك الظاهر غازي وزوجه (ضيفة خاتون)[1] ابنة الملك العادل.

ولقد أخلص الملك الظاهر كل الإخلاص لوالده طيلة عهده الزاهر إذ اشترك وساهم كتابع له، في حروبه الكثيرة وتضحياته الكبيرة أثناء نضاله واشتباكه مع الصليبيين، وقد ظل حريصاً على الظهور بهذا المظهر أيضاً مع عمه الملك العادل بعد وفاة والده. وكان الهدف الأسمى لهذا الملك هو ضمان إيجاد توازن بين ملوك وأمراء الأسرة الأيوبية ليتمكن بذلك من الدفاع عن البلاد الإسلامية التي كان يحيق بها الشر ويتهددها الخطر من كافة النواحي، فلا غرو أن يبادر إلى تحصين قلعة حلب حتى أضحت على جانب عظيم من قوة المناعة والإحكام.

---

[1] – المشهور أن اسمها صفية خاتون ــ المترجم.

وقبل وفاته في عام (٦١٣ هـ)، كان قد أوصى بالملك من بعده لابنه الصغير الملك العزيز «محمود» الذي أنجبه من ابنة عمه الملك العادل.

وكان يرمي من وراء ذلك إلى الاستفادة من نفوذ الملك العادل والحصول على معونته لتوطيد حكم أسرته في حلب، فتولى الملك الأشرف موسى ــ نجل الملك العادل ــ قيادة جيوش حلب، ودافع عن هذه القلعة العاتية دفاع الأبطال ضد غارة السلطان كيكاوس السلجوقي، وكان يتولى عبء تصريف الأمور الإدارية كل من «طغرل» نائب الملك الظاهر، والقاضي بهاء الدين ابن شداد الشهير. واستمر الحال على هذا المنوال في عهد الملك العادل والملك الكامل وابنه من حيث الاعتراف بسلطنة الملك العزيز الذي باشر سلطانه الملكية في عام (٦٢٨) والذي ملأ المناصب الهامة من بين رجالاته وأخصائه واستولى على قلعة «الشيزر» بمعونة خاله الملك الكامل وبفضل تعضيده له كما أن قلعة «البيرة» القائمة على نهر الفرات قد آلت إليه من ميراث عمه الملك الزاهر «داود» ولقد نهضت مدينة حلب، وتقدمت تقدماً محسوساً في عهد والده وطيلة أيامه هو في النواحي العمرانية والتجارية وغيرها، كما اتسعت رقعة بلاده في حدود الشام والجزيرة كثيراً.

وفي عام (٦٣٤)، توفي الملك العزيز فصعدت روحه إلى بارئها وهو لا يزال في عنفوان شبابه، تاركاً ملكه وعرشه لابنه الملك «الناصر يوسف» البالغ من العمر ــ حينذاك ــ سبع سنوات فقط[١].

ولقد تولت (ضيفة خاتون) ــ جدة الملك الناصر يوسف ــ مقاليد الأمور إثر أزمة سياسية عصيبة، وصارت نائبة الملك، فلما توترت العلاقات بينها وبين الملك الكامل، اتفقت مع الملك الأشرف حاكم الشام الذي تمكن من الدفاع عن بلادها حين أغارت الجيوش المصرية عليها. وقد نهض قائد جيشها «الملك المعظم» ــ نجل السلطان صلاح الدين ــ برد الأعداء على أعقابهم، وألحق بهم خسائر جسيمة.

وعلاوة على ذلك، فقد اتحدت مع السلطان «كيخسرو السلجوقي» جهاراً، تعزيزاً لنفوذها، وتوطيداً لمركزها، وقبلته متبوعاً لها حيث جعلت الخطبة

١ـ الملك الناصر هذا قد ولد له من زوجته فاطمة خاتون ابنة الملك الكامل ــ المؤلف.

الأمور، وبسط سلطانه على معظم (سورية) مبتدئاً بالعريش حتى ضفاف الفرات، ومنحه خليفة بغداد لقب (السلطان)؟ بيد أن القدر لم يمهله طويلاً ليتمتع بما نال من مجد وأبهة وسؤدد وسلطان، إذ سرعان ما ظهر شبح الخطر المغولي على البلاد الإسلامية جمعاء، لأن (هلاكو) إمبراطور المغول قد زحف بجحافله خلال عام (٦٥٨ هـ)، إلى حلب التي طال انتظار حاكمها الملك «الناصر يوسف» لوصول المدد من مصر إليه دون جدوى، مما اضطره بعد دفاع مجيد ومحاولات يائسة لصد المغول، إلى مغادرة حلب، والتوجه إلى دمشق الشام. ومع ذلك فلم تقدر له النجاة، إذ وقع أسيراً في يد (هلاكو)، فقضى عليه وعلى الحكومة الأيوبية في حلب ــ بالتالي ــ قضاء نهائياً ومبرماً.

٣ ـ الحكومة الأيوبية في الشام

ذكرنا سابقاً أن السلطان صلاح الدين قد قام بتقسيم بلاده قبل مماته على أنجاله، وكانت البلاد الشامية من نصيب نجله الأكبر الملك الأفضل، ولم يمض على وفاته طويل وقت حتى دب الخلاف. وتحركت عوامل الشقاق بين الأخوين: الملك الأفضل علي، والملك العزيز عثمان حاكم مصر، وأخيراً تدخل عمهما الملك العادل في الخلاف الذي طال أمده وحوصرت دمشق مركز حكومة الملك الأفضل مراراً والخلاف لا يزال ينشب أظفاره، كما ظلت الأمور مضطربة وغير مستقرة في الشام وسورية حتى وفاة الملك العزيز واندحار الملك الأفضل، ودخول هذه البلاد تحت حكم الملك العادل. وفي عهد الملك المعظم عيسى ــ نجل الملك العادل ــ اضطربت الأمور مرة أخرى في هذه البلاد كنتيجة حتمية لغارات الفرنجة المتواصلة عليها. وبعد وفاة الملك المعظم، تولى نجله الملك الناصر أمور البلاد إلا أن الملك الكامل قد أبى أن يترك له الفرصة، فهاجمه بجيش جرار، وقد انضم الملك الأشرف موسى ــ أخو الملك الكامل ــ إلى جانبه في بادىء الأمر، ولكنه عاد وانحاز إلى جانب أخيه أخيراً، مما أدى إلى سقوط (دمشق) في يده، وصار الملك الأشرف موسى حاكماً على دمشق في علم (٦٢٦) للهجرة.

وبعد فترة من الزمن اضطر الملك الأشرف إلى الاتفاق مع سلطان الروم (كيقباد السلجوقي) لصد خطر الخوارزميين سوياً عن بلادهما.

وقد أرسل – لهذا الغرض – جيشاً عرمرماً من جيوشه تحت قيادة الأمير «عز الدين عمر الحكاري»، للاشتراك مع حليفه (السلطان علاء الدين كيقباد) في قتال ومناوأة الخوارزميين (الجلاليين). فألحقت جحافل الحليفين هزيمة منكرة بعدوهما المشترك على مقربة من (أرزنجان). في اليوم الثامن بعد العشرين من رمضان عام (٦٢٧) للهجرة. وبعد حقبة من الزمن تفاقم الخلاف بين الملكين الأشرف والكامل وبين حليفهما السلطان علاء الدين كيقباد الذي زحف على بلاد الجزيرة واستولى على شطر منها، ولم يرتد عنها إلا بعد عامين أي في عام (٦٣٣) للهجرة.

وفي أخريات حياة الملك الأشرف قد دب دبيب الخلاف وتوترت العلاقات بينه وبين الملك الكامل الذي أمر الجيش المصري بالزحف إلى الشام. وبعد قليل توفي الملك الأشرف. فأخذت علائم الشقاق والخلاف تنشب أظفارها بين أمراء وملوك بني أيوب في عهد الملك العادل الثاني، واتفق الملك الصالح إسماعيل حاكم الشام مع الفرنجة لمناهضة الصالح أيوب حاكم مصر الذي شمر عن ساعد الجد، واستطاع التغلب على خصومه المتحالفين ضده في معركة (غزة)، وذلك بفضل مساعدة الخوارزميين له، وكان ذلك في عام (٦٣٤) للهجرة و (١٢٤٤ م)، وهكذا تمكن من بسط سلطانه على (سورية) من جديد، وتوحيدها مع مصر.

وبعد وفاة الملك المعظم تورانشاه نجل الملك الصالح أيوب، بادر الملك الناصر يوسف حاكم حلبَ إلى الاستيلاء على دمشق الشام فكان هذا الملك آخر ملك أيوبي على الشام. وفي الحق قد ازدهرت المدن والقرى السورية في عهد الأيوبيين ازدهاراً كبيراً، ولا غرو فقد كان الأمراء والأميرات والزعماء، والقواد يتسابقون – في هذا العهد – في إنشاء الدور العامة. والقصور والمدارس، ولا سيما في دمشق الشام التي تقدمت ونهضت نهضة عظيمة حيث أضحت مجمع العلماء والفضلاء ومركز العلم والعرفان، يؤمها الناس من كل صوب وفج عميق.

ويقول الرحالة الشهير (ابن جبير) – الذي كان معاصراً للسلطان صلاح الدين والذي زار هذه المدينة في عهده – أنه كان في الشام ما يقرب من عشرين مدرسة علمية، ولم يمض على هذا طويل وقت حتى بلغ عدة المدارس المئتين.

٤ـ الحكومة الأيوبية بحماة

بعد دخول (حماة) تحت حكم الأيوبيين، أعطاها السلطان صلاح الدين لنجل أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر، وظل أحفاد هذا الأمير يحكمونها كابراً عن كابر، منتهجين في حكمها سياسة الود والتفاهم؛ وتقديم فروض الولاء والطاعة لكبار أمراء وملوك أسرة أيوب إلى حد ما. هذا ولما انقض جيش (هلاكو) المدمر على البلاد، فلم يقووا بطبيعة الحال على الصمود والثبات أمام سيولهم الجارفة، وآل مصيرهم إلى التبعية لدولة المماليك، بمصر، وذلك بعد اندحار جيوش التتر، وانسحابهم من البلاد السورية، حيث انقرضت هذه الأسرة نهائياً عام (٦٩٨) للهجرة.

وكان المؤرخ الكبير والعالم والعلامة الشهير (الأمير أبو الفداء إسماعيل) ابن أخي آخر ملك على حماة محبوباً من السلطان محمد الناصر قلاوون، حيث شاركه، وشد أزره، في جميع حروبه وفي أيام جهاده ضد الفرنجة، فغمره بفيض من عطفه، ومنحه لقب السلطان، وحقوق السلطنة. ولقد نهضت مدينة (حماة) وتقدمت في عهده تقدماً عظيماً، وازدهرت فيها العلوم والفنون.

والمعروف أنه مات ودفن في هذه المدينة. هذا وقد خلف السلطان أبا الفداء، ابنه الملك الأفضل محمد في تسلم عرش حماة غير أنه لم يحافظ على ثقة ملك مصر فقبض عليه وزج به في السجن بقلعة الشام وهكذا انقرضت حكومة الأيوبيين.

٥ـ الإمارة الأيوبية في حمص

استولى السلطان صلاح في عام (٥٧٩) للهجرة، على بلاد حمص، وبعد أربع سنوات من استيلائه عليها منحها للأمير محمد ولد عمه شيركوه. وفي عام (٦٤٦ هـ)، استولى الملك الناصر يوسف الثاني حاكم حلب على هذه البلاد ولبث يحكمها فترة من الزمن، ولكن حكمه هذا لم يعمر طويلاً إذ انتقل إلى أحفاد (شيركوه) الذين ظلوا يحكمون البلاد حتى عام (٦٦١) حين انقضت جيوش التتر بقيادة (هلاكو) على البلاد السورية، واضطرار هؤلاء الحكام إلى الكف عن المقاومة، وفتح أبواب قلعة (حمص) لهم، وهكذا انقرضت أسرة (شيركوه) من حمص.

٦-الإمارة الأيوبية باليمن

من المعلوم لدينا أن الملك المعظم «تورانشاه» أخو السلطان صلاح الدين قد غزا اليمن وفتحها في عام (٥٦٩ هـ)[1]، وترأس حكومتها مدة عامين باسم أخيه صلاح الدين، ثم عاد إلى مصر تاركا على أريكة حكمها نائبا عنه ولما توفي «تورانشاه» أسندت حكومة اليمن إلى أخيه الملك العزيز طغتكين في علم (٥٧٩ هـ)، ولبث هذا الأمير في اليمن حتى توفاه الله إلى رحمته في اليوم السادس عشر من شوال من عام (٥٩١)، حيث خلفه في منصبه ابنه المعز إسماعيل الذي لقي حتفه مقتولا في عام (٥٩٨)، فخلفه أخوه الناصر أيوب الذي قضى نحبه هو الآخر في اليوم الثاني عشر من المحرم من عام (٦١١). وبذلك انتقل الملك إلى «المسعود صلاح الدين يوسف ابن الملك الكامل» الذي سار إلى اليمن على رأس قوة عسكرية كبيرة. وفي اليوم الثاني من شهر المحرم من عام (٦١٢) وصل (زبيد) عاصمة اليمن، وما أن تم له الاستيلاء على الثغر، واستتب له الأمر فيها. حتى أعاد (سليمان ابن تقي الدين عمر بن شنهشاه) إلى مصر، واشتبك هو في القتال مع إمام اليمن. وفي اليوم الثامن من جمادى الآخرة من عام (٦١٤)، استولى على (صنعاء) وفي عام (٦١٩) قفل راجعاً إلى مصر بعد أن سلم مقاليد الحكم، وزمام الأمور فيها إلى أبناء الرسولي (الرسولية) اتباع الأيوبيين، وفي رجب من عام (٦٢٤) للهجرة اضطر إلى العودة إلى اليمن حيث ألقى القبض على أولاد الرسولي، وزج بهم في أعماق

[1] - ورد في (مرآة الزمان ج ٣، ما ملخصه): إن شمس الدولة تورانشاه الذي توجه إلى فتح اليمن مر في طريقه بمكة المكرمة ودخلها وما كان من أميرها إلا أن أغلق باب الكعبة وانسحب إلى جبل أبي قبيس متحفزاً وأما تورانشاه فقد دخل الحرم المكي وصلى به فتقدم نحو الكعبة قاصداً الطواف حولها وما أن رأى الكعبة مقفلة حتى رفع يديه إلى الله تعالى مناجياً: إلهي إذا كنت قاصداً هذا المكان بنية حسنة فافتح علي هذا الباب. قال هذا وشد القفل وفتح الباب بإذن الله تعالى فدخل الكعبة وصلى بها أيضاً. ولما بلغ نبأ هذا إلى أمير مكة المقيم بجبل أبي قبيس نزل من عليائه وذهب إلى شمس الدولة تورانشاه واعتذر إليه. فقبل عذره وخلع عليه خلعاً سنية وأبقى في منصبه. ثم واصل تورانشاه السير بالعسكر حتى دخل اليمن واصطدم بقوات عبد النبي بن المهدي فكسره شر كسرة. وكان هذا المتغلب على اليمن في غاية من الظلم والجور فعدت أعماله الجائرة الصبيانية حد المعقول حيث كان قد بنى قبر والده وقبة ضريحه من الذهب الإبريز وأجبر الأهالي لأن يحجوا إلى هذا الضريح بدل الكعبة المعظمة. وقد تمكن الملك المعظم تورانشاه من القبض على هذا الطاغية وقتله والاستيلاء على أمواله وأموال قبة والده من الذهب والجوهرات ـــ المؤلف.

السجن ثم عاد فأطلق سراحهم في نفس اليوم. وعاد إلى مصر في نفس العام بعد أن عهد بشؤون الحكم إلى (نور الدين عمر بن علي الرسولي) الذي ما لبث أن أعلن استقلاله بالحكم بعد فترة وجيزة. وهكذا وضع أساس الحكومة الرسولية باليمن.

٧ـ الحكومة الأيوبية بالجزيرة

قامت هذه الحكومة منذ اليوم الذي تأسست فيه حتى عام (٦٤٣) للهجرة في مركزها بمدينة (ميافارقين)[١]. وقد استولى المغول على بعض البلاد التابعة لهذه الحكومة في عهد (المظفر غازي). فزالت على أثر ذلك هيبة الحكومة، وتضاءل نفوذها، ورغم ذلك بقيت بعض البلاد ذات الأهمية الثانوية في الجزيرة وكردستان في أيدي من تبقى من الأيوبيين ومنهم أمراء (حصن كيف)[٢] الذين عمروا حتى القرن العاشر الهجري باسم (الملكان = الملوك).

نظرة عامة

إن السلطنة الأيوبية التي أقيمت دعائمها على أنقاض دولة الفاطميين في «مصر» والأتابكية في «سورية»، كانت على جانب عظيم من القوة والنفوذ وعلو الشأن وحسن الإدارة والنظام، وذلك على الرغم من هجمات الصليبيين المتتالية عليها خلال عهود السلطان صلاح الدين والملك العادل والملك الكامل. وقد اعتراها حقيقة في بعض الأحايين شيء من الوهن والضعف، وساءت إدارتها في بعض الظروف ولا سيما في عهد الملك «العادل الثاني»، ولكن الملك الصالح (نجم الدين أيوب) قد استطاع التغلب بثاقب فكره، وقوة شكيمته على أهواء الأمراء المستبدين، ولم يتركهم في طغيانهم يعمهون، فوضع حداً لسوء الإدارة التي كانت تسود مصالح الدولة، وبذلك أعاد للدولة مجدها السابق التليد. وهكذا فعل ابنه (تورانشاه) الذي لولا شدته التي أثارت عليه مماليكه الخاصة، لكان من المنتظر جداً أن يقوم بدور خطير لرفع شأن الحكومة الأيوبية، إذ كان قائداً محنكاً ممتازاً، وإدارياً حازماً.

---

[١]- الآن تسمى (سليوان) نسبة إلى العشيرة الكردية الكبرى الشهيرة بالسليوانية المحرفة عن السليمانية لأن الأكراد ينطقون باسم (سليمان) هكذا (سليوان = سليفان) وما ورد في الخرائط التركية (سيلوان) تصحيف وغلط.

[٢]- الآن تسمى (شرناخ) ولا تزال بجوارها عشيرة كردية عريقة في القدم تدعى (ملكان) ــ المترجم.

هذا ولم يكن نشاط السلاطين والملوك الأيوبيين قاصراً على ميداني السياسة والحكم فقط، بل سجل لهم التاريخ جولات محمودة وآثاراً ناطقة في ميادين العلم والمعرفة والاقتصاد أيضاً. كما عنوا بالزراعة وتحسين سبلها ووسائل تقدمها ورقيها من حفر الترع إلى إقامة الجسور وتنظيم وسائل الري وإلى غير ذلك. كما بذلوا جهوداً مشكورة لتنشيط التجارة في الداخل والخارج، وليس أدل على ذلك من تلك المعاهدات التجارية الكثيرة التي عقدوها مع الدول الأوروبية.

أما الجيش الأيوبي فكان فريقين: أحدهما يتألف من الحرس الخاص وهم المماليك، وثانيهما كان من الجنود المرتزقة التابعين للأمراء والقواد الخاضعين لسلطان الملوك. ومثل هذه التشكيلات كانت ذات نفع وفائدة حيث كانت تتفق وموارد الحكومة العامة التي كانت تخضع للظروف والملابسات في تلك العهود البائدة. وكان الجيش المملوكي مشكلاً من عبيد اشتروا وتربوا تربية عسكرية خاصة في كنف الملوك وتحت إشرافهم، وكان مماليك هذا الجيش في بادىء الأمر على جانب عظيم من الدربة، وحسن النظام، ومخلصين في تحقيق الغاية التي وجدوا من أجلها، مثلهم في ذلك كمثل أتراك العباسيين، وانكشارية العثمانيين. ولكنهم ما لبثوا أن ضعف شأنهم، واختل نظامهم، وكثر شغبهم، وانتهزوا فرصة ضعف الحكومات وانحلالها، فانقلبوا إلى شر مستطير، وأضحوا بلاء على الحكومات، والملوك الذين كانوا يعتمدون عليهم.

ولا غرو أن الدولة الأيوبية، تلك السلطنة الإسلامية الكبرى قد وضعت أساس تقدم عظيم، ونهضة كبرى للعالم الإسلامي، حتى أضحت تلك السلطنة كعبة العلماء والفضلاء يحجون إليها من كل صوب حيث كان هؤلاء العلماء يلقون لدى ملوكها وأمرائها كل تشجيع وكل عناية مما شجعهم على خدمة العلم والفنون كما أدخلوا تحسينات كبيرة وواسعة على نظم الإدارة وعلى طرق الجباية ونظموا كثيراً من أصول ومراسم المكاتبات السلطانية، والألقاب والعناوين الحكومية. وتقدمت نظم الإقطاعات في المملكة الأيوبية تقدماً كبيراً، وقد انتقلت هذه النظم الإقطاعية مع الصليبيين إلى أوربا حيث تأصلت وسادت فيها؛ شأنها شأن غيرها من عادات وتقاليد فرسان القرون الوسطى بأوروبا، تلك العادات والتقاليد المقتبس معظمها من أصول وعادات العهد الأيوبي في الشرق، مثال ذلك شعار الملوك وأسرهم.

الفصل الحادي عشر

حكومة بني أردلان (٦١٧ - ١٢٨٤ هـ)

جاء في كتابي (شرفنامه) و(الأربعة قرون الأخيرة للعراق)، أن هذه الحكومة كانت على جانب عظيم من القوة وعظم الشأن. كما يروي لنا أهالي منطقة (أردلان) أن تاريخ هذه الحكومة قديم جدا يرجع إلى أوائل أيام العباسيين بل إلى عهد الساسانيين. ولكن ليس هنالك أية وثيقة يعتد بها نستدل منها على صحة الشق الأخير من هذه الرواية. ومهما يكن من أمر فالذي لا شك فيه أن هذه الحكومة قد تأسست في أواخر عهد العباسيين حسبما يؤخذ من رواية (ميجر لونجريك) من أن (جنكيزخان) كان قد اعترف بهذه الحكومة ومن قول الدكتور (فريج) من أن جنكيزخان قد عين مؤسس هذه الحكومة واليا على تلك المنطقة في بادىء الأمر. ولما كان المغول قد استولوا على إيران في عام (٦١٧ هـ) في خلافة الناصر لدين الله فمعنى هذا أن هذه الحكومة الأردلانية قد عمرت أكثر من ستة قرون ونصف قرن، مستقلة تارة، وتابعة لدول كبيرة تارة أخرى، لأنها زالت نهائيا عن عالم الوجود سنة (١٢٨٤ هـ) ولنستعرض الآن بالتفصيل نشأة هذه الحكومة فنقول «إن التاريخ لا يذكر شيئا قاطعا في هذا الصدد، اللهم إلا ما جاء في (شرفنامه) من القول بإن (بابا أردلان) وهو من أسرة (أحمد بن مروان) – مؤسس الحكومة المروانية الكردية في كردستان المركزي – قد قدم من (ديار بكر) وحط الرحال بين أحضان عشيرة (كوران ــ جوران) وأقام بينها[1]، ثم انضم إلى جيش المغول حينما استولى (جنكيزخان) على إيران؛ فعينه حاكما على إقليم (شهرزور).

وفي هذه النقطة فقط تتفق رواية صاحب كتاب (الأربعة قرون الأخيرة للعراق) مع رواية (شرفنامه) بهذا الخصوص ولكنها تزيد وتقول إن (بابا أردلان) من أسرة قديمة نبيلة من (ديار بكر) قد هاجر إلى عشيرة (كوران) وعلا شأنه بينهم، ولم يمض على مقامه بين ظهرانيهم طويل وقت حتى تمكن

[1] - انقرضت الحكومة المروانية في أواخر القرن الخامس الهجري، ومن المحتمل جدا أن «بابا أردلان» قد فر في هذا الوقت من ظلم وعسف الوزير أبي جهير الذي كان له يد في القضاء على هذه الحكومة الكردية ــ المؤلف.

من بسط نفوذه على عشائر (شهرزور) وعلى سكان الوديان الشرقية لإقليم (هاورامان) فأخضعهم لسلطانه تماماً، مما حمل (جنكيز خان) على الاعتراف بحكومته تلك، حين قدم إلى هذه الجهات. هذا ويقول الرحالة المستشرق الإنجليزي الشهير (ريج) أن الأسرة الأردلانية كورانية أصلاً ومن فرقة (ماموبي) ولا شك في أن بحوث هذا المستشرق؛ وما وصل إليه من النتائج، أقرب إلى العقل والصواب؛ إذ من المعقول بل من المستساغ أنه وصل إلى السيادة وبسط نفوذه على عشائر تلك الجهات كلها بفضل تأييد عشيرته الكورانية وتعضيدها له، وهكذا تمكن من وضع أساس حكومة وطنية عمرت عصوراً طويلة رغم الحوادث العاصفة ووقائع التاريخ[1].

وإن (شرفنامه) ليفتقر إلى معلومات عن (بابا أردلان) وبضعة من ذراريه، ولكن (ميجر لونجريك) يقول إن (كلول بك ابن بابا أردلان) قد أخضع بنفسه (أربل) لحكمه أيضاً؛ وإن عهد أميرين من أمراء هذه الأسرة وهما (خضر بك ابن كلول بك) و(إلياس بك ابن خضر بك) قد انقضى بسلام دون قتال أو نزاع مما زادهما قوة وبأساً.

ولقد صادف ظهور الحكومة الجلايرية، في العراق، في القرن الثامن الهجري، عهد أمير ضعيف من الأردلانيين يلوح أن (خضر بك بن إلياس بك)، حيث استولى الجلايريون على القسمين الشمالي والغربي من البلاد في عهد هذا الأمير، بل وبذلوا الكثير من المحاولات للاستيلاء على البقية الباقية من البلاد ولكن استماتة الأمير الجديد وهو (حسن بك بن خضر بك) في المقاومة، وما اتخذه من التدابير الفعالة، قد حال كل ذلك دون تحقيق أهداف المغيرين، ثم حدث أخيراً وفي القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وفي عهد حكومة (مأمون بك)[2] القوية أن استردت تلك البلدان الشمالية والغربية من مغتصبيها الجلائريين، وبذلك صار نهر الزاب الكبير (زى بادينان) حداً شمالياً لحكومة أردلان التي بادرت فوضعت حامية عسكرية في قلعة (رواندز).

---

[1]- يذكر الدكتور «فريج» وهو المعروف بتعصبه الظاهر للترك، في كتابه «كرد لر» أصل بابا أردلان بطريقة تخالف كل ما جاء هنا ــ المؤلف.

[2]- إن مأمون بك هو ابن «منذر بك بن حسن بك» الذي قاوم الحكومة الجلايرية في العراق مقاومة عنيفة بكل شجاعة وثبات... وذكر المؤرخ «علي أكبر» أن حكم «مأمون» قد عمر من عام (٨٦٢) حتى عام (٩٠٠) للهجرة، أعني ثمانية وثلاثين عاماً اهـ «دائرة المعارف الإسلامية» ــ المؤلف.

ولا شك في أنه لم تظهر قط حكومة قوية ذات شأن بين الحكومات المجاورة للعراق في تلك الأيام مثل هذه الحكومة الكردية الباقية آثارها تطاول الدهر في غربي إيران.

وفي هذا العهد كانت تقيم في ولاية (شهرزور) نفس القبائل والعشائر والأسر القديمة التي تسكنها الآن، ولم يكن قد جاءها بعد من إيران عشائر «الزنكنه والهماوند والجاف» أما الأسرات الأخرى مثل «الشيخان والطالباني والجباري» فلم تكن قد تكاثرت بعد حتى تستحق أن يطلق عليها أسماء العشائر، وقد كانت الوديان الواقعة في شرق (كركوك) في أيدي القرويين والفلاحين الأكراد المختلطين بغيرهم، ولم تكن توجد هنالك حينذاك حياة مدنية بالمعنى الحديث إلا بقدر معلوم، وكانت البلدان التالية قلاعا ومراكز لحكومات وطنية صغيرة وهي (درنه، بنجوين ــ وتقعان الآن على الحدود العراقية والإيرانية ــ وكذا: كوي. حرير. رواندز. عقره).

وهنالك في شمال الزاب الكبير كانت تقع أملاك إمارة العمادية ويتبعها كل من العقرة والدير ودهوك وأحيانا زاخو. وقد خضعت هذه الإمارة لحكومة (أردلان) قرابة مائتي عام ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي حتى الرابع عشر الميلادي، حيث دخلت في حوزة الحكومة الجلايرية. وقد قامت في هذه البلاد ابتداء من القرن الرابع الميلادي أسرة مالكة تدعى (بادينان ــ بهادينان) حيث كان سكان الإمارة من العشائر الهكارية. كما كانت بلاد (مكري) هي الأخرى خاضعة لحكومة أردلان.

وكان لمأمون بك ثلاثة أبناء ذكور، هم (بيكه بك، سرخاب بك، محمود بك) فلما أدركته الوفاة وصعدت روحه إلى بارئها، خلفه في الحكم ابنه الكبير (بيكه بك) الذي لم يتمكن من بسط نفوذه على جميع أرجاء المملكة، الأمر الذي أدى إلى استقلال كل من أخويه بناحية من البلاد. أما البلاد التي بقيت خاضعة لبيكه بك فهي (قلعة زلم، تغه سو، شميران، هاوار، سيمان، داودان، أوراودان، كلعنبر). والظاهر أنه لم يقع ما يستحق الذكر من الوقائع الهامة في عهد (بيكه بك)، وإذا كان شيء قد حدث فإننا نجهله تماما.

وإذا نظرنا إلى تاريخ توليه الإمارة عام (٩٠٠) للهجرة، لأدركنا أنه كان معاصرا للسلطان (سليم الأول) العثماني؛ حيث يقول (الميجر لونجريك) ان

إمارة (أردلان) قد خضعت ــ مثل الإمارات الكردية الأخرى ــ لسلطان الدولة العثمانية، بعد انتصار العثمانيين على الإيرانيين في معركة (جالديران).. ولكني أرى أن هذا من الأمور المشكوك فيها جداً، لأن مولانا حكيم الدين (إدريس البدليسي) لا يذكر شيئاً عن هذا في حملة كردستان. ثم خلف (بيكه بك) نجله (مأمون بك) الذي كان معاصراً للسلطان سليمان القانوني (٩٢٦ ــ ٩٧٤ هـ)؛ وقد كان تابعاً سياسياً للحكومة الإيرانية الصفوية، الأمر الذي ساعده على بسط نفوذه وسلطانه وتوسيع حدوده الجغرافية حتى امتدت إلى (زي كويه = الزاب الصغير)، فشملت هاورامان، شهرزور، قرەداغ، وسهل كرميان (عبر جبال قره داغ وطريق كفري ــ كركوك).

ولا شك في أن هذا التوسع قد أثار ثائرة الحكومة العثمانية وقلقها، فأخذت في بادىء الأمر تعمل على الوقوف في سبيل هذا التوسع بأن وضعت قوة من الانكشارية في (كركوك)، وجردت حملة عسكرية كبيرة بقيادة (حسين باشا) في عام (٩٤٥ هـ) على (مأمون بك) بحجة تأمين الطريق إلى (بغداد)، وقطع دابر فساد عشائر (شهرزور) التي كانت تتعرض دائماً للمارين في هذا الطريق. وكان معظم جنود هذه الحملة من جند الأمراء الكرد الذين كان من بينهم (سلطان حسين) أمير العمادية. ولكن الغرض الحقيقي لهذه الحملة لم يكن سوى الاستيلاء على (مريوان = مهروان) و (سنه = سنندج) وإذا لم يتم ذلك فلا أقل من انتزاع إقليم (شهرزور). ولقد استمات (مأمون بك) في مقاومة هذا الجيش، ودافع دفاع الأبطال عن البلاد إلى أن اضطر أخيراً إلى الاعتصام بقلعة (زلم) التي ضيق عليها العثمانيون الحصار، ولما رأى (مأمون بك) أنه لا قبل له بمواصلة الدفاع، إنسل خفية من القلعة وذهب إلى استانبول[1] مستنجداً بالسلطان، ولكنهم زجوا به هنالك في أعماق السجون. أما جيش (حسين باشا) فقد عاد من حيث أتى بعد أن خرب البلاد وأعمل فيها يد النهب والسلب.

ولما تولى (سرخاب بك) عم (مأمون بك) زمام الأمور استؤنفت العلاقات الطيبة بينه وبين (طهماسب) شاه إيران، واستولى على بلاد ابن أخيه بسهولة. فما كان من السلطان سليمان إلا أن أطلق سراح (مأمون بك) في استانبول وأسند

---

[1] - تقول رواية أخرى أن مأمون بك وقع أسيراً وأخذ إلى (إسلامبول) على هذا النحو (كوردلر ص ١٧٢).

إليه لواء (الحلة)؛ كما أسند إلى أخيه (إسماعيل بك) سنجق (ســـروجك). ولكــن (سرخاب بك) كان قد تملك ناصية البلاد وأعد العدة كاملة للدفاع، مما أدى إلـــى فشل محاولات الأخوين لانتزاع البلاد من قبضة عمهما.

وفي عام (٩٤٨) للهجرة وقع القاص ميرزا ــ أخو الشاه طهماسب ــ فـــي أيدي الجنود الكرد فأخذوه إلى (سرخاب بك). ولكن لم يمض طويل وقت حتـــى زحف (إسماعيل ميرزا) بجيش إيراني من القزلباشية حاصر به (سرخاب بـــك) مع (القاص ميرزا) في قلعة (مريوان) فاضطر (سرخاب بك) إلى تسليم (القـاص ميرزا) إليه؛ وبذلك صان بلاده وحفظها من تخريب القزلباشية لها[1].

ولما رفع (علي باشا) والي بغداد أنباء هذه الحوادث إلى الباب العـالي فـي إستانبول، غضب الباب العالي وحمل حملة شعواء على ضعــف (علـي باشـا) وتقصيره في اتخاذ التدابير الكافية، وبادر إلى عزله من منصبه، وعيـــن بدلــه (محمد باشا البلطه جي) الشهير والياً على بغداد، وكان ذلك عام (٩٥٦) للـهجرة (١٥٤٩ م). وقد عهد هذا الوالي الجديد إلى (عثمـــان باشـا) اسـترداد إقليـم (شهرزور) وأصحبه بجيش كبير معززاً بالطوبجية وبقوات كردية كبيرة، فســار على رأسه إلى قلعة (زلم) التي كان (سرخاب بك) معتصماً بها، فألقى الحصـار عليها وطال أمد الحصار حتى اضطر البلطهجي إلى الحضور بنفسه حيث تسـلم بنفسه القيادة. وعالج الموقف بحكمته؛ فاتبع سياسة الدهاء والملاينة ممـا حمـل (سرخاب بك) على ترك القلعة والانسحاب منها دون سفك دماء من غير طـائل. وهكذا أسقطت قلعة (زلم) في قبضة البلطهجي باشا الذي بادر إلى وضـــع قـوة عسكرية كافية بقيادة (ولي بك) فيها لحمايتها. ومنذ عام (٩٦١) للهجرة انتظمـت تلك البلاد في نطاق الإدارة العثمانية.

هذا، وليس في الروايات الشائعة في بلدة (سنه) شـــيء لــه علاقـة بـهذا الخصوص، ومما لا شك فيه أن (سرخاب بك) بعد خروجه مـــن قلعـة (زلـم) والتجائه إلى الحكومة الإيرانية قد عاد إليها ثانية بمعاونة تلك الحكومـــة حيـث تمكن من بسط سلطانه على مقاطعتي (أردلان) و (شـــهرزور) مـع الاحتفـاظ بمكانته في البلاط الشاهاني الإيراني. وكان نجله (بارام = بهرام بـــك) حاكمـاً

---

[1] - (عالم آراي عباسي).

لرواندز فلبث فيها طويلا. ويقول الدكتور (فريــج) ان (ســرخاب بــك) أعلــن استقلاله التام بعد فترة من الزمن عن الإيرانيين رافضا حمايتهم له، ونجح فــي حكم البلاد، وقطع دابر الفتن، ومنع نشوب القتال، وقد كان دون شك مــن أهــم حكام هذه الأسرة الكردية.

وقد نوه صاحب (شرفنامه) أيضا برجاحة عقل هذا الأمير، وحزمــه فــي الإدارة، وعدله المطلق في الحكم ويقول إنه قد خلف أحد عشر ولدا من بعده.

وفي الوقت الذي كان فيه (سرخاب بك) متفقا مع الإيرانيين، ظـــهر علــى المسرح (محمد بك بن مأمون بك) واستولى على سنجق الحلة وسروجك[1] وأخـذ في بسط سلطانه شيئا فشيئا علــى بــلاد (قــرەداغ، شــاربازير، دمــهران = دلجوران)، وطلب إلى السلطان سليمان إسناد إدارة هذه البلاد كلها إليه بصفتــه الوارث الشرعي لأبيه وعمه، ويظهر أن طلب (محمد بك) هذا قــد أحــدث رد فعل، في الآستانة، بدليل أنه لم يمض طويل وقت عليه حتى عمدت الآستانة إلــى تجريد حملة كبيرة بقيادة الصدر الأعظم (رستم باشا) و (عثمان باشا) ميرمــيران (بغداد) وغيرهما من حكام كردستان وأمرائه للاستيلاء علــى إمــارة (أردلان) فتحركت تلك الحملة وألقت الحصار على قلعة (زلم) وظل الحصار قائما عــامين كاملين توفي خلالهما (محمد بك) وكان الشاه (طهماسب) يساعد حمــاة القلعــة مساعدة فعالة، مما اضطر (رستم باشا) إلى العدول عن فتحــها والتوجــه إلــى شهرزور حيث توفي في هذا الأثناء وقد عين بدله مرة أخرى (محمد باشا البلطه جي)، فتوجه على رأس جيش عرمرم صــوب (شــهرزور) فاحتلــها، وكــان (سرخاب بك) في هذه الأثناء متفقا مع الإيرانيين، وبعد وفاة (سرخاب بك) خلفــه في الحكم ابنه (سلطان علي) الذي مات بعد سنة واحدة من اعتلائه الحكم، فقــام نزاع بين أخيه (بساط بك) وابنه (تيمور خان) حول الاستئثار بالحكم، وقد انتــهى هذا النزاع بوصول (بساط بك) إلى الحكم مكان أخيه.

ولكن (تيمور خان) لم يترك له فرصة يستريح فيــها بــل واصــل الكفــاح والنزال ــ تعضده الحكومة العثمانية ــ حتى دحر عمه، وتم له الاستيلاء علــى

---

[1]ـ من المشكوك فيه وجود علاقة بين الحلة وسروجك، والظاهر أن شرفنامه الذي ورد فيه اسم الحلة هــذا فيــه تحريف أو خطأ ــ المؤلف.

الإمارة بأكملها. ثم أنعم عليه السلطان مراد الثالث بلقب مير ميران وبرتبة الباشوية وأسند إليه إدارة مقاطعة (شهرزور) أيضاً مع تعيين أنجاله الأربعة أمراء سناجق (٩٨٨ هـ = ١٥٨٠ م).

وجاء في (شرفنامه) عن أنجال (تيمور باشا) وسناجقهم ما يلي:

(١) سلطان علي، كان أمير سنجق (سنه = سنندج) وحسن آباد وقلعة قزلجه.

(٢) بوداق بك، كان أمير سنجق قرهداغ.

(٣) مراد بك، كان أمير سنجق (مهروان = مريوان).

(٤) بدرخان بك، كان أمير سنجق (شاربازير).

ويقول الدكتور (فريج) ان عهد (تيمور خان باشا) كان نكبة على كردستان لأنه كان تواقاً للنهب والسلب وميالاً لسفك الدماء لدرجة أن أثارت ثائرة (عمر بك) و (شاهويردي بك) أميرا (لرستان) فتآمرا ضده وقبضا عليه للتخلص من شروره وآثامه، بيد أنه أفلت من بين براثنهما أخيراً وأخذ يمعن في الإغارة على بلادهما وبلاد جيرانه، وسلب أموال الناس بالباطل حتى وقع قتيلاً في إحدى غاراته عام (٩٩٨ هـ).

وبعد وفاة (تيمور خان باشا) تولى الحكم من بعده أخوه (هلو خان) الذي كان على عكس أخيه يمقت أعمال السلب والنهب ويستنكرها، ولكنه لم يكن في مكنته وقتذاك الحيلولة دون قيام القبائل والعشائر بالسلب والنهب بين حين وآخر حسبما تعودت على ذلك. وكان تعلقه بالبلاط العثماني ظاهراً جلياً في عهد السلطان مراد الثالث.

ويذكر (شرفنامه) معلومات مفصلة عن هذه الإمارة حتى عام (١٠٠٥) للهجرة، ولكن (دائرة المعارف الإسلامية) وكتاب (الأربعة قرون الأخيرة للعراق) لا يذكران إلا القليل عن أحوالها بعد هذا التاريخ.

والظاهر أن حكم هذه الإمارة آل بعد (هلو خان) إلى الخان (أحمد خان) في عام (١٠١٤ هـ و ١٦٠٥ م) حيث كانت علاقاته بالشاه (عباس) طيبة ووطيدة جداً، ولهذا أتبع إمارته لسلطان إيران، وكان يعتز بحماية الشاه له فيتسلط على العشائر الكردية والإمارات المحلية الخاضعة للدولة العثمانية. وكان أول عمل قام به -بعد أن سلك هذا المسلك وتخير لنفسه اتباع هذه السياسة - الهجوم على

العشائر المكرية فاجتاحها، وبعد بضع سنين تمكن من الاستيلاء على قلعتي (راوندز) و (العمادية) ونصب عليهما نواباً عنه، كما أنه أخضع كلاً من (كوي) و (حرير) غير أن التسلط على هذه البلاد وبسط سلطانه عليها لم يعمر طويلاً. ومع ذلك فمن المعترف به أن العشرين سنة الأولى لحكم أحمد خان لإمارة أردلان كانت بحق عهد ازدهار وتقدم ونهضة محسوسة للبلاد، حافظ أحمد خان طيلة هذه المدة على حدود الإمارة القديمة، ولقي خلالها عطفاً سابقاً من لدن الشاه عباس الذي تعطف عليه وزوجه من أخته[1].

ومما يدل على بعد نظر هذا الخان أنه قصر إغارته وحروبه على الجهات الغير خاضعة مباشرة لسلطان العثمانيين، أعني أنه وجه همه نحو الإمارات الكردية المحلية، ولعله كان يرمي من وراء ذلك إلى تحقيق الوحدة الإدارية في البلاد الكردية، بيد أن هذا الخان كان هو وجيش أردلان، مع الشاه عباس في إغارته على بغداد عام (١٠٣٤ هـ) حيث زحف بجيشه إلى كركوك (كركويه)، وبعد قتال قصير الأمد استولى على هذه القلعة وعلى منطقة (شهرزور) كلها[2] وبذلك امتد سلطان أحمد خان ونفوذه من غربي العمادية حتى حدود كرماشان وهمذان، ومن لرستان حتى بحيرة أورمية. حيث خضعت إمارة السهران كلها لسلطان أردلان.

ولم يدم عهد القوة والسلطان لهذه الإمارة بعد وفاة الشاه عباس عام (١٠٣٧) للهجرة وفي عام (١٠٣٩) للهجرة، قد وصل خسرو باشا الصدر الأعظم إلى الموصل لاسترداد بغداد من الإيرانيين، وهنالك قدم له كل من (سيدي خان) حاكم العمادية، و (ميره بك) أمير السهران وبضعة أمراء من الكرد، النصح والمشورة بوجوب الاستيلاء على (أردلان) فتوجهوا صوبها جميعاً. وظل الخان (أحمد خان) حفيظاً على صداقته للحكومة الإيرانية وتعلقه بها. وقد تأيد ذلك في مواقع كثيرة ولا سيما حين غزو الشاه عباس الأخير لبغداد، ولكن الكثيرين من رجال جيشه البارزين كانوا يبدون ميلاً نحو العثمانيين لكونهم سنيين، وكانوا يتحينون الفرصة للانضمام إلى جيش (خسرو

---

[1]- تاريخ نعيما.

[2]- تاريخ عالم آراي عباسي.

نادرشاه. ولما دانت الأمور في إيران لطهماسب قلي (نادر شاه) وأخرج الجيش العثماني من إيران أعطى إقليم (أردلان) لسبحان ويردي خان وبذلك قضى على حكم البابانيين في (أردلان).

وفي عام (١٧٩٣) للميلاد استولى سليمان باشا الباباني على شطر كبير من بلاد أردلان بعد انتصاره للمرة الثانية على عمه سليم باشا في (قزلجه)، غير أنه لم يمض على ذلك طويل وقت حتى قاومه؛ فصده عن البلاد (سبحان ويردي خان) أمير أردلان، وفي السنة التالية زحف سليمان باشا الباباني تنفيذاً لإشارة صدرت إليه من (كريم خان الزند) إلى أردلان غازياً، واستولى على (سنه). وكان يشد أزره جيش كريم خان الزند. وبعد عام قتل سليمان باشا فخلفه نجله (علي بك) في إمارة أردلان، وكان أخوه محمد باشا حاكماً على قلعة (جوالان)، وكان بنو أردلان على اتفاق مع (أقا محمد خان القجري) الذي كان من ألد أعداء الأسرة الزندية على العمل سوياً؛ ولهذا كان (كريم خان) يحمي البابانيين ويمنحهم تأييده. وكانت هذه الظاهرة سبباً في اقتحام الجيش الإيراني ـ في كثير من الأحيان ـ لبلاد أردلان وشهرزور والتدخل في شؤونهما وهكذا كان الحال مع جيش والي بغداد الذي كان يتدخل هو الآخر في شؤون تلك البلاد الفينة بعد الفينة.

وفي عام (١١٦٨ ـ ١٢١٤ هـ) انتقلت إمارة أردلان إلى خسرو خان الكبير[1] من بعد (سبحان ويردي خان). وفي عام (١١٩٠ هـ) زحف «أحمد باشا» والي بغداد إلى كرماه نشاه. كما زحف «محمد باشا الباباني» إلى «سنه» فاعترض سبيله جيش أردلاني فسحقه سحقاً، واستولى على «بانه» ثم اشتبك في قتال مع خسرو خان فهزمه هو الآخر، ولكن كريم خان الزند بعث بقوة كبيرة يقودها «كلب علي خان» لنجدة جيش أردلان طاردت «محمد باشا البابانـي» حتى «كركوك».

وخلاصة القول إن أردلان قد اجتيحت مراراً، ودمرت تدميراً في عهد حكومة البابانيين. وفي عام (١٢١٤ هـ) خلف «أمان الله خان» والده «خسرو خان الكبير» ودام حكمه حتى سنة (١٢٤٠ هـ)؛ والواقع أن هذا الأمير كان محباً للعلم والعلماء، وعاملاً في نشر المعارف وبث روح العمران في أنحاء

---

[1] - يقول الميجر سون ان (خسرو خان) خطب ابنة الشاه فتح علي، ولكن الظاهر أن الذي فعل ذلك هو خسرو خان الأول ــ المؤلف.

البلاد، فتقدمت أسباب النهضة الأدبية والعمرانية في مدينة «سنه» تقدماً محسوساً وأصبح بلاطه كعبة القصاد من الشعراء والأدباء والعلماء من أنحاء كردستان وإيران، وقد حظي السرجون مالكولم، والمسيو ريج «ريتز» بمقابلته أثناء سياحتهما في إيران. ولذلك فهما يكيلان له الكثير من آيات المديح والثناء ويطريان حسن إدارته للبلاد وعظيم خدماته في سبيل إسعادها، وقد خلفه ابنه «خسرو خان» الذي حكم البلاد عشر سنوات والذي كان له القدح المعلى في الشعر والأدب. وكانت «ماه شرف خانم» الشاعرة الشهيرة والأديبة الفاضلة زوجاً لهذا الوالي. وبعد وفاته وفي عهد خلفه وهو ابنه «رضا قلي خان»[1] اندلع لهيب الفتن ونشبت حروب بين أمراء هذه الأسرة أدت إلى حبس الوالي البالغ من العمر وقتذاك ستة عشر عاماً في طهران، ولم يطلق سراحه من السجن إلا بعد وفاة «محمد شاه». أما «أمان الله خان» الذي حكم أردلان من سنة (١٢٦٥) حتى سنة (١٢٨٤ هـ) فهو أخوه، وآخر حاكم لأردلان. إذ الثابت أن الحكومة الإيرانية قد بدأت تتحرش بحكومة هذه البلاد ابتداء من عام (١١٦٨ هـ). حتى تمكن «ناصر الدين شاه» في عام (١٢٨٤) من القضاء على الأسرة الأردلانية نهائياً وتعيين عمه الأمير «فرهاد ميرزا» حاكماً على أردلان. نعم إنه لا يزال هنالك رجال بارزون من هذه الأسرة ولكنهم يفتقرون إلى الجاه والنفوذ. ولقد سبق القول بإن هذه الحكومة كانت من أهم الحكومات الكردية التي قامت في إيران. ويقول «شرفنامه» أنها تمتعت بالاستقلال التام فترة من الزمن، وضربت باسم حكامها السكة، وألقيت باسمهم الخطب. ويظهر أن فترة الاستقلال التام هذه قد عمرت منذ أوائل القرن السابع الهجري أي من أواخر عهد الحكومة الايلخانية حتى أوائل عهد الحكومة الصفوية «بداية القرن العاشر الهجري» أي قرنين كاملين.

ثم تلا ذلك عهد الخضوع السياسي للإيرانيين تارة؛ وللعثمانيين تارة أخرى تبعاً للظروف حتى زوال حكم الخان «أحمد خان» ثم بدأ نفوذ إيران يزداد في البلاد رويداً رويداً حتى قضي عليها نهائياً وأسدل عليها الستار في عام (١٢٨٤ هـ) ودفن هذا التراث التاريخي أيضاً في مقبرة التاريخ[2].

---

[1] - يقول الميجر سون ان اسم هذا الحاكم هو (غلام شاه خان). (من تقرير عن السليمانية طبع كلكتا سنة ١٩١٨) ـــ المؤلف.

[2] - ألحق المؤلف المفضال بآخر هذا المبحث شجرة نسب أحفاد (بني أردلان) الذين اشتهروا أخيراً في إيران بأسرة والي زاده نقلاً من كتاب إنجليزي يدعى (عشائر ورجال إيران الغربي) طبع سنة (١٩١٨). فلم نتمكن من ترجمتها ودرجها الآن وأرجئناها إلى أن تسنح الفرصة لعمل مجموعة أنساب لسائر الأسر والحكومات ـــ المترجم.

الفصل الثاني عشر

حكومة ملوك الكرد = الكرت (٦٤٣ ـ ٧٨٥ هـ)

يرى (كرزن) أن هذه الحكومة أسستها عشيرة (كوردكەلي = طائفة الكـــرد) بسجستان فدامت أيامها من عام (٦٤٣ هـ = ١٢٤٥ م) إلـــى (٧٨٥ = ١٣٨٣) ومن دواعي الأسف أن ليس لدينا معلومات مفصلة وكافية، عـــن أحـــوال هـــذه الحكومة، وكل ما نعرف عنها أن هذه الأسرة أو الطائفة القوية نزحت أو أجليت من (كردستان)، في وقت غير معلوم، وهذه المعلومات قد اقتبسها كـــرزن مـــن كتاب (راولنسون) القيم (ج١ – ص ٢٢٨ هامش).

هذا وقد تعرض كتاب (قاموس الأعلام) التركي لذكر هذه الحكومة فقال: إن هذه الحكومة قامت حوالي القرن السابع والثـــامن فـــي بـــلاد هـــراة والغـــور وغرجستان وسيستان في عهد الإيلخانيين حيث خلف مؤسسها شمس الدين محمد سنة (٦٤٣ هـ) جده لأمه في حكم الغور. وفي عـــهد الإمـــبراطور منكوقـــاآن الإيلخاني صدر مرسوم سلطاني بالتصديق على حكمه بإسناد إمارة هراة إليـــه، فدامت إمارته ٣٣ سنة حيث توفي إلى رحمة الله سنة (٦٧٦ هـــ) فـــي عـــهد الإمبراطور إبقاخان الإيلخاني. وكان الأمير إدارياً حازماً وشاعراً مطبوعاً، وقـــد استمر الحكم في أعقابه فترة من الزمن حيث توالى على الحكم من نســـله ســـتة أشخاص. ولما جاء دور الشخص السابع وهو (الملك معز الدين أبـــو الحســـين محمد) اغتنم الفرصة السانحة من انقراض الإمبراطورية الإيلخانية فـــي إيـــران فوسع حدود مملكته وأعلن استقلاله التام، وقد تولى الحكم بعد هذا الأمـــير ابنـــه (غياث الدين) بالاستقلال حتى عهد (تيمور) الذي حاصره في هراة حيث قضـــى عليه وعلى سائر أعضاء أسرته وانتهت أيامه في سنة (٧٨٣ هـ).

وتفصيل ذلك هو أنه بعد أن انتقل شمس الدين محمد المؤسس الأول لـــهذه الأسرة تولى الحكم ابنه ركن الدين ودام حكمه من سنة (٦٧٦ حتى ســـنة ٦٩٤ هـ) ثم خلفه ابنه (فخر الدين) الذي كان سجيناً سبع سنوات في عهد والده، ثـــم أطلق سراحه بناء على تدخل ورجاء (الأمير نوروز) حيث ذهب بعده لاجئاً إلـــى ساحة (غازان خان) وقد وصل إلى الحكم بفضل وهمة الأمـــير نـــوروز الـــذي جوزي من فخر الدين هذا جزاءاً سنمار حينما لجأ إليه فراراً من الأمـــير قتلـــغ حيث سلمه إلى خصمه، وقد شق عصا الطاعة فترة مـــن الزمـــن للإمـــبراطور

(غازان خان) ثم قاتل أخاه أولجايتوخان أيضا، وهكذا أمضى أيام حكمه في قتال ونضال مع خصومه وجيرانه مدة اثني عشر عاما، منها عشرة أعوام في حياة والده وعامان بعد وفاته، حيث ارتحل إلى دار الآخرة سنة (٧٠٦ هـ) فخلفه أخوه (غياث الدين) وقد جاءه المرسوم الإيلخاني بتولية الحكم بالغور وخراسان، وفي سنة (٧٢١ هـ) حج إلى بيت الله الحرام، وفي عودته توجه إلى السلطانية (عاصمة الدولة الإيلخانية) وتشرف بمقابلة السلطان أبي سعيد والأمير جوبان. ولما توترت العلاقات بين السلطان أبي سعيد وبين الأمير جوبان الذي لجأ من جراء ذلك إلى غياث الدين هذا؛ لم يحافظ غياث الدين على علاقات الصداقة التي كانت بينه وبين الأمير جوبان، بل خانه هو وابنه هلوخان بأن قتلهما وأرسل جثتيهما إلى السلطان أبي سعيد. وهكذا انقضت أيامه بعد أن حكم (٢٢) عاما واعتلى منصة الحكم بعده ابنه (شمس الدين) الذي كان لاهيا غير ملتفت لشؤون الإمارة فلم تدم أيامه أكثر من عشرة شهور حيث قضى نحبه في سنة (٧٣٠ هـ) فخلفه أخوه (حافظ) فحكم البلاد عامين كاملين. وفي خلال سنة (٧٣٢) تولى الحكم أخوه (معز الدين) الذي هو من أعظم ملوك الكرت. وقد أعلن استقلال إمارته التام في سنة (٧٣٦ هـ) حينما ارتحل السلطان أبو سعيد إلى دار البقاء فخطب وسك العملة باسمه بخراسان وبلاد الغور. وفي سنة (٧٤٣) حارب السربداريين وكسر جيوشهم فزاد شأنه وارتفع قدره، وهكذا حكم البلاد بجلالة قدر وبحزم وإدارة عادلة إلى أن توفي إلى رحمة الله سنة (٧٧١ هـ) وكان العلامة سعد الدين التفتازاني قد ألف كتابه (المطول) الشهير في البلاغة باسم هذا الملك.

هذا وقد تسلم العرش بعد معز الدين هذا ابنه (غياث الدين بير علي) فصار ثامن الملوك وآخرهم من آل كرت المشهورين بخراسان والغور، حكم مدة اثني عشر عاما حيث زحف إليه تيمور بجحافله وحاصره في قلعة هراة ودام الحصار مدة واشتد القتال ودافع دفاع المستميت وأخيرا انتهى أمره فوقع في يد تيمور فقتله هو وأقرباءه جميعا وهكذا انتهت حكومة جماعة الكرد بخراسان أيضا. اهـ[1].

---

[1] - هذه الحكومة التي تسميها بعض المصادر الحديثة بحكومة جماعة الكرد بخراسان وسيستان، هي المشهورة في كتب التاريخ القديمة بملوك كرت أو (بني كرت) نسبة إلى لقب مؤسسها (شمس الدين محمد كرت) الذي لقب بكرت لقطعه صفوف الخوارزميين عند قتاله لهم لأن الكرت بالخوارزمية بمعنى القطع أو الشق وقال بعضهم أنه بمعنى العظيم والمكرم. والمؤرخون مختلفون أيضا في ضبط اسم «كرت» هل هو بفتح الأول أم بضمه والمشهور هو الأول كما أن الاختلاف كبير بين المؤرخين في جنسية هذه الأسرة هل هي إيرانية (فارسية أو كردية أو تاجكية) أم تركية وتركمانية. انظر (جامع الدول) لمنجم باشي (وجهان آرا) لغفاري (ومرآة الأدوار ومرقاة الأخبار) للأري ـــ المترجم.

الفصل الثالث عشر

الحكومة الزندية (١١٦٧ - ١٢٠٢ هـ)

إن الفترة الواقعة في تاريخ إيران بين مقتل «نـــادر شـــاه» وبيـــن تأســيس الحكومة القجارية تلك الفترة التي قاربت نصف قرن كـــانت مســرحا للفوضـــى والاضطراب، اللهم إذا استثنينا منها عهد «كريم خان».

ولاستعراض الحالة الداخلية في إيران قبل ظهور (كريم خان) يجدر بنـــا أن نذكر أنه في الوقت الذي عين فيه (أحمد خان) رئيسا للحملة المنوط بها إعـــادة الأمن والطمأنينة واستئصال بذور الفتنة والاضطرابات في إقليم خراسان، كـــان (محمد حسين خان) رئيس عشيرة القجر التركمانية، قد وطد مركزه في (اســـتر اباد) وأخضع لسلطانه ونفوذه كافة بلاد (مازندران) أيضا. وكان (نادر شاه) قـــد عمد إلى قتل (فتح علي خان) والد (محمد حسين خان) وهذا ما أوغـــر صـــدور أبناء العشيرة القجرية وجعلهم يصبون جام غضبهم ونقمتهم على أحفـــاد (نـــادر شاه) وأتباعه. وقد جرد (أحمد خان) حملة عسكرية ــ عبأها من الأفغـــانيين ــ على (مازندران) خشية أن يسبقه (محمد حسين خان) فيفسد عليه الأمر، بيـــد أن هذه الحملة قد حاق بها الفشل الذريع والخسران المبين، وهكذا اتسع نفوذ رئيـــس قبيلة القجر، وعلا شأنه، وبزغت مقدرته الفائقة واضحة لكل ذي عينين.

وكانت ولاية (آذربيجان) في هذه الآونة، يحكمها (أسد خان) الأفغاني، وكان يبسط سلطانه على ولاية (كيلان) أحد الرؤساء المحليين المدعو (هدايت خـــان) الذي أعلن استقلاله التام، وهكذا كان الحال في (كرجستان) التي كانت خاضعـــة

لجنرال مسيحي من جنرالات (نادر شاه) وكان يدعى (هراقليوس). ويبدو أن هذا هو الآخر كان طامعاً في الاستقلال.

وفي هذا الوقت الذي كان فيه شمالي إيران يغلي كالمرجل، وتكتنفه الاضطرابات والقلاقل من كل جانب، كان (علي مردان خان) ـ وهو أحد رؤساء العشيرة البختيارية الكردية ـ قد زحف إلى (أصفهان) وانتزعها من واليها (أبو الفتح خان) الذي كان والياً عليها من قبل شاهرخ. ونصب عليها والياً من سلالة الصفويين لاجتذاب قلوب الأهالي في هذه العاصمة الكبيرة، واستمالتهم إليه. إلا أن هذا الإجراء السياسي لم يكن كفيلاً بإتمام هذه المهمة الكبرى التي أقدم على تحقيقها دون أن يلقى تعضيداً فعالاً أو مساعدة جدية من القواد والأمراء الآخرين من أمثال «كريم خان الزند» الذي لم يكن سليل أسرة كبيرة معروفة[١] ولا من القواد أو الأمراء في جيش «نادر شاه» إلا أنه كان يتحلى بأخلاق فاضلة وبسالة نادرة.

ويقول المؤرخون أن «كريم خان» إنما كان على اتفاق مع «علي مردان خان» منذ البداية، ولا سيما فيما يتعلق بمسألة تنصيب حاكم من سلالة نادرشاه على رأس الحكومة كما استقر بينهما الرأي وقتذاك، على أن يكون أحدهما وزيراً إلى جانب الأمير الصفوي في حين يصبح ثانيهما سرداراً للجيش. وتقول بعض مصادر أخرى أن (كريم خان) لم يكن يفكر، بل وما دار بخلده قط أن يكون على قدم المساواة مع «علي مردان خان» في النفوذ والسلطان بل كل ما كان يرنو إليه هو أن يكون خلفاً له بعد وفاته حيث كان هذا الرئيس البختياري طاعناً في السن ولا ذرية له.

ولقد أمعن وتمادى «علي مردان خان» بعد استيلائه على أصفهان في العسف والطغيان، وإنزال صنوف الظلم بالأهلين، ولكن «كريم خان» قد حال دون تسرب هذه المظالم وامتداد ذلك العسف إلى منطقة «جلفا» التي كان يحتلها هو شخصياً، فدافع دفاعاً مجيداً، أكسبه احترام الجميع حيث أسرهم بعظيم نبله وكريم فضله، وكان معظم القاطنين في تلك المنطقة من المسيحيين الذين غمرهم

---

[١]- ويؤخذ من الروايات، الشائعة، في نواحي «خوي»، أن كريم خان كان ابن شقي خطير من أشقياء تلك الجهات كان يدعى (إيماك) وما زال اسم جده مجهولاً ـ المؤلف.

«كريم خان» بعدله المطلق وأرضاهم بالابتعاد عن التعصب المذهبي والديني، ذلك الأمر الذي أفضى ـ بعد أمد وجيز ـ إلى حقد «علي مردان خان» عليه، والغيرة منه، وتحرك عوامل الحسد والتنافس والبغضاء بينهما، وقد بيت علي مردان خان في دخيلة نفسه أمرا وهو العمل على إبعاد «كريم خان» عن منطقته، حتى يتسنى له اضطهاد الأهلين في تلك الجهة، ولكن الأهالي كانوا على بينة من الأمر، وعالمين بالنية المبيتة نحوهم، وقد أقدم ـ من ناحية أخرى ـ على قتل والي «أصفهان» الذي كان قتله نذيرا بأن الجناية التالية لا بد وأن تكون مقتل (كريم خان).

وقصارى القول إن الوساوس والأوهام التي سيطرت على أفكار «علي مردان خان» وما تملكه من غيرة شديدة ممن حسبهم منافسين له قد أدت في النهاية إلى امتشاق الحسام بين الصديقين المتآخيين، فوقف كريم خان ومن معه من حلفاء وأنصار موقفا حازما ضد علي مردان خان وأعلنوا عليه حربا لا هوادة فيها، وحدثت مصادمات عديدة، بين الفريقين، لقي (علي مردان خان) حتفه خلالها، قتله قائد يدعى محمد خان، وكان ذلك في عام (١١٦٠) للهجرة (١٧٥٣ م) وهكذا خلت بلدان إيران الجنوبية من منافس عنيد شديد لكريم خان.

ومع ذلك فقد كان لزاما عليه – قبل أن يحاول بسط نفوذه على هذه البلاد – أن يستأصل شأفة عدة خصوم ألداء آخرين حتى يتمكن من إنفاذ أمره فيها. وكان أغلبية جيش كريم خان تتألف من عشيرة (لك) التي كانت على كامل الاستعداد لحكم إيران بفضل بسالتها وقوة شكيمة رجالها؛ وكانت (الزند) فرقة من هذه العشيرة. وأما أبناء المدن الإيرانية وسكانها فكانوا يميلون أيضا إلى جانب «كريم خان» لما جبل عليه وما أثر عنه من تحقيق العدالة والمساواة والحزم في إدارة شؤون البلاد دون محاباة، وكانت العشائر العربية في إيران هي الأخرى مع «كريم خان» قلبا وقالبا، كما أن نفس العشائر التركية التي كانت تقف إلى جانب خصمه وتنتصر له، قد كانت تنظر إلى أعمال كريم خان نظرة إعجاب ورضى.

١ ـ عهد كريم خان

سبق أن ذكرنا أنه بعد مقتل (مردان خان) لم يبق أمام (كريم خان) من ينافسه ويناصبه العداء، اللهم إلا (أسد خان) الأفغاني و (محمد حسين خان

القجري) فعقد (كريم خان) العزم على التخلص من كليهما. وما لبث أن بدأ بالزحف على أسد خان، واشتبك معه في قتال عنيف على مقربة من قزوين ولكن الحظ قد تنكر له، والنصر قد جانبه، فمني بهزيمة منكرة أرغمته على رفع الحصار عن أصفهان والتخلي عن شيراز كذلك؛ ثم انسحب مضطراً ــ بعد أن حاقت به الهزيمة ــ إلى الجبال الممتدة بين إقليم (فارس) وبين الخليج الفارسي على مقربة من وادي نهر (كرمسير) وأضحى في موقف عصيب لا يحسد عليه.

ولكن (رستم سلطان) زعيم قرية خشت ــ كانت قرية صغيرة على حافة جبل مشرف على وادي نهر كرمسير ــ قد قام بإسداء خدمة جليلة لكريم خان بأن انقض بغتة على «أسد خان» في مضيق جبل صعب المنال يطلق عليه كوماريج، وشن عليه هجوماً عنيفاً، وألحق به هزيمة منكرة في الوقت الذي كان كريم خان قد تحفز فيه للقتال بجيشه الرابض في وادي (كرمسير) السالف الذكر. وما لبث أن استقبل هذا الجيش المتعطش للقتال والنزال عدوه المقهور الفار من وجه (رستم سلطان) بتسديد ضربات قاصمة إلى قلوب رجاله ثم دارت بين الفريقين رحى معركة طاحنة إلى جوار قرية خشت السالفة الذكر؛ أسفرت عن هزيمة منكرة وخذلان مبين لأعداء (كريم خان) الذي أحرز نصراً مؤزراً لا مثيل له في التاريخ، ولقد أمعن فريق من الجيش المنتصر ورجال العشائر القاطنة في تلك البقاع في مطاردة فلول جيش العدو المقهور حتى أشرفوا على أبواب شيراز فدخلوها فاتحين. أما «أسد خان» فلم يجرؤ بعد ذلك على الظهور أمام خصمه أو التصدي له كما أنه قد لبس الهزيمة صاغراً، وخذل خذلاناً مبيناً أمام خصمه الآخر (محمد حسين خان) فلاذ بالفرار، ولجأ إلى بغداد فاستقبله واليها بحفاوة بالغة، وأكرم وفادته، ولكنه لم يقدم إليه المساعدة التي كان يصبو إليها كي يسترد سيادته وسلطانه على بلاده التي افتقدها، فلم يجد مندوحة من طرق باب آخر عله يجد ضالته، ويعثر على من يحقق له أحلامه وأمانيه. فكان أن لجأ إلى الجنرال (هراقليوس) والي (كرجستان) وطلب مساعدته ولكنه لم يعره التفاتة ولم يجبه إلى طلبته، الأمر الذي اضطره أخيراً إلى الارتماء في أحضان خصمه (كريم خان) الذي أكرم وفادته، واحتفى به حفاوة بالغة. وسرعان ما أضحى موضع ثقة كريم خان وأخلص صديق له بين رجاله إذ أسند إليه أرفع مناصب الدولة وأسماها وهكذا انقلب ذلك العدو الشديد المراس إلى صديق حميم قوي الشكيمة.

بهذا لم يبق هنالك من أعداء يهددون كيان دولة (كريم خان) إلا عدو واحد شديد البأس قوي المراس، ألا وهو (محمد حسين خان) رئيس عشيرة القجر التركية التي أتى بها (تيمورلنك) من (سورية) وأنزلها بإيران، وهي إحدى العشائر السبع التي أوصلت الشاه (إسماعيل الأول) إلى كرسي الحكم.

ولما دانت الأمور لكريم خان، واستقرت الأحوال في فارس، وخضعت له كافة البلدان، وبعد أن أفاد من الحروب التي نشبت بين (محمد حسين خان) وبين (أسد خان)، لم يكتف ببسط سلطانه على بلاد فارس وحدها بل مد نفوذه إلى بلاد (أصفهان) وشطر من إقليم العراق العجمي؛ بيد أنه لم يمض على ذلك طويل وقت حتى وجد (كريم خان) نفسه مضطراً إلى التخلي عن أكثر هذه البلدان التي كان قد بسط سلطانه عليها. وسبب ذلك أن (محمد حسين خان) بعد أن هزم (أسد خان)، وضم بلاد (آذربيجان) إلى بلاده توجه بجيش كبير لم يتحرك جيش يماثله منذ عهد (نادر شاه) صوب (أصفهان) فحاول (كريم خان) — دون جدوى — رد هذا الجيش عن (أصفهان)... ولما رأى أن محاولاته اليائسة التي بذلها ذهبت أدراج الرياح وأن جميع جهوده قد ضاعت سدى، اضطر إلى التخلي عن (أصفهان) والعودة إلى (شيراز) حيث اتخذها قاعدة للدفاع.

أما (محمد حسين خان) فبعد أن اتخذ أهبته وأعد العدة للنزال والقتال، تقدم بجيش عرمرم قوامه ثمانية وثلاثون ألف مقاتل نحو (شيراز) لإلقاء الحصار عليها تاركاً في (أصفهان) فريقاً من هذا الجيش قوامه ثمانية آلاف مقاتل، وقد وصل إلى حدود (شيراز) في وقت كانت فيه كل العوامل متوافرة والظروف مواتية للمهاجمين؛ غير أنه قد فوجيء بهجوم عنيف في سنة (١١٧٠ هـ — ١٧٥٧ م) وذلك قبل أن يحط رحاله ويثبت مدافعه على قواعدها، وإذ قام (شيخ علي خان) الذي كان أحد رؤساء عشيرة الزند، بهجوم مفاجيء على مؤخرة جيشه وأصاب عتاده؛ ولقد شد أزره في هذا الهجوم المباغت أهالي تلك المنطقة الذين كانوا قد نقلوا أطفالهم ونساءهم إلى الجبال المحيطة بهم. وأدى هذا الهجوم المباغت إلى انتشار الذعر والاضطراب وتفشي الفوضى بين صفوف جيش (محمد حسين خان) فضلاً عن انقطاع الميرة عنه، أضف إلى ذلك أن مدة الحصار قد استطالت، وأن الجيش كان جنوده مزيجاً غريباً من عناصر متباينة لا انسجام بينها. وكانت سلطة رؤساء الجيش لا تستند إلا على مجرد القوة؛

فضلاً عن أن فريقاً من هذا الجيش كان حديث العهد بالتدريب العسكري في حين كان فريق آخر منه من فلول جيش (أسد خان) الذين كانوا منذ بضعة أشهر في قتال مع جيش (محمد حسين خان).

وفي تلك الأثناء كان الجنود الكرج والسبكار، وهم طائفة من جنود (كريم خان) يلحون ويمنعون في مضايقة المحاصرين، ولم يكن كل همهم موجهاً نحو الدفاع عن المدينة فحسب بل كانوا يهرعون إلى خارجها حيث ينقضون على المحاصرين انقضاض الصاعقة فيشتتون شملهم، ويلقون الرعب والذعر بين صفوفهم، وما تركوا فرصة لمناوأة المحاصرين تمر إلا وقد انتهزوها. وسرعان ما ساءت الحال وتحرجت في جيش (محمد حسين خان) وأخذ رجاله في التفرق شذر مذر، مما اضطر رئيس القجر إلى العدول عن حصار المدينة، وفعلاً أقلع عن (شيراز)، وعاد سراً إلى (أصفهان) تاركاً بعض القوات حول (شيراز) لمواصلة الحصار؛ غير أن رجال هذه القوات سرعان ما تفرق شملهم، ولم يستطع (محمد حسين خان) الصمود في (أصفهان) فعاد منها إلى (مازندران) على رأس جيش متخاذل، خائر القوى، محطم الروح المعنوية لا يربو على اثني عشر ألف مقاتل.

وفي عام (١١٧٠) للهجرة (١٧٥٩ م) زحف (كريم خان) على (أصفهان) بعد أن أعد العدة والعتاد، وبعد أن نظم شؤونه ووطد مركزه في بلاد فارس فقوبل من أهالي أصفهان بكل حفاوة وترحاب، وأكرموا وفادته، وعمهم السرور وابتهجوا بلقائه، وهكذا قوبل في أغلب مدن العراق العجمي بالترحاب.

وكان (كريم خان) في حاجة قصوى إلى ضرورة إحراز انتصارات حاسمة كي يستعيد نفوذه، ويسترد شوكته. حقاً إنه قد أحرز النصر في بعض الحروب التي خاض غمارها، ولكنه مني بفشل ذريع في البعض الآخر، ولم يكن الفوز يحالفه في حومة الوغى إلا ما ندر، غير أن احترام الأهالي، لا سيما سكان المدن، واستقبالهم الرائع له، قد خلق فيه من الضعف قوة، وأدى به إلى النجاح والفوز في تحقيق غايته النبيلة، ألا وهي إقامة حكومة عادلة تشعر بشعور الناس، وتتعرف مطالبهم وحاجياتهم. ولقد انصرف كريم خان بادىء ذي بدء إلى توطيد النظام وتنظيم شؤون البلاد التي انضمت إلى حوزته طواعية وبمحض إرادتها ثم أخذ بعد ذلك يعد العدة لتجريد حملة عسكرية ألفها من صفوة

رجاله وأسند قيادتها إلى (شيخ علي خان) وكان هدف هذه التجريدة بلاد (مازندران) لتكره (محمد حسين خان) على المبادرة بالتسليم نهائياً وتقديم فروض الولاء والطاعة له.. ولكي يتحقق هذا الهدف كان لا بد من بذر بذور الشقاق والفرقة بين صفوف العشيرة القجرية. إذ كانت هذه العشيرة الباسلة متفرعة إلى ثلاثة أقسام كبيرة: يقيم القسم الأول منها في نواحي بلاد (كنجه) ويقطن الثاني في أطراف (المرو) في حدود خراسان لصد عادية الأزبك من بلاد إيران، في حين كان يسكن القسم الثالث بلاد (أستر أباد) على أن هذه الثلاثة أقسام كانت تخضع كلها عادة لأسرتين كبيرتين وقد انفردت إحداهما إلى حين ببسط سلطانها ونفوذها على هذه الأقسام الأمر الذي أدى إلى بذر بذور الشقاق واشتداد لهيب التنافس بين الأسرتين وقد اتسعت هوة الشقاق على أثر تدخل كريم خان في الأمر وتشجيعه الأسرة الثانية على استرداد نفوذها على العشيرة ومنازلة خصمه (محمد حسين خان) رئيس العشيرة «ومن المصادفات العجيبة أن أحد قسمي هذه العشيرة كان يرأسه رجل يدعى (محمد حسين خان) أيضاً. وكان هذا القسم يسمى (يوخاري باش ــ الرأس الأعلى)». وقد أدى التنافس المستمر بين هذين الخصمين (محمد حسين خان) رئيس العشيرة و (محمد حسين خان) رئيس أحد أقسام العشيرة إلى انضمام الأخير إلى صفوف جيش (شيخ علي خان). فتسرب الضعف إلى نفس خصم كريم خان، ومع ذلك فقد اضطر لمنازلة (شيخ علي خان) بقوة متخاذلة قليلة العدد، وسرعان ما تألب عليه فريق من هذه القوة فترك الميدان، ثم ما لبث أن وقع هو بنفسه أسيراً[1]. وقد نتج عن هذا الانتصار الباهر في مازندران دخول كيلان ومعظم بلاد آذربيجان في حوزة كريم خان. غير أن بلاد آذربيجان هذه لم تبق في حوزته إلا فترة وجيزة إذ استولى عليها (فتح علي خان) رئيس عشيرة الأفشار الذي كان ديدنه الوقوف إلى جانب أعداء كريم خان في معظم الأحوال، ولكنه في هذه المرة قد أعلن الحرب جهاراً على كريم خان، واشتبك معه في قتال عنيف في مكان يقال له (قره جيمن) جنوبي (تبريز) حيث حاقت به هزيمة منكرة لجأ على أثرها إلى

---

[1]- وقد توجه أولاد (محمد حسين خان) هذا إلى تركستان، ثم عادوا بعد أربعة أعوام إلى بلاط كريم خان فأكرم وفادتهم وأسند إليهم مناصب عالية وكان (آقا محمد خان) وهو أكبر أبنائه سبب انقراض أسرة (كريم خان) الزندية فيما بعد.

قلعة (أرمية)[1] وألقى عليها الحصار بضعة أشهر، ولما أيقن أنه ليس في مقدوره الثبات على قدميه ومداومة الحصار لجأ إلى كريم خان فعفا عنه في سنة (١١٧٣ هـ ــ ١٧٦٠ م).

هذا، وكان (فتح علي خان) قد اتصل قبل التسليم ببعض القواد والزعماء من رجال (كريم خان) ليشجعهم على خيانة سيدهم ومولاهم.

ولما اكتشف أسرار هذه المؤامرة الدنيئة لاقى (فتح علي خان) جزاءه وأبعد عدد من الزعماء والقواد الذين حامت حولهم الشبهات عن مناصبهم. ويقول المؤرخون الإيرانيون أن القائد الشهير (شيخ علي خان) قد أعدم بسبب هذه المؤامرة ولكن هذا القول ما زال يفتقر إلى التأييد.

ولقد لقي (كريم خان) في جميع حروبه ومعاركه في سبيل الحكم والسلطان تعضيداً ملموساً ومساعدة تامة من العشائر العربية الضاربة حول الخليج الفارسي لدرجة أن بعض القوات العربية قد صحبته ولازمته حتى بلاد (أصفهان). فلا غرو أن كانت الصلة بينه وبين تلك العشائر متينة، كما كانت علاقته بها على أحسن ما يرام، ولم يحدث أن جرد عليهم حملات تأديبية، اللهم إلا في أحوال نادرة كحالة الامتناع عن دفع المال، أو رفع راية العصيان؛ كما حدث من قبل الأمير (موحانا) أمير بندر (ريغ)[2] الذي أقدم على قطع الطريق بين (شيراز) وبين بندر (بوشهر). إذ كان كريم خان شديد الوطأة على مثل هؤلاء. ولما حدث مثل هذا من قبل شيخ عشيرة الكعب المدعو الشيخ سليمان اضطر كريم خان إلى الزحف عليه بجيش جرار لتأديبه وإيقافه عند حده، فما كان منه إلا أن لاذ بالفرار، ولجأ على ظهر سفينة إلى إحدى الجزر القريبة.

هذا، وقد كان (زكي خان)[3] مصدر قلق لحكومة (كريم خان) في معظم الأوقات لما جبل عليه من القسوة المريرة والشدة المتناهية في الحروب والقتال مما لا يتسق ولا يتفق وسياسة (كريم خان) الرشيدة، وكان هذا هو السر في حدوث التصادم والتشاحن بينهما في أغلب الأحيان. وقد حدث ذات مرة أن شق

---

[1] - يطلق (استرابو) على هذه المدينة اسم (ثه بارما Theparma) ويظن أن زرادشت ولد فيها ــ المؤلف.

[2] - يقع بندر «ريغ» هذا على مسافة نصف درجة من شمال غربي بندر (بوشهر).

[3] - الشائع المظنون أنه أخو كريم خان. وفي الحق أنه كان ابن عمه وأخاه لأمه وكان له ما عدا زكي خان أخ لأمه يدعى إسكندر خان وأخت لأمه. أي كانوا جميعهم من أم واحدة وليسوا من أب واحد ــ المؤلف.

(زكي خان) هذا، عصا الطاعة على أخيه، فقصد وفي معيتـــه بعــض الأمـــراء والقواد إلى عشيرة الفيلي ليستعين بها، ولتشد أزره على إثارة الفتـــن والقلاقـــل وإشعال نيران الثورات ضد أخيه، ولكن محاولاته هذه قد باءت بالفشل وضـاعت سدى، الأمر الذي اضطره إلى أن يعود ويرتمي تحت قدمي أخيه، يطلب الصفـح ويلتمس المغفرة على ما فرط منه، فعفا عنه أخوه، وأسند إليه منصباً ملائماً. ثـم ما لبث أن أوفده إلى (دامغان)[1] لتأديب جيش (قلي خان القجـــري) الــذي كـان يعيث بين أرجائها فساداً، وقد تسنى له بسرعة البرق القضاء على الفتنـــة فـــي مهدها، وإطفاء لهيب ثورة هذا العاصي القوي الشكيمة. واضطره إلـــى الفـــرار حيث لجأ إلى التركمان واحتمى بهم. وفي الواقع كان استخدام القســـوة واتبـــاع الشدة من قبل (زكي خان) في إخماد الثورات خدمة كبرى للأمن العام في أغلـب الظروف، لأن حلم (كريم خان) وعدله كانا قد شجعا بعض الرؤساء والقواد على إشعال نيران الثورات دون مبالاة بالعواقب لما يعلمونه مـــن أن العفـــو والحلـم والمغفرة من شيم كريم خان، ولكن الناس قد اقتنعوا وأيقنـــوا أخـــيراً أن إخمـــاد لهيب الثورات لا يمكن أن يعالج بحلم كريم خان وليونته بل يعالج بقسوة (زكـــي خان) وغلظته، وليت الثورات كانت قاصرة على بلاد دامغان فقط، بل اندلعـــت نيرانها في مازندران، وفي عدة جهات أخرى ولكنها سرعان ما أخمدت جميعـــها بقسوة بالغة، لدرجة أن جماعات الثوار كانت تلوذ بالفرار قبل وصول الحمـــلات التأديبية.

وهكذا استطاع زكي خان بفضل شدته المتناهية وإدارته العسكرية الحازمـــة تطهير إيران من العصاة والطغاة، وهيأ لها حياة سلمية مطمئنة ظلت ترتع فـــي ظلالها طيلة أيام كريم خان الأخيرة. ولقد قنع كريم خان واكتفى بلقـــب وكيـل الشاه، ولم يطمع في مركز الشاه إسماعيل بن أخت الشاه حسين الصفوي، البـــالغ من العمر وقتذاك تسع سنوات. وقد ولي شاهاً من قبل علي مردان خان. وأكـــثر من ذلك فقد حافظ على مركز هذا الشاه الصبي متخذاً شيراز عاصمـــة للبـــلاد وأقام فيها إلى جانب الشاه تاركاً قيادة الجند وإدارة دفة الشؤون العامـــة للقـــواد والأمراء من رجاله. وما لبث أن حشد جيشاً جراراً، وأسند قيادتـــه إلـــى أخيـــه

---

[1]- مواطن الأسرة البارثية (أشكان) ـــ المؤلف.

(صادق خان)، وبعث به لإلقاء الحصار على (البصرة). ومن المحتمل أنه قد أقدم على هذا العمل اقتداء منه بسائر الحكومات الإيرانية السابقة، لمجرد تأمين السلام ونشر لوائه في داخلية البلاد بشغلها بالحروب الخارجية ضد الترك الذين لا شك في أن قتالهم كان لا بد أن يستثير نخوة الأهالي وحميتهم، ويستميلهم نحوه، ويجتذب قلوبهم إليه؛ إذ كان يعلم تمام العلم بأن ليس هنالك من عوامل وأسباب تحمل الشيعيين وترغمهم على تجنب المنازعات الداخلية وطرحها جانباً وتجمعهم حول فكرة واحدة سوى العمل على استرداد الأماكن المقدسة الشيعية التي كان الترك يسيطرون عليها. ولهذا كان الاستيلاء على (العراق العربي) هو الهدف الاسمى لكريم خان، وقد بدأ يمهد لتحقيق هذا الهدف بأن تعمد اتهام (عمر باشا) والي بغداد لدى حكومته بأسطنبول ورماه بالتحامل على الإيرانيين، بدليل فرضه رسوماً مالية على الزوار الإيرانيين للأماكن المقدسة الإيرانية، وكانت الحكومة العثمانية قد رفضت دعوى الإيرانيين هذه، ولم تعرها التفاتة ولا آذاناً صاغية، فما كان من الحكومة الإيرانية إلا أن أصدرت أوامرها إلى (صادق خان) بالزحف صوب البصرة، فسار إليها عن طريق ساحل الخليج الفارسي على رأس جيش قوامه خمسون ألف مقاتل، وأسطول من ثلاثين سفينة خفيفة كانت قد أعدت في مينائي (بوشهر) و (ريغ) للعمل إلى جانب الجيش. وكان للدولة العثمانية بعض سفن حربية راسية في ميناء البصرة، ولكنها كانت قديمة بالية قد تسرب إليها العطب، ولا تصلح للعمل، ولا قبل لها بمقاومة أسطول (صادق خان) القوي.

وبمجرد أن سيطر جيش (صادق خان) على شط العرب، بادر إلى إقامة جسر من الأرماث والأطواف على هذا النهر، وبذلك تمكن هو وجيشه من الانتقال إلى الضفة اليمنى للنهر بعبور هذا الجسر، وشرع في إلقاء الحصار على البصرة.. وكانت (البصرة) مدينة كبرى، تشتمل على حدائق واسعة غناء، ويسكنها زهاء خمسين ألفاً من السكان، وكان عدد رجال الحامية يفوق ربع عدد السكان. وكان (سليمان آغا) حاكم المدينة رجلاً عسكرياً ماهراً، ومحبوباً من جنوده ومن مرؤوسيه. وكانت أسوار المدينة عالية ومرتفعة، إلا أنها لم تكن محكمة تمام الإحكام، وكان خط الدفاع لا يعدو عدة حصون نصب عليها ما يقرب من مائة مدفع.

بدأ إلقاء الحصار على البصرة في شتاء سنة (١١٨٩ هـ ــ ١٧٧٥ م). وتقدم الجيش الإيراني إلى الأمام فأمرت الحكومة العثمانية ولاة (وان) و (الموصل) و (ديار بكر) و (حلب) و (الشام) ــ بتعبئة جيوشهم، والاحتشاد في (بغداد).

وكان هؤلاء الولاة يضمرون خلاف ما يظهرون، فقد تظاهروا بأن القصد من ذهابهم إلى بغداد إن هو إلا القيام مع واليها وجيشها بنجدة الحامية العثمانية في البصرة، ولكنهم ما كادوا يصلون إلى بغداد حتى اغتالوا واليها (عمر باشا) إرضاء لملك إيران، وعلى أثر اغتياله أوفدوا هيئة رسمية إلى (شيراز) لتعرض على مسامع (كريم خان) الرغبة الصادقة في الكف عن القتال، ووضع حد لهذه الحرب المستعرة، ما دام الباعث على قيامها واندلاع لهيبها هو الوالي (عمر باشا) قد قتل، وتحققت بذلك رغبة الشاه، ولكن الشاه قد قلب لهم ظهر المجن، ولم يجبهم إلى طلبتهم، بل أراد أن يستغل هذا الضعف العثماني، وظل يحارب حتى اضطر حاكم البصرة العثماني إلى المبادرة بالتسليم دون قيد أو شرط بعد حصار دام ثلاثة عشر شهراً، نفد خلالها الزاد والذخيرة، وانتشر البؤس والشقاء بين الأهلين وبين جنود الحامية. وكان ذلك في شهر يونيو سنة (١١٩٠ هـ ــ ١٧٧٦ م).

وقد أرسل الحاكم وأقطاب معينة إلى (شيراز) مشيعين بكل تجلة واحترام وأحسن (صادق خان) معاملة أهالي البصرة، وأسبغ عليهم من مزيد كرمه وفضله، ونصب أحد رجاله المدعو (علي محمود خان) حاكماً عسكرياً عليها، ثم عاد هو بعد ذلك إلى (شيراز).

وحدث أن اندلع لهيب فتنة بين عشيرتين من عشائر (البصرة) فسارع (علي محمود خان) بالتدخل بينهما دون أن يعد للموقف عدته فحاقت به هزيمة منكرة، وعرض نفسه لخسارة جسيمة، وذهب القائد الإيراني ضحية هذه الفتنة الجامحة. وما أن طرقت هذه الأنباء المفجعة المثيرة مسامع (صادق خان) حتى بادر بالحضور إلى البصرة وعالج الأمر بالحسنى والسياسة والحكمة، بفضل ما جبل عليه من دماثة الخلق، وحسن المعاملة، وسرعان ما عادت الأمور سيرتها الأولى، ورفرف السلام والوئام على ربوع المدينة، وظل الأمن مستتباً حتى وفاة (كريم خان). ثم غادر (صادق خان) البصرة بسبب عوامل شخصية فانتهز والي

بغداد (هذه الفرصة الذهبية)، وسارع بالزحف على البصرة حيث استردها بكل سهولة.

كانت أوروبا لا توجه أهمية تذكر لتجارة إيران قبل حكم (كريم خان) بسبب اضطراب الأمور الداخلية وتزعزع الأمن وانتشار القلاقل والفتن في أرجائها.. فلما ولي (كريم خان) الحكم وقضى على هذا الاضطراب قضاء مبرماً، واستأصل شأفة مثيري الفتن والقلاقل، سادت الطمأنينة ورفرفت على أنحاء البلاد، فتقدمت التجارة الداخلية وكذا الزراعة، إذ كان هذا الملك الهمام لا يألو جهداً في تشجيع أرباب الصناعات ــ حتى الأرمن منهم ــ في بلاده وحثهم على تحسين صناعاتهم والعمل على ترقيتها، كما عمل على حماية التجارة، فعم الرخاء، وانتشر لواء السلام والطمأنينة في أواخر أيام حكمه العادل في كافة أنحاء إيران، وكان الممولون من أصحاب الأملاك والزراع لا يمدون الحكومة إلا بقسط ضئيل، ولكنهم كانوا يقدمون عن طيب خاطر ما يطلب إليهم دفعه أكثر من ذلك. وكانت طبقة ذوي الأملاك هذه تكاد أن تكون مستقلة في كل شؤونها وأمورها، وكانت ترفل في حلل من السعادة والهناءة في ظل حكم (كريم خان) العادل الذي كان يؤثر هذه الطبقة بالتعضيد والمساعدة.

ولقد شملت هذه النهضة المباركة جميع مدن إيران في عهد هذا المجدد، إلا أن شيراز قد نالت من هذه النهضة نصيب الأسد، ويلوح أن كريم خان قد اتخذ هذه المدينة عاصمة لملكه لأنها كانت على مقربة من مواطن عشيرته، فضلاً عن تعلق أهاليها به. ولقد بذل جهوداً جبارة في تحصينها وتزيينها وذلك بإقامة الطوابي، وتشييد القلاع حولها، وبناء القصور، والدور العامة بها، وغرس الأشجار والزهور، وإنشاء الحدائق الغناء حولها، وكل هذا إلى جانب عمله المتواصل على تأمين الأهالي وتوفير أسباب السعادة والرفاهة لهم.

وقد صور لنا مؤرخ إيراني[1] هذه الأيام الذهبية الوضاءة من أيام كريم خان فقال: (إن النور الباهر الذي أوجده كريم خان قد أضاء جميع بلاد إيران إلا أن قوة إشعاعه كانت محسوسة في (شيراز) أكثر من غيرها، ولهذا كان سكان هذه المدينة المحظوظة في بحبوحة من الطمأنينة والسلام، وفي فيض من السعادة

---

[1]- هو «علي رضا» صاحب تاريخ الأسرة الزندية ــ المؤلف.

والرفاهة، والناس يمضون أوقاتهم في هناء دائم وصفاء مقيم بين بنات حسان كالأقمار، وغلمان كاللؤلؤ والمرجان، فكان هاتف الذوق والشوق والحب والعشق يطوف على رؤوس الجميع، كل على قدره من الحياة، ونصيبه ومركزه في المجتمع).

وقد توفي كريم خان إلى رحمة الله في اليوم الثالث عشر من شهر صفر من عام ١١٩٣ للهجرة (١٧٧٩ م)[١] عن ثمانين عاماً، فقد حكم إيران ثمانية وعشرين عاماً مستقلاً تمام الاستقلال دون منازع، ولا سيما في العشرين سنة الأخيرة من حكمه التي كان خلالها منفرداً بالحكم والسلطان في إيران بأجمعها[٢].

أخلاقه وسجاياه

ليس من السهل تصوير سجايا هذا الملك الفذ، وما جبل عليه من حميد الخصال إذ كان يجمع بين صفات الملك المستبد، وخصال الملك العادل الذي يقدس الشورى ويؤمن بها، فلم يكن حليماً لدرجة الضعف والانقياد الأعمى لمن حوله، ولا بالشديد الصلب لدرجة الطغيان وفرض إرادته وأهوائه على الغير، بل كان معتدلاً في غير إفراط، ومتسامحاً في غير تفريط، وكان صائب الرأي، حكيماً في تصرفاته. وقد لازمه كل ذلك في جميع أدوار حياته مما جعله يحتفظ بوقاره ويصون عليه كرامته وذكراه العاطرة لدى الجميع. وهذا لا يمنع من أنه كان في بعض الأحيان يصدر أمره بتوقيع عقوبات صارمة على من يستحقها، شأنه في ذلك شأن كل الحكام. ولكنه كان يوكل إلى الآخرين تنفيذ تلك العقوبات الصارمة التي تخالف طبعه، وهكذا كان يوقع الرعب والهلع في قلوب خصومه من الأعداء ومن الثوار العصاة، بيد أن رحمته كانت تطغى دائماً على قسوته، حين يلجأ إلى رحابه أعدى أعدائه فما يلبث أن يمنحه عفوه بلا تردد.

---

[١] - ذكر في «تاريخ السر جون ملكولم» أنه دفن في شيراز وأنه بعد قيام الحكومة القجرية عمد أقا محمود خان السفاك إلى استخراج عظامه من القبر، وكذا عظام نادر شاه، أحضرها من المشهد ودفنها جميعها في عتبة باب سراياه ليطأها بقدميه كل يوم ذهاباً وإياباً — المؤلف.

[٢] - يقول البعض أنه توفي عن خمسة وسبعين عاماً، وقال آخرون عن ستة وثمانين عاماً، ولكن الراجح هو ما ورد في المتن، غير أنه من المحتمل جداً أن كريم خان نفسه كان لا يعرف تاريخ ميلاده إذ لم تجر العادة وقتذاك بتسجيل المواليد بين العشائر — المؤلف.

ومن أبرز صفاته الحميدة أنه كان طيب السريرة عاطر السيرة، وإن تاريخ حياته لسجل عامر ومليء بالحوادث الطريفة، والقصص العجيبة المسلية، فكان مثلاً يحتذى في الشهامة والجرأة، يبادر إلى العفو والتسامح في غير ما تردد، يعتمد على أولئك الذين يمنحهم عفوه، الاعتماد كله، ويجعلهم أسرى إحسانه فيغدق عليهم من فيض كرمه وسابغ عطفه دون فارق أو تمييز. وكان متمسكاً بقواعد الدين وأوامره غاية التمسك ولكن في غير ما تعصب، وكان هاشاً باشاً بهي الطلعة، ممتعاً بمباهج الحياة الدنيا وطيباتها في اعتدال ووقار واحتشام تلك الطيبات التي يجب أن يتمتع بها الناس جميعاً ولكن في غير ما إسراف. ولم تؤثر هذه المتعة في مركزه كحاكم عادل وإداري حازم.

وكان كريم خان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، إذ يلوح أنه لم يذهب إلى الكتاب لا في طفولته ولا في شرخ شبابه، بل وما رغب أيضاً في الذهاب إليه حين كبر سنه. وهو ابن رئيس عشيرة جبلية[1] لا تعرف من نواميس الحياة ومجرياتها وتطوراتها سوى ما يمسها ويتفق والبيئة الجبلية النائية عن العمران فكان من الطبيعي أن يعزف كريم خان عن الدرس وعن تلقي العلم والارتشاف من مناهله، وأن ينهج نهج سائر أبناء رجال القبائل في الولوع بالفروسية والألعاب الرياضية وأعمال الجندية والتدرب على القتال والكر والفر.

وعلى الرغم من أنه كان أمياً، فقد كان يستحث الناس ويشجعهم على تلقي العلم والاغتراف من مناهله.. وكان مجلسه العالي مجمع العلماء والفضلاء الذين هرعوا إليه من كل حدب وصوب. وقد جدد ضريحي الشاعرين الشهيرين (الشيخ سعدي) و (حافظ) المدفونين في ضواحي (شيراز). وأوقف عليهما الكثير من العقارات والكروم والحدائق الغناء، وأقام الموظفين والحراس اللازمين لإدارة هذه الأوقاف. ولقد كانت هذه المأثرة من أبرز مآثر كريم خان وأعماله المجيدة وكان له أحسن وقع وأجمله في نفوس أهالي شيراز الذين كانوا يكنون في قلوبهم شديد إعجابهم وعظيم فخرهم وكامل تقديرهم وإعزازهم لهذين الشاعرين وكان حريصاً ساهراً على نشر لواء العدل بين رعاياه، وقد أثر عنه

---

[1]- كانت عشائر (لك) بما فيها قبيلة الزند وغيرها في غاية من الجهل والتأخر كسائر العشائر والقبائل الإيرانية — المؤلف.

أنه كان يجلس كل يوم بضع ساعات لسماع شكاوي المظلومين والفصل في شكاواهم، ورد مظالم الناس، وتعرف مطالب الأهلين.

وكان من شيمته الحلم، وليس أدل على مبلغ حلمه من تلك القصة التالية التي رواها (مالكولم):

«يقال إنه ذات يوم بعد أن أتم أمور مجلس العدل، هم بالعودة إلى بيته وهو شاعر بتعب من جراء العمل والنظر في أمور الرعايا وإذا برجل مشمر عن ساقيه يعدو عدواً شديداً يتقدم إليه مقتحماً موكبه وصارخاً (العدل العدل) فيسأله كريم خان بقوله:

ـ من أنت؟

الرجل: تاجر وقد سرق جميع ما أمتلكه.

كريم خان: كيف كان ذلك، وأين وقعت الحادثة؟

الرجل: كنت نائماً.

كريم خان: لماذا نمت (قال هذا في غضب وشدة)؟

الرجل: غلطت، وقد كنت أظن أنك صاح وغير نائم.

وقد أزالت هذه الإجابة السديدة ما تولى كريم خان من الغضب والامتعاض وأعجب بجسارة الرجل وصراحته، ولهذا لم يتأثر منه، بالرغم مما في جوابه من عتب لاذع.

وقد أمر وزيره بأن يدفع للرجل قيمة ماله المسروق من الخزانة العامة، قائلاً أنه يجب بذل الجهود للعثور على هذا المال المسروق».

هذا وإن الطريق الذي سلكه كريم خان في تأسيس وتدعيم أركان دولته لا شك في أنه الطريق المعنوي السوي في المحافظة على التقاليد، وأسس الأخلاق القويمة والخصال الحميدة. إذ لم يسلك قط سبيل التعسف والخسف مع رعيته كي يخضع الجيش لنفوذه، وما أقدم قط على اتباع سياسة خرقاء تجر وراءها ذيل الفشل والدمار والخذلان على البلاد، في سبيل مجد عسكري زائل، أو انتصار مدني ظاهره براق. وكانت حياته الخاصة يغلب عليها طابع التواضع، ودماثة الخلق، وسهولة الطبع والبساطة في المأكل والملبس والمشرب، وفي شتى مظاهر الحياة.

وكانت أوامره للرؤساء والموظفين صارمة لا نقض فيها على عكس الحال مع رعاياه الذين كان يبادلهم حباً بحب، ويتودد إليهم، ويلاطفهم، ويقابلهم بوجه

بشوش، ويستمع إلى مطالبهم، ويتعرف حاجاتهم. وكانت تتوافر لديه قدرة كافية لأن يجمع في وسط يخيم عليه ظلام التأخر، بين ما يقتضيه ويتطلبه الحرص على تنفيذ القانون وإحقاق الحق من اتباع مبدأ الشدة والصرامة، وبين ما توجبه الإنسانية والعواطف البشرية النبيلة من اتباع مبدأ التسامح والشفقة. فلا غرابة بعد كل ما ذكرنا أن عاش كريم خان بين الإيرانيين لا كملك فقط، بل كأب رحيم بار بهم، وساهر على مصالحهم.

وقد كانت وفاته نكبة قاصمة للبلاد أحدثت هلعاً وحزناً وكمداً بين كافة الإيرانيين الذين كانوا يجلون ويقدسون اسم هذا الملك الهمام اعترافاً بما قام به من جليل الخدمات ومجيد الأعمال، وما بذله من الجهود الجبارة حتى نجح في إقامة حكومة إيرانية بحتة، في وقت كانت فيه عوامل الشقاق وأسباب الخلاف والفرقة تمزق أوصال البلاد، وتسير بالجمهور على غير هدى نحو الهاوية ويذكره الإيرانيون دائماً بالخير، ويكيلون له المديح والثناء؛ ويقولون (إنه وإن لم يكن من الملوك العظام من حيث العظمة المادية، فلم يقتن قصوراً فخمة ولا حاشية ضخمة، ولم يحرز فتوحات واسعة، ولكن من الواجب أن نعترف بأنه كان حاكماً عادلاً إلى اسمى طبقات العدل، وأنه لا مثيل له بين ملوك إيران)[1].

الحالة بعد وفاة كريم خان

تعتبر وفاة كريم خان بداية لظهور القلاقل، وتحرك الفتن وتزعزع أركان دولة الزند، واضطراب الأحوال في جميع بلاد إيران، ولقد أنجب كريم خان خمسة ذكور[2]، مات أحدهم قبل وفاته، وعاش الأربعة الآخرون الذين عرضهم القدر لضروب من الخيانة والغدر اكتووا بنارها من قبل رؤساء أسرتهم بعد وفاة

---

[1]- يقول (سر مالكولم) نقلاً عن تاريخ «كدخدا» إني سمعت هذا من أفواه الكثيرين من رجال الدولة القجرية المتأخرين.

ويقول (بيننج) في الجزء الثاني من كتابه (ص ٢٠٧). لا يوجد في جميع قوائم أسماء ملوك إيران مثيل وند لكريم خان في تعلق الشعب به وحبه إياه لدرجة التقديس، وكان لا يذكر اسمه دائماً إلا مقروناً بالتجلة والاحترام.

[2]- كان أكبر هؤلاء الأبناء (صلاح خان) الذي سمل ابن عمه أكبر خان عينيه قبل أن يصل إلى الحكم، والثاني (أبو الفتح خان) الذي أعماه عمه صادق خان بعد أن أعلن حكمه ظاهراً، وانفرد هو نفسه بالحكم والثالث (محمد علي خان) الذي أعماه أكبر خان أيضاً، والرابع (محمد رحيم خان) الذي توفي قبل وفاة أبيه ونجا مما وقع فيه أخوته من شباك، والخامس (إبراهيم خان) الذي قطع أكبر خان لسانه ـــ المؤلف.

أبيهم. وقد قبض (زكي خان) على زمام الأمور، واستبد بالحكم بعد وفاة كريم خان مباشرة، وحاول جاهداً بشتى الوسائل الممكنة وبكافة الأساليب توطيد مركزه في الحكم.

وكان بعض زعماء عشيرة الزند لا يأمنون جانبه ويخشون غدره وبطشه بهم. ولهذا سارعوا إلى الاستيلاء على القلعة الداخلية لمدينة (شيراز) واستعدوا وتأهبوا للدفاع، وفي نفس الوقت أعلنوا تأييدهم للأمير (أبي الفتح) نجل كريم خان ولكن (زكي خان) قد أفسد عليهم تدبيرهم إذ بادر فأعلن ولاية عهد كل من أبي الفتح خان وأخيه محمد علي خان[1] لعرش والدهما، فحال هذا الإجراء الجهنمي دون تظاهر الأهالي وتعضيدهم لهؤلاء الزعماء... والحق أن وليي العهد كانا حاكمين اسماً ولا فعلاً. إذ أنه قد استبد بالأمر وانفرد بالحكم بحجة أنهما شابان تنقصهما الخبرة بشؤون الحكم ويفتقران إلى الحنكة والتجارب وفهم الأمور على حقيقتها.

هذا وكان ساعده الأيمن في تنفيذ خططه وتحقيق مآربه ابن أخته المدعو (علي مراد خان).

ولقد بذل (زكي خان) جهوداً جبارة أملاً في الاستيلاء على القلعة الداخلية لشيراز، ولكن هذا العمل لم يكن باليسير الهين كما خيل إليه، ولهذا اضطر إلى أن يسلك طريق المكر والخديعة مع حامية القلعة وأخذ يقطع لهم على نفسه العهود والمواثيق بالمحافظة على حياتهم، ووعدهم وأغراهم بأنه سيسند إلى رؤسائهم مناصب ملائمة من مناصب الدولة، فصدقه الرؤساء، ووقعوا في حبائله، وسلموا أنفسهم إليه، ولكنه ما كاد يتمكن منهم بهذا الأسلوب الدنيء حتى قضى عليهم جميعاً قضاء مبرماً، وعلى أبشع صورة حانثاً بوعده الذي قطعه على نفسه، ولما سمع (صادق خان) بوفاة كريم خان غادر البصرة إلى (شيراز) وعلى مقربة منها نصب خيامه، وأقام معسكره إلى جوارها، وأرسل ابنه (جعفر خان) إلى المدينة لمقابلة (زكي خان) وليتعرف رأيه في الشكل الذي تكون عليه الحكومة، وما لبث أن عاد (جعفر خان) إلى والده حاملاً إليه تأمينات (زكي خان) وكل ما يبعث في نفسه الطمأنينة، ولكنه لم يفته في نفس الوقت أن يوصي

---

[1] كان صهراً لزكي خان ــ المؤلف.

والده بألا يعتمد على كلام (زكي خان) أو يثق فيه، وبوجوب اتخاذ الحيطة والحذر منه، لأنه ليس ببعيد أن يكون عرضة في كل وقت للوقوع في شباك (زكي خان) والارتشاف من كأس غدره وخيانته الشائنة تلك الكأس التي شرب منها رؤساء الزند مراراً وتكراراً.

وكان لهذه التوصية أوقع الأثر في نفس (صادق خان) الذي فقد الأمل في الاتفاق مع (زكي خان)، وقرر محاصرة (شيراز)، وكان واثقاً من نتيجة الحروب والقتال بقدر وثوقه من طاعة رجال جيشه ومحبتهم له. وقد أعد جيشه، وعبأ جنده للقتال على أساس هذه العقيدة. ولما رأى (زكي خان) أنه لم ينجح في اجتذاب خصمه (صادق خان) إلى داخل المدينة بالحيلة والدهاء عمد إلى إلقاء (أبي الفتح خان) في غياهب السجن، وإعلان أخيه (محمد علي خان) الذي كان شريكه في الحكم حتى ذلك الوقت حاكماً مستقلاً على إيران، وألقى القبض على ثلاثة أولاد لصادق خان كانوا في (شيراز) حينذاك. ثم أقفل أبواب المدينة وأعلن على الملأ أنه سوف يقوم بإعدام أسر ضباط جيش (صادق خان) ورجاله كافة وعن بكرة أبيهم، وقد فعل هذا التهديد وذلك الوعيد فعل السحر إذ حقق ما كان يرمي إليه (زكي خان) لأنهم كانوا يعتقدون أن قتل أطفالهم، وإعدام نسائهم، وإراقة دم الأبرياء منهم عمل هين لدى زكي خان، فكانت النتيجة أن بادر جميع الضباط والجنود من ذوي الأسر، وممن لهم أقرباء في داخل (شيراز) إلى التسرب من معسكر (صادق خان) ولاذوا بالفرار إلى (شيراز)، وقد أدى هذا إلى إفساد خطط (صادق خان) وتدابيره. وانهيار آماله في الفوز، إذ لم يبق إلى جانبه من جنده إلا ثلاثمائة مقاتل من رجاله الأخصاء، فاضطر إلى العودة بهم إلى طريق (كرمان)، ولكن زكي خان قد اقتفى أثره وأرسل قوة من الفرسان لمطاردته فأدركته على بعد أربعين ميلاً من شرقي (شيراز) في مكان يقال له (دربند أورينجان) حيث اشتبكت معه في قتال عنيف أسفر عن قتل قائدها الذي بموته اندحرت القوة وباءت بفشل ذريع، وولت الأدبار إلى أن وصلت إلى مدينة (شيراز) وبذلك تهيأت الفرصة لصادق خان كي يستأنف السير برجاله حتى وصولا إلى كرمان واعتصموا بقلعتها الصغيرة.

ومن الأحداث الهامة التي وقعت عقب وفاة كريم خان، نجاة آغا محمد خان القجري، وهروبه من شيراز حيث كان سجيناً بقلعتها منذ اليوم الذي وقع فيه

أسيراً عام (١١٦٠ هـ ـ ١٧٤٧ م) ولم يكن يسمح له بالخروج من القلعة إلا أياماً معدودات في بحر السنة للصيد والقنص فقط.

وكان كريم خان يشمله بعطفه، ويفيد من خبرته وتجاربه في شؤون الحكم ويستشيره في أمور الدولة كما أن آغا محمد خان كان قد ربط مصيره بوفاة كريم خان ولهذا كان ينتظر هذا اليوم ويتعجله بفارغ الصبر، لا سيما وأن أخته كانت زوجاً لكريم خان. وما أن صعدت روح كريم خان إلى بارئها حتى شاغل الحراس ورجال الحكومة الذين وقعوا يومئذ في حيص وبيص وخرج منسلاً من المدينة مع بضعة من رجاله المكلفين بالقيام على خدمته، وسار في البيداء حتى وصل إلى بلاده؛ وحط الرحال بين قومه وعشيرته. ثم أخذ في حشد قوات كبيرة مكنته من إعلان نفسه ملكاً على البلاد في عام (١١٩٣) للهجرة (١٧٧٩ م).

ولقد كان (زكي خان) واثقاً تمام الثقة بأن رئيس القجر غير مكتف ولا قانع بإقليم (مازندران) وحده، وأنه لا بد زاحف إليه يوماً ما، ولهذا أعد جيشاً قوياً بقيادة ابن أخته المدعو (علي مراد خان)، وأمره بالزحف إلى حيث رئيس القجر ليمنعه ويوقفه عن التقدم، غير أن هذا التدبير قد جاء على خلاف ما كان يرومه، إذ أن ابن أخته الشجاع الحريص كانت التجربة قد علمته أن أحوال بلاده لن تتيح لمثل (زكي خان) المجرد من القوة الذاتية والذي يفتقر إلى العصبية العشيرية، النجاح في تحقيق مطامعه الشخصية أو يأمن جانب أحد من الناس، ولهذا كان يترقب الفرص ويتحينها ليشق عصا الطاعة على (زكي خان) ذلك الحاكم الظالم المستبد المكروه من الناس والذي لا يؤمن جانبه قط.

سيطرت هذه الفكرة على عقل (مراد خان) وما لبث أن اتخذ من دعوة (صادق خان) واستنجاده حين انفصاله عن (شيراز) وسيلة ومبرراً لإخراج فكرته إلى حيز العمل، فما أن وطئت قدماه أرض طهران حتى جمع أمراء جيشه وقواد جنده على الفور وقال لهم: «هل من الجائز مساعدة رئيس مثل (زكي خان) الذي أساء معاملة كل الناس، وغدر بأنجال سيده وولي نعمته (كريم خان) عليه الرحمة والغفران؟» ولا شك في أنه قد تمكن بهذا الأسلوب من إقناعهم برأيه دون عناء. ثم توجه صوب (أصفهان) وما أن اقترب منها ولمس بل ورأى بعيني رأسه أن الأهالي والرعايا جميعهم قد انحازوا إلى جانبه – وأنهم يتمنون من صميم أفئدتهم الغلبة له على (زكي خان) – حتى عمد إلى

عزل واليها المعين من قبل (زكي خان)، ثم أعلن على الملأ أن الغرض من حركته إن هو إلا إقامة نجل كريم خان ملكاً على البلاد خلفاً لوالده، وأنه ليس هنالك من هدف آخر يتطلع إلى تحقيقه.. فسر الأهالي بما أعلن وازدادوا حباً له وتعلقاً به، وأبدوا استعداداً طيباً لتأييد الوضع الجديد وإعزازه.

وما أن علم (زكي خان) بعصيان ابن أخته حتى طار لبه وفقد صوابه واختل توازنه، فبادر على الفور إلى حشد جيش، سار على رأسه إلى أصفهان وما دري بأن الانتقام الإلهي كان منه قاب قوسين أو أدنى، إذ ما كاد يصل إلى ضواحي (يزد خواست) حتى ضيق الخناق على أهليها وطالبهم بتوريد الأموال التي كان فرضها عليهم قسراً، وقد طلب إليه الأهالي إعفاءهم من دفع هذه الأموال في تلك السنة، لسوء حالتهم وفقرهم المدقع، وأنزلوا من شباك القلعة وفداً من سراة القوم وأعيانه ليشرحوا له سوء الحالة وتعذر الدفع، فما كان منه إلا أن أشاح عنهم بوجهه، وأساء معاملتهم، وأمعن في اضطهادهم ولم يكتف بذلك بل استدرج سيد البلدة وهو رجل من الأشراف وأراد أن يفتك به، ويذيقه سوء العذاب، لولا أن حامية القلعة قد حالت دون ذلك. وكان لهذه الحادثة أسوأ الأثر في نفوس الأهلين، فقست عليه قلوبهم وبيتوا له في أنفسهم أمراً، ألا وهو التخلص منه، وما أمهلوه ولكن قتلوه على الفور وكان ذلك في عام (١٧٧٩) للميلاد.

وبعد مقتل (زكي خان) على هذا الوضع، أعلن (أبو الفتح خان) نجل كريم خان شاهاً على بلاد إيران، وكان ذلك في سنة (١٧٨٠) للميلاد.

وكان (أبو الفتح خان) رجلاً شجاعاً، وملكاً عادلاً، ذا خصال حميدة ومعتدلاً في كافة الأمور، فليس هو بالحريص ولا بالطامع، غير أنه لم يكن ليملأ بجدارة ذلك المركز السامي في مثل هذه الظروف الدقيقة المحيطة بالبلاد ومع ذلك لم يكن هنالك من شخص آخر يمكنه أن يحول دون خروج الملك من أسرة كريم خان، ويعيد الأمن إلى نصابه، ويضع حداً لأطماع الطامعين في الملك غير هذا الذي نودي به ملكاً للبلاد.

ولما سمع (صادق خان) بما حاق بخصمه (زكي خان) نهض على الفور وتوجه صوب شيراز ودخلها، تحف به أبهة الملك وسطوته في اليوم الثلاثين من شهر جمادى الأولى من عام (١١٩٤ هـ) وكان هذا الأمير الزندي قائداً

محنكاً، وجندياً باسلاً، وإدارياً حازماً، إلا أنه كان طموحاً قـوي الرغبـة فـي السلطان واعتلاء أريكة الحكم إذ كان من الصعب على نفسه أن يخضع لأوامـر حاكم جاهل ضعيف الإرادة، وقصارى القول كان ينعدم التفـاهم والانسـجام ـ كلية ـ بين العم وابن أخيه الأمر الذي أدى في النهاية إلى أن يلقي صادق خـان القبض على ابن أخيه، وليته اكتفى بهذا بل أمعن في الغلظة والوحشـية وسـمل عينيه حسب العادة السائدة في تلك العهود المظلمة، وأعلن نفسه شـاهاً مسـتقلاً للبلاد في عام (١١٩٤ هـ) (١٧٨٠ م) ولكنه ما كان يحلم قـط بـأن عرشـاً ينتزعه ويستولي عليه قسراً وبمثل هذه الوسيلة الوحشـية سـيكتب لـه الـدوام والاستقرار.

والواقع أن خطر (علي مراد خان) كان قد عم وازداد وقوي نفوذه واتسـع فأرسل (صادق خان) ابنه (جعفر خان) إلى أصفهان ليرقب عن كثـب حركـات (علي مراد خان) الذي كان قد تغلب على (ذي الفقار خان) خصمه الثـائر فـي بلاد قزوين وسلطانيه وزنجان، واستولى على هذه البلاد وأرسل رأس الثائر إلـى (شيراز) في عهد (أبي الفتح) فازداد بذلك نفوذه. وفي الوقت الذي كانت تجـري فيه هذه الحوادث، وتتتابع، كان (علي مراد خان) في طهران. فلما جاءته هـذه الأنباء وترامت إلى مسامعه بادر على الفور إلى المناداة بنفسه ملكاً للبلاد وتوجه على رأس جيش كبير نحو (أصفهان) ولما اقترب منها أرسل عليها والياً جديـداً من قبله.

أما (صادق خان) فقد عمد إلى إعداد جيش قوامه عشرون ألف مقاتل وأسـند قيادته إلى ابنه (تقي خان) الذي شن هجوماً على جيش (علي مراد خان)، وأوقفه عن التقدم إلى الأمام، ثم ما لبث أن ألحق به خسائر جسيمة إذ شتت شمل جيشـه الذي سارع فريق كبير منه بالانحياز إلى جانبه واضطره هو نفسه إلى التقـهقر والتراجع نحو (همذان) في جماعة من أقربائه وأخص رجاله للمحافظة على هذه البلاد.

وبعث (صادق خان) إلى نجله بكتاب يحثه فيه على استغلال هـذا النصـر المبين، فيعمل جاهداً على التخلص من (علي مراد خان) نهائياً، ومطاردته حتـى يقضي عليه قضاء مبرماً. ولكن هذا الأمير الغر الطائش الذي أسـكرته نشـوة النصر، قد ركب رأسه ولم يعمل بنصيحة والده، ودخل (أصفهان) ظافراً وقضـي

شهراً بين ربوعها، دون أن يحسب حساباً لاستعداد خصمه الـــذي انتـــهز هـــذه الفرصة الذهبية فأعاد تنظيم شؤونه وأصلح من أمره وأخـــذ يـــترقب مجريـــات الأحوال ويتربص حتى تسنح له الفرصة.

ثم غادر تقي خان (أصفهان) وتوجه نحو العراق أملاً فـــي توســـيع ميـــدان فتوحاته، وكان بعض قواده ورؤساء جيشه قد قلبوا له ظهر المجـــن، وخرجـــوا عليه. وعلى مقربة من مدينة (همذان) فوجئ (تقي خان) بخصمه العنيد (علـــي مراد خان) الذي اشتبك معه في قتال عنيف أسفر عن اندحاره وخذلانه وما نجـــا من الموت المحقق أو من الوقوع في الأسر إلا بأعجوبة... وسار (تقـــي خـــان) يجر أذيال الهزيمة حتى وصل إلى شيراز في حالة يرثى لها.

ولما ترامت الأنباء إلى (صادق خان) بأن (علي مراد خان) زاحـــف علـــى عاصمة بلاده، بادر على الفور إلى حشد جيش جله من المشاة وبعث بـــه إلـــى خارج (شيراز) على مسافة خمسة وعشرين ميلاً منها، ليحول دون تقدم العـــدو وتوغله، ولكن هذا الجيش قد فوجئ بهجوم مباغت شنه عليه (علي مراد خـــان) في الوقت الذي كان الجنود منهمكين في توزيع الطعام والذخيرة علـــى القـــوات المختلفة، فتشتت شمل هذا الجيش أيضاً، وتعقبه فرسان العدو وألحوا في مطاردة فلوله حتى أوصلوها إلى أبواب (شيراز) وألقوا عليها الحصار.

وقد دام هذا الحصار ثمانية أشهر، ولم يكلف المحـــاصرين أنفســـهم مؤنـــة القتال والهجوم كي يتعجلوا سقوط المدينة بل اكتفوا بتشديد الحصار، وتضييـــق الخناق على المحصورين من الأهالي والمدافعين الذين كانوا قـــد ملـــوا القتـــال وسئموه وخارت قواهم من شدة الجوع وقسوته وتفشـــي الأمـــراض، وتوالـــي الويلات والنكبات، فمال الكثيرون منهم إلى الثـــورة ومحاولـــة تســـليم المدينـــة للأعداء، وفعلاً عمد بعض المدافعين ذات ليلة إلى الاستيلاء على أبواب المدينـــة، ثم فتحوها على مصاريعها لجيش (علي مراد خان) فدخلها في هدوء وسلام دون سفك دماء، وأحسن معاملة الأهالي جزاء لما قدموا له. ولكن (صادق خان)، قـــد ركب رأسه، وامتنع عن التسليم ولجأ بأسرته وكبار رجاله إلى القلعـــة الداخليـــة حيث اعتصموا بها حقبة من الزمن، ولكنه اضطر أخيراً إلى التسليم، ونفذ فيـــه وفي رجاله العظام حكم الإعدام شنقاً؛ وكان ذلك في سنة (١١٨٦ م) ولم ينجـــو من الشنق سوى ابنه (جعفر خان) الذي كان قد انسجم مع (علي مراد خان) قبـــل الاستيلاء على المدينة بزمن ليس بقصير.

هذا وكان (صادق خان) قد اشتهر في عهد أخيه (كريم خان) بالعدل والحزم وحسن التدبير في كافة أنحاء إيران ولا سيما بعد توفيقه في فتح البصرة وضمها لرقعة الإمبراطورية الزندية، ولكن أعماله الشائنة الأخيرة مع بني قومه وأقربائه الأدنين، وطمعه في الانفراد بالحكم، قد أفقدته عطف الناس أجمعين، وجعلت من المتعذر بل من المستحيل عليه الوصول إلى الحكم.

إزاء هذه الحالة يقف المرء جامدا لا يسعفه المنطق كيف يفسر عمل (صادق خان) كي يحقق رغبته في الوصول إلى الحكم مع وجود أنجال لكريم خان الذي كان مبعث الشهرة العريضة التي كانت تتفيأ الأسرة الزندية ظلالها.

وهكذا دانت الأمور لعلي مراد خان فصار ملكا على إيران، ويؤخذ من سجل أعماله وانتصاراته أن البلاد لبثت بضع سنين مسرحا لدسائس القواد العسكريين ومنازعاتهم.

ولم يبرز أحد قط في أثناء المحاصرة مثلما برز واشتهر (أكبر خان) ابن (زكي خان)، ولكنه كان ظالما جبارا عتيا، بقدر ما كان بطلا وشجاعا وقد وصلت به الجرأة والقسوة وحب الانتقام إلى أن يتولى بنفسه وبيديه المتلطختين قتل (صادق خان) وأبنائه الثلاثة. ولكن المنتقم الجبار الذي لا يغفل ولا ينام قد أبى ــ جل شأنه ــ إلا أن تكون الجريمة التي ارتكبها هذا السفاك وسيلة لمصرعه هو بعد مدة وجيزة، إذ ألصقت به تهمة تدبير مؤامرة لقتل الشاه غيلة. ولم يكن من الصعب إقناع (علي مراد خان) بصحة هذه التهمة، فأصدر أمره لجعفر خان بأن يهدر دم هذا السفاك الذي قتل أباه وأخوته وما زالت يداه ملطختين بدمائهم.

وبعد بضعة أشهر انتقل (علي مراد خان) إلى أصفهان واتخذها عاصمة لحكومته، وكان يولي (جعفر خان) كامل ثقته ويعتمد عليه الاعتماد كله، ولهذا نصبه واليا عليها من قبله، وكان نجله (شيخ ويس) قائدا عاما للجيش فعهد إليه المحافظة على الحدود الشمالية، ومراقبة حركات (آغا محمد خان القجري) فكتب له الفوز في بادئ الأمر وأحرز نصرا مبينا باستيلائه على (مازندران) وإلحاقه هزيمة منكرة برئيس القجر، واضطره للفرار إلى (أستر آباد)، ثم أرسل في أعقابه قوة لمطاردته وإلقاء القبض عليه.

ولكن (محمد ظاهر خان) الذي كان يتولى قيادة هذه القوة المطاردة كان قصير النظر فلا عجب أن قطع على نفسه وعلى جيشه خط الرجعة إلى

(مازندران) حيث أصيب بفشل ذريع، ثم ما لبث أن وقع صريعاً في ميدان الوغى. وتشتت شمل جيشه شذر مذر، وسارع الذين نجوا من جنده إلى الانضمام إلى جيش (شيخ ويس) المعسكر في مازندران والذي اضطر هو الآخر وعلى رأسه قائده إلى الجلاء عن (مازندران) واللجوء إلى (طهران) حيث وقف إلى جانب جيش (علي مراد خان) وانتظم في صفوفه. وكان ذلك في عام ١١٩٩ هـ (١٧٨٤ م).

كان (علي مراد خان) في هذه الآونة مريضاً وقد اشتدت عليه وطأة المرض، ومع ذلك كان يبدي نشاطاً محسوساً في معالجة الأمور وإعداد الجيوش التي كان من بينها ذلك الجيش الذي بعث به إلى (مازندران) ووطن النفس على أن يقوم هو نفسه بنجدته إذا اقتضى الأمر.

وفي هذه الأثناء جاءته الأنباء تترى بأن (جعفر خان) قد شق عليه عصا الطاعة وأنه زحف صوب العاصمة، فغلبه التأثر واشتد حزنه وبرح به الألم لدرجة أنه لم يطق صبراً، ولم يتريث حتى يبرأ من علته بل سارع إلى الزحف نحو أصفهان معرضاً نفسه لبرد الشتاء القارس رغم إلحاح وزيره وطبيبه الخاص عليه بالاعتكاف. ولكن الأجل المحتوم قد وافاه في عرض الطريق فصعدت روحه إلى بارئها، وكان ذلك في عام (١٧٨٥ م) فاضطر الزعماء والقواد وذوو الرأي إلى إخفاء نبأ موته على الجيش حتى وصلوا العاصمة.

وما أن ترامى هذا النبأ إلى مسامع رجال الجيش حتى عمدوا إلى النهب والسلب وتفرقوا شيعاً يعيثون في البلاد فساداً.

ولقد أسهب الكثيرون في الكلام عن أخلاق (علي مراد خان) وسجاياه ويستخلص من رواياتهم أنه كان مثلاً يحتذى في الشجاعة والبسالة النادرة، وليس أدل على ذلك من شهادة خصمه القوي الجبار (أقا محمود خان القجري) له، ذلك الخصم الذي قاسى الأمرين في عهد هذا الشاه في سبيل المحافظة على (مازندران)، والذي كان يرد على الذين كانوا يستفزونه ويحثونه على شن الهجوم على العراق العجمي بقوله: (اصبروا حتى يقضى على هذا الأعمى[1] المحترم، وحينذاك فقط يمكننا أن نعمل شيئاً).

---

[1]- كان (أقا محمد خان القجري) يذكر (علي مراد خان) دائماً بهذا الوصف. والواقع أنه كان أعور لا أعمى ــ المؤلف.

وقد وصل (جعفر خان) إلى (أصفهان) بعد وفاة (على مراد خان) بخمسة أيام فقط، فوجد واليها المدعو (بكر خان) قد اغتصب الحكم واستأثر بلقب الوالي لنفسه خلال هذه الأيام القلائل، فبادر إلى عزله. وأرسل إليه من يلقي القبض عليه، ويخلفه في منصب الوالي، وتم ذلك كله في غاية من السهولة والسرعة وبذلك لم يبق هنالك من ينافس (جعفر خان) في ادعاء الملك سوى «شيخ ويس» ولهذا رأى (جعفر خان) أنه من الحكمة، وعين الصواب، أن يسلك مع هذا الأمير مسلكاً يتسم بطابع السياسة والملاينة حتى يتمكن منه، فبعث إليه بكتاب ودي رقيق، يستميله إليه، ويستدرجه إلى مستقره ومقامه حتى نجح بالفعل في استقدامه إليه، وما أن تمكن منه حتى أقدم على تغيير سياسة اللين والحكمة وبدأ معه سياسة جديدة سداها الاضطهاد ولحمتها شتى ألوان التعذيب والتنكيل، وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل لقد أمعن في إيذائه وسمل عينيه كيلا يتمكن ابن الأخ فيما بعد من مناوأة عمه بطلب الحكم لنفسه.

هذا وقد آن الأوان لأن يفي (أقا محمد خان القجري) بالوعد الذي قطعه على نفسه لأنصاره، إذ سبق أن قال لهم: (سنقوم بزحف عام إلى العراق على أثر موت علي مراد خان) فلم يكن هنالك إذن من مانع يحول بينه وبين البر بوعده. وما لبث أن تحرك على رأس قوة من الفرسان يتراوح عددها بين (٥٠٠ و ٦٠٠) فارس وعبر جبال (مازندران) إلى الجنوب ولما رأى في الطريق أن عدد المنتظمين في صفوف جيشه من الأنصار في ازدياد مستمر، عمد إلى الزحف إلى أصفهان مباشرة وذلك تشجيعاً لجنوده على خوض المعارك.

وما كاد يمضي شهران على وفاة (علي مراد خان) حتى كان الجيش القجري يقتحم مدينة أصفهان ويدخلها غازياً فاتحاً، وكان ذلك في اليوم السادس من مايو سنة (١٧٨٨) للميلاد. وكان (جعفر خان) قد أخلى المدينة قبل وصول القجري إليها، وذلك على أثر ثورة[1] أشعل لهيبها وقام بها العصاة ونهبوا كل ما يمتلكه (جعفر خان) من أموال ومقتنيات وأعملوا السلب في أثقال الجيش ومرافق الدولة.

---

[1] - يقال إن الذين أشعلوا نيران هذه الثورة ودبروها وأداروا دفتها هم بعض الرؤساء الذين كانوا قد نجوا من السجن، وكان من بينهم (بكر خان) والي أصفهان السابق.

وفي الوقت الذي دخل القجري فيه أصفهان على النحو الذي ذكرناه، دخل (جعفر خان) شيراز، ولكن صداقة حاكمها (سيد مراد خان)[1] له لم تكن موضع ثقة كاملة، إلا أن الأهالي قد سارعوا إلى تأييده والوقوف إلى جانبه بفضل تشجيع أشراف البلدة وأعيانها له، وكان أبرز هؤلاء الأعيان المدعو (حاجي إبراهيم) الذي كان يبدي نشاطاً ملحوظاً ومحسوساً لتأييد (جعفر خان) لكي يثبت قدميه، ولهذا لم يفت جعفر خان أن يكافئه على حسن صنيعه إذ عينه والياً على فارس (كلانتر).

ولقد رأى (أقا محمد خان) ألا يدع الفرصة تضيع وتفلت سدى دون أن يقوم بعمل حاسم، فاشتبك في القتال مع البختياريين القاطنين في فارس وحدثت بينهم مناوشات ولكن غير حاسمة، فاضطر أخيراً إلى العودة سريعاً إلى طهران فانتهز جعفر خان هذه الفرصة وزحف ثانية إلى أصفهان واستردها وقبض على (رحيم خان) الذي كان والياً عليها من قبل (أقا محمد خان) وأرداه قتيلاً ولكنه سرعان ما أخلى أصفهان وجلا عنها حين بلغه زحف أقا محمد خان عليها ثانية ذلك الخصم الذي كان قوياً عتياً لا ينضب معين أمواله ورجاله والذي كان يبسط سلطانه ونفوذه على شمال ووسط إيران ولديه عزم على محاصرة (شيراز) والذي لم يكن لجعفر خان قبل به.

هكذا كان موقف جعفر خان أمام خصمه وهو كما نرى موقف ينم عن الضعف والعجز المتناهيين، وكان هذا هو نفس موقفه إزاء الثورات الداخلية إذ حدث أن شق عليه والي همدان ــ من قبله ــ عصا الطاعة. ودحر الجيش الذي كان قد أرسله لتأديبه منتهزاً فرصة ضعفه وتقاعسه، وكان أيضاً قد فقد مدينة (يزد) بعد أن تكبد خسارة جسيمة.

ولكن الحظ عاد فحالفه في أواخر عهده إذ نجح ابنه (لطف علي خان) في الاستيلاء على (لار) وقد شجعه بعد الشقة بينه وبين (أقا محمد خان) على تجريد جيش آخر على (أصفهان) لاستردادها، وقد استطاع في بادىء الأمر القضاء على حامية هذه المدينة، غير أن هذا النصر المؤقت لم يدم طويلاً، حيث وردت الأنباء باقتراب رئيس القجر من المدينة، فاضطر (جعفر خان) إلى الجلاء عنها مرة أخرى.

---

[1] - كان سيد مراد خان هذا ابن أخت (علي مراد خان) ــ المؤلف.

هذا وكان (جعفر خان) محبوباً لدى الأهالي والأجانب على السواء، إذ كان يحسن معاملة الجميع، وكان الكل أمامه سواسية كأسنان المشط، وكان عادلاً حليماً، يحترم حقوق الغير.. وقد وكل مهام الإدارة إلى وزير عاقل ذي شخصية محترمة، عرف كيف يسوس أمور الدولة بحزم وعزم. ويتصرف في معالجتها بحكمة[1] ولكن تصرفه السيء ضد قائد من أخلص قواده قد أفقده السمعة الطيبة التي كان يتفيأ ظلالها بل وأدى في النهاية إلى تقويض دعائم حكومته وزوال دولته.

هذا، وكان من بين أمراء وقواد جيش (جعفر خان) قائد يدعى (حاجي علي قوليخان) الكازروني، عهد إليه جعفر خان إخماد ثورة (كاشان) التي أشعل لهيبها ثائر يدعى (عرب محمد حسين خان) فنجح في إخماد نيران الثورة أيما نجاح، واضطر رئيس العصاة إلى التسليم مع آلاف من الأسرى، وكان من بين هؤلاء الأسرى ألف وخمسمائة مقاتل من أهالي خراسان استسلموا بعد قتال عنيف ووافقوا على التسليم بشرط واحد ألا وهو المحافظة على حياتهم وعلى كرامتهم، ولكن (جعفر خان) قد قلب لهم ظهر المجن وركب رأسه وأبى إلا أن ينقض الشروط، ويحنث بالوعد الذي قطعه قائده (حاجي علي قوليخان) على نفسه، ويزج هؤلاء الأسرى الخراسانيين في أعماق السجن، وقد أصم أذنيه، وأشاح بوجهه عن الاستماع لأي رجاء من لدن قائده في هذا الصدد، فلم يجد هذا القائد الشريف ـــ إزاء هذا ـــ بداً من ترك خدمة مولاه والعودة إلى بلاده. وبعد ردح من الزمن أرسل جعفر خان قوة لاستحضار هذا القائد إلى (شيراز) ولكنه رفض بإباء ما عرض عليه من وعود وعهود لتأمينه، فلم تجد القوة مندوحة حينذاك من إلقاء القبض عليه، ونقلته إلى شيراز حيث زج به في غياهب السجن.. وهنالك وبين جدران السجن أتيحت الفرصة لحاجي قوليخان لتدبير مؤامرة مع نزلاء السجن من العظماء ضد (جعفر خان) انتقاماً منه لأنفسهم. وكان بين المتآمرين رجل له قيمته وله وزنه، ذلك الرجل هو (سيد مراد خان)[2] الذي لعب دوراً خطيراً كان له أكبر الأثر في إنجاح هذه المؤامرة التي نفذت على الوجه التالي:

---

[1]- هو (ميرزا حسين) والد (ميرزا بزرك) وزير الأمير (عباس ميرزا) في عهد إيران الشرعي. وكان الوزير (ميرزا حسين) هذا محبوباً من الأهالي يكنون له عظيم الاحترام ـــ المؤلف.

[2]- كان والياً على «شيراز» وكم قدم من مساعدات فعالة لجعفر خان ولكن العلاقات قد ساءت بينهما أخيراً فألقى به «جعفر خان» في غياهب السجن ـــ المؤلف.

(قامت امرأة من الأسرى بإخفاء مخدر معها، ونجحت في دس هذا المخدر في طعام كان معداً لجعفر خان، فما كاد يتذوق الطعام حتى أغمي عليه). وفي تلك اللحظة الرهيبة تمكن أنصار المتآمرين من إطلاق سراحهم وما أن غادروا أبواب السجن حتى سارعوا إلى حيث يرقد خصمهم فانقضوا عليه كالصاعقة وأجهزوا عليه، وألقوا رأسه من القلعة الداخلية إلى باب المدينة ثم أعلنوا ونادوا بين الناس بأن (جعفر خان) قد انتهى أمره. وكان ذلك في عام (١٧٨٩) للميلاد.

٢ - عهد لطف علي خان

كان (لطف علي خان) نجل (جعفر خان) مقيماً في كرمان خلال هذه المدة، وكان (سيد خان) زعيم الحركة الثورية قد نادى بنفسه شاهاً على إيران، ولكن ما هي إلا بضعة أشهر حتى تداعت أركان حكومته وتزعزعت قوائم سلطانه الزائل، إذ كان (حاجي إبراهيم) والي فارس العام وثيق الصلة بلطف علي خان، فاتفق مع بعض الزعماء ورؤساء العشائر والبيوتات الكبيرة على مقاومة هذا المغتصب. وما أن ترامى نبأ اغتيال (جعفر خان) إلى مسامع ولده (لطف علي خان) حتى أخذ يفكر في المطالبة بعرش أبيه، ولكنه كان ضعيف الثقة بجيشه، ولهذا لم يكن في مكنته المطالبة سريعاً بهذا العرش، ولهذا توجه على الفور إلى شيخ بلدة (أبي شهر) طالباً إليه مساعدته، ولكن المنية قد عاجلت الشيخ قبل أن يتقدم له بالمساعدة الممكنة وإن كان الشيخ قد أوصى ابنه الشيخ ناصر بتعضيد لطف علي خان وشد أزره، فقام الشيخ ناصر بإمداده بجيش صغير من لدنه، فأرسله على (شيراز) فاشتبك في القتال مع (حاجي هاشم) أخي (سيد خان). ولكن للأسف دارت الدائرة على جيش النجدة وتشتت شمله.

وعلى اثر هذه الهزيمة بعث (حاجي إبراهيم) بجيش لمحاربة لطف علي خان وكان يقوده (علي محمود خان) الذي كان يضمر العداء لحاجي إبراهيم ويتحين الفرصة لطعنه من الخلف طعنة نجلاء، وفي الوقت نفسه كان يمالىء لطف علي خان الذي اتفق معه بمجرد وصوله وأعلن تأييده له، وقد علق (لطف علي خان) آمالاً كباراً على انضمام هذا القائد إلى جانبه، وتوجه صوب العاصمة واستعان بالأصدقاء الذين كانوا قد هيأوا الرأي العام لقبوله حاكماً عليهم خلفاً لأبيه سنة (١٧٨٩ م). وكان (سيد خان) قد لجأ إلى القلعة الداخلية ولكنه ما لبث أن اضطر للتسليم فأعدم.

أما (حاجي علي قوليخان) الذي كان من أكبر المحركين للثورة فقد قدم هـــو وبضعة من الزعماء الآخرين له الضمانات الكافية من قبـــل (حـــاجي إبراهيـــم خان)، فقبلها (لطف علي خان) بل وشمل هؤلاء الثوار بعطفه وأولاهم ثقته.

كان للطف علي خان وقتذاك من العمر عشرون ربيعاً، ولكنه تـــدرج فـــي شتى المناصب في عهد والده وهو في سن مبكرة، وأبدى فيها نشـــاطاً ملموســاً ونجاحاً أيما نجاح، وكان يملأ كل منصب وليه بجداره، وقدرها له العـــدو قبـــل الصديق، ولم يمض طويل وقت حتى كان يتبوأ عن جـــدارة أســـمى المراكـــز وأرفعها، مما أثار إعجاب جميع الذين احتكوا به وعرفوه في الحرب وفي الســـلم على السواء. وكان فارساً لا يشق له غبار وجنديـــاً مـــهر فـــي شـــتى الفنـــون العسكرية، وكانت كل أعماله وتصرفاته تتسم بطابع الجـــرأة البالغـــة والحكمـــة المتناهية، غير أنه للأسف كانت تنقصه تلك الصفات اللازم توافرها فيمن يلـــي منصب السلطنة والحكم عن دربة وحزم وسرعة بت وحسم للأمور التـــي كـــان يتباطأ في تصريفها لدرجة الاستهتار والإهمال وذلك على خلاف ما طبع عليـــه من الجرأة والعزم فيما يتعلق بالمسائل العسكرية وشؤون الحرب والميادين.

ومما أخذ على (لطف علي خان) أيضاً أنه غير طباعه بعد توليه الحكـــم، إذ كان قبل اعتلائه العرش حلو الشمائل، رقيق الحاشية، رؤوفاً ورحيماً بالضعفـــاء، ثم انقلب إلى ذئب عقور يروق له استعمال الشدة والقسوة، وليس أدل على ذلـــك من تنكره لحاجي إبراهيم خان الذي كان له اليد الطولى في إيصاله إلى أريكـــة الحكم والاحتفاظ له بعرش أبيه، ولكنه انقلب عليه وعامله بالقسوة وانتزع منـــه الثقة، وناصبه العداء والخصومة، بل الأدهى من ذلك وأمر، أنه كان ينظر إلـــى قوة وسلطان هذا الرجل الذي وضع التاج على مفرقيه نظرة حقد وحسد وغـــيرة. وقد فوجيء (لطف علي خان) في أوائل عهده بزحف خصمه (أقا محمد خـــان) نحو (شيراز) فما كان من هذا الحاكم الطائش إلا أن جازف وخرج لمقابلة العـدو الزاحف واشتبك معه في معركة دامية عند مكان يقال له (هزار بـــيزا) أســـفرت عن اندحاره أمام قوات القجر الجارفة وعاد يجر أذيال الهزيمة إلـــى (شـــيراز) واعتصم بقلعتها. وواصل (أقا محمد خان) الزحف ثملاً بنشوة النصر حتى ألقـــى الحصار على (شيراز) غير أنه اضطر للعودة إلى (طهران) عاصمة ملكه بعـــد إلقاء الحصار بشهر واحد، وبعد ذلك بعام كان لطف علي خان قد أعـــد نفســـه

وأضحى على أتم استعداد للقاء خصمه حتى لا يؤخذ على غرة مرة أخرى؛ بيد أن (آقا محمد خان) لم يزحف إلى شيراز لانشغاله في (آذربيجان)، فأراد لطف علي خان ألا يقف الجيش الذي أعده للقتال عن العمل فتوجه على رأسه لمهاجمة (كرمان) واضطر واليها إلى الموافقة على تسليمها إليه مشترطاً بضعة شروط قبلها (لطف علي خان) في بادىء الأمر تحت تأثير وضغط من مستشاريه الذين نصحوه بذلك لعدم ملاءمة الجو وقتذاك للكر والفر. ولما كان من أهم تلك الشروط صرف النظر عن الوالي، وأتباعه. عاد (لطف علي خان) فرفض هذه الشروط بعد أن وافق عليها مبدئياً، وظل الحصار قائماً طيلة الشتاء القارس والبرد، الأمر الذي أدى إلى فقدان الجيش المحاصر الكثير من رجاله ومن مواشيه وحيوانات نقله، وزاد الطين بلة أن تساقطت الثلوج بغزارة فعطلت الطرق واستحال جلب المؤن والذخائر مما أفضى إلى هياج الجند وانتشار روح التذمر بين صفوفهم. فاضطر (لطف علي خان) إلى العودة إلى شيراز وهو في حالة يرثى لها.

وقبل أن يتعرض لطف علي خان لهذه النكبة العسكرية القاصمة كان قد اتخذ من التدابير الإدارية والسياسية ما يحول دون خيانة رجاله وغدرهم به في غيبته فعين أخاه الصغير ــ الذي كان ما يزال طفلاً ــ والياً عاماً لفارس، وفي نفس الوقت عهد بحكمدارية (شيراز) وضواحيها إلى (حاجي إبراهيم خان)، وأسند قيادة الحامية العسكرية إلى (بختيار خان) أحد رؤساء عشيرة الزند، كما أنه عهد بقيادة حامية القلعة الداخلية إلى زعيم آخر من زعماء العشيرة الزندية، وكان يهدف من وراء ذلك إلى توزيع السلطات والتفريق بين الهيئات حتى يحول دون اتحادها ضده وغدرها به، ولكنه عبثاً حاول، إذ أن (بختيار خان) كان رجلاً ضعيف الرأي متكبراً بل ومغتراً بمنصبه العسكري ومزهواً باستقلاله الإداري لا في دائرة نفوذه فحسب؛ بل كان يحاول دائماً التعدي على اختصاص (حاجي إبراهيم) والتحكم فيه والاستبداد بأموره وإذلاله بشتى الطرق، ولم يكتف بهذا بل أخذ يحرض (لطف علي خان) ضده ويوغر صدره منه حتى آتت هذه الدسائس أكلها لدى (لطف علي خان) ولقيت منه آذاناً صاغية، فتزعزعت ثقته في وزيره، وليس أدل على ذلك من معاملته السيئة لهذا الوزير بعد عودته من (كرمان) مخذولاً مدحوراً.

والواقع أن هنالك حادثة وقعت من قبل، بين (لطف علي خان) وبين وزيره «حاجي إبراهيم» وكانت ذات أثر عميق في تطور العلاقات بينهما، وخلاصة وقائعها أن «لطف علي خان» سبق أن عفا عن بعض المتهمين في حادث اغتيال والده بناء على توصية ورجاء «حاجي إبراهيم» وكان من بين من شملهم العفو (ميرزا مهدي) الذي استخدمه (جعفر خان) من قبل في وظيفة (لشكر نويس — محاسب الجيش)، والذي قطعت أذناه وطرد من العمل حين ثبت اختلاسه لأموال الدولة. ولما قتل «جعفر خان» وعلقت رأسه على باب القلعة، ذهب (ميرزا مهدي) هذا وقطع أذنيه، ولكنه أنكر أخيراً أنه ارتكب هذه الفعلة الشنعاء. بيد أن (حاجي إبراهيم) أيضاً كان يعتقد ببراءته من هذه التهمة ولهذا طلب العفو عنه من (لطف علي خان) الذي وافق على منحه العفو حتى ولو كانت التهمة حقيقة ثابتة إزاء ما قطعه على نفسه من عهود ومواثيق.

حدث بعد ذلك أن قام (لطف علي خان) بتوزيع خلع وإنعامات على رجال الدولة ومن بينهم (ميرزا مهدي) ويقال إن والدة العامل قد علمت بذلك فأسرعت في طلبه وقالت له (أما يكفيك أن تمنح عفوك لقاتل والدك حتى تعود فتنعم عليه بالخلع والنياشين فتسيء بذلك إلى ذكريات والدك؟) فتأثر (لطف علي خان) من هذه الأقوال اللاذعة المقصود بها التقريع واللوم. وما أن عاد إلى قصره حتى دعا (ميرزا مهدي) لمقابلته وعاتبه عتاباً قاسياً ثم أصدر أمراً بإحراقه على الفور. ولما علم (حاجي إبراهيم) بنبأ ذلك أسرع إلى القصر ورأى بعيني رأسه جثة (ميرزا) المحروقة، فدهش لما رأى وبدأ منذ ذلك اليوم ــ كما قال هو بنفسه للسر مالكولم ــ يفتقد ثقته في مولاه ولم يعد يطمئن إليه.

وقد ظهر للعيان ما كان يبدو بين الحاكم ووزيره ــ بعد هذا الحادث ــ من خلف وشك وعدم انسجام، فكان (لطف علي خان) يحاول جاهداً القضاء على ذلك النظام الذي كان قد ارتضاه دستوراً للعمل حتى ذلك الحين، ولكنه لم يكن من الجسارة والقوة بحيث يستطيع العمل في سبيل ذلك جهاراً وفي وضح النهار. وذلك خوفاً من نفوذ الوزير الذي كان – فضلاً عن تمسك أهالي (شيراز) وتعلقهم الشديد به – حائزاً لثقة ولاة الأقاليم وزعماء العشائر والبيوتات، أولئك الذين كانوا يحبونه ويؤيدونه.

وكان أخوه قائد المشاة في الجيش، ولهذا رأى (لطف علي خان) أنه من الحكمة عدم استعمال الشدة في الظاهر ولكن استياءه كان واضحاً جلياً في جميع المسائل التي كان يحتك فيها بالوزير، مما أفضى في نهاية الأمر إلى اتخاذ الوزير قراراً خطيراً في قرارة نفسه، ألا وهو القضاء على (لطف علي خان) خشية أن يقضي عليه هو أخيراً.

وفي هذه الأثناء كان «لطف علي خان» يفكر في الزحف على «أصفهان» فبادر إلى تفريق السلطات وتوزيع المناصب العليا كما فعل قبل سفره إلى كرمان فعين من أسرته قائداً الحامية «شيراز»، وآخر محافظاً للقلعة الداخلية ظناً منه بأن هذا التدبير سيقيه شر وزيره فيشل نفوذه كيلا يغدر به. وبعد أن غير قيادة حامية «شيراز» بصفة رسمية، دعا إليه «حاجي إبراهيم» في وقت تأهب فيه الجيش للسفر وطلب منه أن يرسل بنجله «ميرزا محمود» إلى المعسكر، ولما كان هذا النجل صغيراً جداً لدرجة عدم صلاحيته لتولي أي عمل في الجيش فقد تبين لحاجي إبراهيم بجلاء أن «لطف علي خان» يقصد بذلك مجرد إبعاد الولد عن والده حتى لا يكون عضداً له، فازداد قلقه وساورته المخاوف ولعبت برأسه الهواجس، مما بدا من سوء نية الحاكم، فطرح عن نفسه فكرة التردد واستقر رأيه على تنفيذ ما أضمره في نفسه ألا وهو تسليم بلدة «شيراز» للأقا محمد خان، وتوحيد الحكم في جميع بلاد إيران.

والواقع أن «حاجي إبراهيم» كان قد فقد نهائياً ثقته في مولاه ولاح له أنه محاط بأعداء ذوي بأس وأنه لا بد له من تقديم خدمة كبرى إلى ملك ذي قوة وسلطان ليضمن حمايته له. وكانت لديه القدرة الكافية على تقديم هذه الخدمة من كافة الوجوه، إلا أن الألم كان يحز في نفسه ويشعر بعذاب وجداني حينما كان يفكر في عاقبة الإقدام على القضاء على أسرة نبيلة كانت سبب سلطانه واتساع نفوذه[1].

---

[1] -كان (حاجي إبراهيم) ابناً لحاجي هاشم الذي كان من أشراف شيراز والذي مات وهو متقدم في السن، تاركاً من ورائه أسرة في شدة من العوز والفاقة، إلا أنه لم يمض طويل وقت حتى تلألأ نجم ابنه في الهيئة الاجتماعية وأصبح ذا مكانة رفيعة بين الأشراف بفضل ذكائه المتوقد وسجاياه النادرة، فأحله «كريم خان» — كما سبق — محل أبيه، كذا أسند إليه (علي مراد خان) الرياسة العامة لجميع أعيان الحيدري الذي يؤلف نصف أهالي شيراز، وحينما خرج جعفر خان من أصفهان وزحف إلى شيراز سلم (حاجي إبراهيم) المدينة له بكل سهولة، ولهذا عينه

وما أن بعد «لطف علي خان» عن (شيراز) ببضعة مراحل حتى بادر «حاجي إبراهيم» إلى الاستيلاء على القلعة الداخلية وأسر محافظ المدينة وقائد الحامية بكل سهولة وذلك بفضل بسالة الجيش الذي أعده من أهالي البلدة وقاده ابن أخيه الصغير (محمد حسين خان).

ثم طير هذا النبأ إلى أخيه الذي كان مع جيش (لطف علي خان) المعسكر على مسافة خمسة فراسخ في قرية (كومه ريشا)، وكان جيش القجاريين بقيادة (بابا خان) ابن أخت (أقا محمد خان) يتقدم وقتذاك صوب هذه الجهات حتى أضحى على مسافة عشرين ميلاً من معسكر (لطف علي خان) وفي هذا الوقت أيضاً كان أخو (حاجي إبراهيم) ومن معه من القواد والضباط يستعدون للخيانة، واستقر رأيهم على أن يقوموا في جنح الظلام بحركة مفتعلة وضجة هائلة يهاجمون خلالها مقر «لطف علي خان» بإطلاق الرصاص وشهر السيوف وذلك للدلالة على اجتماع أنصار (حاجي إبراهيم) في صعيد واحد. وفعلاً نفذوا قرارهم ذات مساء، وفوجيء «لطف علي خان» بهذه الحركة فأخذته الدهشة وتملكته الحيرة وأرسل بعض رجاله يستجلون الحقيقة وما لبثوا أن رجعوا إليه يقولون (عليك بالركوب فإن جيشك قد انقلب عليك وصار من ألد أعدائك). فاستمع لقولهم وركب فما تبعه من رجاله وجنده سوى (طهماسب قلي خان الفيلي) ومعه سبعون فارساً وتخلف الباقون عن هذا الحاكم المنكود الحظ. فتوجه نحو عاصمة ملكه سنة (١٧٩٠ م) على زعم أن قواده وعساكره فيها ما زالوا محتفظين بها، ولكنه سرعان ما اصطدم بالحقيقة المرة بعد يومين من تركه لمعسكره؛ حيث علم بما جرى في (شيراز)؛ وكان قد انضم إليه ثلاثمائة فارس، ومع ذلك فقد أرسل بمجرد وصوله إلى أبواب (شيراز) في طلب (حاجي إبراهيم

جعفر خان والياً عاماً على فارس، وبفضل هذا المنصب الكبير اكتسب مكانة سامية وسلطاناً عظيماً، فما كان منه إلا أن قابل عطف جعفر خان عليه بتقديم المساعدة لابنه وإيصاله إلى الحكم.

ويقول السر مالكولم «إنني تكلمت مع حاجي إبراهيم بنفسي بخصوص تسليمه البلد إلى (أقا محمد خان) فقال إنه ما أقدم على هذا الصنيع إلا ورائده خير البلاد ووحدتها السياسية، وأنه رأى أن القلاقل والاضطرابات حول الوصول إلى الحكم لا تنتهي. وأن الأمر سواء أتم للزنديين أم انتقل إلى غيرهم فليس هنالك من يمنع الجيش من السلب والنهب والتعدي على الرعية، فإيثاراً للوحدة السياسية وتوفيراً للهدوء والسكينة في البلاد أقدم على عمله هذا» ـــ المؤلف.

خان) كي يسأله عن سبب انتفاضه وانقلابه عليه، فقيل للرسول الموفد من قبله ما يأتي: (إني عالم بما يضمره لي لطف علي خان، فلكي أضمن المحافظة على حياتي لا بد لي من أن أتخذ التدابير لتجريده من القوة العسكرية وإبعاده عن البلد، فاذهب إليه وانصحه بأن يصرف النظر عن الاستيلاء على شيراز، وأن ليس أمامه سبيل للنجاة بنفسه سوى الهروب والابتعاد عن هذه المدينة)[1].

ولكن هذا الحاكم الغر الجسور الذي لم يكن له قوة عسكرية يؤبه لها أو يعتد بها، قد قابل هذه النصيحة بالرفض قائلاً: (ومهما يكن من أمر فهذا الخائن إن هو إلا رجل مدني لا يجيد الحرب ولا يحسن الطعان، كما أن جنوده الذين جمعهم من أهالي البلدة من أرباب الحرف والصناعات لن يمكنهم قط الثبات أمام جنودي المدربين) وعلى هذا الاعتبار تقدم نحو المدينة وعسكر بجنوده أمامها، وأخذ في إعداد وسائل القتال وكله ثقة في نفسه وفي جنده.

ولما رأى (حاجي إبراهيم) جحافل خصمه عمد إلى حيلة جهنمية قلبت فكرة خصمه رأساً على عقب إذ أرسل إلى جنود (لطف علي خان) ينذرهم ويتوعدهم بأن كل من له منهم أسرة أو صلة قرابة في داخل البلدة سوف يعدم أفراد أسرته وذوي قرباه رمياً بالرصاص إذا لم يفارق (لطف علي خان) ويعود إلى البلدة على الفور. وكان لهذا التهديد أكبر الأثر في نفوس الجند الذين انسلوا من الجيش وتركوه زرافات ووحداناً حتى أنه لم يتبق مع (لطف علي خان) المسكين سوى نفر قليل سار على رأسهم إلى بلدة (أبي شهر) ولكن آماله تحطمت حين وصلها، إذ لم يجد من شيخها وقتذاك مثل ما كان يلقاه من شيخها السابق من ضروب العطف والتعضيد والتأييد، وذلك لأن هذا الشيخ كان مثل سائر الزعماء والرؤساء من أنصار (حاجي إبراهيم) ولهذا اضطر إلى التوجه صوب (بندر ريك)، فقابله حاكمها بالترحاب والإجلال وأكرم وفادته، وقدم له كل ما في مكنته من مساعدة وتعضيد، وبهذا تمكن من حشد قوة تمكنه من استرداد (شيراز) عندما تسنح له الفرصة. ومن عجب أنه لم يكن هنالك من أثر ظاهر لقلة أنصار (لطف علي خان) وضعف شأنهم وذلك بفضل شجاعته وإخلاص جنده الجدد له وثقتهم به.

---

[1]- تاريخ حاجي إبراهيم ــ المؤلف.

وكان أول نصر أحرزه بهذه القوة الضئيلة انتصاره على قوات (أبي شـــهر)[1] ثم أحرز نصراً آخر على حاكم (كازرون) وأسره وسمل عينيه[2] الأمر الـذي أدى إلى انعدام الثقة به ونفور أنصاره منه وانفضاضهم من حوله والانضمـــام إلـــى أعدائه من جراء عمله الطائش هذا.

ولقد شجعت هذه الانتصارات (لطف علي خان) فأعاد الكرة على (شـــيراز) وألقى الحصار عليها، ولكنه لم يكن حصاراً شديداً ولا منيعاً نظراً لقلة جنده مـــن المشاة والمدفعية ومع ذلك كان يلتف حوله أنصار الثورة ضـــد الحكـــم القـــائم؛ أولئك الذين كانوا كلهم أملاً في أنه سيوفق في انتزاع الحكم من أيدي خصومـــه والاستيلاء على (شيراز)، ولكن الشجاعة التي أبداها والجهود الجبـــارة التـــي بذلها هذا الأمير الشاب الطائش قد قوبلت بأعمال وتدابير رجل متزن على جانب عظيم من الذكاء ورجاحة العقل قد لبس للحالة لبوسها وشعر بخطورتها، فـــأعد العدة للحادثات قبل وقوعها، وما كانت تفارقه قط رباطة جأشه في أدق المواقـــف وأحرج الظروف، هذا فضلاً عن قوة انتباهه ويقظته ومراقبته الدقيقة عن كثـــب لأحوال أنصاره ومريديه، فكان لهذه الصفات الفريدة والخصال الحميـــدة أكـــبر الأثر في تاريخ حياة هذا الرجل العجيب.

وبعد انفصال (لطف علي خان) عن رجـــال جيشـــه العصـــاة فـــي واقعـــة (أصفهان)، عاد ذلك الجيش الثائر إلى (شيراز) فـــي حالـــة يرثـــى لـــها مـــن الاضطراب والتنابذ. ومع ذلك فإن عودة هذه القوة قد زاد مـــن بـــأس عشـــائر فارس المسلحة ومن خطرها حيث ارتفع عددها إلى اثني عشرة ألف مقاتل كلـــهم فرسان. أما المشاة فكانوا خمس الفرسان عدداً، وكانوا مجندين من بيـــن ســـكان المدينة، وكان (حاجي إبراهيم) يعتمد عليهم ويعـــتز بـــهم دون الفرســـان، لأن الفرسان ــ وهم أبناء العشائر ــ كان مستقبلهم ودوام سعادتهم متوقفاً على بقـــاء حكومة الزند، فلم يكن من المعقول إذن أن يوافقوا على رأي (حاجي إبراهيـــم)،

---

[1] ــ حدث هذا القتال في قرية (تنكستان) حيث فارقت الخيالة التي كانت مع (رضا قولي خان) قـــائد (أبي شـــهر) المعسكر وانضمت إلى (لطف علي خان) مما أدى إلى اندحار المشاة وهروبهم ــ المؤلف.

[2] ــ هذا الحاكم هو (حاجي علي خان) الذي كان لطف علي خان قد منحه عفوه، ولكنه لم يثق فيه فذهـــب إلى (أغا محمد خان). كما أن أخاه الذي كان حاكم كازرون قد تعرض في يوم ما لجيش (لطف علي خـــان) حـــين عودته من شيراز فنهبه وأخذ الكثير من الغنائم ــ المؤلف.

ويؤيدوا خططه التي تهدف إلى نقل الحكم والنفوذ إلى رؤساء القجر، في حين أن (حاجي إبراهيم) كان مقتنعاً تماماً بأن هذه القوة العشيرية تحول دون تنفيذ خططه المبيتة، ولهذا عمد إلى حيلة جهنمية، ألا وهي تجريد تلك القوة من سلاحها ثم تشتيت شملها، وقد نفذها بكل حيطة وحذر وعلى عجل، فبعث إليهم يدعوهم إلى دخول المدينة في ساعة حددها لهم ليوزع عليهم الخلع والنياشين، فلبوا دعوته، ولما اكتمل عقدهم تمكن من إنفاذ غرضه حيث جردهم من سلاحهم دون إراقة قطرة دم واحدة، وشتتهم في القرى، فانضم بعضهم فيما بعد إلى جانب أنصار (لطف علي خان) في حين انتظر الباقون مصيرهم المحتوم.

وكان (حاجي إبراهيم) قد حدد لأغا محمد خان موعداً لتسليمه (شيراز) فبادر رئيس القجر بإرسال قوة عسكرية يقودها (مصطفى خان) لنجدته، وفي هذه الأثناء كان (لطف علي خان) قد أعاد العدة لمهاجمة خصومه، فانتهز فرصة قدوم النجدة القجرية فانقض عليها كالصاعقة، وبعد قتال عنيف ألحق بها الفشل الذريع وتمكن من تشتيتها شذر مذر. ولما ترامى نبأ ذلك إلى مسامع (أغا محمد خان) أعلن الحرب وحشد قوة كبيرة أسند قيادتها إلى كل من (جان محمد خان) و (رضا قوليخان)، وكانت هذه القوة الضخمة تبدو كافية لتقرير المصير بالقضاء على البقية الباقية من فلول الزندية.

وبمجرد أن اتصلت هذه القوة الهائلة بالقوة التي كانت في شيراز توجهت نحو معسكر (لطف علي خان) الذي كانت قواته لا تعدو عشر القوات المهاجمة له، ومع ذلك رأى هذا الأمير الجسور والقائد الباسل أنه ليس من اللائق الفرار من الميدان خوفاً من عدوه، فقر قراره على مقاومة العدو مهما كانت النتيجة، ثم سبق العدو وأسرع في احتلال بعض الغابات والأحراش القريبة منه واعتصم بها بعد تحصينها.

ثم اشتبك الجمعان وحمي وطيس القتال وانتصر العدو في بادىء الأمر بسبب تقهقر فريق من جنود (لطف علي خان) وتركهم مراكزهم. ثم انصرف جيش العدو إلى النهب والسلب، وانغمس في جمع الغنائم، فانتهز (لطف علي خان) الفرصة حين رأى معسكر العدو خالياً من الحراس وانقض بمن معه من الفرسان القلائل كالصاعقة على المعسكر، وما أن رأى جنوده العصاة ذلك حتى تابوا إلى رشدهم وتأثروا من شجاعة قائدهم الفائقة وجرأته النادرة، فجمعوا

أشتاتهم وطوقوا العدو من جميع الجهات وشنوها عليه حرباً لا هوادة فيها حتى انقلبت هزيمتهم نصراً. وهكذا كسب (لطف علي خان) الجولة الثانية وربح هذه المعركة أيضاً حيث أسر وقتل الكثيرين، وكان من بين الأسرى (رضا قوليخان) أحد قائدي الجيش القجري.

ولما كان (حاجي إبراهيم) يعلم علم اليقين أن هذا النصر المبين الذي أحرزه (لطف علي خان) للمرة الثانية سيعلي شأنه ويدفع بالأهالي والعشائر إلى الالتفاف حوله، الأمر الذي سيكون وبالاً عليه، بادر على الفور إلى إرسال الوفود إلى (أقا محمد خان) يدعوه للقدوم إلى (شيراز) كي يتولى الأمور بنفسه، ولما علم هذا العاهل أن الموقف جد خطير زحف سريعاً إلى (شيراز) بقوة تتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ألفاً من الجنود المدربين. وكانت نسبة هذه القوة إلى قوة (لطف علي خان) كنسبة المائة للواحد، وهذا دليل أيما دليل على أن (أقا محمد خان) كان قد اتخذ تدابير هائلة واضعاً نصب عينيه شجاعة خصمه وجرأته النادرة. وكان محقاً في ذلك ولا شك.. ولما وصل (أقا محمد خان) بطليعة جيشه إلى قرية (ميسان) على مقربة من اصطخر (برسبوليس)، وأقام معسكره هنالك، باغته (لطف علي خان) بهجوم رائع لا يقوى على القيام به إلا الأبطال الذين عركهم الدهر وأصبح ميدان الحرب والنزال أمامهم بمثابة مجلس الشرب واللهو؛ هذا فضلاً عن أن هذا النضال كان نضالاً في سبيل الاستيلاء على عرش إيران والانفراد بالحكم وأسفر هذا الهجوم عن خذلان مبين لطليعة جيش (أقا محمد خان) واندحار جنودها حيث ولوا الأدبار لا يلوون على شيء، وحمل (لطف علي خان) ببضع مئات من الفرسان حملة شعواء دون خوف أو وجل على جيش يتراوح عدده بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ألف مقاتل، ولكن جدت بضعة عوامل أفضت إلى هزيمة هذا الجيش العرمرم شر هزيمة، وهذه العوامل لم تكن سوى ظلام الليل الحالك، وانتشار الذعر والخوف بين صفوف الجيش بسبب فرار وهزيمة الطليعة، أضف إلى ذلك ما أحدثته جرأة لطف علي خان الخارقة من الدهشة والذعر في قلوب أعدائه.

كل هذه العوامل مجتمعة أفضت إلى تشتيت شمل جنود جيش القجر والفت في عضدهم، وكان هذا بشيراً بانتصار (لطف علي خان) انتصاراً باهراً[1]، إذ

---

[1] - ولقد قتل (لطف علي خان) بيده إبراهيم خان رئيس القجر وأتباعه الذين كانوا متربصين للأمير الباسل في مضيق جبلي بين (ميانه) و (أبرز) — المؤلف.

كان جيش (أقا محمد خان) قد تفرق شمله ووصل سيل المهاجمين إلى معسكر (أقا محمد خان) وفي هذه اللحظة أشار أحد قواد (لطف علي خان) عليه بأن يأمر بوقف القتال على اعتقاد بأن (أقا محمد خان) ترك معسكره ولاذ بالفرار مع فلوله المهزومة، وأن من المصلحة الحيلولة دون نهب الجيش للأموال الشاهانية وخزائن الدولة التي جمعت بكل مشقة من عرق جبين الأمة[1].

ومما يؤسف له أن الأمير قد آمن بصدق هذه النصيحة، فأمر على الفور بوقف القتال والامتناع عن دخول المعسكر ونهبه، فصدع الجيش لأمره وكف عن المطاردة، وانهمك في جمع الغنائم والأسلاب التي خلفها المنهزمون.

وفي اليوم التالي وقبيل الفجر حدثت مفاجأة للأمير المنتصر إذ طرق أذنيه صوت المؤذن يجلجل في معسكر العدو فعلم من ذلك هو والباقون في معسكر العدو من الجنود أن أقا محمد خان لا يزال موجوداً في المعسكر[2] ولم يبرحه قط. ولقد دهش (لطف علي خان) لذلك أشد الدهشة. والواقع أن (أقا محمد خان) حين رأى سوء حال جيشه واختلال نظامه واضطرابه وخذلانه، وأنه يتعذر عليه معالجة هذه الحالة ـــ فقد لبث في معسكره محاطاً بحرسه الخاص يشاهد عن كثب حركات خصومه وفائق شجاعتهم وبسالتهم النادرة ودقة نظامهم العسكري.

هنالك علم (لطف علي خان) بأن الزمام قد أفلت من يديه، وأيقن أن الظفر النهائي قد أصبح منه بعيداً، وأنه لا محالة واقع في الأسر إذا تريث طويلاً، ولهذا استقر رأيه على النجاة بنفسه والانسحاب من الميدان بأقصى سرعة.

وفي هذا الصدد نقول إنه لا يجوز اعتبار هذه المحاولة الجريئة لاسترداد الحكم والاستحواذ على النفوذ حركة يائسة لا طائل من ورائها، لأن (لطف علي خان) كان قد ثبت له من تجاريبه الخاصة أن جيشاً كالجيش الذي كان يناضله وقد دبت فيه روح التذمر والتخاذل، وسرت في شرايينه عوامل الاضطراب وسوء النظام، لا يمكنه أن يعود إلى تماسكه وانسجامه، يضاف إلى ذلك أنه كان يعلم تمام العلم أن كثيرين من رؤساء العشائر والزعماء ما يزالون مترددين بينه وبين خصمه (أقا محمد خان)، ولا يصدرون في حركاتهم وفي أعمالهم إلا ما

---

[1] - هذا القائد الناصح هو (ميرزا فتح الله الأردلاني)، ويقول بعض المؤرخين ان هذه النصيحة قد أبديت بحسن نية بينما يقول آخرون ان الرجل كان جاسوساً لأقا محمد خان وكانت نصيحته بسوء نية متعمدة ـــ المؤلف.

[2] - كانت العادة الإعلان عن وجود الشاه في المعسكر بالأذان ـــ المؤلف.

تمليه عليهم ظروفهم الخاصة حسب الزمان والمكان، وما كان من شك في أن أحدهم إذا اختار الانصياع لأحد الطرفين تبعه أنصاره وأتباعه كذلك. أضف إلى ذلك أن (لطف علي خان) كان على حق في أن يأمل الخير كل الخير من وراء هذا الانتصار المنقطع النظير، لأنه كان قد هيأ كافة الوسائل، ومهد كل السبل لهزيمة العدو النهائية بوساطة وبمساعدة هؤلاء الرؤساء والزعماء.

يتضح من هذا الوصف أن خطة الأمير الباسل كانت خطة سليمة حيث أدت لأول وهلة إلى انتصاره انتصاراً أولياً، وإلى اندحار طليعة العدو وتشتيت شملها. ولا شك أن هذا كان أوضح دليل على استعداد الأمير الخارق للعادة، وعلى جرأته النادرة.

ولكن الظفر النهائي الحاسم لم يحالفه بل أفلت من يده لسبب من تلك الأسباب التي تحدث غالباً في أدق الظروف وأحرج الساعات في الحروب التي من شأنها عادة إسقاط الدول وقيامها.

وكما أن (لطف علي خان) كان جديراً بالانتصار والظفر النهائي، كان (أقا محمد خان) هو الآخر حرياً بأن يضع على رأسه التاج الشاهاني الذي صار خالصاً له منذ ذلك اليوم. إذ لم تخن هذا العاهل رباطة جأشه قط حينما هزم جيشه وولى عنه واضطرب الأمر. مما يدل على شجاعته النادرة، وكان لا يفتأ يفكر في هذا الحادث الفذ الذي كان دائماً عالقاً بذهنه.

والواقع أن تاريخ إيران الأخير يحتوي على ثلاثة أشياء جديرة بأن يضطلع عليها الأجيال التالية ألا وهي:

١ ــ قوة (حاجي إبراهيم) ومقدرته الفائقة التي مكنته من المحافظة على (شيراز) بضعة أشهر بشرذمة من الأهالي المدنيين من بقالين إلى تجار إلى أصحاب المهن إلى غير ذلك؛ ويدفع عنها شر المعتدين من جنود العشائر المحاربين الذين طبعوا وجبلوا على حب القتال.

٢ ــ بسالة (لطف علي خان) وبطولته الرائعة التي حدت به إلى أن يحمل ببضع مئات من جنوده على جيش قوامه ثلاثون ألفاً أو يزيدون.

٣ ــ رباطة جأش (أقا محمد خان) حين أدلهم الخطب، وعظم الأمر، وهرب كل من معه ما عداه هو وأتباعه، فلبث في معسكره، وما غادره قط، محتفظاً بوقاره وثبات جنانه وأشعر أصدقاءه وأعداءه بوجوده في مستقره ومقامه

وأنه لم يفر – كما زعموا – بأن طلب إلى المؤذن أن يؤذن في المعسكر. وبهذا أثبت أن تلك الهزائم والاضطرابات لم تنل منه ولم يتأثر لها ولا بها.

سبق أن ذكرنا أن (لطف علي خان) حين شعر بالخطر المحدق به غادر ساحة الوغى على عجل وسار لا يلوي على شيء حتى وصل (كرمان)، وهنالك شرع في حشد القوى وتجييش الجيوش... أما (أقا محمد خان) فقد توجه بجيشه نحو (شيراز) وجهز جيشاً آخر[1] لمطاردة (لطف علي خان)، فلما ترامى نبأ ذلك إلى مسامع هؤلاء الجنود القلائل، الذين كانوا قد انضموا للأمير الباسل، تفرقوا، مما اضطر الأمير إلى التوجه نحو خراسان في عام ١٢٠٧ للهجرة، وكان يحكم هذه البلاد حكام محليون مستقلون منذ وفاة (نادر شاه) حتى ذلك الحين. وكان (مير حسن) وهو أحد زعماء هذه المنطقة يحكم منطقة (توبوس) ومدينتها فعرض خدماته على الأمير وزوده بقوة عسكرية من مائة فارس توجه بها الأمير وبمن كان معه من رجاله المخلصين الذين لازموه ولم ينفضوا من حوله، إلى ناحية (يزد)، فأرسل حاكمها قوة لتقطع الطريق على الأمير ورجاله، ولكن الأمير الباسل بادر بالهجوم على تلك القوة فكسر شوكتها وشتت شملها، ثم واصل السير إلى بلدة (أبركوه) الواقعة عند الحدود الفارسية فخضعت له هذه المدينة وقدمت له فروض الطاعة فاتخذها قاعدة لأعماله ومستقراً له وأخذ يراسل منها أنصاره المنبثين في الجهات بأن يستعدوا للنضال، وكان له أنصار غير قليلين ولكنهم مختفون في جهات عدة فلما سمعوا بانتصاره الأخير خرجوا على الفور من مكانهم وأظهروا تأييدهم له، ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى بلغ عدد الملتفين حوله من الجنود ألفاً وخمسمائة كلهم من الفرسان.

وفي عام ١٢٠٨ للهجرة سار على رأس هذه القوة وحاصر مدينة (دارابجرد) التي كانت محتفظة بأهميتها وعامرة بسكانها البالغ عددهم خمسة عشر ألف نسمة أو يزيدون.

ولهذا كان من الضروري، بل ومن الأهمية بمكان أن يستولي عليها (لطف علي خان)، فلا عجب إذن أن رأيناه سيبذل في سبيل ذلك مجهودات جبارة.

---

[1] – كان قائد الفرسان في هذه القوة (ولي محمد خان)، وقائد المشاة (عبد الرحيم خان) أخي حاجي إبراهيم – المؤلف.

ولما سرى نبأ تحرك (لطف علي خان) من جديد في أنحاء المملكة الإيرانيـة أعد جيش عرمرم في (طهران) ليزحف عليه، كما بعث (حاجي إبراهيم خـــان) بقوة من المشاة بقيادة أخيه الصغير إلى (دارابجرد) لتعزيز حاميتـــها، فـاضطر الأمير إلى رفع الحصار والابتعاد عن تلك المدينة، ثم حاول الصمود في قريـــة (رونيز) المحصنة، وبعد قتال دام بضعة أيام اضطر للقيام بهجوم جريء لعـــل حسن الطالع يلازمه ويواتيه، ولكن الكثرة غلبت الشجاعة والجسارة وتمكن هـــو من النجاة والوصول إلى (توبوس) مرة أخرى فقابله حاكمها بالإجلال والإكبـــار وأكرم وفادته ولكنه اعتذر عن مساعدته في هذه المرة خوفاً على مركزه، وأشار عليه بأن يلجأ إلى (تيمور شاه) حاكم الأفغان بقندهار ويطلب منه المساعدة حيث أنه هو الشخص الوحيد الذي يمكنه إرجاعه إلى عرش آبائه وأجـــداده، فـاقتنع (لطف علي خان) بفكرة مضيفه وعمل بنصيحته وتوجه إلى البـــلاط الأفغـاني، ولكنه سمع وهو ما يزال في طريقه إليه بنبأ وفاة (تيمور شاه) فاستقر رأيه علـى البقاء في إيران ووقف عن السير إلى الأفغان، وفي الوقت الذي كان فيه مـتردداً بين الإحجام والإقدام وصله خطاب من زعيمين لمنطقة (نرمانشـــير = شـرقي كرمان) وهما (محمود خان) و (جهانكير خان) يشيران عليه فيه بعدم مبارحـــة البلاد ويتعهدان له بتقديم كل مساعدة ممكنة له إذا ما أقلع عن التفكير في مغادرة البلاد.

ويقول مؤلف إيراني بحق (أن بريقاً ولو ضئيلاً من الأمل قد ينقلب في قلـب المحارب الصنديد إلى شعلة موقدة كبيرة) وهكذا كان حال الأمير الـــذي تجـدد لديه الأمل وقويت روحه المعنوية فقام لفوره وتوجه في الحال نحو (نرمانشـــير) وذلك لمجرد حصوله على هذه الوعود والتأكيدات.

ولما رأى أن بضعة مئات من الجنود يجتمعون تحـت رايتـه قـوي أملـه واستقر رأيه على الاستيلاء على (كرمان). فاقترب منها بحركة خاطفة كـالبرق، وشطر قواته شطرين أرسل بأحدهما إلى ضواحي المدينة تحـــت قيـادة عمـه الجسور (عبد الله خان) الذي حاز شهرة في كافة المعارك التي خاض غمارهـــا (لطف علي خان)، وذلك لمناوشة العدو ومشاغلته؛ وأبقى الشطر الثـاني تحـت قيادته لمراقبة الحالة عن كثب. ولما رأى أن العدو قد حصر كل جـهوده لصـد قوة (عبد الله خان) وأنه منهمك معه بكل قواه في حرب ضـــروس، تقـدم إلـى

الأمام وهاجم المدينة من إحدى جهاتها الأخرى. وهكذا وقع العدو بين نارين وأخذت الحيرة قائده، وقبل أن تشعر حامية القلعة بالخطر المحدق بها تمكن الأمير بقوته المهاجمة من تسلق أسوار المدينة والاشتباك بحامية القلعة التي اضطربت لأنها أخذت على غرة، ورغم ذلك فقد استماتت في المقاومة واستبسلت في القتال ولكن ذلك لم يجدها نفعا، ففقدت كل أمل وتخلت عن جميع مراكزها للمهاجمين ثم اضطر رجالها للاعتصام بحصون القلعة وأبراجها الداخلية.. وبعد فترة وجيزة تمكن قائدا قلعة (كرمان) من الفرار من القلعة لأن أكثر جنودها قد أبيدوا عن آخرهم، ووقعت كل أثقالهم وذخائرهم وأموالهم غنيمة باردة في قبضة قوات الأمير المنتصر.

وقد أصبح (للطف علي خان) بعد هذا النصر المبين مركز الحكام وسلطان الملوك فسك العملة باسمه تخليدا لذكرى هذا الانتصار الحاسم.

ويقول مؤرخو هذا العهد أن طالع هذا الأمير كان يشبه البرق الساطع الذي يشتد نوره ويقوى لمعانه وقت انطفائه.

هذا؛ ولما علم (أقا محمد خان) بسقوط (كرمان) في يد خصمه وكان ذلك في عام (١٢١٠ هـ) بادر إلى الزحف بجميع قواته لمنازلة خصمه فيها. وكان (لطف علي خان) لا يكترث لكثرة جنود عدوه لسببين، أولهما أن جنوده قد مرنوا على أساليب القتال وبرعوا فيها لكثرة ما خاضوا من حروب طاحنة. وثانيهما اعتماده على صدق عزيمته وشجاعته النادرة وبطولته الرائعة. ولهذا أمكنه مقاومة عدوه القوي العتيد طويلا ودام الحصار شهرا قاسى خلاله المحاصرون الكثير من الويلات وصنوف العذاب، وأخيرا سادت الفوضى وسرت روح التذمر بين بعض الوحدات، وزاد الطين بلة أن أقدم بعض المشاة – الذين كانوا يقومون بالدفاع عن بعض حصون القلعة – إلى تسليمها للعدو سرا.

وقبل أن يتعرف (لطف علي خان) جلية الأمر تمكن بضعة آلاف من جنود العدو من دخول هذه الحصون التي سلمت لهم، وما أن علم بهذا النبأ المفجع حتى بادر بالهجوم على تلك الحصون. وهنا دارت رحى معركة عنيفة بين الفريقين اضطر العدو في نهايتها إلى الانسحاب من الحصون التي دخلها.

وكان هذا آخر نصر أحرزه هذا الأمير المنكود الحظ، إذ حدث بعد ذلك أن أقدم قائد من قواده الذين كان يأتمنهم ويثق فيهم تمام الثقة، على خيانة سيده، فقد

كان هذا الضابط قائداً عاماً لحامية القلعة الداخلية، هذا فضلاً عن أنه كان مشتركاً في الدفاع عن بعض أبراج القلعة الخارجية، فانتهز الفرصة ذات ليلة وفتح الباب المقابل للعدو، فاقتحمه (أقا محمد خان) وتسرب منه إلى المدينة بسهولة ومعه إثنا عشر ألفاً من الجنود، وأبقى ما تبقى من قواته لتقديم المساعدة في الوقت المناسب.

ولما علم (لطف علي خان) بهذه الخيانة الثانية القاصمة انقض كالصاعقة على العدو ولكن دون جدوى لأن الموقف كان حرجاً وجد خطير، إذ فضلاً عن كثرة العدد في داخل المدينة كان خصمه يحتفظ بقوات أخرى كبيرة في خارجها تحميها من كافة نواحيها.

فلما تبين هذه الحقيقة المرة للطف علي خان ورأى أن صفوة جنوده قد أبيدوا عن آخرهم رجع القهقري.

وكان كل اهتمام (أقا محمد خان) منصباً على عدم تمكين الأمير من الخروج من القلعة فتكتب له النجاة مرة أخرى، ولهذا بادر إلى تشديد الحصار على مدينة (كرمان) والإحاطة بها من كافة الجهات بوضع قوات كبيرة حول كل باب من أبوابها. ورغم كل هذه الاحتياطات التي اتخذت، دافع الأمير الباسل عن نفسه دفاع الأبطال زهاء ثلاث ساعات داخل المدينة، ولما جن الليل خرج من مكمنه سراً وعمد إلى جمع أنقاض جسر خشبي من مخلفات العدو واستخدامها في الخروج من القلعة. ثم بقيت أمامه بعد ذلك عقبة كأداء ألا وهي اقتحام صفوف الأعداء المحيطين بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم، ولكنه استطاع بشجاعته الفائقة أن يتخطى هذه العقبة ويقتحم هذه الصفوف المتراصة كالبنيان واخترقها ومعه ثلاثة من رجاله كالبرق الخاطف، ونجا من هذا المأزق الحرج، واستطاع الوصول إلى منطقة (نرمانشير) بسلام.

أما (أقا محمد خان) فقد أباح في المدينة، بعد أن تسلمها، القتل ثلاثة أيام كاملة، فحصد الأهالي حصداً ولم ينج من مقصلاته سوى النساء والأطفال الذين سلمهم هم الآخرين لعساكره القساة القلوب والغلاظ الأكباد. وكان يهدف من وراء هذه الأعمال الوحشية إلى إرهاب المدن الإيرانية الأخرى حتى لا تقدم على مساعدة الأمير الباسل مرة أخرى.

وقد قوبل (لطف علي خان) بكل حفاوة وإجلال من حاكم (نرمانشير) في بادىء الأمر، ولكن الحال ما لبث أن تغير، إذ حدث ذات يوم أن أسر أخو الحاكم ـ الذي كان قد اصطحب في وقت ما (لطف علي خان) إلى كرمان ـ إلى أخيه بأن هذه الحماية التي يتمتع بها هذا الأمير اللاجىء ستجر عليه أضراراً بليغة في المستقبل القريب، إذ أنها ستعرضه لغضب (أقا محمد خان). وما أن فكر الحاكم في العواقب ورأى أنها ستكون وخيمة، حتى نسي أو تناسى العهد الذي قطعه على نفسه بحماية الأمير بل سولت له نفسه أمراً، أنكى وأشد، ألا وهو إلقاء القبض عليه وتسليمه لخصمه (أقا محمد خان) اكتساباً لعطفه عليه وتأميناً لمستقبله لديه.

وعلى الرغم من أن أصدقاء (لطف علي خان) ورفاقه قد شعروا بهذا الغدر قبل أن يصير حقيقة واقعة، ونبهوا الأمير إلى الخطر المحدق به، فقد أصم أذنيه ولم يستمع لقولهم، بل تمادى في الغفلة حتى أنه لم يعد يعبأ بانفضاض رجاله الذين لازموه في جميع حركاته، من حوله الواحد تلو الآخر.

ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى فوجىء بجمع غفير من الجنود المدججين بالسلاح يحيطون به. عندئذ وعندئذ فقط أدركته اليقظة ورجع إلى نفسه وأيقن أن ما تنبأ به صحابته كان عين الحقيقة والصواب، ولكنه لم يقف مكتوف اليدين بل سارع إلى سيفه البتار وهاجم بلا هوادة أولئك الذين كانوا يرومون القبض عليه، وبعد قتال عنيف تمكن الأمير من الوصول إلى فرسه[1] فامتطى صهوته؛ وفي تلك اللحظة أدركه أحد المهاجمين فضرب ذيل فرسه فبتره، وسقط الأمير هو وفرسه أرضاً، فتألب عليه المهاجمون ولكنه تمكن من النهوض، ونشب القتال من جديد بينه وبينهم وكان أعنف من ذي قبل؛ وقد أسفر هذا القتال عن إصابة الأمير بجرحين بالغين في رأسه وذراعه، فخارت قواه وسقط على الأرض مغشياً عليه؛ فحملوه بحالته تلك وذهبوا به إلى (أقا محمد خان) الذي نهض على الفور ـ حين رآه ـ وفقأ عينيه بيديه، ثم أرسله إلى طهران، حيث ألحقوا به هنالك من ضروب الإهانة ألواناً، وعمدوا إلى التشهير به في شوارعها.

---

[1] ـ كان هذا الفرس واسمه (كوررند) من الخيول العربية الأصلية ومولود بإيران، ولهذا كان يضرب به المثل في أنحاء إيران بسرعة الركض والجري، وكم أنقذ الأمير، من ورطات، بسرعته الخارقة للعادة، ولهذا كان الأمير يحبه حباً جماً ـ المؤلف.

ولم يكتف (أقا محمد خان) بذلك بل أمر بالقضاء على الأمير الشاب[1] الذي كان يقض مضاجع عدوه القوي البأس البصير بالعواقب وهو منكوب وفي حالة يرثى لها، وكان ذلك في عام ١٧٩٤ م[2]. اختفى إذن (لطف علي خان) من مسرح الحياة وأسدل عليه الستار قبل أن يكمل الخامسة بعد العشرين من عمره، بعد حياة حافلة بأمور جسيمة وحوادث خارقة للعادة. ويقول السر مالكولم: «إن جانبا من سجل حياة هذا الأمير وسيرته يستحق الرثاء بل والإشفاق، في حين أن الجانب الآخر منها جدير بكل ثناء وإعجاب؛ فإذا نظرت إلى أعماله وحركاته الحربية فلن تجد سوى المهارة العسكرية والشجاعة الشخصية النادرة أما إذا نظرت إلى الظروف والأحوال التي كانت سائدة في عهده فستجد أن جميع صفاته ومميزاته ــ إذا استثنينا منها الشجاعة الشخصية ــ كانت كلها عليه لا له على خط مستقيم. وكان الأمير قد ولد وشب وترعرع في عهد كانت فيه إطاعة الحاكم إطاعة عمياء فضيلة من الفضائل يقدسها الجميع؛ وربما كانت مزايا هذا الأمير لا تقل عن مزايا وسجايا (جنكيز) و(تيمورلنك)؛ غير أن ظروفه، والحالة الاجتماعية التي كانت سائدة، حينذاك، ولا سيما حين اعتلى أريكة الحكم، كانت لا تتفق ولا توائم صفاته وآرائه كحاكم يعتمد على شعبه بغض النظر عن صفاته الشخصية ومزاياه الخاصة؛ إذ لم يكن على شيء من حسن التبصر في العواقب والتروي في الأمور، ولم يكن لذكائه الخارق أثر فعال في فعاله وحركاته وذلك لطموحه الشديد وأمانيه السياسية الواسعة. وكان يتملكه الغرور وشدة الاعتزاز بنفسه حتى أنه أثناء توليه الحكم لم يكن يتنزل ويتفاهم مع ذوي القوة والنفوذ في البلد، وكان حاد المزاج، صلب الرأي، وما توجه لغزو أو لفتح إلا وقد استعمل أقسى ضروب الشدة والغلظة. وكان الظفر يمشي في ركابه أينما توجه، ولهذا كان يستعمل الشدة بشكل لا يصح أن يقدم

---

[1]- يقول السر جون مالكولم، أن لطف علي خان حينما أحضر بين يدي أقا محمد خان، عومل من الأخير معاملة وحشية لا يتصورها عقل بشر. وكل من يقرأ هذه الصفحات من الكتاب المذكور يشتد امتعاضه من هذه الأعمال الوحشية ــ المؤلف.

[2]- كان (أقا محمد خان) يكن لجميع أفراد الأسرة الزندية الحقد والبغضاء ولا سيما لهذا الأمير المنكود الحظ الذي كان ينفر منه أشد النفور، ولكنه كان رغم ذلك يقدر صفاته الشخصية حق قدرها. ويحكى أنه حين بلغه أن ابن أخته وولي عهده (فتح علي خان) قد ولد له عدة أولاد، في ليلة واحدة، وكان ذلك قبل استيلائه على (كرمان) قال ليت أحد هؤلاء المواليد يكون مثل (لطف علي خان) في البسالة والبطولة ــ المؤلف.

عليه إلا حاكم استقرت أموره لا من كان مثله في حاجة إلى اصطناع المعروف لكسب رجال وأنصار بالتغاضي عن الهفوات والتجمل بالأناة والصبر والتسامح في أعماله وأقواله. ولكنه على العكس من ذلك كان بعمله هذا يكثر من أعدائه من بين رجال أقوياء يصارعون مثله الحوادث الجسام وتصارعهم حوادث الدهر وتقلباته الصارمة».

ومع ذلك فإنه لمن الخطأ البين والنقص المعيب أن يهمل مؤرخو العصر الصفات العالية والمزايا الفذة والفريدة التي كان يتمتع بها آخر أمراء الأسرة الزندية.

ولقد حكم ملوك الأسرة الزندية في قسم كبير من إيران قرابة نصف قرن، ولكن حكم هؤلاء الملوك لم يتوطد تماماً في البلاد بعد وفاة مؤسس الأسرة وذلك لسببين؛ أولهما الخلافات الداخلية بين أعضاء الأسرة، وثانيهما ذكاء خصمه (أقا محمد خان) ودهائه، فقد كان هذا العاهل منذ اليوم الذي تمكن فيه من إخراج الأمير من (شيراز)، يسعى سعياً حثيثاً آناء الليل وأطراف النهار للقضاء عليه أينما كان، فما نامت عيناه عنه قط وما استخف مطلقاً به. وهكذا حقق أغراضه لا بقواته العسكرية ومعاركه الحربية ولكن بثباته ورباطة جأشه وإصراره على التخلص منه.

ولقد قام (أقا محمد خان) بواجبه كما ينبغي بقضائه على جميع[1] الذين يظن مقاومتهم لسلطان الحكومة إما بالقتل أو بسمل عيونهم، ولم يكن الأمر قاصراً على رؤساء العشيرة الزندية بل تعدى ذلك إلى كل عشيرة ساعدت أو آزرت الأسرة الزندية، إذ أجلاهم عن فارس إلى الأقاليم النائية، وأسكن مكانهم القبائل الفارسية الأصل[2].

وقد تمت معظم هذه الاضطهادات والمظالم على يدي (حاجي إبراهيم خان) الخائن، وفي هذا يقول صاحب كتاب (المآثر السلطانية) أعني تاريخ القجاريين

---

[1]- يقول السر مالكولم: إنه لم ينج وقتذاك من التنكيل ــ على ما أعرف ــ إلا عبد الله خان عم لطف علي خان إذ كان صهر الحاجي علي خان الكازروني، فتوسط له لدى «أقا محمد خان» الذي كان يجله كل الإجلال ــ المؤلف.

[2]- بحث (الحكومة الزندية) هذا مأخوذ معظمه من تاريخ الميجور جنرال (سرجون مالكولم) الذي جاء إلى فارس بنفسه واجتمع في (شيراز) بحاجي إبراهيم وبأشخاص آخرين اشتركوا في وقائع الزنديين وذلك بعد انقراض الدولة المذكورة ــ المؤلف.

أن (حاجي إبراهيم خان) قد ارتكب هذه الأعمال الشنيعة وأقدم على هذه الخيانة آملاً في الاستقلال بشيراز، ولكنه لم يكن ليبوح بذلك أو يظهره خوفاً من (أقا محمد خان)، بدليل أنه سلم إليه قلعة (شيراز) متظاهراً بالإخلاص، فنصبه (أقا محمد خان) والياً على فارس، غير أن أحداً لم يكن ليشك في خيانة (حاجي إبراهيم) في الوقت الذي كان يتفنن فيه هذا الخائن الدنيء وذوو قرباه في إنزال أنواع المظالم وصنوف العذاب بالزنديين، فكانوا يجمعون شباب الزنديين ويذيقونهم العذاب ألواناً بوخزهم بالإبر والمسلات في أكبادهم، وظلت هذه المأساة تتكرر فصولها إلى أن انتقم الله بعدله المطلق من هؤلاء الشياطين، حيث سلط عليهم بعد وفاة (أقا محمد خان) بقليل، الشاه (فتح علي خان) الذي أمر بسمل عيني (حاجي إبراهيم خان) وعيون أبنائه ونسائه، وأصدر أمراً آخر بالقضاء نهائياً على إخوته وسائر أقاربه، ثم نفاه وأسرته إلى (قزوين) حيث قضى هنالك أخريات أيامه مع أفراد أسرته المحرومين جميعاً من نعمة الأبصار.

وفي عهد (فتح علي خان) هذا، انتفض عليه (محمد خان) نجل (زكي خان) مطالباً بالاستقلال بالحكم والسلطة، واستولى على بعض البلاد الإيرانية حتى (أصفهان)، غير أنه لم يتمكن من المحافظة عليها ففر هارباً ولجأ إلى الحكومة العثمانية.

ولم تحدث ــ بعد هذا الحادث ــ أية محاولة أخرى لاسترداد الحكم، وهكذا تم الأمر للقجاريين ودالت دولة الزنديين نهائياً.

نظرة عامة في أحوال هذه الحكومة

يقولون إن التاريخ يعيد نفسه، فما أصدق هذا القول، إذ كثيراً ما رأينا حكومات تأسست وقامت في البداية في ظل ظروف ملائمة ومشابهة، ثم ذهبت وتلاشت في ظروف سيئة... ولنلق هنا نظرة عابرة على الحكومات التيمورية والجلايرية والقره قوينلية، والآق قوينلية، والصفوية، والأفغانية، والنادرية، لنرى كيف أنها قامت في ظروف مشابهة وحسنة في بادىء الأمر، وكيف أنها انتهت في ظروف سيئة إلى خاتمة أليمة.

ولا ريب في أن مؤسسي هذه الحكومات، علاوة على مزاياهم الشخصية كان الحظ السعيد يلازمهم وحسن الطالع يسير في ركابهم، في حين أن أحفادهم

كانوا إما يفتقرون إلى تلك المزايا الشخصية العالية، وإما أن الحظ كان يتنكر لهم والظروف تتجهم لهم.

وهكذا خضعت الحكومة الزندية لهذه القاعدة الأزلية ولم تشذ عنها، فمثلاً نرى أن (كريم خان) قد تمكن بفضل مزاياه الشخصية العالية من حزم وبسالة فائقة وظروف مواتية، من إنشاء دولة من العدم، ولكن خلفاءه لم يبرز من بينهم من يصلح للحكم والإدارة، اللهم إلا (علي مراد خان) و (لطف علي خان) ، غير أن الأجل المحتوم لم يمهل أولهما كي يقوم بعمل حاسم ينقذ به إيران كلها من الوهدة التي تردت فيها نتيجة لفوضى المنافسين ويضمن لأسرته البقاء طويلاً، إذ أصيب بداء الاستسقاء وسرعان ما برحت به العلة فقضى نحبه وهو ما يزال في ربيع حياته.

أما (لطف علي خان) فهو كما يقول سر مالكولم كان حائزاً لجميع الصفات التي كان يتحلى بها كل من (جنكيز خان) و(تيمور لنك) وكانت مبعث شهرتهما. وليس أدل على ذلك من أن ألد أعدائه وهو (أقا محمد خان) كان يعترف له بالبطولة والبسالة. ولكنه ويا للأسف كان مبتلي بوزير خائن دنيء الطبع مثل (حاجي إبراهيم خان) الذي حاول كثيراً أمام (سر مالكولم) تبرئة نفسه من الفعال الشنيعة والتصرفات الظالمة التي بدرت منه نحو ولي نعمته وأحفاده، لأن كريم خان كان قد قرب والده منه وأغدق عليه من سابغ نعمه كما أن (جعفر خان) كان قد أسند إليه منصباً سامياً وهو حكومة فارس. وهكذا أصبح في مصاف رجالات الدولة الزندية. ولكن ولد هذا الذئب قد غلبت عليه خسة طبعه ودناءة أصله، فاقترف ما اقترف دون تحرج ضد أولياء نعمته، وصدق عليه قول الحكيم والشاعر الفارسي المرحوم سعدي (عاقبت كرك زاده كرك شود) أعني أن الولد سر أبيه، فإن الذئب يكون ذئباً لا محالة.

ويقول مؤلف تاريخ القجار وهو (عبد الرزاق بن نجف قلي) ــ بكل نزاهة وصراحة ــ إن (حاجي إبراهيم خان) كان يدبر المكائد ويحيك الدسائس منذ سنوات عدة وأنه ولا شك في أن الذئب الصغير إذا كبر أول ما يبطش يبطش بمربيه، ولو كان لدى (لطف علي خان) بعد نظر جده (كريم خان) وأناته لأمكنه استمالة قلوب أهل شيراز إليه ولسهل عليه حينذاك البطش بحاجي إبراهيم والقضاء عليه قبل أن يتمكن من تدبير مكائده، ولكن هكذا شاء القدر فكان ما كان.

نعم! إن أعمال (أقا محمد خان) الوحشية مع (لطف علي خان) لتستحق لعنة التاريخ إلى الأبد، وتنفر النفوس الحية منها أشد النفور، لأن هذا الزعيم الجبار في الوقت الذي كان يظهر فيه إعجابه بجرأة خصمه، وشهامته في الحروب والمعارك، تقدم منه بنفسه، حين أحضر بين يديه، مجروحاً ومقيداً، ومد أظفاره القذرة إلى هاتين العينين الشهلاوين فسملهما، ثم عامله معاملة يندى لها جبين الإنسان على مدى الدهر ويخجل التاريخ من تسجيلها وترديد أسطورتها على صفحاته الخالدة، كما يقول سرجون مالكولم.

الفصل الرابع عشر

١٤ ـ حكومة الإمارة البرخوئية (١١٧٢ ـ ١٣٠٠ هـ)

ذكرنا في المجلد الأول من هذا الكتاب نبذة عن هذه العشيرة البراخوئية ولكننا لم نعط تفصيلات وافية عن أصل هذه العشيرة ونسبها وعن إدارتها قديماً. فيؤخذ من بحوث (دائرة المعارف الإسلامية) عن البراخوئية، أن هنالك بعض عشائر كردية اتجهت من الغرب إلى شرقي إيران وإلى كرمان عقب زوال سلطان المغول عن البلاد، والظاهر أن عشائر الكوج[1] أي الكرد كانت من بين هذه العشائر حيث استقر بها المقام مع العشائر البلوجية في جبال كرمان.

يتضح من هذا أن (دائرة المعارف الإسلامية) لا تعرف متى ولا كيف جاءت هذه العشائر الكردية إلى بلاد كرمان.. ولعل بحوث المؤرخين التي ستظهر فيما بعد تلقي قبساً من النور على هذا الموضوع الغامض. ويقول المستر كورزن في كتابه[2] أنه كان يقيم بإقليم (سيستان = سجستان) عشيرة كردية من العشائر النازحة من كردستان، في وقت نجهله لأسباب غير معروفة وتدعى الآن هذه العشيرة باسم (كردكلي)، وقد وفقت في تأسيس حكومة مستقلة في بلاد الغور باسم (ملك كرد[3] = مملكة الكرد). وقد عمرت هذه الحكومة من ١٢٤٥ حتى سنة ١٣٨٣ للميلاد أي ثمانية وثلاثين عاماً بعد المائة.

ولما كانت لغة عشيرة البراخوي مشهورة باسم (كردكەل = كردكلي) فليس ببعيد أن تكون عشيرة (سجستان) هي الأخرى فرعاً من تلك العشيرة البراخوئية لا سيما وأن إقليمي سجستان وبلوجستان متجاوران ومتداخلان.

ثم تسهب (دائرة المعارف الإسلامية) في سرد التفاصيل فتقول إنه ما دامت عشائر البراخوي ليست من قبيلة الدراويد الهندية فهي على ما يظهر من تلك العشائر الكوجية = القفصية أي الكردية التي نزحت إلى كرمان ثم إلى مكران بعد إغارة المغول، ثم اختلطت بها بعض العشائر البلوجية والأفغانية، ونشأت

---

[1] ـ في كتب الجغرافيا العربية والتاريخ الإسلامي هم القفص والبلوج...

[2] ـ انظر حاشية المترجم في آخر الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب ـــ المترجم.

[3] ـ هم ملوك كرت، المشهورون في التاريخ، التبست عليهم الكلمة ـــ المترجم.

منها (عشائر براخوي) ببلوجستان الحالية. وقد تم هذا الاختلاط وذلك الاندماج – على ما يظهر – رويدا رويدا، بدليل أنهم أدخلوا في لهجاتهم بعض الألفاظ الدراويدية، مما يدل على أن هؤلاء البراخوئيين عاشوا فترة من الزمن مع الدراويديين حتى أخرجوهم من بلادهم إلى الشرق مثلما دفعوا بأكثر العشائر البلوجية إلى النزوح إلى الهند فرارا من وجه (البراخوئيين). ويظهر أن البراخوئيين قد ساعدوا (نادر شاه) حين دخل الهند مجتاحا، وقدموا له جليل الخدمات، فكافأهم على ذلك بإقطاعهم أرض (كلهورا) الهندية. وقد حارب (عبد الله خان)[1] زعيم العشيرة البراخوئية ومعه نجله (محبت خان) بلوج (داراجات) واستوليا على أراضيهم. وبعد قليل حارب (عبد الله خان) عشائر الكلهورا ولكنه قتل في إحدى المعارك، وكان (محبت خان) ونجله (ناصر خان) رهينتين لدى (نادر شاه). ولقد وقع (محبت خان) في النهاية أسيرا في قبضة (أحمد شاه الدوراني) حاكم الأفغان ومات في سجنه؛ فأخذ (ناصر خان) في تصريف شؤون البراخوي في شكل حكومة تابعة للأفغان؛ فأنشأ إدارة منظمة للبراخوي في (مكران) و(كه ج)؛ وكان (أحمد شاه) قد أضاف منطقة (شال) و(موستاتك) إلى (لأس بيللا) وامتد نفوذه إلى (كراجي) حيث انتزع بضعة بلدان هندية أخرى حتى شمل نفوذه من الغرب مدينة (بامبور) الواقعة على مسافة ماية وعشرين ميلا من جنوب شرقي كرمان، كما في كتاب (عشرة آلاف ميل من السياحة في إيران).

يتضح من كل ذلك أن أعظم عمل قام به (ناصر خان) هو تنظيم أمور البراخوي وإدارة دفة شؤونهم بحكمة وحزم. وكانت هذه العشيرة تنقسم إلى قسمين: سراوان وجاهلاوان، فعين رئيس عشيرة (رايزاني) زعيما للقسم الأول، وعين رئيس عشيرة (زهري) زعيما للقسم الثاني. وكانت الاعتبارات العسكرية وحدها هي التي أملت هذا التقسيم، لأنه كان يهدف من ورائه إلى الحصول على جيش مجهز من طرف كل من الزعيمين. إذا جد الجد ودق ناقوس الخطر..

---

[1] – الظاهر أنه حفيد قنبر خان وكان رئيس عشيرة البراخوئية أثناء انقراض الدولة الصفوية الإيرانية في أواسط القرن السابع عشر الميلادي وقد بسط حمايته على راجا من راجوات الهند ضد الجيش الأفغاني ويظهر أنه أخذ زمام الأمور بيده في مقاطعة ذلك الأمير الهندي، ولا نعلم شيئا آخر عن مصير هذا الأمير البراخوئي. اهـ من كتاب (عشرة آلاف ميل أو ثمان سنوات في إيران) لمؤلفه الميجر برسي مولسورث Sykes لندن ١٩٠٢ م – المؤلف.

ولما توافرت القوة لناصر خان وتحقق له السلطان والنفوذ على هذا الوجه، لـــم يعد يعترف لأحمد شاه بالتبعية؟ مما أدى إلى غضب أحمد شاه وتجريـــده حملـــة عنيفة عليه في سنة (١١٧٢ هـــ) وألحق به هزيمة منكرة في بلـــدة (موســـتانك) وظل يطارده حتى قلعة (كلات) وحاصره فيها أربعين يوماً ولكنه لم يتمكن منـــه فاضطر إلى الصلح على شريطة أن يعترف له (ناصر خـــان) بالســـيادة. وقـــد استمر (ناصر خان) مستقلاً بشؤون إمارته يديرها حسبما يشاء وكيفمـــا يريـــد، ولكنه كان يلبي النداء ويسارع إلى النجدة متى طلب إليه أحمد شـــاه وذلـــك إذا اشتبك مع غيره في حروب. وهكذا أصبح (ناصر خان) له اليـــد الطولـــى فـــي انتصارات أحمد شاه الكثيرة، ولا شك في أن (نـــاصر خـــان) أعظـــم الأمـــراء البراخوئيين حزماً وعزماً وشجاعة وحسن تدبير وتدبر فـــي ميـــادين الحـــرب والسياسة.

وقد توفي ناصر خان في عام ١٢١٠ هـــ (١٧٩٥ م)، وكان ابنه (محمـــود خان) ما يزال طفلاً ولكنه خلف والده، فركب (بهرام خان بن محبت خان) متـــن الشطط وأخذ يثير الفتن ويشن الثورات ضد هذا الأمير الطفل ولكن عبثاً حـــاول ومن غير طائل، ورغم ذلك لم يستطع الأمير (محمود خان) المحافظة على كـــل البلاد. إذ خرج من يده قسم منها مثل (كراجي) وغيرها. ثم انقضت أيامه ودالـــت دولته في سنة ١٨٢١ م، فخلفه ابنه (مهربان خان) الذي أظهر استعداداً في إدارة دفة شؤون الحكم أكثر من والده. وذات يوم التقى به خصمه (أحمد يارخان بـــن بهرام خان) واشتبك في قتال أسفر عن القبض عليه وإعدامه في قلعة (كـــلات). وهكذا ولت أيام هذا الأمير نتيجة الثورات والقلاقل. ولقد فقدت الدولـــة منطقـــة (هارانه) و(داحيلى) بسبب انفصال بعض عشائر (جاهلاوان) البراخوئيـــة عـــن بعضها من جراء (داود محمد الكلزائي). كما أن حماية (الشاه شجاع الملك) أدت إلى تعكير صفو العلاقات مع الحكومة الدورانيـــة الأفغانيـــة فـــي عـــام ١٢٥٠ للهجرة، كما أفضى سوء إدارة (داود محمد السردار) ومن بعده خلفـــه (محمـــد حسين) وقلة تبصرهما بعواقب الأمور إلى توتر العلاقات أيضاً مـــع الإنجلـــيز الذين جردوا قوة عسكرية على (محراب خان) فحاصرت قلعة (كلات) واستولت عليها. وبعد أن قتل (محراب خان) في هذه المعـــارك ضمـــت بعـــض أمـــلاك البراخوي إلى الحكام الدورانيين؛ وعين (شاهنواز خان) حفيـــد (محبـــت خـــان)

أميراً للبراخوئيين، وعلى أثـر ذلـك اسـتنجد ابـن محـراب خـان بعشـائر (نوشيرواني) ضد أعدائه، فأقبلت تلك العشائر وبصحبتها بضع مـن السـروانية وهاجموا جميعاً قلعة (كلات) واستردوها، وظلت الأمور تتطور حتى أدت إلـى عزل (شاهنواز خان) وتنصيب ابن محراب خان أميراً على البلاد باسم (نـاصر خان الثاني)، وكان قائد الحملة الإنجليزية قد وقع أسيراً، فأحسنوا معاملتـه ثـم أعادوه إلى بلاده عام ١٨٤٠ للميلاد وبعد عام من هذا التاريخ اعترفت الحكومـة الإنجليزية رسمياً بإمارة (ناصر خان الثاني). وفي سـنة ١٨٤٣ قطـع الأمـير علاقاته بحكومة الأفغان وأعلن تبعيته للحكومة الهندية ولا تزال هـذه التبعيـة مستمرة إلى يومنا هذا.

وقد توفي ناصر خان الثاني ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧ م)، وخلفه فـي منصبـه أخوه (خداداد خان) الذي اعتزل الحكم في سنة ١٨٩٣ وخلفه (مير محمد خـان) في الإمارة وهو الآن قائم بإدارة دفة شؤون البلاد. (دائرة المعارف الإسـلامية جزء أول).

الباب الثاني

في الإمارات الكردية في العهد الإسلامي

[1]- وهي خمس وثلاثون إمارة أو شبهها في سبع مجموعات ـــ المترجم.

كل من أمعن النظر في أحوال الشعب الكردي وظروفه العابرة، يعرف على وجه التحقيق أن هذا الشعب قديماً وحديثاً، أولاً وآخراً، كان متمتعاً بحريته الداخلية، وحريصاً على التشبث باستقلاله في كافة شؤونه. فحافظ على هذا الحق الطبيعي حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري بفوارق بسيطة في مدى هذا الاستقلال. وقد حالفه الحظ أحياناً في القرون الوسطى فتيسر له الحصول على قسط وافر من استقلاله الخارجي ولو في بضع أنحاء من وطنه الخالد. ولكن هذه الحالة لم تدم طويلاً نتيجة لعوامل داخلية وخارجية، وأسباب اجتماعية وسياسية، إلى غير ذلك من الأحوال العامة التي سلبته الاستقلال الخارجي في كثير من الأوقات، وأرغمته على الاكتفاء بحريته الداخلية والتفرغ لشؤون الدفاع عن هذا الحق الطبيعي طيلة العصور الغابرة ضد القوات المحتلة لبلاده العزيزة. ومن دواعي الأسف أننا نفتقر إلى معلومات عن مدى استقلاله في شؤونه الداخلية في العصور العريقة في القدم اللهم إلا بعض وقائع تاريخية قديمة قد تلقي قبساً من الضوء على هذا الموضوع وتعطينا فكرة ما عن مدى ذلك. مثال ذلك أن النضال الذي نراه بين ملوك آشور مع الشعب اللولوي والجوتي والنايري، وحروب (فرهاد الرابع) ملك البارث مع ميدية الصغرى، وكذا الثورات والحروب التي خاض غمارها الوطن الكردي في مختلف عصور التاريخ الإسلامي ضد المغيرين والحكام الأجانب. لأسطع برهان على تفاني الأمة الكردية في الدفاع عن حريتها والتمسك بكيانها واستقلالها الداخلي منتهزة كل فرصة تواتيها وكل انقلاب ينتاب البلاد فتدلي فيها بدلوها فتنال من الغاصبين وهم ينالون منها.. ولما كانت هذه الحوادث التاريخية التفصيلية ليس لها تاريخ مستقل أفرده لها المؤلفون، فليس إذن في متناول أيدينا معلومات مسهبة عن مجريات الحوادث في تلك الإمارات الوطنية المجاهدة في سبيل الوطن الأكبر، اللهم إلا نتف من الأخبار والمعلومات الاستطرادية المبعثرة هنا وهناك.. نعم! إن الأمير شرف الدين البدليسي صاحب تاريخ (شرفنامه) قد كتب الكثير عن تلك الإمارات الوطنية ولكن كتابته قد وقفت عند القرن السابع[1] الهجري وبعضها مقتبس من روايات وأقوال أخذت من أفواه البعيدين عن مواطن الحوادث ولذلك

[1] كذا في الأصل والصحيح القرن السابع عشر الميلادي أو القرن الحادي عشر الهجري – المترجم

لا يعول عليها كثيراً؛ وفي الوقت نفسه ليس في مكنتنا أن نستغني عنها وعن آراء بعض مؤرخين آخرين ما دام الحصول على معلومات أدق وأصدق من أية جهة أخرى متعذراً.

وقد قسم المستشرق الكبير والمؤرخ الجليل المسيو (مينورسكي) هذه الإمارات إلى مجموعات عدة وأفرد لكل منها خلاصة موجزة شافية وسنحذو هنا حذوه وننهج نهجه. إلا أننا سنعنى بإعطاء معلومات أكثر تفصيلاً عن إمارات البهادينان والسهران والبابان.

١ ـ إمارات ما بين الجزيرة ودرسم (١ ـ ٩)

١ ـ إمارة الجزيرة

جاء في تاريخ (شرفنامه) أن نسب أمراء هذه الإمارة يرجع إلى الأسرة الأموية[١]، إذ أن هؤلاء الأمراء من ذرية سيدنا (خالد بن الوليد). ولكن التاريخ الإسلامي العام لم يذكر شيئاً عن وجود (خالد) أو عن وجود ابن له يدعى (سليمان) في كردستان، كما أنه من المعروف على وجه التحقيق أن ذرية هذا البطل العربي والقائد الإسلامي قد انقرضت في صدر الإسلام، ولهذا كان من العسير الأخذ بمثل هذه الرواية[٢].

---

[١]- ليس في شرفنامه نص على ذلك ــ المترجم.

[٢]- وعلى حسب الروايات الشائعة في جهات (سعرد) و (جزره) أن خالد ابن الوليد مدفون في (سعرد). في حين أن أخبار التاريخ الصحيح تقول: إنه توفي في (حمص) ودفن فيها. وأعتقد أن انتشار هذه الرواية في كردستان يرجع إلى محبة الشعب الكردي لخالد بن الوليد وإعجابه ببسالة الأبطال وشجاعة الشجعان، لأن التاريخ ينص على انقطاع ذرية (خالد) في صدر الإسلام. والمتواتر أن له أنجالاً ثلاثة سليمان وعبد الرحمن ومهاجر وكان أولهم مع علي رضي الله عنه وقتل في حرب صفين، وكان الثاني والياً على حمص فدس له السم في دواء بأمر من معاوية (تاريخ خالد بن الوليد لأبي يزيد شبلي ص ٢٠٨).

ويقول مؤلف (أسد الغابة ج٢ – ص ١٠٤) انه لم يبق أحد من ذرية خالد إذ قضى الطاعون في الشام على أكثر من أربعين من ذريته فورث (أيوب بن سلمة بن عبد الله) أملاكه في المدينة. ويؤيد صاحب (نهاية الأرب) هذه الرواية حيث يقول (فلم يبق منهم أحد شرقاً ولا غرباً وأن من انتمى إليهم فهو مبطل في انتمائه، وكل من ادعى ذلك فقد كذب) ج٢ – ص ٣٥٦.

هذا ومن المحتمل جداً أن تكون عشائر الجزيرة وحواليها منحدرة من الشعب (الخلدي = الكلدي) التاريخي القديم الذي سيطر على (أورارتو) مدةٍ طويلة ثم تشتت نتيجة لاستيلاء الكمريين على البلاد ولا سيما أن بعض

وقصارى القول إن كتاب (شرفنامه) يجعل من (سليمان بن خالد) جداً لأمراء الجزيرة، ويقول إن هذه الإمارة قامت وأسست في عهد الأمويين. والظاهر أن الدكتور (فريج) قد اتخذ من هذه الرواية أساساً لتقولاته دون أن يفطن إلى أنها في حاجة ماسة إلى التمحيص والتحقيق والرجوع إلى مصادر ومراجع أخرى في هذا الصدد، ولهذا أورد أحكاماً خاطئة وبعيدة عن الصواب، لأن رواية (شرفنامه) وحكم الدكتور (فريج) الشاذ الذي بناه عليها لا يتفق كلاهما قطعاً وما أجمع عليه علماء التاريخ والباحثون من عدم صحة الرواية من أساسها.

ثم يوغل (شرفنامه) في سرد روايته تلك فيقول إنه بعد وفاة (سليمان بن خالد) تولى الحكم من بعده أولاده الثلاثة (مير عبد العزيز) و (مير حاجي بدر) و (مير عبدال) وقسموا البلاد بينهم فتكونت من ذلك أسر ثلاث هي العزيزية والبدرية والعبدالية. وتولت (العزيزية) شؤون بلاد الجزيرة وأطرافها بعد انقراض السلجوقيين وقيام دويلات محلية في البلاد. وليس لدينا معلومات نذكرها عن (مير عبد العزيز) وأولاده وأحفاده حتى البطن الرابع.

وقد كان «تيمور لنك» الفاتح العالمي يعاصر (مير عز الدين بن بدر الدين ابن عيسى بن مجد الدين بن مير عبد العزيز)؛ وكان مير عز الدين يخشى غزوه لبلاده ولهذا فقد ذهب لمقابلته في (ماردين) إذ ذاك وعرض عليه فروض الطاعة وبذلك جنب بلاده ويلات الحرب.

ولكنه لم يلبث بعد ردح من الزمن أن شق عصا الطاعة على ابن تيمور فنشب القتال بينهما وأسفر هذا القتال عن احتلال التيموريين للبلاد، ولم ينج (مير عز الدين) من القتل إلا بشق الأنفس. ولما زال عهد التيموريين من البلاد استعاد أبناء الأمير عزيز مجدهم وأحيوا إمارتهم الموروثة التي عمرت منذ ذلك الوقت حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، ثم اختفت من عالم الوجود إثر ثورة (بدرخان بك العزيزي)[1] في عام ١٨٤٧ للميلاد.

المستشرقين يعتبر اسم الخلدي أو الكلدي من بين الأسماء المشتركة التي تطلق على الشعب الكلدي تبعاً للظروف والأحوال، فكانت هذه الحالة الاجتماعية والتاريخية سبباً في ادعاء الخالدية في تلك الجهات ـــ المؤلف.

١- هو المشهور ببدرخان باشا جد البدرخانيين، الأسرة الكردية المثقفة الشهيرة في الشام وكردستان وتركيا ـــ المترجم.

أما الأسرة (البدرية) فقد نشأت في منطقة (كوركيل = جردقيل) وبقيت حتى عهد (شرفخان البدليسي) أي إلى عام ١٠٠٥ للهجرة. وكان أميرها هو أحمد ابن الأمير محمد. والمصادر التاريخية خلو من أخبارهم بعد ذلك. وكانت الأسرة (العبدالية) قائمة في منطقة (فنيك) وظلت معمرة حتى عهد السلطان سليمان القانوني ثم ضمت إلى إمارة الجزيرة.

٢ ـ إمارة خيزان

يقول (شرفنامه) أن نسب حكام هذه الإمارة إنما يرجع إلى أسرة من (خنس) حيث كان أخوة ثلاثة وهم (دل بك، بل بك، بليج بك) أمراء في (خيزان = هزان)[١] و(مكس) و (اسبايرد). ويظهر أن هذه الإمارات الثلاث نشأت في أواخر عهد السلاجقة، وكانت (نميران) أقوى العشائر في تلك البلاد. وعمرت هذه الإمارات مدة طويلة حتى عهد العثمانيين. وفي الوقت الذي كان يجري فيه تأليف (شرفنامه) في عام (١٠٠٥ هـ ١٥٩٧ م) كان (مير حسن) هو أمير (خيزان) وكان (مير أحمد) أمير (مكس) في حين كان قسم من (اسبايرد) مخصصاً لأبناء الأمير شرف.

٣ ـ إمارة شيروان

يقول (شرفنامه) انه حين انقرضت حكومة الأيوبيين في سوريا وزال حكمهم منها في عام (٦٦٢ هـ)، جاء أمير من أمراء تلك الأسرة الملكية الكردية إلى بلدة (حصن كيفا) وأسس على مدى الأيام إمارة (ملكان = الملوك)، وأن آباء أمراء (شيروان)[٢] وأجدادهم كانوا وزراء في إمارة هؤلاء الملكانيين الأيوبيين بحصن كيفا ومن أسرتهم، ويقال إن إخوة ثلاثاً من هؤلاء النبلاء أبناء الوزراء وهم (عز الدين، بدر الدين، عماد الدين) جاؤوا في وقت ما إلى بلدة (كفرا ــ شيروان)، ووضعوا أساس إمارة محلية في تلك المنطقة بتعضيد من أهلها ومؤازرة حكومتها القائمة بالأمر فيها. وكان (مير حسن ابن إبراهيم) أول أمراء هذه الأسرة، وقد قسم بلاد إمارته بين أبنائه في حياته وقبل مماته، على

---

[١] - كان قضاء في لواء بدليس بتركيا.

[٢] - اسم منطقة في ولاية (وان) القديمة مركزها مدينة كفري ــ المؤلف.

أن يكونوا جميعهم تابعين لأمير (كفرى).. وكانت هذه الإمارة وفروعها (شبستان، إيرون، آويل، كفرا) قائمة في أوائل العهد العثماني وظلت قائمة خلال هذا العهد مدة طويلة.

٤ـ إمارة بدليس (بيتليس)

كان مؤلف (شرفنامة) من أمراء هذه الإمارة ومن سلالتهم التي توارثت الملك كابراً عن كابر ببدليس، ولهذا تمكن من جمع الكثير من المعلومات الشيقة والحقائق التاريخية عن هذه الإمارة، سطرها وسجلها على صفحات كتابه القيم.

ولقد أرجع نسب هذه الأسرة إلى الساسانيين ملوك إيران القدماء، ولكن الدكتور (فريج) لا يعترف بهذا القول ويظهر أنه على حق في عدم اعترافه به، لأن (شرفنامة) يذكر في هذا الصدد تفاصيل محشوة بأسماء ووقائع لا تتفق مع التاريخ الصحيح. ثم يقول الدكتور (فريج): «إن أول أمير لبدليس حسب المعلومات التاريخية الصحيحة هو الملك الأشرف الذي كان قبل ذلك قائداً من قواد الأيوبيين في سوريا، وأنه حين وصول جلال الدين خوارزمشاه إلى هذه الأنحاء بسط حمايته للخوارزميين، وقام بأجل الخدمات لتوفير الراحة للسلطان جلال الدين، ولكنه اضطر أخيراً لإخراجه من بلاده تحت ضغط المغول الذين كانوا يتعقبون السلطان ويطاردونه من بلد إلى بلد...» ولكني أرى أن رأي الدكتور (فريج) هذا أيضاً رأي ناقص إذ أن ظهور جلال الدين خوارزمشاه يصادف عهد الملك الأشرف ابن الملك العادل الأيوبي حاكم سوريا وقتذاك. وأن هذا الملك هو الذي تحالف مع السلطان علاء الدين كيقباد من سلاجقة الروم ضد جلال الدين خوارزمشاه، فأرسل جيشاً يقوده الأمير (عز الدين عمر الحكاري) نازل به جلال الدين وألحق به هزيمة منكرة على مقربة من (أرزنجان)، وكان ذلك في عام ٦١٧ هـ، فيؤخذ من هذا أن الأمير عز الدين عمر الحكاري الذي كان قائداً من قواد الأيوبيين بسوريا هو أول حاكم على بدليس. هذا وكان أمير (بدليس) في عهد تيمورلنك هو (حاجي شرف بك) فقدم له فروض الطاعة، فأقطعه تيمورلنك إقطاعات واسعة مثل (پاسين) و (ملازكرد) فضمها إلى أملاكه الموروثة. بيد أن هذا المجد لم يدم طويلاً إذ ما لبث أن قلب له الدهر ظهر المجن وسلط عليه (آيق صوفي) وكيل تيمورلنك وعامله في تلك الجهات فقبض

عليه وألقى به في غياهب السجن ثم قضى عليه، فلجأ أبنه الأمير (شمس الدين) مع زعماء العشيرة الروجكية إلى إيران. ويقول (شرفنامة) ان أمير شمس الدين تولي الإمارة بعد والده (حاجي شرف بك)، وفي عهده لجأ (قره يوسف) القره قوينلي إلى (بدليس) فأكرم أميرها وفادته، ثم ما لبث أن زوج ابنته من هذا الأمير، فتوثقت بهذه الزيجة الروابط بينهما وعلا شأن (قره يوسف) بفضل المساعدات التي كان الأمير يقدمها له وتمكن من إحياء الدولة القره قوينلية مرة أخرى وعمرت هذه الإمارة حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي تتخللها فترات متقطعة حيث انتزعتها الحكومة العثمانية سنة (١٨٣٦ م) من يد (شرف بك) الذي كان آخر أمرائها.

ومن أبرز حوادث هذه الإمارة التجاء والد (شرف خان المؤلف) إلى إيران ثم عودته إلى بدليس واعتراف الحكومة العثمانية بإمارته عليها حسب الأصول والعادات الموروثة. وفي عام ١٠٦٦ للهجرة تذرع (ملك أحمد باشا) والي (وان) العثماني ببعض الأسباب وزحف على (عبد الخان) أمير بدليس حينذاك بجيش لجب، الكثرة فيه من الأكراد المجاورين لهذه الإمارة، وظل يقاتله حتى اضطره إلى الفرار، وأعمل يد النهب والسلب في البلاد حتى قضي على الإمارة.

٥- إمارة صاصون

كانت الأسرة الحاكمة في هذه الإمارة من سلالة (مير عز الدين) أخي (مير ضياء الدين) أمير (بدليس) أعني كانوا أبناء عمومة، وكانت تعرف باسم (عزي) نسبة إلى (عز الدين). وتأتي هذه العشيرة الصاصونية في المرتبة الثانية بالنسبة لعشيرة (روزيكي = روزكي = روجكي)[١] البدليسية، وكانت تتألف من فرق أربع وهي (شيراوي، بابوسي، سوساني، طاموقي)، وبعد أن ضمت منطقة (أرزن ــ غرزان) لإمارة (صاصون) خضعت العشائر الخالدية والديرمغانية والعزيزية أيضاً لأمراء صاصون. ويقول مؤلف (شرفنامة) أن مؤسس هذه الإمارة هو الأمير (أبو بكر) الذي وضع أساس إمارته في عهد حكومة الآق

---

[١]- كانت هذه العشيرة تتألف من أربع وعشرين فرقة في قسمين (عباسي وكواليسي)، فكانت فرق أربع منها تسكن منذ البداية في أطراف بدليس ثم انضمت إليها عشرون فرقة أخرى. وفي رواية أخرى أنها تمكنت من انتزاع قلعة بدليس من ملك الكرج (داويد) فيما بعد ــ المؤلف.

قوينلية. ثم خضع أمراء (صاصون) لسلطان الشاه (إسماعيل) الصفوي حتى حدثت معركة (جالديران) الشهيرة بين الإيرانيين والعثمانيين فانضم (محمود بك) الصاصوني للعثمانيين، وضمت إليه قلعة (أرزن) التي جرت حولها فيما بعد معارك دامية بينه وبين الملك (خليل) حاكم (حصن كيفا). وعمرت هذه الإمارة مثل الإمارات الأخرى فترة كبيرة من الزمن في عهد العثمانيين (حيث كانت مشهورة باسم حزو = حظو. المترجم).

٦ـ إمارة السويدية

يقول مؤلف (شرفنامة) أن أمراء هذه الإمارة هم أحفاد البرامكة. وجاء في رواية أخرى له، أن العشيرة السويدية جاءت إلى كردستان من بلدة تدعى (سويد)[١] على بعد فرسخين من المدينة المنورة من ناحية الشمال وذكرت الروايات المختلفة أن هذه الإمارة قد أسست قبل الآق قوينلية بزمن طويل حيث أن خامس أمراء هذه الأسرة كان يدعى (مير فخر الدين) فالتجأ أخوه إلى (حسن الطويل) سلطان الآق قوينلية فأقطعه السلطان قلعتي (خان جوك) و (جباقجور). وكانت بلدة (كنج) مركزا للإمارة أصلا. وفي عهد (شرف خان) كان سليمان بك أمير السويدى وكانت الدولة العثمانية تجله إجلالا تاما. وقد دامت هذه الإمارة أيضا كالإمارات الأخرى في عهد العثمانيين مدة طويلة.

٧ـ إمارة البازوكيين

جاء في رواية أن عشيرة البازوكي إيرانية[٢]، وجاء في أخرى أن أمراء هذه الإمارة كانوا من العشيرة السويدية. وتنقسم العشيرة البازوكية إلى قسمين هما (خالد بكلو) و (شكر بكلو)، وكان القسم الأول حاكما ومستوطنا بمنطقة (خنس وملاز كرد وقسم من موش). أما القسم الثاني فكان خاضعا لحكم أمير بدليس.

وليس لدينا معلومات عن التاريخ القديم لهذه الإمارة، اللهم إلا اسم مؤسس القسم الأول وهو (حسين علي بك)، وكان (خالد بن شهسوار بك بن حسين علي

١ـ الأقرب إلى الصحة والعقل، أنها قدمت من قلعة السويدان الواقعة بين آمد والرها والمعروفة الآن بين الكرد بـ (سوراك) وفي لغة الترك (سيوه رك) ولا معنى لسويد المدينة المنورة ولا لغيرها هنا ـــ المترجم.

٢ـ أي من أكراد إيران بدليل ذكر (شرفنامة) لهذه الإمارة ضمن الإمارات التي أسسها الأكراد في إيران ولكن المؤلف راعى الموقع الجغرافي للإمارة فذكرها في البلاد العثمانية (تركيا) الحالية ـــ المترجم.

بك) في معية الشاه إسماعيل، وقد نال شهرة بحروبه العديدة وبطولته الرائعة حتى أنه فقد إحدى ذراعيه في إحدى المعارك فاشتهر بخالد ذي اليد الواحدة وأعطاه الشاه لقاء أعماله الباسلة بلدتي (خنس) و(ملاز كرد) وناحية (أوخكان)[1]، ولكنه شق عصا الطاعة على الشاه فيما بعد، وأعلن استقلاله عنه، ثم التجأ إلى السلطان (سليم ياوز) ولكنه ما لبث أن شق عليه الطاعة أيضاً، فأمر السلطان بالقبض عليه وقتله. وقد عمرت إمارة هذه الأسرة مدة طويلة، وفي عهد إمارة (قليج بك) هاجر قسم من هذه العشيرة إلى مناطق عشيرة الدنبلية (دوملي) واندمجت فيها، وهكذا خضعت لسلطان الدولة العثمانية.

٨ ـ إمارة مردەسي (مرداسي = مرديسي)

يقول (شرفنامة) ان نسب هذه الأسرة يرتقي إلى العباسيين، وأن مؤسس هذه الإمارة شيخ يدعى (پير منصور) قدم من حكاري إلى قلعة (أكيل) وأقام بها حتى علا شأنه. ولما مات، خلفه ابنه (بير موسى)، ولما مات (بير موسى) خلفه ابنه (بدر) الذي ما لبث أن ازداد نفوذه وقويت شوكته فاحتل قلعة (أكيل) نهائياً؛ وقد سميت هذه الإمارة بالمرداسية نتيجة تعضيد العشيرة المرداسية لهذا الشيخ في تأسيسها. وبعد فترة من الزمن استولى السلجوقيون على قلعة (أكيل) فلجأ (بير بدر) مضطراً إلى (ميافارقين) حيث لقي حتفه في ساحة الوغى أثناء هجوم (آلب أرسلان) على هذه المدينة. وبعد ردح من الزمن وضع (بولدق) ابن (بير بدر) أساس أسرة أكيل التي تشعبت منها فيما بعد أسرتا (يالو) و(جرموك = جرميك = جرموق) وظلت هذه الأسرة تتوارث الإمارة حتى ضمت في عهد الشاه إسماعيل الصفوي إلى العثمانيين.

٩ ـ إمارة جمشكزك

جاء في رواية أن الأسرة التي أسست هذه الإمارة هي من أحفاد العباسيين. وفي رواية أخرى أنها من سلالة السلجوقيين. والمعروف لنا أن تأسيس هذه الإمارة إنما يرجع إلى (ملك محمد) ووالده؛ فقد حارب ملك شاه ابن ملك محمد،

---

[1] ـ كذا في الأصل وفي (شرفنامة) طبعة روسيا (أوحكان موش) وطبعة القاهرة (أوحكان موش) فليحرر ـ المترجم.

السلاجقة في عام (٥٩٦) ليستقل عنهم. ولكنه قتل في المعركة وسقطت البـــلاد غنيمة باردة في قبضة السلاجقة. وبعد فترة من الزمن قام ابنه «ملـــك محمـــد» بإحياء الإمارة من جديد، فاستولى على اثنتين وثلاثين قلعة وست عشرة ناحيـــة من أمهات بلاد الإمارة. وقد اشتهرت عشيرته باسم (ملكشاهي)، وفـــي اللهجـــة الكردية باسم (ملكيشي)؛ وقد علا شأن هذه العشيرة وامتد سلطانها علـــى سـائر البلاد، وأصبحت كلمة (جمشكزك) علماً على كردستان بأكمله، وحـــافظت هـــذه الإمارة على نفوذها وسلطانها في عهود المغول والتيموريين والقـــره قوينليـــة، ولكن نفوذها أخذ يتضاءل في عهد الآق قوينلية وبدأت تفقـــد سـلطانها بســبب عشيرة تركية قوية قد زجت بنفسها وتداخلت بين عشيرة (ملكيشي) على الرغـــم من مقاومة (بير حسين) للعشيرة الدخيلة وإخراجها من البـــلاد مـــراراً، ورغـــم إطاعته أيضاً للشاه إسماعيل وخضوعه له. ولكن كل ذلك لم يجده فتيلاً فســقطت البلاد في أيدي القزل باش من رجال الشاه إسماعيل الصفوي الذين كـــانوا مـــن التركمان المتعصبين للشيعة. وبعد فترة من الزمن أعاد السلطان ســـليم إمـــارة جمشكزك إلى الأمير (بير حسين) الذي أثارت بسالته وبطولته إعجاب الســـلطان سليم وتقديره له. وقد هاجم هذا الأمير الهمام، (نور علـــي) حـــاكم جمشـــكزك الإيراني وقتله واسترد إمارته، وبعد وفاة الأمير (بير حسين) تشعبت إمارته إلـــى ثلاث شعب (مجنكرد وپرتك وسقمان) واستمرت تلك الشعب حتى أواسط عـــهد العثمانيين. وكان للأمير (بير حسين)، عدا زعمـــاء المقاطعـــات الثلاثـــة، مـــن الأنجال، تسعة أنجال كانوا حكاماً للمقاطعات المختلفة من البلاد العثمانية علـــى سبيل التملك.

ب ـ الإمارات الكردية فيما بين الجزيرة وكلس (١٠ ـ ١٣)

١٠ ـ إمارة حصن كيف

يقول (شرفنامة) ان ملوك هذه الإمارة من أحفاد السلالة الأيوبيـــة، وإن أول حاكم من هذه الأسرة هو الملك (سليمان) الذي كان ملكاً في عـــهد الجنكـــيزيين. وعلى هذا يكون عام (٧٣٦) للهجرة، هو العام الذي قامت خلاله هذه الإمـــارة. وكانت العلاقات ودية وطيبة للغاية بين الملك محمد بن الملـــك ســـليمان وبيـــن المغول والإيرانيين. وفي عهد التيموريين كان يحكم الإمارة حفيد الملك محمـــد

المدعو الملك الأشرف فقابل (تيمورلنك) في (ماردين) وقدم له فروض الطاعة. ثم سلك ابنه الملك خليل مسلكه في تقديم فروض الطاعة للتيموريين. ولقد كان الملك خلف (أبو سيفين) ابن الملك خليل، على جانب عظيم من البسالة والجرأة. فاستمات في الدفاع عن (حصن كيف = حسنكيف) ضد هجوم الآق قوينلية، ولكن أحد قواده قد خانه، فأدت خيانته إلى سقوط القلعة وزوال سلطان هذه الأسرة إلى حين.

وقد لجأ أمير من أمراء هذه الأسرة ويدعى (الملك خليل) إلى مدينة (حماة) في الوقت الذي كان يتطاحن فيه رجال الآق قوينلية ويتقاتلون جرياً وراء السلطان والنفوذ، فانتهز فرصة تطاحنهم وعاد إلى كردستان، وهنالك آزرته العشائر الكردية ومدت إليه يد المساعدة، وبهذا تمكن من الاستيلاء على (سعرد) وعلا شأنه وما لبث أن استرد (حصن كيف) وأعاد بناء إمارته من جديد.

وعلى الرغم من أن الملك خليل قد حسن علاقاته بالصفويين وصاهرهم حين استيلائهم على البلاد، إلا أن ذلك لم يحل دون غدر الشاه إسماعيل به إذ ألقى القبض عليه وسجنه في سجون (تبريز) الرهيبة، ولبث فيها حتى نشبت معركة (جالديران) الشهيرة بين الشاه إسماعيل وبين السلطان سليم، فنجا السجين وعاد إلى إمارته، ورضي عنه السلطان سليم وحماه، وقد ظلت هذه الحماية قائمة فترة من الزمن في عهد أحفاده وخلفائه أيام العثمانيين الذين قضوا على هذه الإمارة فيما بعد.

١١ـ إمارة سليماني = سليفاني

يرجع (شرفنامة) نسب أمراء هذه الأسرة إلى أخوة ثلاثة كانوا أبناء (مروان بن محمد) آخر خلفاء بني أمية، ويقول إن هؤلاء الأخوة قد وفدوا إلى منطقة (قولب)[١] بعد زوال السلطان عن بني أمية، وقد علا شأنهم وقويت شكيمتهم بفضل المساعدة التي قدمت إليهم من عشيرة (بانوكي = بانه كي) الكردية، وما لبثوا أن امتد سلطانهم حتى البلاد الواقعة على نهر دجلة حيث انتزعوا بضعة قلاع ومدن من الأرمن والكرج الذين كانوا مستولين عليها وضموها إلى تلك المنطقة التي وفدوا إليها وبهذا وضعوا أساس حكومة قوية.

١- قضاء في ولاية بدليس القديمة ولواء كنج بتركيا الحالية ـــ المؤلف.

وكانت غالبية الثمانية عشائر الكبرى التي كانت سكان هذه الإمـــارة، مـــن الرحل السنيين واليزيديين. وكانت عشيرة (سليماني)[1] من بين هـــذه العشـــائر. ويرى (شرفنامه) أيضاً أن مؤسس هذه الإمارة كان يدعى (مروان) وأنـــه فـــي عهد (ديادين بن إبراهيم بن عز الدين بن بهاء الدين بن مروان) خامس أمير بعد هذا الأمير الأول، ظهر الشاه إسماعيل الصفوي، وقد أحسن الأمـــير (ديـــادين) علاقاته مع والي (ديار بكر) من قبل الصفويين ووفق إلى مصاهرته. وبعد وفـــاة هذا الأمير انتقلت شؤون الحكم إلى أيدي أبناء أخيه فنشأ من ذلك أسرتان.

١ ــ أسرة كليب = كلاب (قولب) وبطمان.

٢ ــ أسرة ميافارقين.

وقد دامتا حتى أوائل القرن العشرين الميلادي محتفظتين بالسلطان والنفـــوذ إلى حد ما.

(دائرة المعارف الإسلامية ج٣ - ص١٦١).

١٢- إمارة زراكي (زريكي = زرقي)

يقول شرفخان البدليسي) ان لفظ (أزرقي) هـــو أصـــل هـــذه التســـمية وإن مؤسس هذه الإمارة (الشيخ حسن) قدم من سوريا إلى ماردين، وهنـــالك اشـــتهر بالصلاح والتقوى والورع، وكان يرتدي ثوباً أزرق باستمرار ومن هنـــا ســـمي بالأزرقي ثم خفف هذا اللفظ إلى زرقي، زركي، زراكي، زيريكي.

هذا وبعد قليل، قبض حاكم (ماردين) الذي يحتمل جداً أن يكـــون مـــن الآق قوينلية، على هذا الشيخ وألقى به في غياهب السجن، ولكن الشيخ أظهر كرامـــة بخروجه من السجن بعد فترة قصيرة ومصاهرته لحاكم (ماردين)، وبذلك عـــاد للشيخ سلطانه ونفوذه. وبعد وفاة هذا الحاكم انفرد الشيخ بالسلطان والحكـــم فـــي (ماردين). ثم ظهر من سلالته أسر أربع مالكة:

١ ــ درزيني.

٢ ــ كردكان.

٣ ــ عتاق.

---

[1] - هي (سليفاني - سليواني) الحالية القاطنة في أطراف ميافارقين ــ المترجم.

٤ ــ ترجيل.

وقد أسس الأولى (هابل بن الشيخ) في قلعة (ديرزير).. وأسس الثانية حفيد هابل في قلعة (كردكان) بين ديار بكر وميافارقين.. وأسس الثالثة أمير زرقي في قلعة (عتاق).. أما الفرع الرابع فقد قام في قلعة (ترجيل) على مقربة من ديار بكر.. وعمرت هذه الأسرات الأربع، وقتا ليس بقصير في عهد العثمانيين.

١٣ ـ إمارة كلس وأعزاز

تقول (دائرة المعارف الإسلامية) انه لا شك في أن نسب أمراء هذه الإمارة إنما ينحدر من أسرتي إمارتي حكاري والعمادية.

ويقول (شرفنامة) ان أصل هذه الأسر الثلاث ينحدر من العباسيين حيث كان هنالك أخوة ثلاثة أحدهم (شمس الدين) وكان جدا للأمراء الحكاريين، ثانيهما يدعى (بهاء الدين) وكان جدا للأمراء البهدينانيين، وكان ثالثهم وهو (منتشا) جدا لأمراء كلس، ثم حدث تحريف في أسمائهم تبعا للهجة الكرمانج فصاروا (شمدين، بهدين، مند). وقد أعد أحدهم وهو (منتشا = مند) قوة كردية واصطحبها معه إلى الشام حيث دخل في خدمة الأيوبيين. وقد أقطعه أحد السلاطين الأيوبيين ناحية (القصير) على مقربة من أنطاكية بسوريا، مما أدى إلى علو شأنه في تلك الجهات حيث التف حوله أيضا أكراد (جوم) و (كليس) من السنيين واليزيدية على السواء. وقد جد في خدمة الأيوبيين وأخلص لهم حتى كافأوه أخيرا بإسناد منصب أمير أمراء أكراد الشام وحلب إليه عن جدارة واستحقاق. وفي عهد السلاطين المماليك خلفاء الأيوبيين انشغل (مند) كثيرا باليزيديين، كما دخل الأمير قاسم في عراك شديد مع (شيخ عز الدين) رئيس اليزيدية في عهد العثمانيين الذين بسطوا حمايتهم لليزيديين بفضل سياسة (قرەجه أحمد باشا) والي حلب الذي قبض على (قاسم بك) وقتله؛ وبعث بابنه الصغير (جانبولاد = جانبلاط) بك إلى إستانبول وهنالك أدخلوه السراي السلطاني ليتلقى تربيته العسكرية فيه مع أبناء الملوك وهكذا آل منصب أمير أمراء الكرد بحلب والشام إلى (شيخ عز الدين).

وفي عهد السلطان (سليمان) عادت الأمور سيرتها الأولى، فأسند منصب الإمارة إلى (جانبلاط)، وظل الحكم يتوارثه أحفاده حتى عهد السلطان أحمد العثماني.

وأخيراً رفع الأمير (علي) راية العصيان على الدولة العثمانية وأعلن استقلاله عنها في (حلب)، ولكن ذلك لم يدم طويلاً إذ جردت عليه الدولة العثمانية جيشاً لجباً بقيادة الصدر الأعظم (قويوجي مراد باشا) هزمه هزيمة شنعاء وبذلك أسدل الستار على هذه الإمارة هي الأخرى وكان ذلك في عام ١٠١٦ للهجرة.

«ومما يذكر بهذه المناسبة أنه بعد التجاء الأمير علي (علي باشا) إلى استانبول سنة (١٦٠٧ م) قد تمكن بعض من أعضاء أسرته الجانبلاطية من النجاة من شر (قويوجي مراد باشا) والاختفاء في جهات حلب وكلس، ففي سنة (١٦٣٠ م) أتيح لسعيد بك جنبلاط زاده مع ابنه (رباح) الذهاب إلى بيروت والالتحاق بأسرة المعنيين (آل معن) أمراء لبنان، لما كان بين الأسرتين من الود والصلات القديمة فأقبل عليه رجال لبنان وعظماؤه وأكرموا وفادته ودعوه إلى الإقامة في الجبل. وفعلاً أقام سعيد بك في (مزرعة الشوف) وسر أمير الجبل حينئذ وهو الأمير (فخر الدين) من لقائه فأدخله ضمن رجاله الأخصاء. وفي سنة (١٦٤٠) أرسل الأمير سعيد بك، إلى قلعة (شقيف أرنون) محافظاً لها ومعه خمسون رجلاً من جنوده. غير أن سعيد بك توفي إلى رحمة الله في نفس السنة؛ كما أن ابنه (رباح) لم يعش بعده إلا بضع سنين معدودة تاركاً وراءه ثلاثة من الأمراء (علي، فارس، شرف الدين) فتزوج علي ابنة الشيخ قبلان من كبار شيوخ الشوف حيث صار فيما بعد شيخاً ورئيساً للشوف بدل حميه الذي توفي سنة (١٧١٢) وهكذا أتيحت له الفرصة لأن يظهر مواهبه في حسن الإدارة والعدل في المعاملة والحزم في الأمور، كما أكسبه محبة الأهالي وتقدير الشهابيين له لإخلاصه وتفانيه في الخدمة. وقد توفي إلى رحمة الله في سنة ١٧٧٨ في بلدة (بعذران) تاركاً على صفحة الوجود ستة من الأنجال، تولى منهم (قاسم) مكان أبيه الأمر، فأحسن السيرة في عهد أحمد باشا الجزار الذي كان راضياً عنه، غير أن ابناً له يدعى (بشير) قد شق عصا الطاعة على سلطة أحمد باشا الجزار لظلم عساكره الأهالي وعيثهم في البلاد الفساد، مما حمل الأهالي على أن يلتفوا حول هذا الشاب الذي لم يكن قد بلغ أكثر من أربعة عشر عاماً من عمره، فقد هزم جنود أحمد باشا الجزار مراراً، وساقهم حتى مدينة صيدا منهزمين واستولى على كثير من الغنائم والأسلاب. ولما توفي والده في الشام

انتقلت الرئاسة إليه رسميا، وتوترت العلاقات بينه وبين الشهابيين فترة من الزمن فاضطر من جرائها إلى اللجوء إلى منطقة الحوران بالشام. وفي سنة (١٧٩٥) تمكن الجزار من إلقاء القبض عليه وعلى اثنين من الشهابيين في بيروت وإرسالهم إلى عكا وزجهم في أعماق السجون. وقد أطلق سراحه بعد أن أمضى أربع سنين في غياهب السجن، ثم تلقى كتاب شكر من قداسة البابا لمعاونته للمارونيين في بعض الملمات. ومن آثاره في جبل لبنان فتحه قناة من (الباروك) إلى (المختارة) في سنة (١٨٠٠) وتكبده في سبيل ذلك نفقات كبيرة. وفي سنة ١٨١٠م اشترك في الحملة التي تألفت بأمر من (سليمان باشا) والي عكا للزحف إلى الشام لضرب (يوسف باشا الكردي) والي الشام، حيث اجتمع هو والأمير بشير بسليمان باشا المذكور في طبرية وزحفوا جميعاً إلى الشام فوقعت معركة حامية في (قطنة) بينهم وبين والي الشام المذكور الذي اندحر وهرب إلى مصر ودخل سليمان باشا مع الشيخ بشير دمشق الشام. وزاد قدر الشيخ بشير جانبلاط في نظر الناس وعلا شأنه في جبل لبنان علواً كبيراً. وفي سنة (١٨١١) بسط حمايته على الدروز في جبل لبنان ضد والي حلب الذي كان يريد السوء بهم فنقلهم بموافقة رأي الأمير بشير إلى (زحلة) وأسكنهم في مقاطعات تلك المنطقة. وفي سنة (١٨١١) أنشأ جامعاً فخماً في المختارة كما أنه وهب أراضي كثيرة وتبرعات كبيرة إلى المارونيين في البلدة المذكورة لإنشاء كنائس لهم. وفي سنة ١٨٤٠ حل الوئام والوفاق بينه وبين الأمراء العماديين حيث اتحد معهم في جميع الشؤون التي جدت في الجبل.

وأخيراً تمكن والي الشام من جلب الشيخ بشير هذا، مع رجاله وقواده، إلى الشام بحيلة غريبة وحبسهم جميعاً بها. وبعد مدة أطلق سراحه إلا أنه بناء على طلب والي عكا قد أعدمه مع الشيخ أمين العمادي وهو يبلغ من العمر خمسين سنة. وكان رحمه الله عادلاً شجاعاً كريماً يحب الخير للجميع حتى أطلق عليه لقب «عمود السخاء» وأنشأ كثيراً من الطرق والجسور والجوامع وساد الأمن والرفاهية أنحاء الجبل والتجأ إليه كثير من المضطهدين والفقراء.

ومن دواعي الأسف أن الأمير بشير الشهابي أخذ يضطهد أسرة جانبلاط بعد وفاة هذا الرجل العظيم على المنوال السابق، فهدم كثيراً من بيوتهم ومنازلهم

حتى الجامع الذي كان بناه في المختارة، ونهب أموالهم وممتلكات عشيرتهم، الأمر الذي أثار حمية والي عكا وتدخل في الأمر بأن نقلهم إلى صفد وأسكنهم بها وأجرى عليهم المرتبات والمخصصات.

وفي سنة (١٨٣٢) حينما أغار إبراهيم باشا على رأس جيش مصري على البلاد الشامية التزم أمراء أسرة جانبلاط هذه، جانب الدولة العثمانية والتحقوا جميعاً بوالي الشام حتى وقعت معركة حمص بين الجيشين المصري والعثماني التي أسفرت عن اندحار العثمانيين فالتجأ من الجانبلاطيين الأمير سعيد والأمير إسماعيل إلى الجبل. وأما الباقون منهم فذهبوا مع الجيش العثماني المتقهقر إلى حلب فقدرهم الصدر الأعظم (محمد رشيد باشا) حق قدرهم، وبالرغم من انكسار جيش الصدر الأعظم وأسره هو أخيراً، فإن الجانبلاطيين لم يتخلوا عن العثمانيين الذين كافأوهم دائماً، وبعد انتهاء المسألة المصرية والتركية جاء إلى الجبل من الجنبلاطيين الأميران حسن وحسين. إلا أن الأمير بشير كان مترصداً لهم فتمكن من إلقاء القبض على الأمير حسن وقتله واختفى الأمير حسين عن الأعين.

وأما الأميران سعيد وإسماعيل ابنا الشيخ بشير من الجانبلاطيين اللذان كانا قد اعتصما بالجبل، فقد لجآ إلى الأمير بشير بضرورة الحال، فأرسلهما الأمير إلى إبراهيم باشا الذي بادر إلى نفيهم إلى مصر، غير أن سعيداً تمكن من إظهار إخلاصه فدخل في الجيش المصري ضابطاً. وفي سنة (١٨٣٨) رقاه إبراهيم باشا إلى رتبة اليوزباشي وبعد ذلك إلى رتبة البكباشي. كما أن أخاً له يدعى (نعمان) كان في استانبول تمكن من الذهاب إلى مصر ودخل الجيش المصري برتبة أميرآلاي.

ولقد تمكن (سعيد بك) أخيراً من الفرار مع الشوام من مصر إلى الجبل حيث كان أخوه (إسماعيل بك) قد عين من قبل الدولة حاكماً على الجبل (شيخ المشايخ) بدلاً من والده الشيخ بشير. وكان نعمان بك أيضاً قد تمكن من الانفصال من الجيش المصري والعودة إلى الجبل وصار حاكماً عليه بدل أبيه».

ملخص من كتاب (أخبار الأعيان في جبل لبنان).

ج ـ إمارات ما بين الجزيرة وخوي (١٤ ـ ٢٠)

١٤ ـ إمارة الحكارية = والهكارية

ليست هنالك معلومات صحيحة غير نتف مشوشة عن أصل هـذه الأسـرة. وإن كان (شرفنامه) يقول إن جد هذه الأسرة كان يدعى شمس الدين[١]، ثم يعـود فيقول إن إحياء هذه الإمارة للمرة الثانية كان على يد (أسد الدين كلابـي) الـذي اشتهر فيما بعد باسم (زرين جنك) أي ذو الذراع الذهبي، وذلك بفضل التمـاس الآشوريين الذين كانوا حسب عادتهم بمصر ومؤازرتهم له بها ثم يأتي الدكتـور (فريج) فيصب كل اعتماده على هذه الأقوال، وعلى اسم (شمو = شەمبو) ويقول بما أن (شنبه) اسم ليوم من أيام الأسبوع لدى الآشوريين، فلا بد وأن يكون هـذا الأمير من الآشوريين... إلخ ولا شك في عدم صحة هذا الـرأي الخـاطىء لأن اسم (شمو) كردي، وإذا كان لنا أن نجاري تشابه الألفاظ فنحن في حل مـن أن نقول إن (شمبو) كان كردياً ولا ريب.

فيستخلص من هذا أن (شمس الدين) لا بد وأن يكون جداً لهذه الأسرة التـي اشتهرت فيما بعد باسم (شەمبو) وهذا هو ما قال به (شرفنامه) في مبحث أمـراء كليس. وبعد وفاة (أسد الدين) قام بأعباء الإمارة من بعده (الملك عز الدين شـير = يزدان شير) الذي دام حكمه ستين سنة كاملة. وقد خلفه ابنه (زاهد بك) الـذي قبل حماية الشاه إسماعيل لإمارته، ويظهر أن ولديه (ملك بك) و (سـيد محمـد بك) قد حكما من بعده في قسم من أقسام (حكاري = هكاري) و (شمدينان). وقـد بقيت ذرية هذه الأسرة تحكم البلاد حتى القرن التاسع عشر الميلادي، إذ كـانت هذه الإمارة من أكبر إمارات كردستان الأوسط؛ وكان زكريا بك وإبراهيم بـك حاكمين في (جوله مرك) و (ألباق) في عهد شرفخان البدليسي في عـام (١٠٠٥ هـ).

هذا وقد أثنى (أوليا جلبي) الرحالة التركي الشهير على هذه الإمـارة ثنـاء مستطاباً حيث يقول: «إن أميرها كان يحتفظ دائماً بعشـرة آلاف مـن الجنـود حاملي البنادق في السلم، وأما في الحرب فكان في مكنته حشـد جيـش قوامـه خمسون ألف مقاتل»، وكان «نور الله بك حاكم البختان» آخر حكام هذه الأسـرة.

---

[١]- انظر مبحث أمراء كلس في هذا الكتاب وفي شرفنامه ــ المؤلف.

وقد فقد إمارته إثر ثورة بدرخان بك الشهير، كما أن (حليمة خانم) سلمت باش قلعة[1] للترك سنة ١٨٤٥ م، وبذلك ولت أيام هذه الإمارة. ويذكر المؤرخ الكبير هامر في المجلد التاسع من تاريخه للدولة العثمانية اسم أمير من أمراء الحكاري كان يدعى (مير عماد الدين) قتله الصدر الأعظم في الديوان سنة (١٠٤٩ هـ).

١٥ ـ إمارة المحمودي

هناك روايات شتى عن أصل أمراء المحمودي. ولكن الدكتور (فريج) يقول إن مؤسس هذه الإمارة إن هو إلا (بهلول بك) السليماني = السليفاني من سلالة (مروان بن محمد) آخر خلفاء بني أمية.

ويقول (شرفنامه) ان مؤسسها يدعى (شيخ محمود) الذي قدم من الشام في رواية، وفي رواية أخرى من مدينة الجزيرة، قدم مع عشيرته ورجال قومه إلى بلاط (قره يوسف) مؤسس القره قوينلية، فأقطعه هذا السلطان منطقة (آشوت = آشيت) موطناً لرجاله وعشيرته وألحقه هو بمعيته الخاصة. ولما توسم فيه مخايل الشجاعة وعلائم البسالة في الحروب التي خاض غمارها، أسند إليه إمارة (آشوت) و (خوشاب). وسميت عشيرته باسم هذا الأمير «محمودي».

وقد رفع الأمير «حسن» ابن الشيخ محمود هذا من شأن الإمارة ووسع حدودها بعد أن حارب «عز الدين شير الحكاري» وهزمه وانتزع منه ناحية[2] (تنيو). ولكن أميرَ بدليس قد آزر أخيراً (عز الدين شير) فاستؤنف القتال بين الفريقين على نهر (مير أحمد)[3] وأسفر عن مقتل الأمير حسن، ثم انقسمت هذه الإمارة إلى فرعين، وفي أواخر القرن العاشر الهجري قد تفرع منهما فرع ثالث؛ ودام عهد هذه الإمارة بفروعها الثلاثة حتى أواسط عهد العثمانيين.

ولقد أطيب (أوليا جلبي) الرحالة العثماني الشهير في الإشادة بقوة هذه الإمارة وعلو شأنها، ويقول إنها تقع في الجانب الشرقي من ولاية (وان)، وأنها

---

[1] - قلعة (الباق) القديمة في ولاية وان الحالية بتركيا ـــ المترجم.

[2] - لعله تصحيف من كلمة (شنبو) حيث وردت في عبارة شرفنامه هكذا، انتزع منه ولاية شنبو... ـــ المترجم.

[3] - هو (نهر خوشاب) كما في شرفنامه ـــ المترجم.

كانت تتألف من نحو مائة عشيرة قوية الشكيمة، وأنها كانت تحتفظ في وقت السلم بستة آلاف من الفرسان. ويقول هامر في المجلد السادس من تاريخه إن الصدر الأعظم قره مصطفى باشا اغتال علي باشا حاكم (أشيلت = آشوت) سنة ١٠٤٩.

١٦ ـ إمارة بنيانيش

لا تذكر (دائرة المعارف الإسلامية) شيئاً عن هذه الإمارة، في حين أنها كانت مشهورة بين الإمارات الكردية الكبيرة في العهد العثماني. كما أنها كانت جارة لإمارة المحمودي. ويقول (أوليا جلبي) أن قوتها العسكرية كانت تبلغ على الدوام ستة آلاف مقاتل.

١٧ ـ إمارة الدنبلي = الدنابلة

لم يذكر الدكتور (فريج) في كتابه (كردلر) إلا القليل عن هذه الإمارة، في حين أن كتاب (آثار الشيعة الإمامية) قد أفرد بحثاً مسهباً واهتم بالتفاصيل التي جاءت في (شرفنامة)[١] عن هذه الحكومة ثم نقل عن تاريخ الدنابلة[٢] وقد جاء فيه أن أول حاكم من هذه الأسرة هو (طاهر بن الأمير عيسى بن الأمير موسى) حاكم الشام الذي كان ـــ كما تقول الروايات ـــ نجلاً ليحيى البرمكي وزير الخليفة هارون الرشيد، أما كتاب (أنساب الأكراد)[٣] فيرى أن أصل هذه الأسرة إنما يرجع إلى البرامكة.

وقد تفرعت عن هذه العشيرة شعب عديدة أهمها وأشهرها (دنبلية يحيى) أحفاد الأمير يحيى، و (شمسكي) أحفاد شمس الملك جعفر. «وعيسى بكلو» أحفاد الأمير عيسى، و«بكزاده» أحفاد الأمير (فريدون) وأيوبخاني.. إلى غير

١- يرى (شرفنامة) أن أصح الروايات في هذا الصدد هي أن العشائر الدنبلية قد نزحت من (حكاري) إلى أذربيجان، وأما الأمير عيسى والد الملك طاهر فقد هاجر من بلدة الجزيرة.

٢- ألف هذا الكتاب (عبد الرزاق بن نجفقلي الدنبلي) باسم (رياض الجنة) باللغة الفارسية. وتوجد نسخة منه في المكتبة الشاهانية بطهران. وفضلاً عن هذا فإن هنالك كتاباً آخر باسم (هفت إقليم) ألفه بالفارسية أيضاً (أمين أحمد الرازي) في تاريخ أمراء الدنابلة ـــ المؤلف.

٣- لمؤلفه العالم الشهير والمؤرخ الكبير أبي حنيفة الدينوري صاحب كتاب «الأخبار الطوال» ـــ المؤلف.

ذلك. وقد جاءت هذه الشعب وليدة إبعاد هذه العشيرة ونفيها بأمر من الخلفاء والملوك أمثال الخليفة المأمون وتيمورلنك والسلطان سليم إلى بلاد كشان، خراسان، خبوشان، شيروان، كنجه، قرهباغ، قرهجهداغ. وقد وفق أمراء هذه الأسرة والعشائر في تأسيس إدارة مستقلة في كردستان وآذربيجان ابتداء من القرن الرابع الهجري حتى نشوء دولة الشيخ حيدر الصفوي، حيث قدم آخر أمرائها المدعو (بهلولي الدنبلي) فروض الطاعة للشيخ حيدر، وهكذا صارت إمارته تابعة للحكومة الصفوية.

ولنلخص فيما يلي أحوال حكام هذه الإمارة الكردية وأسماءهم تاركين التفاصيل لكتابنا (كورداني به ناوبانك ــ مشاهير الأكراد):

مير محمد: هو رابع أمراء هذه الأسرة، وكان حاكماً في الشام، وقد استولى على بعض القلاع في بلاد الحكارية، وله مؤلفات في العلوم والفنون وآثار عمرانية. من بينها قلعة (باي) الشهيرة التي دفن فيها عام ٣٨٧ للهجرة.

مير سليمان: كان له بعض السلطان والنفوذ في بلاد كردستان وآذربيجان والشام ومن مآثره العظيمة، القصر الذي أنشأه في (سنجار) وأسماه (سراي سليماني) والذي جلب العمال ومهرة الصناع من إيران لإنشائه وتزيينه، كما أنشأ المدارس والخوانق لتعليم أبناء الكرد العلوم والفنون، وكان الشيخ رجب البرسي صاحب (مشارق الأنوار) من خاصة رجال هذا الأمير النابه وقد توفي سنة ٤١٠ هـ.

مير جعفر الثاني: لقد اكتشف في عهد هذا الأمير معدن الذهب وقد اشتهر باسم الذهب الجعفري في جبل (سنجران) الذي يقع على مقربة من قلعة (دنبل)، وقد توفي عام ٤٤١ هـ.

مير يحيى: يقول (شرفنامة) ان ثلاثين ألف أسرة من الرعايا المسيحيين كانت تتبع هذا الأمير وكان له مآثر كثيرة حيث بلغ عدد التكايا التي أنشأها في جبال كردستان وآذربيجان، والشام ألفاً ومائتين وقد أدركته المنية في عام ٤٧٧ هـ.

مير عيسى الشهير بصلاح الدين الكردي: نقل هذا الأمير نحو مائة ألف أسرة من الأكراد من فرع اليزدانية إلى آذربيجان وإلى (كوهستان = قهستان) وكان يمضي أغلب أيامه في تبريز.

مير جعفر الشهير بشمس الملك: كان معاصراً لمنوجهر من ملوك شـيروان توفي إلى رحمة الله عام ٥٣٥ للهجرة، وقد أطنب الشـاعر البليـغ (خاقـاني) الشيرواني في مديحه.

أمير بك: كانت العلاقات وطيدة بينه وبين السلطان سنجر السلجوني، وقـد خلف آثاراً عمرانية عظيمة في مدينة (خوي)، وتوفي عام (٥٩٠).

مير أحمد: كان هذا الأمير يقدر العلم ويمجد العلماء، وكان مولانـا جـلال الدين الرومي صاحب المثنوي الشهير من أخص رجال هذا الأمير.

مير إبراهيم: كان يقيم في (تبريز) فوطد علاقته مع (جنكيز خان) وبهذا أنقذ بـلاده مما عسى أن يحيق بها من تدمير المغول وتخريبهم، وقد توفي عام (٦٩٢ هـ).

مير جمشيد: اشتبك في القتال مع المغول فبعث إليه (غـاران خـان) عـام (٧٢٥ هـ) بجيش لجب ألحق به هزيمة منكرة، بل إنه ما لبث أن وقع صريعـاً في المعركة في جبل (جله خانه).

أمير بهلول: هو ابن الأمير جمشيد، وقد توفي عام (٧٦٠ هـ).

شاه منصور: هو ابن الأمير بهلول؛ توفي عام (٧٩٥ هـ).

مير محمود: كان ابناً للأمير شاه منصور، وقد احتل مكانة سامية وحظـوة لدى السلطان بايزيد العثماني، وهو الذي أنشأ مدينة (محمودي) بكردستان وتوفي ودفن بها عام (٨٢٠ هـ).

أمير ولي: كان يقيم بمدينة (خوي).

حاجي بك: هو ابن الأمير ولي، وتوفي عام (٨٢٢ هـ).

سلطان علي: هو نجل حاجي بك، وتوفي عام (٨٢٥ هـ).

أمير نظر: هو ابن سلطان علي.

أمير فريدون: كان يعرف باسم (أمير قليج). وجاء فـي كتـاب (جـهاننما) التركي أنه كان حاكماً على جميع بلاد كردستان وآذربيجان وأرمينيـة؛ وكـان مركز إمارته مدينة (خوي)، وتوفي عام ٨٦٠ هـ).

أمير بهلول: صادف عهده ظهور الشيخ حيـدر الصفـوي، وكـان يحكـم – علاوة على ما كان تحت سيطرته قديماً – مقاطعتي طبرستان وداغستان وقد قـدم

فروض الطاعة للشيخ حيدر طواعية، ولكنه قتل في المعارك التي نشبت في عام (٨٨٠ هـ) بين الصفويين وبين الشاه خليل الآق قوينلي.

أمير رستم: كان معروفا باسم (شاه ويردي بك) وتوفي عام (٨٩٨ هـ).

أمير بهروز: كان يلقب بسليمان خليفة وظل أميرا حتى بلغ الخامسة بعد التسعين من عمره، وكان في معية الشاه طهماسب حين اشتبك في القتال مع العثمانيين؛ وتوفي عام (٩٨٠ هـ).

أيوب خان: هو حفيد الأمير بهروز أنعم عليه برتبة بكلربكي. وتولى منصب السبهدار (القيادة العليا) وتوفي عام ٩٩٤ هـ.

شاهبند خان: ...

بهروز خان: كان من أخص رجال الشاه (عباس) وقد أثنى عليه (شرفنامه) ثناء مستطابا ووصفه بالشجاعة والروية، وتوفي سنة ١٠١٤ هـ.

علي خان: هو ابن (بهروزخان) وشهرته (صفي قلي خان) وقد كان في معية الشاه (صفي) حين قدم السلطان مراد إلى آذربيجان. ولما هاجم فرهاد باشا بلاد كردستان تصدى له (علي خان) في جبال حكاري ودافع عن البلاد دفاع الأبطال ثم عقد صلحا مع أحمد باشا والي بغداد وانفض النزاع، وكان يحكم آذربيجان وأرمينية.

مرتضى قلي خان: هو ابن (علي خان) أيضا وكان ملازما لبلاط الشاه عباس الثاني في أصفهان.

غياث بك: هو ابن (علي خان)، وكان من بين قواد الشاه عباس ولم يلازمه الفوز في حروب (قندهار) ولهذا لم يجسر على العودة إلى خدمة الشاه وبقي هنالك مع بعض من عشائره. ومن بين أحفاد هذا الأمير الطائفة المعروفة الآن في تلك الجهات باسم (خرابي) التي من ذريتها فتحعلي خان ملك الشعراء في الدولة القجارية وابنه (محمود خان).

شهباز: هو ابن (مرتضى قلي خان) وقد حاصره عبد الله باشا في قلعة (خوي) فاضطر إلى التسليم. توفي في عام (١١٤٤ هـ).

أمير أحمد خان: كان يعاصر (نادر شاه) وظل يحكم بلاد آبائه وأجداده بمهارة وحزم، خمسين عاما وستة أشهر، وقد قتله أولاد شهباز خان حين وجوده لدى كريم خان الزند.

نجفقلي خان: هو ابن (شهباز خان) ومن قواد نادرشاه وأمير أمراء تبريز في عهده وكان شاعراً وأديباً وتوفي عام (١١٩٦ هـ).

أمير خداداد خان: هو ابن نجفقلي خان.

أقا محمد خان: ابن نجفقلي خان.

فتحعلي بك: هو ابن خداداد خان.

عبد الرزاق بك: ابن نجفقلي خان، وكان من فطاحل شعراء الأمير (عباس ميرزا) ومن رجاله البارزين، وله مؤلفات أدبية أشهرها كتابه عن تاريخ أسرته، توجد منه نسخة في المكتبة الشاهانية بطهران. وتوفي عام ١٠٤٣ للهجرة.

بهاء الدين محمد أقا: هو ابن عبد الرزاق بك، وكان عالماً فاضلاً وشاعراً مبدعاً وله ديوان شعر رقيق.

كوجوك خان: هو ابن بهاء الدين أقا.

شهباز خان: هو ابن مرتضى قلي خان الثاني، وقد وقع أسيراً في يد كريم خان الزند بشيراز.

محمود خان: وهو ابن شهباز خان، وكان أمير أمراء أصفهان.

شهباز خان: هو ابن محمود خان، وكان يعاصر عهد ناصر الدين شاه.

الأمير حسين قلي خان: هو ابن أحمد خان.

محمد صادق خان: هو ابن حسين قلي خان، وكان أمير أمراء آذربيجان.

١٨ - إمارة برادوست

تتحدر هذه الأسرة من الأسرة الحسنوية القديمة حيث جاء أولاد هلال ابن ناصر الدولة بدر، الثلاثة بعد مقتله إلى (برادوست). وتولى أحدهم ويدعى (طاهر) حكم (شهرزور) خلفاً لأبيه. وكان الآخر رئيساً لعشيرة (آكور)؛ أما ثالثهم فقد دخل (سلماس) وأخضعها لحكمه. يقول (شرفنامه) إن (غازي قران بن سلطان أحمد) كان أشهر أمراء هذه الأسرة. وقد ناصب الشاه إسماعيل العداء في بادىء الأمر ثم عادت العلاقات فتحسنت بينهما فمنحه الشاه لقب (غازي قران)، وأقطعه نواحي (تركور = ترجفور) و (صوماي) و (دول)، وظل هذا الأمير الشجاع مستقلاً في شؤونه الداخلية حتى حدثت معركة (جالديران) الشهيرة التي خضع بعدها مع سائر الأمراء الكرد لسلطان العثمانيين؛ وكان

السلطان العثماني يقدره حق قدره فأقطعه نواحي كثيرة في أيالات (أربل) و(بغداد) و(ديار بكر).

آ- أسرة صوماي

أسس هذه الإمارة (شاه محمد بك بن غازي قران) وظل أحفاده يتوارثونها حتى انقرضت. وفي عام ١٠٠٥ هـ كان أمير (صوماي) يدعى أوليا بك.

ب- أسرة تركةور (تركور)

كان أمراء هذه الأسرة من نفس عشيرة (برادوست). ويقول (شرفخان) ان (ناصر بك بن شيرين بك بن شيخ حسن) كان أميراً للبلاد في عهده. هذا وكان (أمير خان يكدس) أشهر أمراء هذه الأسرة، وقد دافع عن قلعة (دمدم) الشهيرة وكان أميراً في أوائل عهد الشاه (عباس الأول) وما لبث أن شق عليه عصا الطاعة واعتصم بالقلعة وجرت وقائع دموية حولها في عام ١٠١٧ هـ.

١٩- إمارة مكري[1]

يقول (شرفنامة) إن مؤسس هذه الإمارة أمير صومائي يدعى (سيف الدين) فقد استولى هذا الأمير في عهد حكومة التراكمة (القرن التاسع الهجري) على ناحية (درباس) وانتزعها من عشيرة تركمانية ثم بسط سلطانه على بلاد (دولي باريك واختاجي وايلتمور وسلدوز) فعلا شأنه وقويت شوكته وأطلق اسم (مكري) وهو صفته البارزة على إمارته وعشيرته. وقد خاض غمار حروب دامية مع الحكومات المجاورة أظهر فيها كثيراً من ضروب المكر والدهاء والبسالة وقوة الشكيمة. وقد خلفه بعد وفاته ابنه (صارم بك) الذي استولى (الشاه إسماعيل) في عهده على جميع بلاد (كردستان). وقد دحر في بادئ الأمر جيوش الشاه، ثم ألحق الهزيمة بجيش كبير آخر أغار عليه في عام (٩١٢ هـ) ولكنه اضطر أخيراً كسائر الأمراء الأكراد إلى طلب حماية العثمانيين فسافر إلى استانبول وتشرف بالزيارة السلطانية.

وقد انتقل الحكم بعد (صارم بك) إلى أبناء عمومته وهم (شيخ حيدر) و (مير نظر) و (مير خضر) أولئك الذين تخلوا عن العثمانيين وانحازوا إلى

---

[1]- في رواية أن هذه الأسرة يمت نسبها إلى أسرة البابانيين وأنها فرع من فروعها — المؤلف.

الإيرانيين في عام (٩٤٨ هـ)، الأمر الذي أدى إلى إصدار السلطان سليمان أمراً إلى (سلطان حسين) أمير العمادية و (زينل بك) أمير الحكاري ورجال عشيرة البرادوست بالزحف على هؤلاء الأمراء المكريين الثلاثة وبعد أن تم القضاء عليهم بعد معارك حامية الوطيس أسند السلطان (سليمان) إمارة هذه العشيرة إلى (أميرة بك بن حاجي عمر بك بن صارم بك) الذي عمر في الحكم ثلاثين عاماً، ثم انتقل منه الحكم إلى (أميره بك بن شيخ حيدر) الذي فضل حماية الصفويين له على العثمانيين وبهذا خضعت البلاد مرة أخرى لحكم الإيرانيين.

وفي عهد الشاه (محمد خدابنده) دخلت إمارة (مكري) مرة أخرى مع إمارة لرستان وأردلان تحت حكم العثمانيين، فانتهز (أميره بك) هذه الفرصة واستعاد ملك آبائه وأجداده مع أيالة (شهرزور) ولواء (الموصل) وذلك كله بموافقة السلطان مراد الذي أقطع (أربل) و (مراغه) أيضاً لابن (أميره بك).

وبعد قليل أنعم السلطان على (أميره بك) برتبة الميرميران ولقب الباشا مكافأة له على جليل خدماته وبسالته النادرة، وهكذا حكم (أميره باشا) البلاد ردحاً من الزمن بجدارة وحزم بلا منازع، إلى أن دب دبيب الخلاف بينه وبين (جعفر باشا) والي تبريز العثماني الذي انتزع منه بعض البلاد. ومع ذلك فقد ظلت هذه الإمارة مستقلة مدة أخرى محافظة على كيانها، وإن كانت قد تعرضت مرتين للمذابح والقتل أيام (قبادبك) و (شيربك) في عهد الشاه عباس الأول. وليس لدينا معلومات عن نهاية هذه الإمارة وعما آل إليه أمرها.

٢٠ ـ إمارة استوني[١]

لم يذكر (شرفنامة) شيئاً عن هذه الإمارة، ولكن يؤخذ مما جاء في (دائرة المعارف الإسلامية) بهذا الصدد أن أسرة (شمدينان) القديمة إنما تنحدر من سلالة العباسيين، وقد خلفها في الحكم أشراف وأسياد (مهري = نيري) فيما بعد، إذ كان سيد من هؤلاء الأسياد هو (الشيخ أبو بكر بن الشيخ عبد العزيز) يقيم بقرية (أستوني) ويقوم بوظيفة الوعظ والإرشاد فعظم نفوذه بين الأهالي القاطنين تلك الجهات. وقد استغل حفيده الشهير (الشيخ عبد الله النهري) هذه المكانة

---

[١] - تتعرض (دائرة المعارف الإسلامية) لذكر إمارتي (زرزا) و (ترزا) أيضاً ولكنها لا تذكر تفصيل الأحوال الإدارية والجغرافية قط ـــ المؤلف.

السامية وهذا النفوذ العريض خير استغلال، فعمل على إذكاء نار الوطنية والاستقلال الوطني للوصول إلى إنشاء حكومة كردية في (شمدينان) و(مكري) في (١٨٨٠ ـ ١٨٨٣) ولكن جهوده في هذا السبيل قد أخفقت وقبض عليه ونفي إلى استانبول ثم أبعد إلى الحجاز وهنالك توفي إلى رحمة الله.

د ـ المجموعة الحكارية الجنوبية (٢١ ـ ٢٧)

٢١ ـ إمارة البادينان (بهادينان)

يطلق على هذه الإمارة اسم (بهاء الدينان) أيضاً. ويقول (شرفنامة) إنها تأسست في أواخر عهد العباسيين وأن مؤسسها كان من نسل العباسيين كما يزعمون وكان يدعى (بهاء الدين) فأطلق اسمه على أسرته ثم حدث تحريف في الاسم تحت تأثير اللهجة الكرمانجية فصار (بهاء الدينان = بهادينان = بادينان) ويقول (شرفنامة)[١] أيضاً أن العمادية كان يحكمها (تيمورلنك) وابنه (شاهرخ) من بعده. وأن (شاهرخ) قد أمضى أيامه الأخيرة في تلك البلدة وأنه أقطعها لابنه الأمير سيف الدين.

وقد تولى الأمير حسن بن الأمير سيف الدين شؤون الإمارة بعد والده وقضى كل أيامه في حروب وقتال مع الآق قوينلية ثم خضع في النهاية للشاه إسماعيل الصفوي.

ثم تولى الإمارة بعد الأمير حسن، ابنه الكبير (سلطان حسين) الذي خضع أخيراً للعثمانيين وصار والياً من ولاتهم لمدة ثلاثين عاماً، وقد سبق أنه أسدى خدمات جلى للدولة العثمانية بتجريد حملة على إمارة (مكري) ومطاردة (القلص ميرزا) وحكم سنجق (الموصل) أيضاً أربع سنوات علاوة على تدبير شؤون إمارته.

وقد تولى (قباد بك) شؤون الإمارة بعد والده (سلطان حسين)، وبعد قليل استغل أخوه (بارام بك = بهرام بك) ضعفه ودروشته فأثار عليه عشائر

---

[١] - راجع (شرفنامة)، طبعة القاهرة، تجد العبارة خلاف هذا، حيث يقول إنه في عهد تيمور وابنه شاهرخ كان أمير العمادية يدعي (زين الدين) فحكم البلاد بالعدل والحزم ثم تولى ابنه الأمير سيف الدين وبعده ابنه الأمير حسن... ـ المترجم.

(بادينان) وانحاز هو بعد ذلك إلى الشاه إسماعيل الثاني. ولكن (قباد بك) قد تمكن من إخماد فتنة العشائر أخيراً ثم عاد وفوجيء بعد قليل بقيام عشيرة (المزوري) القوية ضده وتنصيبها (سليمان بك) أحد الأمراء البادينانيين أميراً على البلاد فاضطر إزاء ذلك إلى الالتجاء إلى الموصل ثم إلى (سنجار) حيث كتب إلى استانبول بما حدث له.

وفي خلال هذه الحوادث عاد (بهرام بك) إلى العمادية وأعلن إمارته على البلاد. وقد أقام (قباد بك) فترة من الزمن في (زاخو) ثم سافر إلى استانبول وهنالك قابل الصدر الأعظم (سياوش باشا) الذي منحه فرمان إمارته على العمادية وبعث به ليتسلم زمام أمرها، فوصل (قباد بك) إلى (دهوك) وأراد أن يقوم بعمل حاسم للقضاء على مثيري الفتنة والعصاة ولكنه فوجيء بهجوم كل من (سليمان بك) و (مير ملك) رئيس المزوري على (دهوك) وتطويقهما لها وانحياز أهالي البلدة إليهما وفتحهم أبواب المدينة لهما الأمر الذي أدى إلى سقوطها في قبضة (سليمان بك)، وقتل (قباد بك) في المعركة سنة ٩٨٤ هـ، ولما ترامت تلك الأنباء إلى مسامع (بهرام بك) حمل عشيرة المزوري على الاعتراف بإمارته عليها.

ولجأ (سيدى خان) و(أبو سعيد) ابني (قباد بك) إلى الدولة العثمانية وطلبا إليها الحصول على الإمارة فأصدرت الدولة الأوامر والتعليمات إلى السردار (فرهاد باشا) بإلقاء القبض على (بهرام بك)، وكان السردار حينئذ متجهاً لفتح كرجستان فدعا إليه (بهرام بك) ووعده بإسناد منصب الإمارة، إليه، بعد عودته غازياً من كرجستان، إذا ما انضم إلى صفوفه، ورافقه في المسير، فاقتنع (بهرام بك) بهذا الوعد وأسند وكالة الإمارة في غيبته إلى ابن أخيه (سيدى خان) ومشى في معية السردار. ولشد ما كانت دهشته حين عمد السردار بعد العودة إلى إلقاء القبض عليه ثم إلصاقه تهمة ملفقة به، ألا وهي أنه سبق وقتلْ أخاه ظلماً وعدواناً[1] فحكمت محكمة أرضروم بالإعدام ونفذ فيه الحكم على الفور. وبذلك

[1]- يقول صاحب (الأربعة عصور الأخيرة للعراق) أنه بعد وصول (سيدى خان) وأخيه إلى استانبول أصدر السلطان مراد الثالث أمره بإسناد منصب إمارة العمادية إلى (سيدى خان) وأمر السردار (فرهاد باشا) بمعاونة هذا الأمير بجيوش بغداد وكركوك وجنود الإمارات الكردية، فنفذ فرهاد باشا أمر السلطان واستولى على العمادية وأقام سيدى خان أميراً عليها سنة ١٥٨٥ م (ص ٤٢) ــ المؤلف.

انفرد (سيدى خان) بحكم الإمارة في سنة ٩٩٤، وكان هذا الأمير معاصراً لصاحب (شرفنامة) وعمر في الحكم طويلاً.

والظاهر أن الذي تولى الحكم في بلاد العمادية بعد (سيدى خان) هو (يوسف خان) الذي هاجمه (ملك أحمد باشا) والي ديار بكر في عام ١٠٤٨ للهجرة وألقى القبض عليه وزج به في سجون (ديار بكر) وبقي في غياهبها حتى أطلق سراحه بعد وفاة السلطان مراد وبعد أن دفع غرامات مالية فادحة لرجال الحكومة.

وانتقل الحكم من بعد (يوسف خان) إلى ابنه الذي علا في عهده شأن الإمارة وازداد نفوذها حتى بلغ عدد جنودها في عام ١٠٧١ للهجرة قرابة عشرة آلاف من الفرسان ومثل هذا العدد أو أكثر من المشاة.

يذكر التاريخ العام أن (قباد باشا) كان أميراً للعمادية في عام ١١١٢ هـ (١٧٠١ م) وأنه رافق جيش الموصل وديار بكر وقتذاك في حملته على جنوبي العراق لإخماد ثورة المنتفكيين بها.

وفي عام (١١٣٨) ولي الإمارة (بارام باشا) الذي اشتهر ببهرام باشا الكبير (والظاهر أنه ابن قباد باشا) وقد عمت البلاد في عهده موجة من التقدم في شتى الميادين، وحكم البلاد زهاء أربعين عاماً ثم توفي إلى رحمة الله عام ١١٨١ هـ (١٧٦٧ م) وقد خلفه ابنه (إسماعيل) باشا الذي حكم الإمارة فترة طويلة. وفي سنة ١٢٠١ هـ دب الخلاف بين الأمير إسماعيل باشا وإخوته فأخرجهم إسماعيل باشا من العمادية فذهبوا إلى قلعة (زاخو) واستولوا عليها عنوة. واضطر إسماعيل باشا إلى إرسال حملة عسكرية بقيادة أخيه (علي بك) إلى (زاخو) تمكنت من الاستيلاء عليها وطرد من فيها من إخوته المناوئين له[1].

وبعد سنة مضت تصالح إسماعيل باشا مع أخوته هؤلاء وأقطعهم قلعة (عقرا) والظاهر أنهم لم يخلدوا إلى السكينة أيضاً مما اضطر إسماعيل باشا إلى أن يزحف عليهم مرة أخرى ويضطرهم إلى التسليم والخضوع[2].

وفي سنة (١٢٠٢ هـ) اتفق إسماعيل باشا مع ابن أخيه (قباد بك) وزحفا معاً إلى قلعة (عقرا) التي كان بها أخوته طيفور بك ولطف الله بك وحاجي خان

---

[1] - ٥١. (أوليا جلبي): .

[2] - كتاب (أربعة العصور الأخيرة للعراق ص ٩٨) ـــ المؤلف.

بك وضربا نطاق الحصار على المدينة بعد أن تمكنوا من القبض على طائفة من سكانها وترحيلها إلى الموصل. وبعد فترة من الزمن انحسمت مادة النزاع ومالوا إلى التفاهم والوفاق فأعطاهم إسماعيل باشا ناحية (كنديرر) بدلاً من قلعة عقرا التي أعطاها لقباد بك جزاء عمله. ولكنه بعد سنة من ذلك أخذها منه وعين نجله (مراد خان) حاكماً عليها. وما كان من قباد بك إلا أن ذهب إلى السليمانية لاجئاً لأميرها عبد الرحمن باشا.

وفي سنة (١٢٠٥) زحف إسماعيل باشا إلى قرى الشيخان واشتبك مع اليزيديين في القتال وقتل أميرهم (تيمور آغا) ورجاله وعين خنجر بك أميراً عليهم ثم عزله وسجنه في سنة ١٢٠٦ هـ وعين بدله (حسن بك جولو).

وفي سنة (١٢٠٩) ساد الوئام بين إسماعيل باشا وبين أخوته. وفي سنة (١٢١٣) اشتبك قباد بك أمير زاخو في القتال مع الأمير محمد أمير البوتان = البختان من جراء نهب عدة قرى من بلاد البوتان، راحت ضحيتها كثير من الأنفس والأرواح. وفي هذه السنة نفسها توفي إسماعيل باشا إلى رحمة الله بعد حكم دام ثلاثين سنة. وتولى الإمارة ابنه (مراد خان بك) ولكن أخاه محمد طيار بك وكذا قباد بك لم يخضعا له وتقاتلوا مدة من الزمن إلى أن توسط بينهم محمد باشا الجليلي والي الموصل فاصطلحوا. وفي سنة (١٢١٤) اشتبك قباد بك أمير زاخو مع حسن بك أمير اليزيدية بشيخان في القتال ذهب ضحيته كثير من الناس.

وفي سنة (١٢١٥) أرسلت حملة عسكرية قوية إلى العمادية بقيادة إبراهيم باشا أمير السليمانية وبعد قتال شديد قصير أسفرت المعارك عن احتفاظ (علي مراد خان) بإمارته في العمادية وأعطيت قلعة (عقرا) لقباد بك وفي سنة (١٢١٨) تولى قباد بك إمارة العمادية وصار لقبه (قباد باشا). وكان علي باشا والي بغداد قد أرسل محمد باشا حاكم كويسنجق بقوة عسكرية لمعاونة قباد باشا وتعضيده في بسط نفوذه على بلاد الإمارة التي خضعت كلها ما عدا العمادية وعقرا وقلعة القمر التي لم تستسلم له قط.

وفي سنة (١٢١٩) أغارت عشيرة المزوري القديمة على (قباد باشا) وألقت القبض عليه وزجته في أعماق سجن العمادية ثم أطلقت يد النهب والسلب في أمواله وممتلكاته وكذا ممتلكات وأموال (لطف الله بك) و (طيفور بك) و (حاجي

بك)؛ أنجال إسماعيل باشا المرحوم ولبث قباد باشا في سجن عمه عادل باشا أمير العمادية إلى ما شاء الله.

وفي نفس هذه السنة نزلت ويلات ومصائب كثيرة على بلاد الإمارة البادينانية من جراء ظلم الأمراء والحكام وفساد الإدارة. حيث كان (أحمد بك) أخو قباد بك قد التف حوله كثير من الأشرار يغيرون على القرى والدساكر ينهبون ويسلبون الناس أموالهم، حتى أنهم حاصروا العمادية مدة من الزمن.

وفي سنة (١٢٢٠) أرسل علي باشا والي بغداد إلى العمادية قوة عسكرية هائلة مكونة من قوات خالد باشا وعبد الرحمن باشا البابانيين ومحمد باشا السوراني حاكم كويستجق، غير أن الخلاف دب بين هذين الأخيرين، فجر إلى احتدام القتال بين عبد الرحمن باشا وبين علي باشا والي بغداد. حيث كسر عبد الرحمن باشا جيش الموصل الذي كان بقيادة أخيه خالد باشا في نواحي (آلتون كوبري) ونهب هذه البلدة نهباً كاملاً. ولما وصل جيش علي باشا والي بغداد إلى ساحة القتال، قامت معركة حامية بين الطرفين على مقربة من (كركوك) حيث لحقت هزيمة منكرة بجيش عبد الرحمن باشا الذي انسحب إلى مضيق بازيان الشهير.

وبعد هذا الانتصار أعطى (علي باشا) إمارة العمادية لمحمد باشا الجليلي والي الموصل الذي أرسل الخلع والإنعامات إلى (عادل باشا) أمير العمادية وأبقاه في منصبه.

وفي سنة (١٢٢٣ هـ) توفي إلى رحمة الله (عادل باشا) وتولى مكانه أخوه (زبير باشا) بموافقة والي بغداد فأطلق سراح قباد باشا الذي كان سجيناً في العمادية ومنحه قلعة (زاخو) ولكنه لم يغادر العمادية وأقام فيها.

وأخيراً دب الخلاف والشقاق بين زبير باشا وبين نعمان باشا والي الموصل، مدة من الزمن، مما أدى إلى تفاقم الحالة ونزول كوارث شديدة على أهالي الطرفين ورعاياهما. وهكذا تجددت تلك العداوة والبغضاء اللتان كانتا موجودتين من عهد بايرام باشا بين رجال ورؤساء الأسرة الجليلية في الموصل[1].

---

[1]- ملخص من كتاب (غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر) لياسين العمري، مطبوع في الموصل سنة ١٩٤٠ ــ المؤلف.

هذا وكان (سعيد باشا) أميراً للعمادية حين هاجمها (محمد باشا كوره) أمـــير السوران، ورغم استماتته في الدفاع عنها تمكن (محمد باشا) من الاستيلاء عليـها ونصب أخاه (رسول باشا) حاكماً عليها.

وبعد انقضاء أيام (محمد باشا كوره)[1] ظهر (إسماعيل باشا البادينانی) حــاكم العقرة السابق، على المسرح واسترد زمام الإمارة، وتمكن من فــرض سـلطانه على جيرانه وأمعن في مضايقة (إينجه بيرقدار محمد باشا) متصرف الموصــل ولم يتيح له فرصة التدخل في شؤونه، ولكن لم يمض على ذلك طويل وقت حتى دهمه الصدر الأعظم (محمد رشيد باشا) بجيش عرمرم وحاصره في العماديـــة وتمكن من إلقاء القبض عليه وإرساله إلى بغداد وهنالك ألقى بـــه فـــي غيـاهب السجن حتى أدركته المنية في عام ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) وهكذا أسدل الســتار على هذه الإمارة الوطنية أيضاً.

٢٢ ـ إمارة داسني

ترى (دائرة المعارف الإسلامية) أن عشيرة (داسني) هذه كانت قاطنة فـــي منطقة (دهوك) وأن المدينة التي تحمل هذا الاسم كانت تخضع لها وأخيراً انـتزع أمير البادينان هذه المدينة من لواء (داسني) وضمها إلى البادينان. وبعد ذلك لمـا توجه السلطان سليمان القانوني لفتح بغداد انتزع إمارة (أربل) من الأمير (عــز الدين السوراني) وأعطاها (حسين بك) رئيس العشيرة الداسنية ثم قتل الأمير عـز الدين. وبعد فترة مات سليمان بك السوراني أخو عز الدين فانتقلت بوفاته جميـع البلاد السورانية إلى حوزة (حسين بك) الداسني.

وفي تلك الأثناء كان الأمير (سيف الدين بن مير حسين) وهو مــن أحفـاد وسلالة السورانيين مقيماً في جهة تدعى (صوما قلق)، ولما جاءته الأنباء بانتقـال الحكم في السوران إلى أيدٍ أجنبية بادر إلى قتال (حسين بــك) الداســني، وبعـد مصادمات عنيفة بينهما انهزم حسين بك الداسني شر هزيمة، ثم اســتدعي إلـى استانبول فذهب إليها وهنالك أعدم لعدم محافظته على ما أقطعه إليه السلطان من البلاد.

---

[1] - أي الأعمى ـــ المترجم.

٢٣ - إمارة - (السوران = السهران)

يقول (شرفنامه) ان نسب أمراء هذه الأسرة السورانية يرجع إلى بغدادي يدعى (كولوس)[1] الذي كان ابناً لرجل من رجالات بغداد البارزين ثم ألقت به الظروف إلى هذه الجهات النائية فدخل منطقة (أوان) وأقام بقرية (هوديان) محترفاً الرعي.

ويقول الدكتور (فريج) ان لفظ (كه ولوس = كولوس) لا يشبه اسماً من الأسماء العربية. بل هو لفظ كردي يطلقه أكراد تلك الجهة على الذي سقطت أنيابه أو يطلقه على الأحوال.

وفي الواقع أن ما ذهب إليه الدكتور (فريج) أقرب إلى الصواب والعقل. هذا وكان لكلوس ثلاثة أبناء هم (عيسى وإبراهيم وشيخ إدريس) وكان عيسى كبيرهم وعلى جانب عظيم من البسالة والحزم وفصاحة اللسان وجودة الطبع فلا غرو أنه كان محبوباً لدى المتصلين به. وصادف أن أشاع بعض المفسدين القلق في تلك الجهات فاضطر أهلوها إلى اتخاذ (عيسى) هذا زعيماً لهم للدفاع عنهم فحشد (عيسى) قوة يعتد بها في فترة وجيزة تمكن بها من إلقاء الحصار على قلعة (آوان)[1]، وأقام معسكره مع رجاله على صخرة حمراء تشرف على القلعة المذكورة، وأخذ في إعداد العدة للقتال والحرب حتى ألقى الرعب في قلوب المعتصمين بالقلعة فأطلقوا عليه وعلى أنصاره لقب (أصحاب الصخرة الحمراء) ثم تتطور اللفظ الكردي إلى (سوران) أي الحمر، واشتهر سليل (عيسى) بالسوران[2]. وأخيراً تم لعيسى الاستيلاء على القلعة ووضع بها أساس إمارة

---

[1]- وفي (شرفنامة) (كلوس) ولعله محرف من (كه ولوس) بمعنى الذي سقطت باعيته العليا أو سنة منها. وذلك بلغة الأكراد في تلك الجهات كما حققتها بنفسي في زيارتي لها في خريف سنة ١٩٤٧ م. وأما (اوان) فلا شك في أنها محرفة عن كلمة (روان) القلعة والمدينة الشهيرة الآن بـ (رواندز) بمعنى قلعة روان لأن (دز) بمعنى القلعة في لهجة من اللهجات الكردية ـ المترجم.

[2]- يقول كتاب (الأربعة العصور الأخيرة للعراق) أن سرخاب بك حاكم أردلان أرسل ابنه بهرام بك إلى رواندز واستولى عليها وصار حاكمها. فنشوء حكومة السوران يرجع إلى (بهرام بك) وقد عاشت ثلاثة قرون إلخ. ويذكر الدكتور فريج كذلك ولداً (لسرخاب بك) يدعى (بهرام بك) ويقول أن سرخاب بك كان أمير أردلان في عهد الشاه طهماسب. ويقول المؤرخ الشهير هامر في مبحث زحف خسرو باشا إلى همذان أن أمير أردلان والسوران في

كردية، أدار دفة شؤونها طويلاً مستقلاً تمام الاستقلال. وقد خلفه بعد وفاته ابنه (شاه علي بك) الذي حكم مدة من الزمن، ثم قسم الإمارة بين أولاده (مير عيسى) و (مير بوداق) و (مير حسين) و (مير علي)، وانسحب هو إلى قلعة (حرير) التي كانت من نصيب (مير عيسى).

وقد تعرض الأمير عيسى أخيراً لهجوم أخيه (مير بوداق) فقضى عليه وتم الأمر لمير بوداق. فعلا شأنه وامتد سلطانه حتى شمل الأراضي الإيرانية حيث انتزع منهم ناحية (صوما قلق).

وكان (شاه علي بك)[1] أخو الأمير عيسى وحاكم (شق آباد = شقا آباد) أميراً على جانب كبير من الحزم والعزم والشجاعة والروية، فوطن النفس على أن ينتقم لأخيه من (بير بوداق) فجاهره بالعداء واشتد الخلاف ونشب النزاع بينهما إلى أن قتل (بير بوداق) وأخذ هو يستولي على البلاد شيئاً فشيئاً فانتزع (أربل) و (الموصل) و (كركوك) من القزلباشية (الإيرانيين) ووضع بذلك أساس إمارة كبيرة قامت في تلك المناطق وكانت مستقلة في شؤونها تمام الاستقلال. ولما أدركته الوفاة ترك ثلاثة أبناء هم الأمير (سيف الدين) والأمير (عز الدين شير) و(سليمان بك).

وبعد وفاة الأمير (سيف الدين) من غير عقب انتقل الحكم إلى أخيه الأمير (عز الدين شير) الذي اتخذ مدينة (أربل = هولير) مركزاً لإمارته وحكم فيها ردحاً من الزمن حتى مر، بتلك الجهات، السلطان سليمان القانوني وهو في طريقه إلى بغداد لغزوها فألصق رجال السلطان به تهمة ملفقة أدت إلى إصدار السلطان أمراً بالقبض عليه وقتله في عام ٩٤١ هـ (١٥٣٤ م). وقد أقطع

هذه الأثناء كان (خان أحمد خان). فيفهم من هذا أن إمارة السوران كانت في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري في حماية الإمارة الأردلانية. (ج ٩).

[1] - يقول الدكتور فريج في كتابه (كوردلر ص ٢٦٠): إن الأمير السوراني الذي قتل بير بوادق، هو الأمير سيدى بن شاه علي بك، في حين أن هذا المؤرخ نفسه يقول في ص ٢٥٠ من كتابه «إنه كان لشاه علي بك السوراني أربعة أبناء هم مير عيسى ومير بوادق ومير حسين ومير علي». ويقول في الصفحة التي تليها أن الأمير علي قتل (بير بوادق بك) فإذا كان الأمر كذلك يكون اسم مير سيدى خطأ. ولا شك في أن هذه الحادثة وقعت في عهد السلطان مراد الثالث (٩٨٢ ـ ١٠٠٣ هـ) والظاهر أن شاه علي هو ابن (مير عيسى) الذي كان له أخوان فقط وهما إبراهيم وشيخ إدريس ـ المؤلف.

السلطان بعد ذلك (أربل) الحسين بك الداسني[1] الذي نجح في بسط سلطانه على كافة أجزاء الإمارة السورانية، بعد وفاة الأمير سليمان بن شاه علي بك. وبعد فترة قصيرة تمكن الأمير سيف الدين ابن الأمير حسين بن مير بوداق بن شاه علي بك من انتزاع إمارة أجداده من هذا الأمير الداسني الدخيل بعد حروب نشبت بينهما.

وقد أفضى هذا العمل من جانب الأمير (سيف الدين) إلى غضب الدولة العثمانية عليه واستيائها منه. فأصدرت أوامرها إلى (سلطان حسين) أمير العمادية وإلى أمراء آخرين من الأكراد بالزحف على الأمير (سيف الدين) فنفذوا أوامرها ولكنهم لم ينالوا منه شيئا. بيد أنه خدع أخيرا بنصيحة أحد الأمراء الأكراد وهو (غازي قران يوسف) أمير البرادوست. فذهب إلى استانبول ولجأ إلى بلاط السلطان سليمان، راجيا عفوه ولكن السلطان أبى عليه ذلك وأمر بقتله.

وبعد وفاة (مير سليمان بن شاه علي بك) لجأ ابنه (قلي بك) إلى الشاه (طهماسب) بسبب استيلاء حسين الداسني على إمارة السوران، كما سبق تفصيل ذلك؛ ونجح أخيرا (قلي بك) في توطيد العلاقات مع استانبول فعينته حاكما على بلدة (السماوة). ولما رأى أهالي منطقة السوران أن الأمير سيف الدين قد أعدم في استانبول التمسوا من السلطان تعيين (قلي بك) حاكم السماوة أميرا للسوران لأحقيته بذلك. وما لبث أن صدر المرسوم فعلا بإسنادها إليه فقام بأعباء الحكم فيها إلى جانب إدارة دفة شؤون جهة الحرير وقد عمر حكمه عشرين عاما كان خلالها مثال الحزم والعزم.

وقد خلفه في الحكم ابنه (بوداق بك) فحكم سنتين دون ظهور قلاقل أو حدوث فتن. ثم قام في وجهه أخوه (سليمان بك) ونازعه السلطان. فلم يقو (بوداق بك) على الصمود أمامه ولجأ إلى (سلطان حسين بك) أمير البادينان، طالبا مساعدته فأمده بنجدة، وفي عودته مع تلك النجدة إلى العقر أدركته الوفاة.

وهكذا تم الأمر لسليمان بك بلا منازع، وكان هذا الأمير عاقلا وحازما ومحبوبا من الأهالي. وقد جرد جيشا قوامه ثلاثة عشر ألف فارس على عشيرة

---

[1] – نسبة إلى العشيرة الداسنية – الطاسنية اليزيدية — المترجم.

(الزرزا) وألحق بها هزيمة منكرة وأعمل فيها يد النهب والسلب فرفعت العشيرة شكايتها إلى استانبول؛ وأراد السلطان مراد أن يجرد حملة تأديبية على (سليمان بك) في نفس الوقت الذي كان (سليمان بك) مغيراً فيه على الأراضي الإيرانية وغنم منها مغانم كثيرة، فقدم منها هدايا جزيلة لرجال السلطان، مما حمل السلطان على العدول عن تجريد الحملة التي كان قد فكر في تجريدها. وكان ذلك عام ٩٩٤ للهجرة، حيث ذاعت شهرة (سليمان بك) في شتى الأنحاء.

وبعد وفاة (سليمان بك) تولى الإمارة من بعده ابنه (علي بك) الذي كان معاصراً لشرفخان البدليسي صاحب كتاب (شرفنامة) الذي يذكر أمراء السوران حتى عهد هذا الأمير. وأما حالة أمراء هذه الأسرة بعد ذلك فلم تدرس بعد دراسة مستوفية.

ويقول صاحب كتاب (تاريخ نعيما) التركي أنه في عام (١٠٢٩ هـ) حين قدم السردار خسرو باشا إلى الموصل، بادر كل من (ميره بك السوراني) و (سيد خان العمادي) إلى معسكر السردار بصحبة جنودهما عارضين خدماتهما عليه فيؤخذ من هذا أن الذي تولى الإمارة في السوران بعد (علي بك) هو (ميره بك) الذي يجهل التاريخ أحواله ومدة حكمه.

وقد ورد في التقرير الإداري الإنجليزي عن راوندز[١] أن مركز إمارة السوران هذه كان تارة في (دوين) وتارة أخرى في (حرير) أو في (كاليفان) أو في (راوندز).

والظاهر أن قلعة (دوين) كانت مركزاً لإمارة السوران في القرن العاشر ودام ذلك حتى عام ١١٤٣ هـ (١٧٣٠ م) حيث ضيقت الخناق عليها، بعد ذلك، الحكومة البابانية بالسليمانية واضطرت (شكه لي بك) أمير السوران إلى نقل مركز حكومته إلى (حرير). ثم جاء ابنه (سليمان بك) فبنى قلعة حصينة في (كلاسو) جبل (حرير)، وله آثار أخرى علمية وعمرانية، وكان الشيخ (حيدر

---

[١]- هنالك تقرير إنجليزي عن أحوال (راوندز) الإدارية وضع في سنة ١٩٠٩ وطبع سنة ١٩٢٠ في بغداد وهو يشتمل على خلاصة تاريخية عن السوران من عام (١٠٤٠ هـ ١٦٣٠ م) حتى العهود الأخيرة، ويؤخذ من تلقيب أمراء السوران بلفظ (ميران بك) أو اسم ميره بك ـ وهو علي ما يظهر ابن سليمان بك ـ أصبح لقباً لأمراء هذه الأسرة، ورغم عدم معرفتنا مصدر هذا التقرير، إلا أننا مضطرون للأخذ بما جاء فيه من أحوال أمراء السوران ـ المؤلف.

ماوراني) شيخاً للعلماء في عهده. ومع كل ذلك لم ينج (سليمان بك) هــذا مــن مضايقة البابانيين له، وهو منزو في قلعته بـ (حرير). إذ كثـــيراً مـــا أقضـــوا مضاجعه وظلوا ممعنين في مضايقته حتى توفي إلى رحمة الله عن سبعين عامــاً ودفن بقلعة (حرير).

ويؤخذ من الروايات المحلية أن العلاقات قد ساءت بين هذا الأمـــير وبيــن حكومة بغداد، فترة من الزمن وقبض عليه لهذا السبب وسجن في بغــداد وظــل بها سجيناً حتى أدركته الوفاة.

وفي خلال ذلك كانت أخته (خانزاد)[1] تقوم بأعباء الإمارة نيابة عن أخيـــها، وقد خلفت آثاراً خيرية عظيمة في البلاد.

ولم يقو (علي بك بن سليمان بك) على الصمود أمام البابـــانيين وهجماتـــهم المتواصلة، فنقل مركز حكومته من (حرير) إلى قرية (كاليفان) في وادي (آلانـــا) عند مدخل مضيق (رواندز) وذلك في عام ١١٩٢ للهجرة (١٧٧٨ م) وقد اشتهر هذا المضيق فيما بعد باسم (كلي علي بك) أي (مضيق علي بك) نسبة إلى اســـم هذا الأمير الذي حصن المضيق ببناء قلعتي (سردريا وسره شمه) في النـــاحيتين المتقابلتين، وقلعة أخرى فيما بين نهري (رواندز) و(بالكيان = بالكي).

وقد خلف علي بك هذا ابنه (أوغوز بك الكبير) فنقل مركز الحكومـــة إلـــى (راوندز) في عام ١٢٠١ هـ ١٧٨٧ م.

وأخذ سلطانه يمتد حتى وصل إلى (سيدكان) و (هوديـــان = هـــه وديـــان) وسهل (ديانا) وإلى العشائر النصرانية التي أخضعها لحكمه نهائياً.

كما وسع ابنه (أحمد بك) حدود البلاد، وسلك ابنه (أوغوز بـــك الصغـــير) مسلك أبيه في إنهاض البلاد وتوسيع حدودها. وقد نشبت الحروب والقلاقل مـــرة أخرى بين البابانيين والسورانيين في عهد (مصطفى بك بن أوغوز بك الصغـير) وأخذ المغيرون يهددون مركز الإمارة ردحاً من الزمن، بيد أن (مصطفى بـــك) انتصر أخيراً على خصومه وألحق بهم هزيمة منكرة وأمعن في مطاردتهم حتـــى قتل الكثيرين منهم.

---

[1]- يوجد الآن فندق من الطراز الحديث باسم هذه الأميرة الكردية في مصيف شقلاوة الشهير في شمال العراق بنتـــه الحكومة العراقية ـــ المترجم.

وبعد فترة عمد (مصطفى بك) إلى مصاهرة خصومه حسماً للنزاع وقطعاً لدابر الخلافات المستمرة فزوج ابنته (فاطمة هانم) لحسين بك بن محمود باشا البابائي. ثم شرع في إصلاح شؤون البلاد وتعميرها منتهزاً فرصة هذا الصلح الذي حققته المصاهرة، فعين أخاه (تيمور بك) حاكماً على (هفديان = هوديان)، وعين (يحيى بك) على منطقة (سيدكان) و(برادوست) وأناب عنه ابنه (محمد بك) وتوفي هو في سنة ١٢٤٥ هـ.

حكومة (محمد باشا كوره = الباشا الأعمى)

ألقى (محمد بك) القبض على كل من عميه، بعد وفاة أبيه مباشرة، ثم أخذ في توسيع حدود الإمارة فأخضع عشائر (شيروان) و (برادوست) مع عشائر (سورجي) لحكمه وطرد البابانيين من حرير واستولى على مدينة (هولير = أربل) وأخضع عشيرة الدزهئي واستولى على بلاد (آلتون كوبري) و (كوي) و (رانيه) واتخذ الزاب الصغير (زي كويه) حداً فاصلاً بينه وبين البابانيين.

يقول المستر (بيللي فرزر) الذي قام بسياحة (١٨٣٤) إلى (اشنو) ودرس عهد (محمد باشا) واستفاد من التقرير الذي وضعه الدكتور روس – ross الذي كان قدم من بغداد لمعالجة مصطفى بك والد محمد باشا، يقول ما ملخصه – كان محمد باشا أمير راوندز يبسط سلطانه قبل هذا على منطقة صغيرة من كردستان مثل سائر الزعماء الكرد وكان ذكياً حاد الذكاء، يقال إنه ذات يوم سمع أن أحد أخوته الحبيب إليه قد دخل حديقة من غير إذن صاحبها وقطع تفاحة منها، فما كان من الباشا إلا أن طلب إليه أخاه وقال له بأية يد قطعت التفاحة؟ فرد عليه أخوه: بيدي هذه ثم سأله بأي أصبع من أصابعك قبضت على التفاحة فقال: بأصبعي هذا وعند ذلك يقول الأمير يجب أن يقطع أصبعك هذا وينفذه حالاً. وفي الواقع أن حكاية مثل هذه تؤثر أيضاً من (نادر شاه) شاه إيران العظيم.

هذا ويمكننا أن نذكر شيئاً من المعلومات التاريخية عن عهد هذا الأمير، نقلاً عن الدكتور (روس) طبيب السفارة الإنجليزية الذي كان في بغداد حينذاك وطلبه الأمير محمد باشا إليه في بلاد السوران. فيقول: «إن محمد باشا كان قد جلب هذا الدكتور إليه لمعالجة عين والده (مصطفى بك) الذي كان قد أضر: ولم

يكن قد ساح أحد من الأجانب في تلك الربوع سوى هذا الدكتـــور والمـــيرالاي (تايلور). ولقد قام (روس) مع بايزيد بك عم محمد باشا من بغداد متوجهين إلـــى أربل في (١٥ مايو سنة ١٨٣٣) حيث شاهد الحدود بين بلاد الإمارة وبين عمال الترك في غاية من الغرابة. إذ رأى بعيني رأســـه وتحقـــق أن أهـــالي القـــرى الخاضعة لحكم رضا باشا والي بغداد في حالة يرثى لها، فقســـم منـــهم هجـــروا قراهم وقسم اضطر للبقاء فيها تحت الضنك والإرهاب يضجون بالشكوى كلمـــا رأوا إلى ذلك سبيلاً. فإذا رأوا أحداً من عمال الحكومة قادماً هربوا منه واختفـــوا عن الأعين، في حين أنهم قابلوا (بايزيد بك) من أول ما وصلا إلى بلدة (آلتـــون كوبري)، التي كان بينها وبين (أربل) قرى عامرة وسهول خصبة مكللة بـــالورود والزهور ولقد قوبلا في أربل خاصة بحفاوة عظيمـــة. وفـــي (١٩ مـــايو ســـنة ١٨٣٣) غادر روس أربل إلى (رواندز) التي كان على مقربة منـــها (مصطفـــى بك المسن) وبعد رحلة دامت بضع ساعات بين جبال مكسوة بالأشجار والغابـــات وعامرة بالقرى والبلاد وصل إلى قلعة (دمدم) مسكن ومقر (مصطفى بك) حيـــث كان ظاهراً منه (وادي رواندز) واستحكاماته الشهيرة التي كانت علـــى مســـافة ساعة منه. و (مد) هذه قلعة صغيرة مبنية على صخرة عالية بناء محكماً مطلـــة على قرية ذات ماية بيت، واقعة وراء تلك الصخرة العاتية ومستورة بالبســـاتين والحدائق الغناء، حيث كانت تظهر هنا مناظر مدينة (رواندر) التي كـــان يقـــدر عدد سكانها ألفي بيت وأسرة، وتحيط بها من كل الجهات طوابي واســـتحكامات وتقع على نهر؟ (فما ذهب إليه (روس) من أنه الزاب الكبير غلط) ومـــا ســـمح لروس الذهاب فيما بعد إلى رواندز والتجوال في بلاد السوران، وفـــي النهايـــة يذكر الأزياء والقيافات، فيقول إن الأهالي كانوا فقراء وجهلاء يلبسون ملابـــس محلية بسيطة عبارة عن سروال وقميص من جوخ ولكن الأغنياء منـــهم كـــانوا يلبسون مثل أهالي بغداد وكان كل يوم يأكل في منزل الأمير أكثر مـــن عشـــرة أنفار من القرويين.

هذا وكان (مصطفى بك) قد أصيب بالعمى الذي لا دواء له، وكـــان ســـبب عماه هو أنه ذات يوم قائظ صعد جبلاً فشعر حراً شديداً وبادر إلى وضع الثلـــج على رأسه ونام عليه أيضاً.

كان لمحمد باشا أربعة أخوة هم تمور خان وسليمان بك اللذان كانا مقيدين بالسلاسل في قلعة، على مسافة خمس ساعات من رواندز، وأحمد بك الذي كان حاكم أربل. ورسول بك كان في الجيش مثله كممثل ولي العهد للأمير.

وظاهر من كلام الدكتور (روس) أنه لم يكن راضياً عن هذه الرحلة إذ يشكو من قلة العناية والاحتفاء به، حيث يقول إن الكرد أشداء شرسون لا يعجبهم ولا ينال رضاهم، غير الحرب والطعان. ويظهر أن هذا هو مقتضى حياتهم القاسية في هذه البلاد حتى أن أطفالهم أيضاً يعدون أنفسهم للحرب والقتال ويقال إن جيش بغداد لا يمكنه الصمود أمامهم وأنهم استولوا على بلدة (آلتون كوبري) في ظرف ساعة، ويقولون إن الغرض من استيلائهم على هذه المدينة ومدينة (أربل) هو تأمينهم الحصول على الغلال اللازمة لتموين قراهم وإلا فليس لهم طمع في بلاد الغير ولا سيما أن بلادهم من المناعة بمكان يستحيل معها على العدو اقتحامها.

ثم يقول إن الباشا قد خصص أطراف (أربل) لمعيشة مشايخ بلاده، كما أن عشيرة (طي) العربية خاضعة لحكم الباشا. ولهذه العشيرة قوة عسكرية في خدمة الباشا معسكرة حول العقرة.

ويحترم الناس كثيراً الباشا إما رغبة في عدله أو رهبة منه لأن له إدارة حازمة وعدلاً في تنفيذ الأوامر، مما قطع دابر الفساد واللصوصية في أنحاء البلد واستتب الأمن فيها، لدرجة أن الأهالي حتى في القرى النائية ينامون وبيوتهم أبوابها غير مغلقة طوال الليل ومن النوادر وقوع حوادث تستوجب حكم الإعدام. وحكم السارق قطع اليد، كما أن حكم قطع الطريق قطع الرجل وعقوبة بعض الذنوب الأخرى سمل عين أو عينين اثنتين.

وحدث أن شيخاً من شيوخ «طي» كان مع عشيرته قد لجأ إلى الباشا، حدثته نفسه أن يقدم على ضرب قافلة تمر من البلاد وسلب أموالها، فما كان من الباشا إلا أن أرسل عشرة من رجاله الأكراد إلى هذا الشيخ غداة الحادثة لتقطع رأسه من غير ضجة ولا قتال.

كان الدكتور في (أربل) ضيفاً على حاكمها (أحمد بك) فيقول إنه ورد عليه وهو هناك شخص من قواد الباشا يقال له (سلطان بك) فقال له أنه قد اتصل بجيش الباشا الذي يتراوح عدده بين ٢٠ ألفاً و ١٥ ألف وكان معسكراً بالعقرة

التي كان قد استولى عليها منذ مدة قليلة. حيث كان الباشا نفسه يقود الجيش المهاجم الذي تمكن من الاستيلاء في مدة ثلاث ساعات، الأمر الذي كان قد أثر في نفوس أهالي العمادية وزعزع ثقتهم بأنفسهم وحملهم على أن يقرروا تسليم القلعة من غير قتال. ويقول الدكتور أنه في (٣٠ مايو) ورد خطاب من الباشا إلى حاكم أربل يأمره فيه انتظاري بها مع تقديم الاحترام اللازم.

وفي (٦ مايو) جاءت الأنباء بأن العمادية تم الاستيلاء عليها وأن سيد باشا (سعيد) حرم من إمارة البهادينان وعين (موسى باشا) بدله حاكما على العمادية، كما أن سليم باشا عين حاكما على العقرة وهكذا خضعت جميع بلاد البادينان لحكومة (رواندز).

وأخيرا في (٣ يونيو)، ورد أمر من الباشا بإرسال الدكتور (روس) إلى معسكره بالعقرة فيذهب الدكتور إليه ويجتمع به هنالك ثم يصفه ويقول إنه يناهز الخمس والأربعين من عمره بهي الطلعة حلو الحديث أسمر اللون طويل اللحية أعور العين مربوط إحدى الساقين، لأن دابته كانت رفسته وخدشته وكان يتكلم بصوت خفيف بطيء. وسأل عن أصول التدريس والتعليم في إنجلترة وغيرها من المسائل العامة. ثم عطف على العلاقات بين الإنجليز والروس وإيران وأظهر اهتمامه بها. وبعد ذلك استوضحني عن الأعمال الطبية وأثرها حتى ذكر الطاعون والكوليرا فسألني عن طريقة مكافحتهما ومعالجتهما ثم وقف في مسألة البحث عن الأسلحة والبنادق. وكان ينام في الليل متأخرا فلذا ما كان يصحو من النوم قبل الساعة التاسعة والعاشرة قبل الظهر.

ثم يقول الدكتور إن عدد جيش الباشا لم يكن أزيد عن عشرة آلاف لأن نصفه الثاني كان قد أرسله إلى الخارج بالسوران، على أن نخبة عساكره المنظمة كانوا ثلاثة آلاف من الجنود الحرس الأشداء، ضاربين خيامهم حول خيمة الباشا وكان الجنود المشاة منهم مسلحا بالبنادق والقربينات. والخيالة بالرماح والقربينات، وكان هذا الجيش مرتبا بطريقة خاصة يمكنه في الوقت المناسب زيادة عدده إلى خمسة آلاف ولقد كان الجيش في غاية النظام والدربة يسوده السكون والانتظام التام. لا يسمع لأحد صوت ولا جلبة في المعسكر الكبير، بحيث كان الباشا في مدة خمس دقائق يحرك هذا الجيش إلى الجهة التي يريدها. وكان يجتمع كل ليلة في خيمة الباشا أكثر من مائة ومايتين من رجال

العشائر المختلفة ويأكلون الطعام بها. وكان الباشا قد أمر بشراء ما يلزم للجيش أثناء الحرب من الذخائر والعتاد بضعف قيمته، وهذا كان منتهى العدل والإنصاف.

ولقد غادر الدكتور، المعسكر، بعد بضعة أيام إلى الموصل فأصحبه الباشا قوة محافظة مؤلفة من العرب برئاسة (أبي سليمان) فأوصلته هذه القوة حتى الحدود العثمانية على مقربة من الموصل. ويذكر الدكتور، هنا ما كان عليه الإدارة السورانية من الانتظام والحزم وما كان عليه الحال في البلاد العثمانية من الفوضى وسوء الإدارة، حيث يقول إننا ما كدنا ندخل الحد العثماني إلا وفوجئنا بطلب البخشيش من كل ناحية مهددين إيانا بالقتل إن لم نعطه بالسهولة؛ في حين أن هذه العادة القبيحة لم تكن موجودة في أراضي (حكومة رواندز) وخلاصة القول إن الإدارة العامة في حكومة رواندز كانت أرقى وأقرب إلى الإنصاف من الإدارة في حكم والي بغداد المسمى (علي باشا) من كل الوجوه.

يقول (فرازر) إن دراستي الخاصة أثبتت لي أن الباشا كان على جانب عظيم من الحرص والحيطة والحذر مع بعد النظر ودقة الشعور، وكان مع عدله المفرط لا يتردد في إراقة الدماء عند اللزوم. ومن ذلك أني سمعت أن بعضاً من العشائر الكردية كانت قد أبدت شيئاً كثيراً من الشدة والقسوة ضد جيوشه حين محاصرته لقلعة العمادية ولم يكتفوا بذلك بل استمروا في قتالهم وفظائعهم حتى بعد تسليم العمادية، مما اضطروه إلى سوق قوة خاصة إلى هؤلاء العتاة القساة فأدبتهم تأديباً صارماً حتى أبادتهم عن آخرهم.

لم يكن (لمحمد باشا) ثقة بالسياحين الأجانب، فما كان يسمح لهم بالطواف في أنحاء بلاده. وهذا لا يمنع أنه كان يبيح للتجار والمسببين من أهالي البلاد المجاورة، دخول بلاده ومزاولة التجارة فيها، ولكنه ما كان يقبل أحداً من بلاد خصومه أن يدخل بلده، مهما كانت الظروف وإذا قبض على أحد منهم عد أسيراً.

ثم يقول (فرازر) أنه كان من الخطأ بمكان أن أدخل بلاد السوران حسب الأحوال والأصول السائدة هناك. ومع ذلك فقد ثبت لي بعد التحقيق أن الباشا لم يكن في (رواندز) وأنه منذ عشرة أيام بعيد عنها في جهة قريبة من الموصل يخوض غمار معركة من معاركه. فيلزم للحصول على إذن منه بالدخول والسياحة وقت طويل وأنا في غنى عنه ولذلك عدلت عنه.

وقد أثبتت لي دراستي أنه كان هناك رواية شائعة بأن (محمد باشا) قد اغتصب الإمارة من والده بالقوة، ولكن الصحيح هو أن والده في أواخر أيامه قد تنحى عن الحكم وعكف على الزهد والتقوى سالكاً طريقه الصوفية، ورأى من المصلحة أن يترك أمور الإدارة في البلاد لابنه الأمير محمد الذي ما كاد يتسلم زمام الأمور في يده، إلا وبادر إلى تنظيم الأمور وإصلاح الشؤون وإخضاع الثائرين والمنشقين ثم بادر إلى إنشاء جيش قوي مدرب، عدة المستقبل. ولقد صادف تولي محمد باشا الإمارة أن قامت الحرب الضروس بين إيران وبين الروس فأراد ولي عهد إيران وهو عادة يكون حاكماً لولاية تبريز أيضاً أن يضرب الأمير محمد ويتخلص منه، غير أنه بدأ أولاً يضرب بعض العشائر الكردية والإمارات القومية الأخرى، حيث ضررها عليه أكثر وأثبت. فانتهز الأمير محمد الفرصة السانحة فاسترد البلاد السورانية التي كانت قد استولوا عليها سابقاً ثم عطف عنان همته، نحو بلاد (أربل) و (العمادية) فأخضعها لحكمه، وهكذا وصلت حدود سلطانه إلى (كركوك) ونهر (دجلة) وأصبح لديه جيش قوامه خمسون ألفاً من الجنود نصفهم مدرب تمام التدريب ذو راتب دائم، والنصف الآخر كان مؤلفاً من رجال القبائل والعشائر .

هذا وكان (علي رضا باشا) والي بغداد يقف إزاء هذه الحالة مكتوف الأيدي لا يدري ما العمل لمقاومة بطش هذا الأمير الكبير وشدة بأسه. وأخيراً وجد نفسه مضطراً إلى اصطناع الملاينة وتفضيل السلام على إشعال نيران الحرب وبادر إلى الاعتراف بحكومته مستصدراً رتبة (الميرميران) له من استانبول.

وفي عام (١٢٤٩ هـ) ــ (١٨٣٣ م) جهز محمد باشا هذا جيشاً كبيراً على أتم دربة وأكمل نظام، وبعث به إلى بادينان بتحريك من (موسى باشا الباديناني) الذي كان ينازع أميرها السلطة، فنشب القتال بين الفريقين ودارت رحى معارك عديدة مع إسماعيل باشا الباديناني أسفرت عن سقوط قلعة العقرة، في قبضة (محمد باشا) الذي توجه من هنالك إلى العمادية وحاصرها. ثم أسر حاكمها (سعيد باشا) بعد أن سلمت إليه المدينة. ثم شد رحاله وهاجم اليزيديين في (بعشيقا) فقتل منهم الكثيرين، وألقى القبض على رئيسهم (علي بك) وأرسله إلى (رواندز) وأبقاه هنالك سجيناً طيلة عامين ثم قتله؛ وجاء في رواية أخرى أن (محمد باشا) توجه بعد ذلك إلى (جزيرة ابن عمر) وانتزع مدينتي (ماردين) و(نصيبين) من حكامها (بدرخان بك) العزيزي.

وصفوة القول إن (محمد باشا) الشهير بالباشا الأعمى (باشا كوره) قد فتح الكثير من البلدان في فترة وجيزة وامتدت حدود بلاده من (رانيه) وهضبة (بشدر) حتى (نصيبين) و (ماردين). ومن (كلاشين) إلى (مخمور).

ولا شك في أن ازدياد نفوذ (محمد باشا) وعلو شأنه في تلك الجهات قد أقلق بال الدولة العثمانية وأقض مضاجع رجالها فجرد السلطان (محمود) عليه جيشا كبيرا بقيادة (محمد رشيد باشا)[1] وأمر بأن يرافق كل من (علي رضا باشا) والي بغداد و (محمود باشا) والي الموصل، الصدر الأعظم في أداء مهمته.

ولما علم الأمير محمد باشا بتلك الأنباء اعتصم بقلعة (رواندز) واستعد للمقاومة والنضال. وبعد أن استولى جيش الصدر الأعظم على منطقة بادينان توجه صوب (رواندز) في الوقت الذي كان فيه جيشا بغداد والموصل متجهين نحو (أربل). وقد كانت الأغلبية العظمى في جيش الصدر الأعظم و (علي رضا باشا) من العشائر الكردية، فعسكر هذان الجيشان في سهل (ديانا) و (حرير) وكان الأمير محمد باشا محتلا مضيق علي بك (كەلي علي بك) فبدأ الصدر الأعظم في مفاوضة (محمد باشا) حقنا لدماء المسلمين وقد حذره من مخالفة أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، قاطعا على نفسه العهود والمواثيق بألا يحيق به ضرر ما، إذا استسلم للدولة العثمانية. وقد نجح الصدر الأعظم في مسعاه وانتهت المفاوضات بتسليم (محمد باشا) نفسه إلى الصدر الأعظم فأرسل إلى الآستانة وهنالك صدر عنه عفو سلطاني، وبينما هو عائد إلى بلاده عن طريق (طرابزن) صدر الأمر بإلقاء القبض عليه وقتله بطلب (علي رضا باشا) والي بغداد الذي خشي عاقبة عودته إلى بلاده سالما[2].

---

[1]- في الأصل (مصطفى رشيد باشا) وهذا غير صحيح انظر الحاشية في ص ٢٤٦ من كتاب (خلاصة تاريخ الكرد وكردستان) تعريف المترجم سنة ١٩٣٩.

[2]- لما زار الميجر ميلنغ، مدينة (وان) سائحا كان (رسول باشا) واليا عليها. وذلك في سنة ١٨٧٠ م تقريبا، فسأله الميجر عن قضية أخيه (محمد باشا) وما آل إليه أمره بعد التسليم فأجابه (رسول باشا) بما ملخصه: «أراد محمد باشا حوالي سنة (١٨٣٤) أن يعمل على إنقاذ بلاده من براثن الحكم العثماني ليستقل بها وينشيء إمارة من أسرته فيها، حيث كان إلى جانب صفاته العسكرية الممتازة، إداريا حازما وعادلا، ولهذا كان في مكنته بجيشه الكردي المدرب أن يبسط سلطانه على الولايات المجاورة مثل كركوك والموصل، وكان (رسول باشا) نفسه قائدا للجيش ووليا للعهد، فأرسل الباب العالي جيشا بقيادة (رشيد باشا) الذي كان صديقا شخصيا لمحمد باشا لانتزاع (رواندز) منه، ولكن الحكومة كانت راغبة في إنهاء هذه المسألة دون قتال فاستغلت هذه الصداقة الشخصية ستارا لخيانة (محمد

وقد تولى إمارة السوران بعد الأمير (محمد باشا) أخوه (أحمد بك) وأصبح رسول باشا حاكماً للعمادية. وبعد سنتين قتل (أحمد بك) إثر مكيدة دبرها له أبناء عمومته فخلفه أخوه (سليمان بك) الذي لم يدم عهده أكثر من ستة أشهر. ثم أبعد عن أريكة الحكم لضعفه. وقد جاء رسول باشا إلى العمادية وتولى منصب الإمارة فيها تحقيقاً لرغبة الأهالي وتعضيد الحكومة له، وعمر عهده سبع سنوات دون حدوث قلاقل أو إثارة فتن، ثم حدث أن امتنع بعد ذلك عن أداء الأموال الأميرية للحكومة المركزية فجردت عليه قوة تأديبية اشتبكت معه في معركتين داميتين في (ديره) و (خليفان) انسحب عقبهما إلى (رواندز)، ولما ضاق به الأمر هنالك اضطر إلى الالتجاء إلى (اشنو) ولبث هنالك خمس سنين متوالية، وألحقت إمارة السوران خلال ذلك بالإدارة العثمانية المباشرة. وبعد فترة من الزمن توسط ولي عهد إيران لدى الباب العالي بشأن (رسول باشا) فصدر عنه عفو سلطاني وعاد إلى (بغداد) وأقام فيها حيث خصصت الحكومة له راتباً شهرياً قدره (٧٥) جنيهاً عثمانياً. ولما قامت حرب القرم بين الدولة العثمانية والروس ساهم فيها (رسول باشا) كقائد للقوات الكردية والمتطوعين من العثمانيين في (أرضروم = أرزن الروم) ثم عاد إلى بغداد عام ١٢٧٥ للهجرة. ثم سافر بعد ذلك إلى الحجاز ثم إلى الآستانة وبعدئذ عين متصرفاً لمقاطعة (وان) وأمضى فيها ثلاث سنوات اختار بعدها الإقامة بأرضروم، وظل بها مقيماً حتى توفي إلى رحمة الله سنة (١٣٠١ هـ).

٢٤ ـ إمارة البابان

يقول صاحب (شرفنامة) إن بلاد إيران هي موطن البابان القديم وأن (بير بوداق بك) مؤسس هذه الأسرة قد وضع أساس حكومة قوية بانتزاعه إيالة

باشا) الذي خدع ووقع في المكيدة التي دبرها له، لأنه أجاب طلب (رشيد باشا) وذهب إلى معسكره لإجراء المفاوضات حيث قبض عليه وأرسل مخفوراً إلى الآستانة، وأظهر السلطان نحوه الكثير من ضروب العطف، وقر قرار الباب العالي على تعيين (محمد باشا) والياً عاماً على كردستان ومنحه سلطات واسعة، فأركبوه سفينة حربية وأعادوه إلى بلاده ولكن مضي (٣٥ عاماً) ولم يصل إليها بعد.

وقد سلم (رسول باشا) نفسه أيضاً بعد تسليم أخيه وأقام فترة في بغداد ثم اشترك في حرب القرم قائداً لجيش كردي وأسدى خدمات جلى في هذه الحرب ومعاركها الطاحنة فعينته الحكومة متصرفاً للواء (قارص) مكافأة له، ثم انتقل لمتصرفية (وان) اهـ كتاب (حياة ابتدائية في كردستان ص ٨٥) ـ المؤلف.

(لارجان)[1] من العشيرة الزرزائية، وبلاد السوران من عشائر شيوى[2]، وباستيلائه على منطقتي (مشيا كرد) و (سلدوز) من القزلباشية. وكان لقب هذا الأمير (به به = بابا) ولذا سميت الأسرة كلها بالبابان أو البابانية، وبعد فترة قتله الأمير (سيدى) ــ الظاهر أنه ابن (شاه علي) حاكم السوران ــ في إحدى رحلات القنص والطراد.

ولما كان (بير بوداق) عقيماً لم يعقب أولاداً قط، فقد تولى الإمارة من بعده ابن أخيه (بوداق بك بن رستم) الذي حكم سنتين فقط ثم اغتصب الإمارة منه أحد رجالهم المدعو (بير نظر).

وبعد وفاة (بير نظر) انتقلت البلاد الأصلية من الإمارة إلى حكم الأمير (سليمان)، وحكم (مير إبراهيم) ما تبقى من البلاد.

وقد سلك هذان الأميران في بادىء الأمر سبيل الصلح والوئام وكلاهما قانع وراضٍ بما في حوزته من البلاد، ودام ذلك فترة، بيد أنهما اختلفا أخيراً فيما بينهما فتنازعا وظلا يتقاتلان حتى قتل الأمير (سليمان) خصمه الأمير (إبراهيم) وضم بلاده إلى حكمه الذي عمر بعد ذلك خمسة عشر عاماً. وقد ترك الأمير سليمان من بعده أربعة أبناء، ومات الأمير إبراهيم عن ثلاثة أبناء، وبذلك تكونت أسرتان ظلتا تتنازعان على الإمارة وتتقاتلان بغية الانفراد بها إلى أن جاء عهد السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ ــ ٩٧٤ هـ) وما كان قد تبقى في حوزة أبناء هذه الأسرة سوى سنجق (مركه = مرجه) الذي كان يحكمه طفل يدعى (خضر بك) ابن الأمير (حسين بن سليمان بك) وبعد وفاة (خضر بك) هذا، انقرضت أسرة (سليمان بك) نهائياً[3].

---

[1]- كان مركزاً لمنطقة بين الري وطبرستان القديمتين (المؤلف). والظاهر أنه لا علاقة لهذا المركز المتطرف، البعيد، بالموضوع بل الصحيح إن الكلمة محرفة عن (لاهيجان) الواقعة بمنطقة صاوجبلاق التي فيها أيضاً موطن الزرزائية ــ المترجم.

[2]- كذا في الأصل، وعبارة شرفنامة هكذا، إنه أخذ سيوى ومشيا كرد من السوران وولاية سلدوز من القزلباشية... إلخ ــ المترجم.

[3]- يؤخذ من رواية (شرفنامة) هذه أن الأسرة البابانية الثانية قد انقرضت في أوائل القرن الحادي عشر الهجري. وأن الأسرة الثالثة قد وضح أمرها في أواخر القرن الحادي عشر الهجري على يد (فقيه أحمد). فينتج من هذا أن الفترة التي بين أسرة الأمير (سليمان) وبين أسرة (فقيه أحمد) تتراوح بين الستين والسبعين عاماً ــ المؤلف.

إمارة البابان الأخيرة

يقولون إن رجلاً يدعى (فقيه أحمد) هو الذي وضع أساس هذه الأسرة، وأنه كان سليلاً لأمراء السوران ومن عشيرة (نور الدين) إحدى بطون قبائل (بشدر = بزدر) الشهيرة. وهنالك بعض روايات محلية أخرى عن حياة هذا الرجل تلوكها الألسنة في محيط البشدريين، خلاصتها أن الفقيه أحمد تمكن من حشد أناس كثيرين حوله واتخذ لنفسه لقب (به به – بابا = أب) فعلا شأنه وزادت شوكته، ثم خلفه ابنه (سليمان بابا) وسلك مسلك أبيه في نشر لواء النهضة والتقدم حتى اعتبر بحق المؤسس البارز للإمارة، وكان يتمتع بقسط وافر من الذكاء والبسالة والحزم، وقد انتهز فرصة ضعف الإدارة في حكومة (أردلان) فانتزع منها بعض البلاد في عام ١١٠٦ للهجرة (١٦٩٤ م) ولكن لم يمض على ذلك عام واحد حتى دهمه جيش قوي من الأردلانيين والإيرانيين وهزمه شر هزيمة. مما اضطره إلى الالتجاء إلى استانبول، وبعد أن أقام بها فترة، عينه الباب العالي متصرفاً لـ (أدرنه) وقد توفي بها عام (١١١٥ هـ) وقد سقطت بعض البلاد البابانية بعد (سليمان بك) في قبضة عشيرة الزنكنة وبقي بعض الآخر في حوزة أبناء سليمان بك، بيد أن (بكر بك) أحد هؤلاء الأبناء قد تغلب على الجميع وانفرد بالإمارة فوسع حدودها حتى امتدت من نهر سيروان (ديالى) إلى نهر الزاب الصغير، والظاهر أن (بكر بك) كان يزمع الاستيلاء على (كركوك) أيضاً ولهذا السبب ساءت العلاقات بينه وبين الحكومة العثمانية التي جردت عليه جيش بغداد، الذي ظل يحاربه حتى قتل في المعركة وكان ذلك عام (١١٢٩ هـ) ودخلت البلاد البابانية في حكم الدولة المباشر خمس سنوات كاملة، تمكن خلالها (خانه باشا) ابن أخي (بكر بك) من توطيد العلاقات مع الدولة ورجالها في بغداد واستعادة حكم أسرته إلى البلاد البابانية وتولى إدارة دفة شؤونها عام (١١٣٤ هـ).

وقد صحب (خانه باشا) حسن باشا والي بغداد في الزحف إلى إيران وضم في مقابل ذلك إمارة أردلان إلى إمارته، وقد انحاز إلى (أشرف خان) الأفغاني في الحروب التي نشبت بينه وبين الجيش العثماني عام (١١٣٩ هـ) وكان سبباً في إلحاق الهزيمة بالجيش العثماني، وهكذا ضمن بقاء إمارة أردلان في حوزته وتحت حكمه حتى أوائل عهد (نادر شاه). وكان أخوه (خالد باشا) يحكم إمارة

البابان وقت ذاك. وقد صادف قيام النزاع ونشوب الحروب والقتال بين البابان والسوران، عهد (خالد باشا) الذي تمكن من اغتصاب (كويه = كويسنجق) من السورانيين.

وفي عام (١١٤٣ هـ) استرد (نادر شاه) إمارة (أردلان) من البابان وفي عام (١١٥٦ هـ) عين (سليم باشا بن بكر بك) أميراً للبابان في الوقت الذي كانت حكومة بغداد تحاول فيه إسناد إمارة البابان لسليمان باشا بن خالد باشا، وقد أدى كل هذا إلى امتشاق الحسام بين الفريقين مدة كبيرة من الزمن.

وقد توجه (سليمان باشا) والي بغداد في عام (١١٦٤ هـ) لمحاربة سليم باشا البابانى والتقيا على مقربة من شمالي بغداد ودارت بينهما رحى معارك دامية أسفرت عن انكسار (سليم باشا)، وعين (سليمان باشا البابانى) حاكماً للإمارة فحكمها أربعة عشر عاماً في جو مليء بالقلاقل والفتن كان يثيرها (محمد باشا بن خانه باشا) تارة، و (سليم بك بن بكر بك) تارة أخرى. وقد استمرت تلك القلاقل وتلك الفترات الصاخبة حتى تمكن والي بغداد في عام (١١٧٤ هـ) من هزيمة جيش (محمد باشا) على نهر (نارين) والقضاء عليه نهائياً. أما (سليم باشا بن بكر بك) فإنه لم يوفق قط في إغارته المتواصلة على بلاد البابان.

هذا، وبعد وفاة والي بغداد (سليمان باشا) اختلف (سليمان باشا) أمير البابان مع والي بغداد الجديد بسبب عدم سداد الأموال الأميرية المطلوبة، فزحف البابانى في عام (١١٧٥ هـ) بجيشه العرمرم إلى بغداد، فانبرى له جيش بغداد على مقربة من بلدة (كفرى) ونشب قتال بين الفريقين أسفر عن اندحار (سليمان باشا البابانى) فولى الأدبار إلى إيران وهنالك أسندت إليه حكومة الشاه منصب إمارة (أردلان)، وبعد ذلك بعامين استدعاه (عمر باشا) والي بغداد وأعاده إلى إمارة البابان فأحسن إدارتها وأوصل حدودها إلى (زهاو) و (رانيه) و (كويه). وكان ابنه (خالد بك) أو (علي بك) حاكماً لأردلان. ثم انتهى أمره بقتله بقلعة (قره جوالان) في عام (١١٧٨ هـ) وبعد زوال عهد (سليمان باشا البابانى) تولى أخوه (محمد بك) منصب الإمارة، وبعد فترة من حكمه اختلف مع أخيه (أحمد باشا) وفقد الثقة في حكومة بغداد فانشق عليها وحاربها ولكن جيش بغداد تغلب عليه وانتزع منه الإمارة التي أسندت إلى أخيه (أحمد باشا)، ولكن (محمد

باشا) كان قد لجأ إلى إيران. وما لبث أن عاد منها بجيش إيراني قوي واستولى على قلعة (جوالان) واتخذها قاعدة له. وفي عام (١١٩٧) للهجرة استرد (أحمد باشا) إمارة البابان بمساعدة الجيش الإيراني له، وحكمها فترة من الزمن وتوفي إلى رحمة الله عام ١١٩٣ هـ وهو في طريقه إلى بغداد مع جيشه فانتقل الحكم من بعده إلى أخيه (محمود باشا) الذي اندلع لهيب القلاقل والفتن في عهده، وقد انحاز إلى الإيرانيين وكان مصيره القضاء عليه في إيران وأسندت الإمارة من بعده إلى (إبراهيم باشا بن أحمد باشا) الذي تولى إدارتها بحزم وعزم، وأنشأ مدينة (السليمانية) ونقل إليها مركز الإمارة من قلعة (قرة جوالان) وكان ذلك في عام ١١٩٩ هـ (١٧٨٤). وفي عام ١٢٠٢ للهجرة تولى الإمارة (عثمان بك بن محمود باشا) واشترك بجيشه في الحركات التأديبية لعشائر المنتفك بجنوبي العراق، ولكن حكومة بغداد خالجها الشك في أمره وألقت القبض عليه وزجت به في أعماق السجن، وعينت مكانه (إبراهيم باشا بن محمود باشا) للمرة الثانية، ولكنه لم يحكم في هذه المرة أكثر من عام واحد، أسندت بعده الإمارة إلى (عبد الرحمن باشا بن محمود باشا) الذي كان جديرا بمنصب الإمارة، وقد عمر حكمه أربعة وعشرين عاما انقطع خلالها عن الحكم فترة وجيزة، وقد اصطدم مع جيش بغداد مرة في مضيق (بازيان) ومرة أخرى على مقربة من (كفرى)، ثم اشترك مع (حالت أفندي) وجيش الموصل في الزحف إلى بغداد وتأديب واليها (سليمان باشا) تنفيذا لأوامر الباب العالي فدحروا (سليمان باشا) على مقربة من بغداد واستولوا عليها. وسعى (عبد الرحمن باشا) سعيا حثيثا لتولي الأمور في (بغداد) ولكنه أخفق في مسعاه.

وقد انقضت أيام (عبد الرحمن باشا) في قلاقل وفتن وحروب كنتيجة حتمية للعداء والبغضاء الشديدين بين أفراد العائلة الواحدة، ولا سيما فيما بينه وبين ابن عمه (خالد باشا) الأمر الذي أفضى إلى خراب الدار والديار. ويؤخذ مما ورد في كتاب (غرائب الأثر) أنه في عصر هذا ا لأمير كان هجوم عشيرتين كرديتين من أكراد شهرزور وهما (زراري) و (لك) على عشائر ضفاف نهر (الخازر) وبطشهما بها ثم رجوعهما إلى (شهرزور) في سنة ١٢٠٩ هـ.

هذا وتولى الإمارة من بعد (عبد الرحمن باشا) ابنه (محمود باشا) في عام (١٢٢٨ هـ) وقد عزل بعد أربع سنوات من توليه الحكم من غير ما سبب

ظاهر، وخلفه (عبد الله باشا) إلا أن محمود باشا الذي كان قد لجأ إلى الإيرانيين قد أتى بجيش إيراني وكسر عبد الله باشا ودحر جيشه ولم يمكنه من الاستحواذ على الإمارة، وكان الدفتر داود أفندي – الشهير بداود باشا الكولامان – قد لجأ في عهد هذا الأمير إلى البابانيين هارباً من بطش والي بغداد وطالباً المساعدة للاستيلاء على (بغداد) فساعده الأمير بجيش من البابان تمكن به من استرداد (بغداد) من (سعيد باشا)، وصار والياً عليها. وقد استمرت العلاقات حسنة بين (محمود باشا الباباني) وبين (داود باشا) والي بغداد فترة من الزمن ثم عادت فساءت بعد ذلك فانحاز (محمود باشا) إلى الإيرانيين واستعان بهم على والي بغداد وبذلك حافظ على مركزه، ولما لجأ منافسه (عبد الله باشا) إلى الأمير (محمد علي ميرزا) حاكم (كرمانشاه) تحسنت العلاقات بين (محمود باشا) وبين العثمانيين مرة أخرى. إذ أرسل (داود باشا) جيشاً من بغداد لنجدة (محمود باشا) حينما زحف جيش إيراني إلى ولاية (شهرزور)، بيد أن الجيش العثماني قد انكسر أمام الجيش الإيراني وسقطت مدينة السليمانية في قبضة (عبد الله باشا) الذي صار أمير البابان المستقل بفضل تعضيد إيران له.

وبعد وفاة الأمير (محمد علي ميرزا) وعودة الجيش الإيراني إلى إيران، حشد (محمود باشا) قوة عسكرية هاجم بها (عبد الله باشا) وطرده من أرض البابان وبعد فترة وجيزة جردت بغداد جيشاً على (محمود باشا) بالسليمانية اضطره إلى مغادرتها، ولكن الاتفاق بين الدولتين العثمانية والإيرانية وتفاهمهما بشأن إدارة إمارة (البابان) أدى إلى إقرار تعيين (محمود باشا) أميراً للسليمانية والبابان. وعين (عبد الله باشا) حاكماً لبلدة (كويه = كويسنجق) عام (١١٣٩ هـ) وقد تولى الحكم من بعد (محمود باشا) أخوه (سليمان باشا) الذي دام عهده ثماني سنوات، وقد كان مبعث قلق لـ (محمود باشا)، في الكثير من الأحايين. وبعد وفاة (سليمان باشا) تولى إمارة البابان ابنه (أحمد باشا) الذي كان حازماً فعمل بجد ونشاط على إنهاض البلاد وتقدمها في مضمار العلم والعمران، فعمد أولاً وقبل كل شيء إلى وضع الأسس لتكوين جيش منظم يتولى الدفاع عن مصالح البلاد، ولولا تهديد عمه (محمود باشا) الدائم له – فضلاً عن استعانته بالقوة الإيرانية لمناوشته وإشغاله – لنجح في إتمام مشروعه كل النجاح، ومع

ذلك فقد تمكن من تنفيذ مشروعه ووضع أساس جيش البابان في عـــام (١٢٥٦ هـــ) وليس لدينا معلومات عن آخر عهد (أحمد باشا) تبين لنا عن أعمالـــه فـــي تلك الحقبة. وإن كان يقال إن هذا الأمير كان مستقلاً عن والي بغداد وأنه حيـــن حاصر بجيشه (كويسنجق) هاجمه كل من (كوز لكلي نجيب باشا) والي بغـداد و (عبد الله باشا) أخو (أحمد باشا) وضيقا عليه الخناق ولكنه كـــان مســتميتاً فـــي مقاومتهما لولا ما حدث أخيراً من انتشار روح التذمـــر واليـــأس بيـــن جنـــوده واضطراره إلى العودة إلى السليمانية والتوجه منها إلى (شهرزور) لإعداد جيـش جديد بها من الجاف[1] لمنازلة خصمه، وقبل أن يعود إلى السليمانية كان (نجيـــب باشا) قد استولى عليها فاضطر إزاء ذلك إلى اللجوء إلى إيران وهنالك توسط لـــه السفير العثماني فصدر عنه عفو سلطاني، وبذلك تمكن من السفر إلى استانبول.

وقد تولى الحكم في السليمانية بعد (أحمد باشا) هذا أخوه (عبـــد الله) متخـــذاً لنفسه لقب قائمقام، ثم خلفه في الحكم بنفس اللقب اللواء (إسماعيل باشـــا) ومنـــذ ذلك اليوم انتهت أيام الإمارة المستقلة وأصبحت تخضع للإدارة التركية المباشـــرة وكان ذلك في عام ١٢٦٧ هـــ (١٨٥١ م).

٢٥ ـ إمارة بانه

يقول صاحب (شرفنامه) أن هذه الإمارة كانت موجودة قبل الفتح الإســـلامي وأنها قبلت الإسلام ديناً لها طوعاً لا كرهاً، ولهذا لقب أمراؤها بلقـــب (اختيـــار الدين)، وكل ما لدينا من معلومات عن هذه الإمارة لا يعدو عهد (ميرزا بك بـــن مير محمد بك) الذي كان يحكم قلعتي (بيرويى)[2] و(شـــوبوه) ومكانـــهما قضـــاء

---

[1] - يتعرض تاريخ (هامر) في المجلد التاسع من الترجمة التركية في مبحث الصلح بين العثمـــانيين وإيـــران في عـــهد السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٩ هـــ، لذكر هذه العشيرة الكردية الكبيرة وقسمتها بين إيران والعثمانيين. فيقـــول إن قبيلتي (ضياء الدين) و (هاروني) من هذه العشيرة كانتا من حصة العثمانيين كما أن كتاب (منشآت صاري عبـد الله) يتعرض لهذا الموضع ويذكر (حاق) بدل كلمة (جاف)؟. ـــ المؤلف.

[2] - هكذا في الأصل الكردي ولكن عبارة (شرفنامة) تخالف هذا وتقول إن ولاية (بانه) هذه تتألف مـــن قلعتـــين وناحية فقط. فإحداهما (بيروز) والأخرى (شيوه) وأنها تقع بين ولايات أردلان ومكري وبابان. وأما الناحية فتدعى (بانه)، كما أن عبارته لا تفيد أن (سلطان علي بك) رئيس لعشيرة تدعى (تتليج) بل إنه موصـــوف بلفـــظ هـــو (غتليج) فليحرر ـــ المترجم.

(بانه) الحالية بإيران. وقد كان صهراً له (بيكه بك)، أمير أردلان على كريمتـــه، وكان هذا الزواج سبباً في وقوع الشقاق والعداء بينه وبين (سلطان علي) رئيـس عشيرة (تتليج)؟ الكردية الذي تغلب[1] على (ميرزا بك) أخيراً وطرده من الإمـارة وعين مكانه أخاه (قاتتمش). فاستعان (ميرزا بك) بحميه (نسيبه) علــى خصمــه واسترد إمارته منه وظل يحكمها بعد ذلك فترة من الزمن دون منازع.

ولما توفي (ميرزا بك) تولى الإمارة من بعده ابنه (بوداق بك) الذي كان لــه أخوان آخران من غير أمه يدعيان (محمد) و (أوغورلو) فنازعــاه فــي الحكـم واشتبكا معه في القتال حتى هزماه وأخرجاه من الإمارة.

فذهب (بوداق بك) إلى الشاه طهماسب، مستنجداً، فمد له الشاه يد المســاعدة لاسترداد إمارته. إلا أنه توفي إلى رحمة الله بعد فترة قليلة في (قزوين)، فعيــن الشاه (سليمان بك) أخا (بوداق بك) أميراً على البلاد ولكن الأمير (محمد) وأخــاه (أوغورلو) عملا على إثارة العشائر ضد (سليمان)، فأدى ذلك إلى قدوم جيـــش إيراني لنجدة الأمير وتوطيد أقدامه في البلاد، وقد عمر في الحكم عشرين عامــاً تقدمت البلاد خلالها تقدماً محسوساً، إذ كان الأمير على جانب عظيم من الدرايــة والعلم وحب المساواة والعدل يخاف الله ويتقيه في كافة تصرفاته وأعماله.

وقد زوج ابنته في أواخر أيامه من ابن أخيه (بدر بك)، ثم تنازل لـــه عــن الإمارة أيضاً وسافر هو إلى المدينة المنورة ولبث هناك يتعبد إلى جوار رســول الله عليه الصلاة والسلام إلى أن توفاه الله إلى رحمته. وكان (سليمان بك) هـــذا معاصراً[2] لـــ (شرفخان) البدليسي صاحب كتاب (شرفنامة) في تـــاريخ الكــرد وكردستان.

هذا ويذكر تاريخ عالم آرا (ص ٥٧٤) في وقائع ســـنة (١٠٢٧ هـــ) أن أميراً يدعى إسكندر سلطان كان حاكم (بانه) وكان في خدمة الشاه عبــاس الأول ثم عصاه أخيراً. وقد لحقت هذه الإمارة في عهد الأمير (بـــدر بــك) بحكومــة (أردلان).

---

[1] - تذكر دائرة المعارف الإسلامية هذا المبحث بصورة أخرى، ولكن رواية (شرفنامه) أقرب إلى الصحة ـــ المؤلف.

[2] - ليس في شرفنامه نص على ذلك ـــ المترجم.

ولقد مر المستشرق (ريج) في عام ١٢٢٦ للهجرة ببلدة (بانه) وقابل حاكمها (نور الله خان). هذا وكان آخر أمير في (بانه) من أسرة (اختيار الدين) هو (كريم خان) الذي قتله خادمه (يونس خان) وحل محله في حكم (بانه). ولكن لم يمض على ذلك طويل وقت حتى قتل (يونس خان) هذا، على يد ابن أخيه (فتاح بك) فانتقلت إمارة (بانه) إلى (حمه خان) ابن (يونس خان).

وقد لبث (حمه خان) هذا حاكماً على (بانه) حتى قبيل الحرب العالمية الأولى حيث اغتاله (إبراهيم البدليسي) رئيس القوة الحربية العثمانية بإيران عام (١٣٣٣ هـ). وهكذا انتهت أيام أسرة (يونس خان) أيضاً، وأصبحت (بانه) قضاء من أقضية لواء (سابلاخ = صاو جبلاق).

٢٦ ـ إمارة كلباخي

أسس هذه الإمارة (عباس أغاي استاجلو) بحصوله أولاً على بلدة (سرجاوة) بمنطقة (مريوان = مهروان) من (بيكه بك) حاكم (أردلان) ثم استيلائه بعد مدة على (بيلهور) من العشائر الكلهرية. ثم تمكن من جمع عشائر أخرى[١] حوله فقوى نفوذه وعلا شأنه فاعترف له الشاه طهماسب بإمارة (بيلهور).

وقد قبلت هذه الإمارة أخيراً الحماية العثمانية، فأضافت الدولة العثمانية إليها بلاد (شيخان) و (جاكاران) و (خور خورا) و (نيره زند) و (قلعة تبه) وبضعة بلاد أخرى. حيث جعل هذا الأمير منها كلها سنجقاً مستقلاً وأسنده إلى (علي خان) الكلباخي. ولما تولى (يار الله خان) شؤون هذه الإمارة عمل على توسيع حدودها وليس هنالك معلومات أخرى عن هذه الإمارة.

٢٧ ـ إمارة كلهر

يقول (شرفنامة) إن الحكام الكلهريين هم أحفاد (كيو بن كودرز)؛ وتنقسم هذه الأسرة الحاكمة إلى ثلاثة فروع[٢]:

---

[١]- مثل عشائر لك وسليماني و (مادكي - بادكي) وورمزيار ـــ المترجم.

[٢]- يقول الميجر (راولنسون) الذي زار زهاب سنة (١٨٣٦ م) في صدد الكلام عن الكلهر ما يلي: «يقول الكلهريون عن أنفسهم أن أصلهم يرجع إلى العصور العريقة في القدم وأنهم من نسل (رحام) الذي هو بختنصر

١ ــ نبلاء بلنكان.
٢ ــ نبلاء درتنك.
٣ ــ نبلاء ماهي دشت.

١- نبلاء بلنكان

كان الأمير الشهير (غيب الله بك) من فرع (بلنكان)، وكان يحكم بعض القلاع في (شهرزور) والبلاد القريبة منها. وعين بعده ابنه (محمد بك) من قبل الشاه طهماسب أميراً على البلاد، وقد نهض هذا الأمير بالبلاد نهضة علمية أفادت منها البلاد كثيراً. ولما صاهره الشاه طهماسب على ابنته، علا شأن البلاد وقويت شوكتها. وقد قسم الأمير (محمد بك) البلاد في حياته بين أولاده الأربعة، وبعد وفاته خلفه ابنه الأمير (إسكندر) وحكم البلاد عشرين عاماً وبعد (إسكندر بك) سقطت قلعة (بلنكان) في قبضة أمير (الدينور)[١] ثم صارت مقاطعة عثمانية.

٢- نبلاء درتنك

قامت هذه الإمارة بمنطقة (حلوان) القديمة، وكان مركزها قلعة (درتنك)، والمعروف من أمرائها كما يأتي: وأولهم هو (زوراب = سهراب بك) الذي اكتسب شهرة في البسالة والسخاء والكرم، واتسعت في عهده حدود الإمارة.

ثم خلفه ابنه (عمر بك) الذي خضع للسلطان (سليمان القانوني) وقبل حمايته، ثم جاء من بعده ابنه (قباد بك) الذي تولى الحكم وعمل بجد ونشاط على

الشهير الذي اجتاح فلسطين ونقل يهوداً يبلغ عددهم ٤٠ ــ ٥٠ ألفاً تقريباً إلى جبال (زاغروس) وأسكنهم فيها؛ والظاهر أن أفراد هذه العشيرة هم أحفاد هؤلاء المهاجرين المنفيين. لأن كثيراً من أسماء الأعلام فيهم تشبه أسماء اليهود، ولأنهم من جهة أخرى يعتقدون أن (داود) عليه السلام هو النبي المختص بهم مع كونهم مسلمين من (العلي إلهيين)».

وأرى أن هذا غير صحيح لأنه إذا كان هنالك بعض دلائل على هجرة اليهود ونفيهم إلى تلك الجهات، فذلك يدل على أن هؤلاء الكلهريين أي أجدادهم اقتبسوا من عادات وتقاليد اليهود بحكم الجوار والاختلاط، ولكن ليسوا أحفاد هؤلاء الدخلاء على البلاد. ومع ذلك فإن التاريخ يقول إن (كيروس = كيخسرو) بعد أن فتح (بابل) وضمها إلى إمبراطوريته أعاد اليهود المبعدين إلى بلادهم فلسطين. وليس من البعيد أن يكون الكلهريون أحفاد (رحام بن كودرز) الذي أشارت إليه الشاهنامه أو (كودرز) أحد ملوك الأشكان الذي حارب (مهراداد) حاكم (أرمينية). ــ المؤلف.

(ملحوظة): كان هنا في الأصل بحث الحكومة العنانية فنقل إلى باب الحكومات كما سبق ذكرها ــ المترجم.

[١]- هو (سولاغ حسين تكلو) حاكم الدينور من قبل الشاه إسماعيل.

إنهاض البلاد وتقدمها حتى اتسعت حدودها وامتد سلطانها حتى (الدينور) و (بغداد)، وكان على جانب عظيم من الذكاء والقوة ورفعة الشأن، وكان معاصراً للأمير (شرفخان البدليسي) صاحب (شرفنامه)[1].

٣ ـ نبلاء ماهي دشت (مايدشت)

قامت هذه الإمارة في بلدة (بيلەور)[2]، وكان المدعو (منصور بك) هو أميرها في عهد (شرفخان) الشهير.

هـ ـ إمارات إيران الشرقية (٢٨ ـ ٣٠)

تقول (دائرة المعارف الإسلامية) إن العشائر الكردية الإيرانية الأساسية كانت تتألف من ثلاثة أقسام: (سياه منصور) و (جكني) و (زنكنه) نسبة إلى أجدادهم الذين كانوا ثلاثة أخوة قدموا من لرستان. وفضلاً عن هذا، فإن هذا المصدر يضيف إلى ذلك بحثه في المجلد الرابع عن عشيرة (شبانكاره) وإمارتها الشهيرة التي قامت في فارس وكرمان وفيما يلي موجز لهذه الإمارات:

٢٨ ـ إمارة سياه منصور

يقول صاحب (شرفنامة) إن هذه الإمارة تم تأسيسها في عهد الشاه طهماسب، حيث استدعا إلى بلاطه أميراً من فرع (سياه منصور) يدعى (خليل بك) ومنحه لقب (خان) سنة (٩٦٠ هـ)، وأسند إليه منصب أمير أمراء جميع أكراد إيران. فنفذ حكمه في أربع وعشرين عشيرة كردية، علاوة على عشيرته (سياه منصور)، كما أقطعه الكثير من البلاد والأراضي فيما بين العراق وآذربيجان، وكان يعسكر بمعية هذا الأمير، بصفة دائمة، حوالي ثلاثة آلاف فارس وهو مقيم بين (قزوين) و (تبريز) للمحافظة على الثغور والحدود في تلك الجهات، وبعد ثلاث سنوات أخذ نفوذ (خليل بك) يتضاءل رويداً رويداً وبدأت تتحرك علائم الفتن والقلاقل، مما حمل الشاه و (سلطان محمد) على إبعاد (خليل بك) إلى (خراسان). حيث انحصرت سلطته في عشيرته (سياه منصور) فقط،

---

[1] - حيث يقول إنه كان يحكم قلاع (باوه، باسكه، آلاني، زنجير، روانسر، دوان، زرمانيكي.

[2] - وفي مكان آخر في شرفنامة (تيله رو) بالتاء ــ المترجم.

وأخيراً عين محافظاً لحدود (خراسان). وقد خلف (خليل بك) في منصبه ابنه (دولتيار خان) الذي عينه الشاه فيما بعد محافظاً لحدود (آذربيجان)، فقام بتنفيذ إصلاحات عظيمة في تلك النواحي، ثم شق عصا الطاعة على الحكومة فدهمه جيش إيراني بقيادة (مرشد قوليخان شاملو) وحاصره في قلعة (شبستان)، ولكن (دولتيار خان) خرج من القلعة ذات يوم فجأة وباغت الجيش الإيراني بهجوم عنيف فألحق به هزيمة منكرة وشتت شمله شذر مذر، بعد أن قتل الكثيرين من القزلباش ونهب أموالهم وأثقالهم وقد طمع (دولتيار خان) بعد هذا النصر المؤزر في ولاية العراق[1]، لكن الشاه (عباس) قابله بجيش عرمرم بقيادة (مهدي قلي سلطان) فما كان من (دولتيار خان) إلا أن استسلم للشاه دون قتال فأخذه الشاه وسجنه مع أتباعه ثم ما لبث أن قضى عليهم جميعاً القضاء المبرم. ويلوح أنه لم يبق بعد ذلك أحد من هذه العائلة في الوجود، وانتهت أيام هذه الإمارة أيضاً كسائر الإمارات الكردية الأخرى.

٢٩ ـ إمارة جكني

يقول (شرفنامة) ان عشيرة (جنكي) هذه كانت وما زالت ذائعة الصيت بالإقدام والبسالة بين العشائر الكردية الإيرانية، ولكن حرمانها من رئيس فعلي لزعامتها قد أدى إلى تشتتها فيما بين (العراق) و(آذربيجان) وإمعانها في النهب والسلب، فضج أهالي تلك البلاد بالشكوى والتذمر من تصرفات هذه العشيرة ورفعوا شكايتهم إلى الشاه (طهماسب) الذي أصدر أمره بمطاردتهم في جميع الأنحاء والقضاء عليهم أينما كانوا، وقد تمكنت خمسمائة[2] أسرة من اللجوء إلى (خراسان) والاستيطان بها.. وكان يحكم (هرات) وقتذاك (قزاق خان تكلو) الذي كان يهاب الشاه (طهماسب) ويخشاه، فانتهز الفرصة وبسط حمايته على هذه العشيرة المنكوبة وأسكنها في (غرجستان) بين هرات وكابل. ولما علم الشاه (طهماسب) بذلك غير رأيه في هذه العشيرة وشملها بعطفه وأسند أمورها إلى

---

[1]- إحدى ولايات إيران الإدارية ولعلها (العراق العجمي = الجبل) - المترجم.

[2]- في شرفنامة، خمسمائة نفر من الأعيان والرؤساء وغير ذلك من التفاصيل.. ـــ المترجم.

(ملحوظة): كان في الأصل هنا مبحث حكومة الشبانكارة فنقل في الترتيب الجديد إلى الباب الأول في مبحث الحكومات ـــ المترجم.

أمير جكني يدعى (بوداق بك)، فسعى هذا الأمير وأعـــاد هــذه العشــيرة إلـــى (خراسان) وأسكنها فيها تحت إمرة الشاه وسلطانه.

ولقد أسدى (بوداق بك) وعشيرته خدمات جلى للشاه (عباس) في حربه مـــع (عبد المؤمن خان) حاكم (أزبك) في سنة (١٠٠١ هـــ) وكافأه الشـــاه ــ نظـــير ذلك ــ مكافأة مجزية، بأن عينه هو وخمسة من أبنائه قواداً في الجيش الإيرانـــي مع إسناد منصب أمير الأمراء إلى (بوادق بك) نفسه. ويقول (شرفنامه) أن هـــذا الأمير كان معاصراً لشرفخان البدليسي نفسه حيث كان في مقدمة رجال الشـــاه (عباس). ومن دواعي الأسف أنه ليس لدينا معلومات عن نهاية هـــذه الإمـــارة الكردية وعشيرتها.

٣٠ـ إمارة زنكنه

يروي لنا (شرفنامة) أن هذه الإمارة كانت معروفة ومشهورة حتـــى عـــهد الشاه (إسماعيل الأول)، ثم انقرضت الأسرة الحاكمة، مما اضطر أفراد العشـــيرة وبعض رجالها البارزين إلى الانخراط في سلك الحرس الشاهاني وسائر رجـــال الدولة الصفوية.

و ـ إمارتا خراسان (١ ـ ٢)

٣١ـ إمارة قوجان

قلنا في المجلد الأول من هذا الكتاب في مبحث جغرافية كردستان أن عشائر كردية تقيم في خراسان أيضاً. ويذكر (Hon-gearge N. Curzan) فـــي رحلتـــه (إيران) بصدد البحث عن هذه العشائر الكردية ما يلي: نقل الشاه (عباس الكبـــير) بعض العشائر الكردية القاطنة في شمال غربي إيران إلى خراســـان للاعتمـــاد عليهم في المحافظة على حدود إيران الشمالية الشرقية ضد إغارات التركمـــان، وهذه العشائر هي (شاهدللو) و (زعفرانلو) و (كـــيروانلو) و (أمـــانلو) ويقـــول صاحب رسالة (غربي إيران وعشائره ورجاله) أن تعداد عشيرة الزعفرانلو فقـــط كان يبلغ ٤٠ ألف أسرة، وفرع من هؤلاء كان يبلـــغ عددهـــم ثمانمائـــة أســـرة مقيمون في قضاء (جناران) كما أن عشيرة شادنلو بحسب تعداد سنة ١٩٠٨ كان

عددها (٢٨٠٠ أسرة) ص ١٣٠ ــ ١٣٢)، وأقامت غالبية هذه العشائر في منطقة (قوجان). أما فرقة (شادانلو) فأقامت في جهة (بوجنورد) وكانت لعشائر (قوجان) إمارة شبه مستقلة إذ كانت تتمتع بالحرية الكاملة في أمورها الداخلية، وكان لها قانونها الخاص ومحاكمها الخاصة ولم يكن لها أدنى ارتباط إداري بالحكومة المركزية اللهم إلا دفع مال سنوي مقرر لها. وقد أراد (نادر شاه) في وقت ما أن يخضع هذه الإمارة لسلطة الحكومة الإيرانية المباشرة. وتمهيداً لذلك تزوج بكريمة أمير العشيرة (إيلخان) ولكن لم يجده ذلك نفعاً.

وأخيراً اضطر في أواخر عهده إلى الزحف بجيش لجب نحو (خراسان) لإخضاع هذه الإمارة لسلطانه، ولكنه ما كاد يصل إلى واجهة قلعة (قوجان) ويعسكر بجنده حتى سطا عليه ليلاً أحد الفدائيين وقطع رأسه في فراشه في سنة (١٧٤٧ م). وفي عهد القاجاريين أيضاً زحف الشاه (فتحعلي خان) عليهم ونازلهم في بلادهم ولم يتمكن منهم فاضطر لإبرام الصلح معهم.

وفي سنة (١٨٣٢ م) زحف عباس ميرزا (الأمير عباس) إلى قوجان واستولى عليها عنوة، بفضل مساعدة ضباط إنجليز كانوا يقودون المدفعية. وقد أسر (عباس ميرزا) أمير العشيرة (رضا قليخان) وأصحبه معه إلى (طهران) ثم أرسل منها إلى (تبريز) وهنالك أعدم وعين بدله ابنه (سام خان) ايلخاناً.

وفي سنة (١٨٨٦) وهي السنة التي قام فيها المستر (كرزون) برحلته إلى إيران كان الإيلخان هو أمير الأمراء (شجاع الدولة الأمير حسين خان) الذي ثار على الحكومة في وقت ما وعزل من منصبه ثم عاد أخيراً واتفق معها وتوطدت العلاقات بينهما، وكان على جانب كبير من الحزم والعزم وقوة النفوذ، هذا وكانت إمارة (قوجان) هذه غنية وقوية على العكس من إمارة (بخباورد = بجنورد).

٣٢ ـ إمارة بجنورد

كانت هذه الإمارة ضعيفة، وكان يخضع لها بعض العشائر التركمانية، وكان لفظ (إيلخان) لقب أمرائها الرسمي، وتقدر (دائرة المعارف البريطانية) عدد الأكراد في تلك الإمارة وقتذاك بمائتين وخمسين ألف نسمة.

ز - إمارات جبل لبنان (١ - ٣)

يؤخذ من كتاب (أخبار الأعيان في جبل لبنان)[1] أن هناك عدة إمارات صغيرة أسسها الكرد في أنحاء جبل لبنان نذكر منها ما يلي:

٣٣ - مشايخ العماديين الدروز

هاجر جد هؤلاء العماديين وكان يدعى (عماد) من العمادية التي بولاية الموصل، إلى الجبل الأعلى وسكن قرية (مرطحون) ثم انتقل منها إلى قرية (تلينا) وبعد مدة رحل إلى منطقة (العرقوب) وأقام بقرية (الزنبقية) وأخيراً اشتبك هو وأتباعه مع أسرة (جانبلاط) الشهيرة في النزاع، قتل من رجال هذه الأسرة الأخيرة عدد غير قليل فاضطر العماديون بعد ذلك إلى الهجرة إلى عين (وزيه) ثم إلى (الباروك) حيث توفي (عماد) فيها إلى رحمة الله عن أربعة أولاد ذكور. ولكن رئاسة العائلة انتقلت إلى أخيه (سرحال) وقد قتل أخيراً (غضبان) الابن الصغير لعماد مع الأمير علي فخر الدين المعني في المعركة التي قام بها أحمد باشا الصغير في خان (حاصبيا) ضد الجبل، كما أن أخوانه الآخرين قضوا نحبهم أخيراً إما في ساحة الوغى وإما حتف أنفهم.

وفي سنة (١٦٩٠) م نصب أحمد باشا الكوريلي الشيخ (سرحال) حفيد عماد حاكماً للشوف بدل الأمراء المعنيين، الأمر الذي أفضى إلى قتله مع هؤلاء العماديين واستئصالهم من قبل المعنيين وأنصارهم وعلى رأسهم الأمير أحمد المعني، ولكن واحداً منهم تمكن من الاختفاء مدة تحت اسم مستعار حيث حافظ على تسلسل الأسرة ودوامها مدة غير قليلة. وممن اشتهر من هذه الأسرة بعد هذه الحوادث (قاسم بن الشيخ عبد السلام العماد) الذي كان في غاية من الذكاء والنشاط فاشتبك مع الشيخ علي الجانبلاطي سنة ١٧٨٨ في النضال والمشاحنات التي أدت أخيراً إلى انقسام أهالي تلك النواحي إلى معسكرين يرأس أحدهما (اليزبكيون) الذين كانوا مؤلفين من جماعات بني عماد وبني تلحوق وبني عبد الملك. ويرأس الثاني (الجانبلاطيون). وفي سنة (١٧٩٣) أمر الأمير قعدان الشهابي مشايخ العماديين والنكديين بالزحف إلى الجانبلاطيين فقاموا بالمهمة

---

[1] - لمؤلفه الشيخ طنوس بن يوسف الشدياق، طبع ببيروت سنة ١٨٥٩.

خير قيام وهكذا اشتركوا في أغلب حوادث لبنان البارزة حينذاك، كما أن الشيخ (خطار) من أحفاد العماديين أراد الذهاب بمعيته البالغة ثلاثمائة جندي، مع الأمير أمين آرسلان إلى أرضروم للاشتراك في جهاد الروس وحربهم سنة (١٨٥٤) ولكن شخوص الأمير إلى استانبول حينئذ، حمل الشيخ خطار إلى العودة إلى الجبل (ص ١٦١ فصل ١٦).

٣٤ ـ أمراء بني سيفا الأكراد

هؤلاء الأمراء من أحفاد المقدم جمال الدين سيفا، كانوا متوطنين في جهات طرابلس والعكار وحصن الأكراد وكانوا حكاماً على المنطقة الواقعة بين نهري الكلب وإبراهيم. ولما قام نزاع في سنة (١٥٢٨) م بين بني شعيب حكام طرابلس وبين بني سيفا الذين اضطروا نتيجة لهذا إلى الرحيل إلى الباروك ونالوا تعضيداً من آل العساف والمعنيين فهاجموا الشعيبيين وانتزعوا منهم العكار وأقاموا بها. وقد تولى رئيسهم (يوسف باشا) ردحاً من الزمن منصب حاكم طرابلس، بيد أن علاقاته مع الدولة العثمانية قد ساءت أخيراً فاضطر لترك المنصب والرحيل إلى برية الشام. وفي سنة (١٥٩٠ م) ظهر فجأة على رأس قوة باغت بها العسافيين وقتل أميرهم محمداً. وفي سنة (١٦٠٢ م) استولى على بعلبك ونهبها وأخربها ثم عاد إلى طرابلس. وفي سنة (١٦٠٥) تفاهم مع حاكم حلب (علي باشا جانبلاط) ولم يمض على ذلك سنتان إلا وتفاقم الشر بينهما فاقتتلا وقامت معركة بينهما في (حماة) غلب فيها (يوسف باشا) على أمره ولجأ إلى دمشق، غير أن خصمه علي باشا قد ضيق عليه هنالك أيضاً بواسطة حليفه الأمير فخر الدين المعني. وأخيراً تفاهم مع خصمه على أن يعود إلى حصن الأكراد والاكتفاء بها. ولما شق (علي باشا جانبلاط) عصا الطاعة على الدولة، بادر (يوسف باشا) بأمر منها بالزحف على خصمه الثائر واشترك في تأديبه حتى سقطت حلب في أيدي رجال القوة التأديبية وعاد يوسف باشا بعد ذلك إلى العكار.

وفي سنة (١٦١٨) اتفق كل من عمر باشا والي طرابلس والأمير فخر الدين المعني في الزحف إلى يوسف باشا. وحاصراه في قلعة الحصن ولم يمض على ذلك وقت طويل إلا وعفت الدولة عن يوسف باشا وأسندت إليه منصب حاكم

طرابلس. كما أن عمر بك من بني سيفا أيضاً تعين حاكماً لحمص. وفي سنة (١٦٢٤) توفي يوسف باشا بطرابلس. وكان رحمه الله في غاية من البسالة والصبر على القتال وهو أول باشا تعين لأيالة طرابلس متصرفاً. وقد تولى بعده من أبنائه السبعة (قاسم) منصب طرابلس بدل أبيه والأمير (محمود) كان حاكماً لحصن الأكراد والأمير (بلك) كان حاكم العكار. ولما عين والي طرابلس، أخيراً، الأمير سليمان ابن أخي يوسف باشا المرحوم حاكماً للعكار لم يسع أبناء عمومته إلا الرحيل إلى الحصن.

وفي سنة (١٦٢٥) استولى الأمير قاسم بن يوسف باشا على قلعة (المرقب) ثم أخذوا الحصن حيث حصل التفاهم بينهم وبين الأمير فخر الدين المعني على ذلك. ولقد كوفىء آل سيفا بإسناد منصب طرابلس إليهم نتيجة لاشتراكهم في الحملة التأديبية التي ساقتها الدولة بقيادة أحمد باشا الصغير سنة (١٦٣٣) على الأمير فخر الدين. وفي سنة (١٦٣٤) نال قاسم باشا رتبة الميرميران وتعين لمنصب حاكم طرابلس على أن يستعد للاشتراك في حرب إيران التي كانت اندلعت نارها حينذاك، ولكنه لم يتمكن من ذلك.

وبعد مدة حل محله ابن أخيه الأمير علي الذي هاجمه أخيراً عمه الأمير عساف واضطره إلى الالتجاء إلى بيروت. ولقد دام النزاع بين العم وابن أخيه مدة. وفي سنة (١٦٣٥) تعين (نشانجي مصطفى باشا) متصرفاً لسنجق طرابلس فرأى من حسن السياسة أن يسند الحكم في بلاد الجبل والبترون والضنية إلى الأمير (علي) وفي بلاد العكار والحصن والصافيتا إلى أقربائه، كما أنه سلم منصب الإيالة إلى الأمير (عساف) حينما كلف هو بقيادة الجيوش العثمانية في حرب إيران وقد ساد الوئام بين الأمير علي والأمير عساف حيناً من الدهر، غير أن الخلاف عاد كما كان سابقاً على أشده ونشب القتال بينهما مدة من الزمن حتى ضج الناس والحكومة من جراء ذلك. ولما تعين شاهين باشا متصرفاً لأيالة طرابلس بادر إلى قتل الأمير عساف وعمل على قطع دابر هذه الأسرة حيث عهد إلى الأمير إسماعيل الكردي والشيخ علي حمادة من رجاله بهذه المهمة فقاما بها بكل قوة وشدة ولم يتركا أحداً في طرابلس منهم. وكان ذلك سنة (١٦٤٠ م). اهـ من (ص ٣٤٩ ـ ٣٥٨).

٣٥ - أمراء رأس نحاشى الأكراد

هؤلاء الناس من الأكراد الذين أسكنهم السلطان سليم العثماني سنة (١٥٥٨ م) في مقاطعة الكورة بجبل لبنان لحماية الجبل وحراسته من الإفرنج. ومن المعلوم أن شاهين باشا متصرف أيالة طرابلس قد ندب لإبادة أسرة آل سيفا كلاً من الأمير إسماعيل ابن الأمير موسى والشيخ علي حمادة في سنة (١٦٢٧).

وقد استخدم محمد باشا الكوبريلي الأمير إسماعيل هذا في سنة (١٦٥٤) غير أنه غضب عليه وساق عليه جيشاً لتأديبه في السنة التالية فلم يتمكن الأمير إسماعيل من الصمود ولجأ إلى الأمير (أحمد المعني) الذي بادر إلى تعيينه حاكماً لمدينة (صور). وفي سنة (١٦٦٠) تظاهرت الحكومة بالرضا عنه فأعطته المواثيق بالأمان حتى حضر إلى طرابلس وقضي عليه هنالك بأمر من محمد باشا.

هذا وفي عهد الصدر الأعظم (علي باشا) كان قد نصب الأمير صعب ابن حسين من هذه الأسرة، حاكماً لقضاء الجبيل إلا أن أيامه لم تدم كثيراً حيث قتل هو وأقرباؤه عن آخرهم في هجمة مباغتة قام بها العماديون.

اهـ من (ص ١٦٤ ــ ١٦٥).

الفهرس

ترجمة العلامة المفضال معالي محمد أمين زكي ٥
ترجمة أحوال المرحوم محمد علي عوني ٩
مقدمة المترجم ١٥
مقدمة في حكومات الشعوب القديمة ١٩
١ - حكومة لوللو - لولي ٢٠
٢ - حكومة الجوتي (الكوتي - الجودي) ٢١
٣ - حكومة الكاسيين (كسو - كشو) ٢٢
٤ - حكومة الميتاني ٢٧
٥ - الحكومة الخلدية (أورارتو) ٢٨
٦ - الحكومة السوبرية ٢٩
٧ - الحكومات النايرية - النهرية ٢٩
٨ - الحكومة الميدية ٢٩
أعمال أخسار الحربية ٣٢
الباب الأول: في الحكومات الكردية في العهد الإسلامي ٣٩
الفصل الأول: الحكومة الروادية ٤١
أسر السالار مرزبان ونجاته ٤٦
ابراهيم السالار ٥٢
واهسوذان الثاني ٥٣
الأمير أحمديل ٥٦
آق سنقر الأحمديلي ٥٧
آق سنقر الثاني ٥٨
الفصل الثاني: الحكومة السالارية بآذربيجان ٦٣

الفصل الثالث: الحكومة الحسنويئية بهمذان ٧٣
حسنويه ٧٣
أبو النجم ناصر الدولة بدر ٧٦
سياسته المالية ٨٤
مميزاته الشخصية ٨٥
أ الفصل الرابع: الحكومة الشدادية بأران ٨٩
الفصل الخامس: الحكومة الدوستكية والمروانية بديار بكر ٩٣
أ - الدوستكية ٩٣
ب - المروانية ٩٨
أبو سعيد المنصور ممهد الدولة ١٠١
الملك العادل نصر الدولة أحمد ١٠٣
قاسم أبو ناصر ١١٤
منصور ١١٤
الفصل السادس: حكومة بني عنان في حلوان ١١٧
الفصل السابع: حكومة الشبانكاره (شوانكاره) بفارس ١٢١
الفصل الثامن: حكومة أتابكية اللر الكبير أو الحكومة الفضلونية ١٢٥
١ - ابو طاهر محمد ١٢٥
٢ - أتابك هزار أسب ١٢٦
٣ - أتابك تيكله ١٢٧
٤ - أتابك شمس الدين آلب أرغون ١٢٩
٥ - أتابك يوسف شاه ١٣٠
٦ - أتابك أفراسياب ١٣١
٧ - أتابك نصرة الدين أحمد ١٣٢
٨ - أتابك ركن الدين يوسف شاه الثاني ١٣٣
٩ - مظفر الدين أفراسياب الثاني ١٣٣
١٠ - نور الودود ١٣٣

١١ - شمس الدين بشنك ١٣٤
١٢ - بير أحمد ١٣٤
١٣ - أبو سعيد ١٣٥
١٤ - الشاه حسين ١٣٥
١٥ - غياث الدين كاوس ١٣٥
ملحوظة ١٣٥

الفصل التاسع: حكومة اللر الصغير أو الأسرة الخورشيدية ١٣٧
١ - شجاع الدين خورشيد ١٣٨
٢ - أتابك سيف الدين رستم ١٣٩
٣ - شرف الدين أبو بكر ١٣٩
٤ - عز الدين كرشاسب ١٣٩
٥ - حسام الدين خليل ١٤٠
٦ - بدر الدين مسعود ١٤٠
٧ - تاج الدين شاه ١٤١
٨ - فلك الدين وعز الدين ١٤١
٩ - جمال الدين خضر ١٤١
١٠ - حسام الدين عمر ١٤٢
١١ - صمصام الدين محمود ١٤٢
١٢ - عز الدين أحمد ١٤٢
١٣ - دولت خاتون ١٤٣
١٤ - عز الدين حسين ١٤٣
١٥ - شجاع الدين محمود ١٤٣
١٦ - الملك عز الدين بن شجاع الدين ١٤٣
١٧ - الملك سيد أحمد ١٤٤
١٨ - شاه حسين ١٤٤
١٩ - شاه رستم ١٤٤
٢٠ - أوغوز خان ١٤٥

٢١ - جهانكير ١٤٥
٢٢ - شاه رستم الثاني ١٤٦
٢٣ - شاه ويردي ١٤٨
ملحوظة ١٥٠
الفصل العاشر : الحكومات الأيوبية ١٥١
١ - من هو مؤسس هذه الحكومات ومن أين قدموا ١٥١
٢ - كيف تقدموا ١٥٢
٣ - نشأة الأمير صلاح الدين ١٥٤
٤ - سفره الأول إلى مصر ١٥٦
٥ - صلاح الدين يسافر إلى مصر للمرة الثانية ١٥٧
٦ - سفره الثالث إلى مصر ١٥٩
٧ - وزارة الأمير صلاح الدين ١٦٠
٨ - بعد وفاة السلطان نور الدين ١٦٦
٩ - عهد السلطنة ١٧٢
١٠ - السلطان صلاح الدين والصليبيون ١٨٠
١١ - اتصال السلطان بالجيش الانجليزي ١٩١
١٢ - وفاة السلطان صلاح الدين ١٩٨
١٣ - صفاته العالية وخصاله الحميدة ١٩٩
١٤ - آثاره العمرانية والمدنية ٢٠٤
١٥ - أنجال السلطان صلاح الدين ٢٠٦
الملك الأفضل، والملك العزيز، والملك العادل ٢٠٧
١ - سلطنة الملك العادل ٢٠٩
٢ - صفاته ومزاياه ٢١١
١ - سلطنة الملك الكامل ٢١١
٢ - صفاته ومزاياه ٢١٥
الملك العادل الثاني ٢١٥
١ - الملك الصالح نجم الدين أيوب ٢١٨

٢ - أهدافه وآثاره ٢٢٣
عهد سلطنة تورانشاه ٢٢٣
١ - نهاية حكومة الأيوبيين بمصر ٢٢٦
٢ - الحكومة الأيوبية بحلب ٢٢٧
٣ - الحكومة الأيوبية في الشام ٢٣٠
٤ - الحكومة الأيوبية بحماة ٢٣٢
٥ - الإمارة الأيوبية في حمص ٢٣٢
٦ - الإمارة الأيوبية باليمن ٢٣٣
٧ - الحكومة الأيوبية بالجزيرة ٢٣٤
نظرة عامة ٢٣٤
الفصل الحادي عشر: حكومة بني أردلان ٢٣٧
الفصل الثاني عشر: حكومة ملوك الكرد - الكرت ٢٤٩
الفصل الثالث عشر: الحكومة الزندية ٢٥١
١ - عهد كريم خان ٢٥٣
أخلاقه وسجاياه ٢٦٣
الحالة بعد وفاة كريم خان ٢٦٦
٢ - عهد لطف علي خان ٢٧٨
نظرة عامة في أحوال هذه الحكومة ٢٩٧
الفصل الرابع عشر: حكومة الإمارة البرخوئية ٣٠١
الباب الثاني: في الإمارات الكردية في العهد الإسلامي ٣٠٥
أ - إمارات ما بين الجزيرة ودرسم ٣٠٨
١ - إمارة الجزيرة ٣٠٨
٢ - إمارة خيزان ٣١٠
٣ - إمارة شيروان ٣١٠
٤ - إمارة بدليس (بيتليس) ٣١١

٥ - إمارة صاصون ٣١٢
٦ - إمارة السويدية ٣١٣
٧ - إمارة البازوكيين ٣١٣
٨ - إمارة مرده سي (مرداسي - مرديسي) ٣١٤
٩ - إمارة جمشكزك ٣١٤
ب - الإمارات الكردية فيما بين الجزيرة وكلس ٣١٥
١٠ - إمارة حصن كيف ٣١٥
١١ - إمارة سليماني - سليفاني ٣١٦
١٢ - إمارة زراكي (زريكي - زرقي) ٣١٧
١٣ - إمارة كلس واعزاز ٣١٨
ج - إمارات ما بين الجزيرة وخوي ٣٢٢
١٤ - إمارة الحكارية - الهكارية ٣٢٢
١٥ - إمارة المحمودي ٣٢٣
١٦ - إمارة بنيانيش ٣٢٤
١٧ - إمارة الدنبلي - الدنابلة ٣٢٤
١٨ - إمارة برادوست ٣٢٨
١٩ - إمارة مكري ٣٢٩
٢٠ - إمارة استوني ٣٣٠
د - المجموعة الحكارية الجنوبية ٣٣١
٢١ - إمارة البادينان (بهادينان) ٣٣١
٢٢ - إمارة داسني ٣٣٦
٢٣ - إمارة السوران - السهران ٣٣٧
حكومة محمد باشا كوره - الباشا الأعمى ٣٤٢
٢٤ - إمارة البابان ٣٤٩
إمارة البابان الأخيرة ٣٥١
٢٥ - إمارة بانه ٣٥٥

٢٦ - إمارة كلباخي ٣٥٧
٢٧ - إمارة كلهر ٣٥٧

هـ - إمارات إيران الشرقية ٣٥٩
٢٨ - إمارة سياه منصور ٣٥٩
٢٩ - إمارة جكني ٣٦٠
٣٠ - امارة زنكنة ٣٦١

و - إمارتا خراسان ٣٦١
٣١ - إمارة قوجان ٣٦١
٣٢ - إمارة بجنورد ٣٦٢
ز - إمارات جبل لبنان ٣٦٣
٣٣ - مشايخ العماديين الدروز ٣٦٣
٣٤ - أمراء بني سيفا الأكراد ٣٦٤
٣٥ - أمراء رأس نحاشى الأكراد ٣٦٦

محمد أمين زكي بك

خلاصة تاريخ كرد وكردستان

الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي

لما زالت كلمة "العثماني" العامة من الوجود في تركيا، وحلت محلها كلمتا التركي والطوراني. شعرت أنا أيضاً بطبيعة الحال- كسائر أفراد العناصر العثمانية غير التركية - شعوراً قوياً بقوميتي المستقلة عن الترك. فحملني ذلك على إظهار الشعور القومي الفياض والإحساس بالعاطفة الوطنية القوية.

بيد أني لم أكن أعرف شيئاً عن منشأ القوم الذين أنتسب إليهم، إذ لم يكن قد عرضت لي قط، فكرة البحث والتنقيب عن التاريخ القومي الكردي لغاية ذلك العهد، لا في أثناء دراستي ولا فيما بعد ذلك.

وما ذلك إلا لأن كلمة "العثماني" الشاملة لجميع العناصر والشعوب الخاضعة للدولة العثمانية، كانت قد خدرت نوعاً ما، أعصاب كل واحد منا نحن القوميات الأخرى. فكنت أسأل نفسي الحين بعد الحين:

إلى أية سلالة ينتمي الشعب الكردي؟ وما مآثره وتاريخه؟ ولكني ما كنت أستطيع الجواب عن هذا السؤال جواباً أطمئن إليه. فاضطررت لأن ألقيه على عدة من رؤساء الكرد وعلمائهم. ولا سيما أن اثنين منهم كانا من أساتذة التاريخ، فأوصل أحدهما أصل الكرد ومنشأهم - برواية مضطربة وسند ضعيف - إلى "كرد بن عمرو القحطاني"، وجعل الآخر أصل الكرد منحدراً من سلالة جني من الجان يدعى "جاساد".

لقد تألمت حقاً لسخف هذين الجوابين، فآليت على نفسي بأن أقوم بتحقيق هذه المسألة العويصة، فأحل هذا اللغز التاريخي بنفسي.

وقد رغب بعض الأصدقاء في أن أضع مؤلفاتي هذه إما باللغة العربية أو باللغة التركية. ولم أفعل، ولو فعلته لكان ذلك مني حقاً عملاً غير وجيه، إذ ليس من اللائق أن يضع مؤلف كردي تاريخ الكرد وكردستان - الذي لم يؤلفه إلا للكرد أنفسهم - بلغة غير لغة قومه.